جورج أورويل

1984

رواية





ترجمة : شفيق أسعد فريد
عبد الحميد محبوب
مراجعة : عبد الرحيم رشوان

مكتبة
Telegram Network
2020
«المكتبة النصية»
قام بتحويل رواية:
(رواية 1984)
«لـ « جورج أورويل
إلى صيغة نصية:
(فريق الكتب النادرة)
تنسيق
محمد ماهر - مصر

1984

رواية جورج أورويل

ترجمة شفيق أسعد فريد

آفاق للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 26815 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-765-081-6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher

. Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb CAIRO- EGYPT

Tel: 00202 25778743- 00202 25779803

Mobile: +202-01111602787

E-mail:afaqbooks@yahoo.com

www.afaqbooks.com

1 شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ت: 00202 25778743 - 00202 25779803

موبايل: 01111602787

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية أورويل، جورج.

جورج أورويل: 1984 - رواية- ترجمة: شفيق أسعد فريد ط1 القاهرة- دار آفاق للنشر والتوزيع- 2017 448 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 26652 / 2016

الترقيم الدولي 6 - 081 765- -977- 978 1 - الأدباء 2 - أورويل، جورج هذه ترجمة رواية:

Nineteen Eighty-Four by George Orwell

تقديم

آخر ما كتب «جورج أورويل» في أواخر عام 1948... ويمكن أن يقال إنها 1984 نفثة مصدور... مصدور ضُيِّقَ عليه الخناق وشعر بقرب منيته... مصدور عركته الدنيا وعركها وجاب آفاقها فَخُبِّر حلوها ومرها.

لعل أكثر المصريين الذين كانوا معنا في بلاد الإنجليز في الأعوام التي تلت نهاية الحرب العالمية الأخيرة، وكانوا يهتمون بحلقات المناقشة وندوات البحوث- التي كانت إدارة المعهد المصري بلندن تقيمها هناك- لعل إخواننا هؤلاء يذكرون جورج أورويل واشتراكه في حلقات البحث وندوات مناقشة النادي مع باقي المصريين والإنجليز... لعلهم يذكرون الآن هذا الإنجليزي ذا القامة الطويلة المديدة والصوت الثاقب الذي كان يبعث على الضيق به... لولا أنه كان يعرف ما يقول، ويقول ما يعرف.

كانت حياته القصيرة مليئة بالتجارب والتجاوب، فقد ترك بلاده في سن العشرين بعد أن أتم دراسته بكلية أيتون، فخدم في قوات البوليس في بورما خمس سنوات، خمس سنوات طوالًا كان لها أسوأ الأثر في صحته... فقد ناله من جو هذه البلاد ما عجل بظهور علته، علة السل، فرأى الاستقالة.. ومن ثم سافر إلى باريس، وأعانه معاشه من الحكومة البريطانية عن سابق خدمته في بورما على أن يبقى بها نحو سنتين، فعكف على كتابة القصص الطويلة والقصيرة، تلك القصص التي لم تجد من يتولى نشرها!! وطبقًا لنصوص القانون وقف عنه معاشه وعضه الجوع بأنيابه، فعرف الفاقة وعرف الحاجة، فكان يقبل أي عمل يعرض عليه. ومن الأعمال التي مارسها ليكسب قوته، خدمة المطاعم في غسل الأواني والصحون، ثم اشتغل بالتعليم في مدرسة أهلية، ثم عمل بائعًا في مكتبة من المكتبات، وقد أكسبته جميع هذه الحرف خبرات كان لها أثرها، فقد ظهرت تجاريبه في مؤلفاته وتجلّت في مقالاته، مما كشف عن مدى تعمقه وخبرته..

وكباقي تراجم الكُتَّاب والشعراء تتم الصورة التي نرسمها بأن نقول إن الحظ قد تبسم له أخيرًا، بل وأخيرًا جدًّا، فوجد من يعنى بنشر قصصه ومقالاته؛ ليدر عليه ذلك من المال ما يكفي للعيش في الريف الإنجليزي... فعكف على الكتابة وظهرت له في هذا الوقت «أيام بورما»، «وابنة القسيس» وغيرهما.

واستفاد بخبرته السابقة كعامل في المحلات التجارية، ودفعه الميل الغريزي إلى الحرفة البريطانية الخالدة «المتاجرة» إلى أن يدير حانة لحسابه الخاص، ثم يقوم على تربية الدواجن، وأخيرًا يؤسس متجرًا صغيرًا، ويتحدث كثيرون عن مبلغ نجاحه كرجل أعمال موفق.

ثم كان أن ذهب إلى إسبانيا؛ ليرقب عن كثب المعركة التي كانت قائمة وقتذاك (1936) من أجل الديمقراطية، ولم تدم مراقبته عن كثب طويلًا، إذ سرعان ما جذبته إليها وأصبح من المناضلين في ساحة القتال، وخرج من هذه الحروب بنتيجة مهمة، وهي أن المحاربين قد نجحوا حقًّا وصدقًا في قتل الديمقراطية الصحيحة.

وتمكن صاحبنا من أن يترك إسبانيا بحروبها وقتالها... إلا أنها كانت نقطة تحول في حياته، فعندما اشترك في هذه الحروب لم يكن إلا كاتبًا يافعًا يحاول أن يكسب معاشه لا أكثر... أما الآن وقد رأى ما رآه من إهدار لكرامة الإنسانية، ومن نفاق زعماء الحروب وتجار الأسلحة وما شاهده في حياة الخنادق وحياة الجنود من صور للنبل والتضحية... رأى ما رآه من سياسة الدول الكبيرة وتلونها تلون الحرباء... رأى ما رآه من كل هذا وأكثر من هذا،

أصبح واثقًا من قدرته على القيادة أو على الأقل قدرته على أن يكتب كتابة تقوم على أساس الواقع والمشاهدة والتجربة، فيصبح مرشدًا ودليلًا يكتب عن خبرة في عالم السياسة.. وخاصة السياسة في قارة أوروبا.

عاد إلى بلاده ليكتب روايته المعروفة: «الخروج من الأعماق لاستنشاق الهواء» وتكهن فيها بآرائه السوداء عن حرب واقعة، ما في ذلك شك أو ريب، وكان أن وقعت الواقعة وقامت الحرب العالمية الأخيرة... وتقدم للجندية، ولشد ما كانت صدمته عندما رُفض لعدم لياقته طبيًّا.. فاتجه بنشاطه إلى القسم الهندي في الإذاعة البريطانية.

وتوفر على عمله بعقله وقلبه جاهدًا جهد المستميت؛ لإفادة الهنود من الإذاعة التي كانت توجه إليهم، كما عمل على رفع مستوى هذه الإذاعة ومضاعفة عدد السامعين لها. وفي أثناء السنوات الأخيرة من عمله هذا، عاد إلى الكتابة، هوايته التي كانت حبيبة إلى نفسه، فأخرج درته المعروفة «مزرعة الحيوان» [وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ عباس حافظ] وقد در عليه كتابه هذا من المال والثروة والصيت الشيء الوفير.. وهنا تضاعفت علته، ورغم ذلك ورغم نصائح الطبيب، فإنه لم يعط لبدنه حقه عليه، فكان يهجر فراشه لكي يرضي شغفه بالكتابة، كان كمن يلهبه الشعور بأن يقاتل، يقاتل في معركة ما، وأخيرًا خرّ صريعًا في الميدان قبل نهاية المعركة.

استشرت علته وتجلى خطرها عندما كان يؤلف كتابه الذي نقدم له «1984»، كان يقاتل في ميدانين ويعمل في جبهتين: ميدان صحته الذي كان يقضي بألا يبذل جهدًا فوق طاقته، وواجبه نحو تحذير بلاده- كما كان يقول- تحذيرها من خطر داهم، أوضحه في كتابه هذا، ذلك هو خطر تلاشي الاشتراكية الإنجليزية وانهيارها، وكان هو أحد أعضائها، لكنه انهار قبل أن يرى حلم ليلة من ليالي صيفه يتحقق أو لا يتحقق.

هذه صورة سريعة خاطفة لحياة الرجل، ولا غرابة إذا قلنا إن الحياة التي اختلفت ألوانها والتي عاشها الرجل، وما قاساه من آلام وما صادفه من شقاء واعتلال، كل هذا أضفى على كتبه، وخاصة الأخيرة منها في سنة 1984 سحابة قاتمة، وبالأخص في وصفه المعتم لألوان التعذيب والشقاء، هذا فوق أنها- أول كل شيء وقبل كل شيء- قد جعلت منه مفكرًا على الرغم منه، مفكرًا قاتمًا، يرى الشر قبل وقوعه، وتدفعه أريحته ونفسه الطيبة إلى أن يحذر منه، سواء أكان هذا الشر قد قطع بوقوعه، أو لم يكن سوى سحابة صيف صورتها آلام نفسه وقسوة علته، وهول ما رآه في حياته وتجاريبه.

يخيل إلينا أنه أراد بكتابه سنة 1984، أن يقرر أن الاشتراكية الإنجليزية بوضعها الحالي، إن هي إلا مظهر من مظاهر الحكم الفردي الطاغي، ذلك النوع من الحكم الفردي الذي لا يتردد في القضاء على تفكير المرء وروحه، كما يعمل عمال ذلك النظام والقائمون عليه، على تهديد أتباعه بإفساد روحهم وإلغاء عقولهم.

وسوف يرى القارئ أن الرواية تقوم أول ما تقوم على «فكرة» لا على «أشخاص»، وأن الأشخاص إن هم إلا أبواق تنقل إلى القراء ما يدور في ذهن المؤلف وما يجيش في نفسه.. وإذا عرفنا أنها كذلك، فلا غرابة والحال هذه أن نجدها صورة قاتمة يغشاها الظلام من جميع حواشيها.

رأى أورويل أن الأحزاب أو الهيئات السياسية تسعى إلى دوام حكمها واستقراره، ومنها الأحزاب والهيئات الاشتراكية الإنجليزية، فأراد أن يحذر القائمين على الأمور، فجاء كتابه 1984 يصف تلك الصورة القاسية التي كانت تتمثل في ذهنه لنظام الحزب الاشتراكي وما يجري في داخله من أعمال الإرهاب والتعذيب، ثم تصور ما سيكون عليه الحال مستقبلًا إذا

سارت الأمور كما كانت تسير في هذه البلاد.

وسيرى القارئ كيف يصور أورويل العالم في سنة 1984 وقد قسم إلى دول ثلاث كبيرة أوشانيا [وتكون بريطانيا جزءًا منها، وكانت تسمى المنطقة الجوية رقم 1] وكانت دولة أوشانيا هذه في حرب دائمة مع إحدى الدولتين الأخيرتين أوراسيا أو استاسيا، ولم يكن يكن أهالي المنطقة الجوية رقم 1 على بينة من أمر هذه الحروب، ولم تعنيهم هذه الحروب في كثير أو قليل، بل أكثر من هذا وذاك، كان الأهالي لا يعرفون إذا كانت دولتهم على حرب مع أوراسيا أو استاسيا.

وتشمل دولة أوشانيا هذه الأمريكتين، بما في ذلك الولايات المتحدة قديمًا والإمبراطورية البريطانية القديمة.

أما أوراسيا فتشمل روسيا القديمة وباقي دول أوروبا.

أما استاسيا فتشمل منغوليا والصين وجنوب آسيا وشرقها.

صور لنا أورويل عالم سنة 1984 عالمًا مشحونًا، تسيطر عليه حرب دائمة.. حرب تشغل الناس عن التفكير في انتزاع السلطة من أيدي حكامهم.. حرب تشغل الناس عن التفكير في بؤسهم المعيشي، وما يعانونه من نقص في الغذاء... فعاشوا على غذاء آخر... غذاء من الدعاوى الحزبية الرتيبة، دعاوى شملت كل شيء ودخلت كل شيء، دعاوى قضت على أولى مبادئ الحرية، قضت بجرة قلم على الماضي والحاضر والمستقبل معًا، إلا ما رأت هيئة الحزب أن يكون... فإنه يكون؛ لأن الحزب يهيمن على كل شيء، حتى على مجرد تفكير الإنسان، فقد استعان بقوى شيطانية وبجهاز استطلاع دقيق عميق أطلق عليه «بوليس الفكر» يستشف الأفكار، وعاشت الطبقة العاملة في هلع وفزع، الكل يرقب ويتلصص، حتى الطفل يرقب والديه ليشي بهما، هذا عدا الستار الناقل، الذي وضع في المنازل والأمكنة العامة؛ لينقل إلى المسئولين كل حركة وكل كلمة تصدر من أعضاء الحزب.

أما النظم التي كان يتشدق بها العالم قبل وقوع حوادث الكتاب من ديمقراطية وشيوعية اشتراكية، فقد ذهبت واندثرت دولتها في دولة أوشانيا، كما تلاشت منها معاني الحرية والعدل، وقام الحزب الذي كان بيده السلطة على هدم تلك المبادئ، وأصبحت البلاد تخضع لإرادة زعيم الحزب «الأخ الأكبر» وإرادة أعوانه.

وهكذا تلاشت الحياة الحقّة، وتلاشت العلاقات العائلية، فلا أبوة ولا أمومة. الكل في رعب وهلع، والكل يخشى أن يشي به بنوه، أو يكشف عنه الستار الناقل أو بوليس الفكر؛ فتكون نهايته أليمة عجيبة.

وكان همّ السلطات المسئولة في الأعوام التي تشير إليها القصة، هو إخضاع الجميع للسلطة المطلقة إخضاعًا شاملًا كاملًا، وحتى الأفكار التي قد تجد لها سبيلًا ما للتسرب إلى أذهان أعضاء الحزب، أو جمهور الشعب، وجدت السلطات ما يعينها على كشفها- إلى حد كبير- كما أشرنا.

وكان ونستون يعمل في وزارة الصدق مزيفًا للأخبار، وكانت هذه الوزارة إحدى الوزارات الأربع التي تتكون منها حكومة المنطقة الجوية رقم 1، وكانت تختص بإذاعة الأخبار «المطبوخة» والأكاذيب المخبولة، وتزييف الأخبار السالف إعلانها، ثم كانت وزارة السلم وتختص بالحروب! ووزارة الحب وتختص بالتعذيب، ووزارة الرخاء، وتختص بالتقتير في الأقوات وسد العجز فيها عن طريق الإذاعات واختراع أطعمة أو مشروبات لا يستسيغها حتى الحيوان.

ضاق ونستون هذا بالحزب وتعاليمه ورسالته، إلا أنه لم يكن بالقوة التي تقهر الحزب، ولم يكن بالشخصية التي تقود. ولم يكن بطلًا من أبطال الروايات أو الثورات، بل كان شخصًا عاديًّا، رأى الضلال ورأى الزيف الذي يقوم به هو كجزء من عمله في الحزب ليقضي على الماضي، وليعد للشعب الغذاء المسموم من الدعاية الرتيبة، فهاله ما يعمل، واستبد به النقاش بينه وبين نفسه، فأراد أن يصل إلى الحقيقة.

ولكن كيف يصل إليها بعد أن امتد تزييف الحزب إلى كل شيء... وعاش الناس آلات مسخّرة لا ماضي لها ولا حاضر ولا مستقبل، لا قيمة للمشاعر الإنسانية والأحاسيس البشرية، أخذ الحزب الشعب بمبادئ القسوة والتعذيب، وأنشأ بين الأطفال جيلًا جديدًا يلقن مبادئ الحزب ويرضعها ويقوم على ما يقدم له من غذاء.

أراد ونستون الهروب من حياة هذا شأنها، متحديًا تعاليم الحزب وقواعده، فواتت له فرصة يستمتع فيها بحرية فردية شخصية، فقابل فتاة من أعضاء الحزب، فمارسا الحب معًا، وما كان لهما أن يتزوجا؛ لأسباب حزبية، أما أفراد الشعب فكانوا يتزاوجون لغرض واحد هو إنجاب الأطفال، بشرط أن تكون العملية الجنسية مجردة من كل عاطفة، بعيدة عن كل متعة ولذة. أراد ونستون أن يأتي عملًا إدّا، أن يكتب مذكراته بعيدًا عن الستار الناقل اللعين، بعيدًا عن أعين الرقباء، إذ كان هذا العمل جريمة لا تغتفر، وقد شرع في ذلك فعلًا.

خُيل إلى صاحبنا أنه قد اطمأن إلى أحد أعضاء الحزب الداخلي، وأن هناك رابطة ما تجمعهما، هي رابطة الثورة على الحزب ومقت طرائقه وتعاليمه، ويسر له هذا الزعيم أن يتمادى في ظنه، وأمده بكتاب يعزى إلى زعيم سابق للحزب أصبح موضع السخط وموضع اللعنة، فاختلى ونستون وفتاته بالكتاب في غرفة، كانا قد استأجراها لمتعتهما الجنسية، وهناك قرأ ونستون في الكتاب عن مؤامرة سرية ضد الحزب، وقرأ فيه، أهم من كل هذا، تصويرًا دقيقًا رائعًا للمبادئ السياسية التي كانت قائمة قبل أن يتسلم الحزب مقاليد السلطة، قرأ عن الأهداف والمبادئ التي كانت تقوم عليها الديمقراطية والشيوعية والنازية والاشتراكية، قرأ كيف كان القوم يصورون الحرية والعدل تصويرًا يتفق مع أهدافهم ورسالتهم، قرأ عن فلسفة الإيمان وفلسفة المبادئ، قرأ عن الديمقراطية الحقة التي ينبثق منها نور الحرية وأمل الإنسانية وضمان العزة والكرامة، وكانت هذه العجالة من أفضل ما كتب في هذه الأمور.

قلنا إن ونستون أراد أن يصل إلى الحقيقة، فوصل إليها على أنقاض جسمه وذهنه وروحه، طاب له أن يستمتع باللذة الجنسية وبالمتعة الذهنية: الأولى بالاختلاء بفتاته، والثانية بالاختلاء بالكتاب، الذي زعموا له أنه عن عدو العهد الزعيم المختفي، طاب له الاستمتاع بكليهما في وقت واحد في غرفته، التي ظن أنها بعيدة عن الرقباء، إلا أن ظنه قد خاب، فقد كان في غرفته مراقبًا، إما من الأجهزة اللعينة أو من العيون الساهرة المتيقظة، التي يجيد الحزب توجيهها إلى ضحاياه، وكان قد عرف عنه الخروج على المبادئ القدسية، وعرف عنه أنه يفكر، وفي هذا ما يكفي لإدانته، عرف عنه أنه توّاق إلى معرفة الحقائق الخالية من زيف الحزب، فوصل إلى الحقيقة، وصل إليها على أشلاء جسمه وذهنه وروحه، صرعه الحزب في النهاية بأجهزته وعدده وآلاته، فلقي من التعذيب ألوانًا فذّة لم تر القرون الوسطى مثلها، وطهره الحزب من علله وآثامه في النهاية، وعالجه من الانحراف الذي ألم به؛ فأصبح إنسانًا وما هو بإنسان ولا شبيهًا بالإنسان، وذهب البطل وذهبت معه بطولته، مع أنه ترك ليعيش ويهتف باسم الأخ الأكبر ويذكر أنه يحبه ويهواه!!

أعقب أورويل كتابه هذا بملحق اللغة الجديدة New Speak وهي اللغة الرسمية لدولة أوشانيا، والتي ابتدعها الحزب؛ ليبعد عن أعضائه الوقوع في المعاصي بالتفكير فيما

لا يحلّه الحزب، فوجد أن خير وسيلة لهذا هو تحديد الكلمات وجعلها مقصورة على حاجات الحياة، عاجزة عن حاجات الفكر، ونستطيع أن نقول إن هذا الملحق كان خير ما كتب أورويل، وما دلّ على عبقريته وتفكيره، وعلى سمة البحث والتقصّي العلمي التي امتاز بها.

وهكذا ينتهي هذا الكتاب الممتاز الذي احتل مكانه في الأدب السياسي الإنجليزي الحديث.

عمل هذا الكتاب بجانب كتاب «مزرعة الحيوان»، التي أشرنا إليه في مستهل الكلمات على الإعلام عن أورويل وعلى الاهتمام به وبكتبه، فأصبحنا نقرأ له لصراحته في معالجة الأمور، وترك نفسه على سجيتها تصف دون تضييق أو تزويق، ولا عجب في أن يصدر ذلك عن أورويل الذي عاش انفراديًّا في مجتمع مدني، ووهب حياته للدفاع عن الحرية، فقد آمن وصدق أن واجب الكُتَّاب في مجتمع يغرق في السياسة، هو الوقوف إلى جانب الحرية ونصرتها. ولا نجد ما نختتم به كلماتنا هذه، أفضل من أن نسجل هنا عبارته هو: «إن كل سطر كتبته منذ سنة 1936 كان موجهًا بطريق مباشر أو غير مباشر ضد الطغيان والطغاة، كما هو لنصرة الاشتراكية الديمقراطية كما أفهمها».

الجزء الأول

الفصل الأول

كان ذلك في يوم من أيام شهر أبريل الباردة، وما كادت الساعة تدق معلنة الواحدة بعد الظهر حتى كان (ونستون سميث) يسرع خطاه، وقد خفض ذقنه فوق صدره محاولًا اتقاء شدة الريح. ثم تسلل على عجل من باب مبنى «النصر» الزجاجي، ولكن سرعته تلك لم تمنع الريح من أن تقذف خلفه بدوامة من الغبار دخلت المبنى معه.

وكانت رائحة الكرنب المسلوق والسجاد البالي تملأ الردهة، وعند نهاية هذه الردهة علقت صورة كبيرة ملونة فوق الجدار، صورة كبيرة بشكل غير مألوف بالنسبة للصور التي تعلق بداخل المنازل، وكانت تحتوي على وجه ضخم يزيد عرضه على متر: وجه رجل في حوالي الخامسة والأربعين من العمر، له شارب أسود غزير، وتقاطيع وجه جذابة، رغم ما يبدو من خشونتها.. مضي ونستون إلى الدرج لأنه كان يعلم ألا جدوى من محاولة استعمال المصعد؛ لأنه يكون معطلًا في أغلب الأوقات، ثم إن التيار الكهربائي كان يقطع وقتذاك إبان النهار اقتصادًا في الطاقة الكهربائية واستعدادًا «لأسبوع الكراهية». وكانت شقة ونستون في الطابق السابع، ولما كان الرجل في التاسعة والثلاثين من عمره، وكان يعاني من تصلب فوق مفصل قدمه اليمنى، فقد راح يرتقي الدرج على مهل، وهو يحرص على الاستراحة بين الحين والحين. وكانت صورة الوجه الضخم تحملق من فوق الجدار عند كل طابق، وأمام المنور الصغير. كانت هذه الصورة من الصور التي ترسم بطريقة خاصة تجعلك تتوهم أن عينيها تتبعانك أينما تحركت. وقد كتب أسفل الوجه عبارة «الأخ الأكبر يراقبك».

وعندما دلف ونستون إلى شقته سمع صوتًا ناعمًا يقرأ أرقامًا تتعلق بإنتاج الحديد الخام، وكان الصوت يصدر عن لوحة معدنية مستطيلة الشكل تبدو وكأنها مرآة قديمة تؤلف جزءًا من سطح الجدار القائم إلى اليمين، وأدار ونستون مفتاحًا كهربائيًّا، فخفت الصوت قليلًا، إلا أن الكلمات ظلت مسموعة يسهل تمييزها.

ولقد كان بوسعه أن يخفض صوت الآلة (التي كان يطلق عليها اسم تلسكرين أو الستار الناقل للصوت والحركة) ولكنه لم يكن يملك وسيلة تمكنه من وقف عملها تمامًا. وتقدم من النافذة. كان رجلًا قصير القامة هزيل البنية، ومما زاد ضآلة جسمه ظهورًا ذلك الزي الأزرق «الأفرول» الذي كان يرتديه وهو الزي الرسمي للحزب، وكان شعره جميلًا جدًّا، ووجهه شديد الاحمرار بطبيعته، وبشرته خشنة من تأثير استعمال الصابون الرديء والشفرات غير الحادة والماء البارد في فصل الشتاء، ذلك الشتاء الذي كان قد انقضى في ذلك الحين.

وتطلع ونستون إلى الخارج خلال زجاج النافذة المغلقة، فبدت الدنيا باردة، وكانت الريح تكتسح الشارع في دوامات صغيرة تحمل الغبار والأوراق الممزقة، ومع أن الشمس كانت ساطعة والسماء تكتسي ثوبًا أزرق قاتمًا، إلا أنه كان يبدو أن كل شيء قد فقد لونه، اللهم إلا تلك الصور التي كانت معلقة في كل مكان، ففي كل ركن كان ذلك الوجه ذو الشارب الأسود يطل من عليائه محملقًا فيمن يعبرون الطرقات. وكانت هناك صورة من هذه الصور مثبتة فوق جدار المنزل المواجه، ورآها صاحبنا ونستون كما رأى الكلمات المكتوبة تحتها بأحرف بارزة «الأخ الأكبر يراقبك» بينما كانت العينان السوداوان الثاقبتان في تلك الصورة تتغلغلان إلى أعماقه.

وفي الناحية الأخرى من الشارع كانت هناك ملصقة أخرى معلقة، وقد انتزعت الريح

جزءًا منها، فأخذ يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال يغطي ويكشف عن كلمة واحدة هي أنجسوك (الحزب الاشتراكي الإنجليزي). وفي الأفق البعيد كانت تحلق طائرة هليكوبتر وتطير بين أسطح المنازل، وتحوم حولها لحظات، وكأنها زجاجة زرقاء اللون، ثم اندفعت مبتعدة في حركة دائرية، كانت هذه الطائرة تحمل «دوارية» البوليس التي يتلصص أفرادها على الناس من نوافذ منازلهم، ومع ذلك لم يكن الناس يخشون هذه الداوريات خشيتهم من داوريات بوليس الفكر.

وخلف ونستون، كان الستار الناقل ما يزال يثرثر عن إنتاج الحديد الخام وعن تنفيذ مشروع السنوات الثلاث. وكان هذا الستار يستقبل ويرسل في وقت واحد، ولذلك كان في إمكانه أن يلتقط أي صوت قد يصدر عن ونستون، إذا تجاوز الهمس المنخفض، وفوق هذا، فإن أية حركة يأتي بها وهو بداخل نطاق رؤية الجهاز كانت تسجل وتنقل. وطبيعي أن الإنسان لم يكن يعرف ما إذا كان مراقبًا في أية لحظة معينة أم غير مراقب. كما أنه لا يعرف أيضًا متى يصل بوليس الفكر جهازه اللاقط بجهازه الناقل ليرقب حركاته وسكناته، وإن كان من المعروف أن بوليس الفكر يراقب كل شخص في جميع الأوقات، ومن ثم فإن في استطاعته أن يصل جهازه اللاقط بجهازك الناقل كلما رغب في ذلك. فإذا قدر لك أن تعيش- وإنك لتعيش فعلًا بحكم العادة التي أصبحت غريزة- فإن عليك أن تفترض أن كل صوت يخرج منك يسمعه بوليس الفكر، وكل حركة تأتي بها تسجل عليك، اللهم إلا إذا أتيتها في الظلام.

وقف ونستون موليًا ظهره للستار الناقل، وبقي كذلك؛ لأنه يعلم أن هذا الوضع أسلم عاقبة، ولو أن الظهر يمكن أيضًا أن يكشف عن حركاته، وعلى مسافة كيلومتر واحد من شقته، كانت تقوم وزارة الصدق الشامخة البيضاء التي يعمل بها. وقال لنفسه في تلك اللحظة، وفي شيء من الضيق، إن تلك هي لندن أكبر مدينة في المنطقة الجوية الأولى وثالث المدن ازدحامًا بالسكان في أوشانيا «OCEANIA» وحاول ونستون أن يقدح زناد فكره ويعتصر ذاكرته؛ لعله يستطيع استرجاع ذكريات طفولته عن مدينة لندن؛ ليعرف ما إذا كانت هذه المدينة في طفولته كما يراها الآن. وتساءل، هل كانت لندن فيما مضى مكتظة بالمنازل القديمة من طراز القرن التاسع عشر، وهل كانت هذه المنازل تبدو حقيرة كئيبة، وقد دعمت جوانبها المتداعية بألواح خشبية، وسدت نوافذها بالورق المقوى، بدلًا من الزجاج، وتقوست حاملات أسطحها الحديدية، وتمايلت جدرانها في جميع الاتجاهات مثلما هي الآن؟ وهل كانت المدينة تغص بالأكواخ الخشبية التي قامت على أطلال المنازل التي دمرتها القنابل، وكأنها بيوت الدجاج؟ وعبثًا حاول أن يتذكر شيئًا ما، فإنه لم يبق في ذاكرته من ذكريات الطفولة إلا بعض حوادث عابرة ما زال يتذكر القليل منها، ولو أنها لم تكن في أغلب الأحايين واضحة تمامًا، وكانت وزارة الصدق تختلف عن كل شيء آخر تقع عليه العينان.

كانت بناء ضخمًا هرميًا من الأسمنت المسلح الأبيض تناطح السحاب، ويرتفع البناء شرفة فوق شرفة إلى ارتفاع ثلاثمائة قدم في أجواز الفضاء. وحيث وقف ونستون كان في الإمكان قراءة شعارها المكوّن من ثلاث جمل مكتوبة بحروف بارزة فوق الواجهة بيضاء اللون:

الحرب سلم الحرية عبودية الجهل قوة وقد قيل إن وزارة الصدق تحتوي على ثلاثة آلاف غرفة فوق سطح الأرض بالإضافة إلى الأقبية الموجودة تحت الأرض. كانت هناك ثلاثة أبنية شبيهة ببناء وزارة الصدق- من حيث المظهر والحجم- في جهات مختلفة في لندن، وكانت الأبنية المحيطة بها تبدو كالأقزام بالنسبة إلى المارد، وذلك كان في استطاعة المرء أن يرى الأبنية الأربعة من فوق سطح بناء النصر. ولقد جعلت هذه الأبنية الأربعة

مقارًا للوزارات الأربع التي قسم الجهاز الحكومي بينها: وهي وزارة الصدق التي كانت تختص بالأنباء، والتعليم، والفنون الجميلة، ووزارة السلم التي كانت تختص بالحرب، ووزارة الحب التي كانت ترعى شئون القانون والنظام، ووزارة الرخاء المسئولة عن الشئون الاقتصادية. أما أسماؤها باللغة الحديثة فهي:

MINITRUE, MINIPAX, MINILUV and MINIPLENTY وكانت وزارة الحرب مخيفة جدًا إذ كانت خالية تمامًا من النوافذ، ولم يسبق لونستون أن دخل هذه الوزارة أو وقف على مسيرة نصف كيلومتر منها؛ لأنها مكان يستحيل دخوله إلا في مهمة رسمية، وإذا سمح لإنسان بالدخول فإنه يخترق عدة حواجز من الأسلاك الشائكة والأبواب الفولاذية وأوكار المدافع السريعة الطلقات التي أخفيت عن الأعين، وحتى الطرقات المؤدية إليها وإلى حواجزها الخارجية كانت تغص بالحرس الذين تشبه وجوههم وجه الغوريلا، وهم يرتدون البزة العسكرية سوداء اللون ويتسلحون بالهراوات الضخمة.

وانثنى ونستون متطلعًا وراءه بغتة، واكتسى وجهه طابع التفاؤل إذ إنه كان من المستحسن أن يفعل المرء ذلك حينما يواجه الستار الناقل، وعبر الغرفة متجهًا إلى المطبخ الصغير؛ لأن انصرافه في هذا الوقت من النهار كان معناه التضحية بوجبة الغذاء في مقصف الوزارة. وكان يعلم أن مطبخه خلو من الطعام، اللهم إلا بعض كسر من الخبز الأسود كان قد حصل عليها واحتفظ بها لطعام إفطاره في صباح اليوم التالي، والتقط من فوق الرف زجاجة تحتوي على سائل لا لون له أُلصقت عليها بطاقة بيضاء تحمل هذه الكلمات «جن النصر»، وكانت تنبعث منها رائحة كريهة أشبه برائحة الزيت مثل خمر الأرز الصيني. ومع ذلك فقد ملأ ونستون قرابة فنجان شاي من هذا السائل، واستعد لتلقي مصيبة، ثم تجرع ما في الفنجان دفعة واحدة وكأنه يتجرع دواء.

وفي التو اكتسى وجهه باللون القرمزي، وانسالت الدموع من عينيه، فقد كان الشراب شبيهًا بحامض النتريك، والأدهى من ذلك أنك ما تكاد تجرعه حتى تشعر وكأنك أصبت بضربة هراوة ساحقة فوق مؤخرة رأسك، إلا أن النار التي اشتعلت في جوفه لم تلبث أن خبت، وبدأت الدنيا تبدو أكثر بهجة وحبورًا، وعندئذ أخذ لفافة تبغ من علبة كتب عليها «سجائر النصر»، ورفعها عمودية بلا حذر، فتساقط التبغ منها على الأرض، فأعاد الكرّة، فكان أكثر نجاحًا في هذه المرة. ثم عاد إلى غرفة الجلوس، وجلس أمام منضدة صغيرة مثبتة إلى يسار الستار الناقل، وأخرج من درجها قلمًا ومحبرة وكراسة سميكة ذات غلاف بلون الرخام، أما ظهر الكراسة فكان أحمر اللون.

ولسبب ما كان وضع الستار الناقل في غرفة الجلوس غير عادي، فبدلًا من أن يثبت عند نهاية الجدار حيث يمكنه الإشراف على الغرفة كلها، فقد ثبت فوق الجدار الكبير المواجه للنافذة، وكانت إلى أحد جانبيه فجوة غير عميقة كان ونستون يجلس فيها في تلك اللحظة، ولعله كان المفروض- حينما وضع تصميم البناء- أن تثبت بها أرفف الكتب، ومن ثم فإن جلوس ونستون في هذه الفجوة كان خليقًا بأن يجعله بعيدًا عن نطاق رؤية الستار الناقل، ومع أنه من الطبيعي أن ينقل الستار أي صوت يصدر عنه، إلا أن وضعه هذا كان كفيلًا بعدم رؤيته. ولقد كان تصميم الغرفة غير العادي هو الذي أوحى إليه جزئيًا بذلك العمل الذي كان يتهيأ للقيام به في تلك اللحظة.

ولكن الكراسة التي أخرجها من درج المنضدة كان لها أيضًا دورها في هذا الإيحاء.. كانت كراسة جميلة المنظر، أوراقها ناعمة وإن كان لونها قد اصفرّ قليلًا بمضي الزمن. كانت من ذلك الطراز الذي لم يصنع منذ أربعين سنة على الأقل، ومع ذلك فقد كان في استطاعته أن يتكهن بأن عمر الكراسة أطول من ذلك كثيرًا. لقد رآها في واجهة حانوت صغير عتيق في حي من الأحياء الحقيرة بالمدينة (ولكنه لا يستطيع أن يذكر اسم هذا الحي الآن). وما

كاد بصره يقع عليها حتى شملته رغبة جارفة لامتلاكها. ولقد كان المفروض ألا يتردد أعضاء الحزب على الحوانيت العادية («التعامل في السوق الحر» كما كان يطلق عليه). ولكن هذه القاعدة لم تكن تراعى بدقة؛ نظرًا لأن هناك أشياء مختلفة كأربطة الأحذية وشفرات الحلاقة من المستحيل على الإنسان أن يحصل عليها بغير هذه الطريقة. وقد تلفت ونستون حوله بحذر، فلما اطمأن إلى خلو الطريق من المارة، تسلل إلى الحانوت وابتاع الكراسة بدولارين ونصف، ولم يكن يدري في ذلك الحين لماذا اشتراها؟ أو ما هو الغرض الذي سيستعملها فيه؟ ومع ذلك فقد حملها في حقيبة أوراقه إلى المنزل وهو يشعر بأنه قد ارتكب إثمًا، فقد كان مجرد امتلاكها يُعدّ عملًا غير مشروع، رغم أنه لم يكن بها أي شيء مكتوب.

كان الشيء الذي يهم بعمله هو البدء بتسجيل مذكراته اليومية، ولم يكن ذلك أمرًا غير مشروع في أوشانيا (لا يعتبر أي عمل غير مشروع ما دامت جميع القوانين قد أصبحت في خبر كان). ولكن إذا اكتشف أمرك، فإن مصيرك الإعدام حتمًا أو السجن لمدة خمسة وعشرين عامًا في معسكر من معسكرات العمل الإجباري على أقل تقدير. وغمس ونستون (ريشته) في المداد وتأملها قبل أن يشرع في الكتابة؛ لأن استعمال المداد أصبح نسيًا منسيًا بعد أن ظهرت آلة تسجيل الكلام التي كان من المستحيل عليه أن يستعملها في ظرفه الراهن. وتردد لحظة، وسرت القشعريرة في جسده، ثم بدأ يكتب بحروف صغيرة غليظة:

4 أبريل 1984 وتراخى في مقعده، وسيطر عليه شعور بالعجز. كانت أول مشكلة واجهته هي أنه لا يعرف على وجه التحقيق أن السنة كانت عام 1984- ولكن لا ريب أن الوقت كان قريبًا من هذا التاريخ؛ لأنه كان يعتقد أنه ولد في عام 1944 أو 1945، فقد كان من المستحيل في هذه الأيام تحديد التواريخ بالضبط.

وفجأة تساءل: لمن يكتب هذه المذكرات؟ هل يكتبها للمستقبل أو للأجيال التي لم تولد بعد؟ وسرح تفكيره لحظة حول التاريخ المشكوك فيه والذي أثبته على الصفحة الأولى. وسرعان ما ارتسمت أمام ناظريه الكلمة الجديدة التي ابتدعتها اللغة الحديثة: كلمة «التفكير المزدوج». ولأول مرة أدرك مدى خطورة المشروع الذي أقدم عليه. كيف يستطيع الإنسان الاتصال بالمستقبل؟ إن هذا العمل مستحيل في حد ذاته، فإما أن يكون المستقبل شبيهًا بالحاضر، وفي هذه الحالة لن يعيره أذنًا صاغية، أو أن يكون مغايرًا له، وعندئذ تكون نبوءاته ليست بذات موضوع.

وقضى لحظات وهو يحملق في الورقة بغباء، وكان الستار الناقل قد توقف عن إذاعة الأرقام وبدأ يذيع موسيقى عسكرية صاخبة، وتولته الدهشة عندما تبين أنه لم يفقد القدرة على التعبير عما يجول بخاطره فحسب، وإنما نسي أيضًا ما كان يعتزم قوله بادئ الأمر. لقد مضت عليه أسابيع وهو يعد العدة لهذه اللحظة، ولم يخطر بباله إطلاقًا أنه سيحتاج إلى شيء غير الشجاعة، فإن الكتابة سهلة في حد ذاتها، وما عليه إلا أن ينقل إلى الورق تلك الخواطر القلقة التي لا نهاية لها، والتي ظلت تدور في خاطره سنوات طوالًا. إلا أنه شعر في تلك اللحظة بأن هذه المناجاة قد جفت ونضب معينها، والأدهى من ذلك أن آلام قدمه بدأت تعذبه بشكل لا يطاق، ولم يجرؤ على حك موضع الألم؛ لأنه إن فعل ذلك فسيلتهب. وبدأت الثواني تجري سراعًا، ولكنه لم يكن يعي شيئًا اللهم إلا بياض الصفحة المفتوحة أمامه، والألم الذي كان ينبعث من فوق مفصل قدمه، وصوت الموسيقى العسكرية الصاخب، والدوار الخفيف الذي أصابه نتيجة احتساء الجن.

وفجأة بدأ يكتب وقد تولاه رعب عظيم، ولم يكن يدرك تمامًا خطورة العمل الذي بدأه، فبدا خطه الصغير الشبيه بخط الأطفال يملأ الصفحة من أعلى إلى أسفل، وسجل الكلمات

التالية: - 4 أبريل عام 1984- ذهبت مساء أمس إلى دار السينما، وكانت جميع الأفلام التي عرضت أفلامًا حربية، وكان أحسنها فيلمًا تدور قصته حول سفينة مملوءة باللاجئين ألقيت القنابل عليها في مكان ما بالبحر المتوسط، وقد سر النظارة من منظر رجل ضخم الجسم حاول النجاة بنفسه من السفينة الغارقة، وكان يصرخ طالبًا النجدة، ورصاص المدافع سريعة الطلقات يلاحقه من طائرة هليكوبتر حتى امتلأ جسمه بالثقوب، واحمر ماء البحر من حوله، ثم ابتلعه اليم... وانفجر النظارة ضاحكين عندما غرق الرجل فجأة، وكأنما امتلأت الثقوب بالماء فأثقلته. ثم ظهر قارب نجاة مملوء بالأطفال، وكانت طائرة هليكوبتر تحوم حوله، وقد جلست في مقدمته سيدة في منتصف العمر، لعلها كانت يهودية، وهي تحيط بذراعيها طفلًا في الثالثة كان يصرخ خوفًا ورعبًا ويخفي وجهه في صدرها، وكأنما كان يحاول الاختباء بداخلها. ورغم أن السيدة كانت تحوط الغلام بذراعيها محاولة تهدئته، فقد كانت هي أيضًا ترتجف رعبًا وهلعًا. ولعلها كانت تظن أن إحاطتها الطفل بذراعيها كفيلة بحمايته من الرصاص، وأخيرًا ألقت الطائرة قنبلة زنتها عشرون كيلوجرامًا وسط القارب، فانبعث وميض خاطف، ثم غاص القارب في اليم بحمولته. ورأى النظارة فيما رأوا صورة يد طفل وهي تطير في الهواء، ولعل طائرة الهليكوبتر التقطت المناظر بآلة تصوير كانت تحملها في مقدمتها، وما إن ظهر هذا المنظر، حتى صفق النظارة استحسانًا، اللهم إلا امرأة أثارت ضجة واحتجت قائلة: لا يجوز أن يشاهد الأولاد هذه المناظر البشعة، وظلت على صخبها واحتجاجها، إلى أن بادر شرطي بإخراجها من الدار، ولست أعلم ماذا حدث لها بعد ذلك.

وكف ونستون عن الكتابة، فقد أحس بتقلص في عضلاته، ولم يكن يدري ما الذي دفعه إلى تسجيل هذا السيل المتدفق من السخافات. ولكن شد ما أدهشه أنه بينما كان يسجل هذا السخف، تبلورت في ذاكرته ذكرى أخرى مختلفة تمامًا، وقد وضحت هذه الذكرى في ذهنه، بحيث شعر برغبة شديدة في تسجيلها، وقد أدرك الآن أن ذلك الحادث الآخر هو الذي حفزه على أن يقرر فجأة العودة إلى المنزل، والبدء في تسجيل هذه المذكرات.

لقد وقع ذلك الحادث في صباح اليوم نفسه وهو موجود بالوزارة، هذا إذا صح القول بأن شيئًا غامضًا كهذا يمكن أن يحدث.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة صباحًا، وكان موظفو «مكتب السجلات»، الذي يعمل ونستون فيه، ينقلون المقاعد من الغرف الصغيرة، ويصفونها في منتصف القاعة الكبرى أمام الستار الناقل الكبير استعدادًا (لدقيقتي الحقد). وكان ونستون قد أخذ مكانه في الصفوف الوسطى عندما دخل شخصان يعرفهما بالنظر فقط، ولكنه لم يسبق له أن تحدث إليهما.. كان أحدهما فتاة طالما التقى بها في الممرات.. لم يكن يعرف اسمها، ولكنه كان يعلم أنها تعمل في قسم القصة.

ولقد افترض- من رؤية يديها الملوثتين بالزيت، و«المفتاح الإنجليزي» الذي كانت تحمله أحيانًا- أنها تشغل إحدى الوظائف الميكانيكية على آلة من آلات كتابة القصص. كانت فتاة جريئة المنظر في السابعة والعشرين من عمرها، ذات شعر أسود فاحمًا غزيرًا، ووجه أنمش، وحركات رياضية سريعة، وكانت تلف حول خصرها حزامًا قرمزي اللون هو رمز جماعة محاربة العلاقات الجنسية، وكان الحزام مشدودًا إلى درجة أبرزت تكوين أردافها. ولقد نفر ونستون منها من أول نظرة، وكان يعرف السبب في هذا، إنه ذلك الجو الذي يحيط بها، جو ملاعب الهوكي والحمامات الباردة وصفاء الذهن، بل إنه كان يكره النساء جميعًا تقريبًا، وبخاصة الشابات الجميلات منهن، فقد كانت النساء دائمًا- وبصفة خاصة المليحات منهن- هن أخلص أعضاء الحزب وأشدهن تمسكًا به وتضحية من أجله.

فمنهن الهاتفات بحياة الحزب الداعيات له، الجاسوسات الحسناوات والمتلصصات على الناس؛ لاكتشاف أي انحراف فيهم عن مبادئ الحزب. ولكن هذه الفتاة بالذات كانت تبدو أخطرهن في نظره. وقد حدث مرة أن التقى بها في الممر فألقت عليه نظرة جانبية سريعة، خُيل إليه أنها نفذت إلى أعماقه وملأته بفزع شديد.

ولقد طاف بذهنه أنها من المحتمل أن تكون إحدى جاسوسات بوليس الفكر، ولو أن ذلك كان أمرًا بعيد الاحتمال، ومع ذلك فقد ظل يعاني إحساسًا من القلق ممتزجًا بالخوف منها والعداوة لها كلما رآها على مقربة منه.

وأما الشخص الآخر فكان رجلًا اسمه أوبرين، وهو عضو في الحزب الداخلي، ويشغل منصبًا مهمًا غريبًا، بحيث لم تكن لدى ونستون إلا فكرة غامضة عن طبيعة هذا المنصب وكنهه. وما كاد الجمهور يرى البزة السوداء التي يرتديها عضو الحزب الداخلي حتى شمله صمت عميق، وكأن على رؤوسهم الطير. وكان أوبرين هذا رجلًا ضخم البنية، غليظ العنق، ذا وجه خشن بادي القسوة، ولكنه، رغم خشونة منظره، كان على حظ من الجاذبية وحسن الخلق. وكان لا يفتأ يثبت عويناته فوق أنفه بطريقة مهذبة في حركة شبيهة بتلك الحركات...... - إذا جاز للإنسان أن يفكر على هذا النحو في ذلك الوقت- نقول إن هذه الحركة كانت أشبه بالحركة التي كان يأتيها أحد نبلاء الماضي، حينا يقدم صندوق سعوطه إلى رجل آخر. وكان ونستون قد رأى أوبرين قرابة اثنتي عشرة مرة خلال السنوات الأخيرة، وكان يشعر بدافع خفي يجذبه نحوه، ولم يكن ذلك بسبب التناقض الظاهر بين أخلاق الرجل المهذبة وضخامة جسمه، وإنما كان سببه الأقوى أنه، أي ونستون، كان يعتقد سرًّا- وربما لم يكن الأمر اعتقادًا وإنما أملًا- بأن إيمان أوبرين السياسي بالحزب ليس تامًّا، فقد كان شيء ما في وجه الرجل يوحي بذلك إيحاء لا يقاوم.

ولكن لعل ما كان يبدو على وجه أوبرين ليس انحرافًا عن مبادئ الحزب، وإنما كان مجرد ذكاء! مهما يكن من الأمر، لقد كان مظهره يدل على أنه شخص تستطيع أن تتحدث إليه وتثق به، إذا استطعت أن تخدع الستار الناقل وتنفرد به. ولم يبذل ونستون أية محاولة للتأكد من ظنونه؛ لأنه لم يكن يملك وسيلة تمكنه من ذلك. وفي تلك اللحظة تطلع أوبرين إلى ساعته ولاحظ أن الوقت قد قارب الساعة الحادية عشرة والنصف، ومن ثم قرر أن يبقى في قسم السجلات إلى ما بعد انتهاء دقيقتي الحقد، فجلس فوق مقعد في الصف الذي جلس ونستون فيه، وكان يفصل بينهما مقعدان، كانت تحتمل أحدهما امرأة ضئيلة الجسم ذهبية الشعر، تعمل في الغرفة المجاورة لتلك التي يعمل فيها ونستون، بينما جلست الفتاة ذات الشعر الأسود خلفها مباشرة.

وفي اللحظة التالية انبعث من الستار الناقل صوت مخيف أجش، وكأنه ينبعث من آلة جف زيتها، كان صوتًا رهيبًا تقشعر له الأبدان وتصطك له الأسنان ويقف له شعر رأس الإنسان.

لقد بدأت حملة الحقد أو الكراهية.

وكما هي العادة، فقد ظهر على الستار وجه عمانوئيل جولد شتاين عدو الشعب، وبدأ النظارة يتهامسون، وصدرت عن السيدة ذهبية الشعر صرخة مكتومة اختلط فيها الخوف بالاشمئزاز. لقد كان جولد شتاين هو ذلك الكافر الملحد الخائن الذي كان في وقت مضى، لا يذكر الناس تاريخه الآن، زعيمًا مرموقًا من زعماء الحزب لا تقل مرتبته عن مرتبة الأخ الأكبر نفسه، ولكنه تورط وانحرف، فيما بعد، واشترك في نشاط ضد الثورة فحكم عليه بالإعدام، بيد أنه استطاع أن يهرب بطريقة غامضة واختفى عن الأنظار.. وكانت برامج دقيقتي الكراهية تتغير من يوم إلى يوم، ولكنها جميعًا كانت تدور حول جولد شتاين

أساسًا، فهو أول خائن ظهر في صفوف الثورة، وأول من لوث صفحة الحزب النقية، وكل ما ظهر فيما بعد من جرائم ضد الحزب وخيانات وأعمال هدّامة وضلال وانحراف، كل ذلك، كان نتيجة مباشرة لتعاليمه. وما زال جولد شتاين يعيش في مكان ما ويدبر مؤامراته. ولعله يعيش فيما وراء البحار تحت حماية سادته الأجانب، الذين يدفعونه للعمل ضد بلاده، ويدفعون له عن ذلك أجرًا. وكان يشاع بين آونة وآخرى أنه مختبئ في مكان ما بأوشانيا نفسها.

لم يكن ونستون يرى وجه جولد شتاين إلا ويجتاحه خليط من العواطف المؤلمة. كان الوجه وجه رجل يهودي ضعيف البنية، يكسو رأسه شعر أشيب، وله ذقن صغير- كان وجهًا ينم عن الذكاء، ولكنه يوحي للإنسان باحتقار صاحبه، وقد جثمت بالقرب من طرف أنفه الطويل الرفيع عوينات سميكة.. كان وجهًا شبيهًا بوجه العنزة، أما صوته فكان كصوت العنزة أيضًا. وكان جولد شتاين يلقي كالعادة خطابًا يتضمن حملة سامة شريرة على مبادئ الحزب.. حملة مليئة بالمبالغة والمغالطات، بحيث لا يستطيع حتى الطفل أن يصدقها، ولكنها كانت معقولة إلى درجة تثير فزع الإنسان، حينما يتذكر أن هناك أناسًا آخرين أقل منه إدراكًا قد يخدعون بها.. كان جولد شتاين يحمل حملة شعواء على الأخ الأكبر، فيكيل له التهم ويوجه له الإهانة تلو الإهانة. وكان يستنكر ديكتاتورية الحزب، ويطلب عقد معاهدة سلم مع أوراسيا بلا إبطاء، ويدافع عن حرية القول، وحرية الصحافة، وحرية الاجتماع، وحرية الفكر، وكان يصيح بصوت هيستيري بأن مبادئ الثورة قد تعرضت للخيانة، كل ذلك بعبارات سريعة متلاحقة على غرار الطريقة التي يتبعها زعماء الحزب حينما يخطبون، بل لقد كان خطابه يشتمل على كلمات من اللغة الحديثة، تلك الكلمات التي يستعملها عادة كل عضو من أعضاء الحزب في حياته العادية. ومن وراء رأس جولد شتاين، وعلى الشاشة، كانت تمر جحافل جرّارة من جيوش أوراسيا صفًّا وراء صف من رجال راسخين كالأطواد، ووجوه آسيوية قاسية لا تعبر عن شيء، كانت تظهر لحظة على الشاشة ثم تختفي لتحل غيرها محلها، وكان وقع أحذية الجند- وهم يزحفون- يؤلف نغمة تتلاءم مع صوت جولد شتاين الشبيه بالمأمأة.

وقبل أن تنقضي ثلاثون ثانية من بدء حملة الكراهية، بدأت الأصوات تتعالى من نصف الموجودين في القاعة، وانفجر غضبهم في صوت كهزيم الرعد، ولم يستطع النظارة احتمال رؤية وجه جولد شتاين الشبيه بوجه العنزة والقوة المرعبة المرهبة لجيش أوراسيا الذي يظهر خلفه. ثم إن مجرد رؤية شتاين أو التفكير فيه كان يملأ قلوب النظارة بالخوف والعرب، فقد كان سكان أوشانيا يكرهون جولد شتاين دائمًا أكثر من كراهيتهم لأوراسيا واستاسيا، وذلك لأن العادة جرت على أنه إذا كانت أوشانيا مشتبكة في حرب مع إحدى هاتين الدولتين، فإنها تكون في صلح مع الأخرى. والأغرب من ذلك أنه رغم أن كل إنسان من سكان أوشانيا كان يمقت جولد شتاين ويحتقره، ورغم أن نظرياته كانت تهاجم وتسخف كل يوم، بل ألف مرة في اليوم الواحد، عن طريق المنابر والستار الناقل والصحف والكتب، رغم ذلك كله، فإن نفوذه لم يأخذ في التناقص. كان هناك دائمًا أغرار يسهل عليه خداعهم، ولم يكن ليمضي يوم بغير أن يكشف بوليس الفكر عن شبكة من الجواسيس والهدامين والمخربين الذين يعملون تحت إمرته. وهكذا كان جولد شتاين قائدًا لجيش كبير من الأشباح التي تعمل في الظلام، وزعيم حركة سرية تتألف من متآمرين وهبوا أنفسهم لقلب نظام الحكم، وكان الاسم الذي ظن الجميع أن هؤلاء الأشخاص يطلقونه على حركتهم هذه هو «الإخوة». وكان الناس يتهامسون ويروون القصص عن كتاب مخيف جمع كل ألوان الضلال وضعه جولد شتاين، وكان يوزع في الخفاء هنا وهناك. ولم يكن لهذا الكتاب عنوان، وإنما كان الناس يطلقون عليه اسم «الكتاب» إذا ذكروه على الإطلاق. ولم يكن لإنسان أن يعلم شيئًا عن هذه الشئون إلا عن طريق الشائعات الغامضة، فلم تكن الإخوة أو الكتاب موضوعًا من الموضوعات التي يشير إليها أي عضو عادي في الحزب، طالما استطاع

إلى تجنب الإشارة إليها سبيلًا.

وفي الدقيقة الثانية غلا مرجل الحقد، وبدأ الناس يثبون إلى أعلى، ثم يجلسون فوق مقاعدهم وهم يصيحون بأعلى صوت؛ محاولين إغراق ذلك الصوت الشبيه بالمأمأة الذي كان يصدر من الستار الناقل. وكان وجه المرأة ذات الشعر الذهبي، التي تجلس بجوار ونستون، قد احتقن واكتسى باللون الأحمر القاني، بينما راح فمها يفتح ويغلق مثلما تفعل السمكة حينما تخرج من الماء، وحتى وجه أوبرين كان متوهجًا. وكان ونستون يجلس منتصبًا فوق مقعده وصدره يعلو ويهبط وكأنه يقف متحديًا موجة عاتية مقبلة عليه. وبدأت الفتاة ذات الشعر الفاحم الأسود التي كانت تجلس وراء ونستون تصرخ بملء فمها «وغد! وغد! وغد!» وسرعان ما التقطت معجمًا كبيرًا من معاجم اللغة الحديثة، وقذفت به الستار الناقل، فأصاب أنف جولد شتاين وسقط، ولكن صوت جولد شتاين استمر يتكلم، وفجأة ألفى ونستون نفسه يصيح مع الآخرين ويضرب الأرض بقدميه بعنف. ولعل أفظع ما في دقيقتي الحقد هو أن الإنسان ليس مجبرًا على تمثيل دور ما خلالهما، ومع ذلك فإنه كان يجد أن من المستحيل عليه أن يتجنب الاشتراك مع الجمهور في مظاهرته الصاخبة. ويبدو أن موجة من الثورة المفعمة بالخوف والرغبة في الأخذ بالثأر والقتل والتعذيب وتهشيم الوجوه بمطرقة حديدية قد اكتسحت الجمهور، وكانت هذه الموجة أشبه بتيار كهربائي سرى في كل شخص من الحاضرين، فجعله يصرخ كالمجنون ويتصرف كالمعتوه مسلوب الإرادة. ومع ذلك فإن الحنق الذي كان الإنسان يشعر به لم يكن إلا حنقًا مطلقًا وعاطفة طليقة من كل قيد تنتقل من شيء إلى شيء كأنها لهيب نار لا يبقي ولا يذر، ومن ثم فإن حقد ونستون لم يكن في إحدى اللحظات موجهًا ضد جولد شتاين، بل على العكس، كان موجهًا ضد الأخ الأكبر، والحزب، وبوليس الفكر، ففي مثل هذه اللحظات كان قلب ونستون يتجه بالعطف إلى ذلك الشخص الوحيد الماثل على الشاشة، ذلك الرجل الذي ينصب نفسه حاميًا للحقيقة والحكمة، في عالم مشحون بالأكاذيب والبهتان. إلا أنه لا يلبث، في اللحظة التالية، أن يشعر بأنه واحد من الجمهور الذي حوله، وأن كل ما قيل عن جولد شتاين حقيقة لا مراء فيها- وعندئذ تنقلب كراهيته للأخ الأكبر إلى حب وإعجاب- ويبدو الأخ الأكبر أمام ناظريه كبرج راسخ لا يقهر، وكحام لا يساوره خوف يقف كالصخرة في وجه الجحافل الآسيوية، أما جولد شتاين، فرغم عزلته وعجزه وما يحلق فوق رأسه من شكوك وريب حتى في وجوده، فإنه يبدو كساحر شرير قادر على تحطيم الحضارة بمجرد قسوة صوته.

بل إن في وسع الإنسان أن ينقل حقده، في بعض اللحظات، من هذا الشيء إلى ذاك بمحض إرادته، وذلك ببذل مجهود عنيف أشبه بذلك الذي يبذله الإنسان حينما ينتزع رأسه من فوق الوسادة في لحظات الكابوس، ولقد بذل ونستون مثل هذا المجهود فجأة فنقل حقده من الوجه المرتسم فوق الستار إلى الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم الجالسة خلفه. وبدأت تطوف بمخيلته هواجس جميلة برّاقة، كان يود أن يطرح تلك الفتاة أرضًا وينهال عليها ضربًا بهراوة من المطاط حتى تموت. وكم تمنى في قرارة نفسه لو استطاع أن يشد وثاقها وهي عارية ويملأ جسدها بالسهام مثل القديس سباستيان، وكم تمنى أن يغتصبها ثم يذبحها عندما يبلغ ذروة نشوته، وعند ذاك أدرك لماذا كان يكرهها؛ لأنها شابة وجميلة ولكنها لا تعير نداء الجنس أي اهتمام. ولأنه كان يريد مضاجعتها ولكنه لن يستطيع إلى ذلك سبيلًا، ولأنها كانت تلف حول خصرها اللدن الذي كان يغري الإنسان بإحاطته بذراعه، كانت تلف خصرها بحزام قرمزي غريب هو رمز العفة.

وبلغت حمرة الكراهية ذروتها، وغدا صوت جولد شتاين كمأمأة العنزة تمامًا، بل لقد أصبح وجهه شبيهًا بوجه العنزة في إحدى اللحظات، ثم لم يلبث وجه العنزة أن ذاب واختفى ليحل محله جندي أوراسي يتقدم بخطى سريعة واسعة، وقد بدا عملاقًا مخيفًا،

بينما أخذ مدفعه الرشاش ينطلق محدثًا صوتًا مفزعًا، وخيل أنه يكاد يثب من قلب الستار، حتى لقد أغمض بعض شاغلي الصفوف الأولى أعينهم رعبًا ودفعوا مقاعدهم إلى الوراء، ولكنهم لم يلبثوا أن تنفسوا الصعداء حينما اختفت صورة الجندي وحلت محلها صورة الأخ الأكبر بشعره الفاحم الأسود وشاربه الكث وهدوئه الغامض وقوته الجبارة، ولقد كان الوجه ضخمًا هائلًا بحيث شغل فراغ الستار كله، ومع أن أحدًا لم يسمع ماذا كان الأخ الأكبر يقول، إلا أنه كان يتمتم بكلمات تشجيع قليلة، من ذلك النوع الذي يقوله القائد في معمعة المعركة، فلا يستطيع الجنود تمييزها، ولكنها تعيد الثقة إلى نفوسهم لمجرد التفوه بها، ثم اختفى وجه الأخ الأكبر وظهرت على الستار نداءات الحزب الثلاثة التالية بحروف بارزة كبيرة:

الحرب سلم الحرية عبودية الجهل قوة وخيل للمشاهدين أو وجه الأخ الأكبر تلكأ في الاحتجاب من الشاشة لعدة ثوان، وكأنما كان التأثير الذي تركه في الجمهور لا يمكن أن يزول سريعًا. أما الفتاة ذات الشعر الذهبي، والتي كانت تجلس بجوار ونستون، فقد ألقت بنفسها على ظهر المقعد الذي أمامها وصاحت بملء صوتها «أيها المنقذ»، ثم بسطت ذراعيها نحو الستار، وعادت فدفنت وجهها في يديها، وكان من الواضح أنها تتلو صلاة.

وفي تلك اللحظة بدأ الجمهور يردد بصوت موسيقي رتيب أغنية «الأخ..! الأخ!.. الأخ!..» مرة بعد الأخرى ببطء شديد ويتوقف بين المرة والأخرى. وكان الصوت يبدو في جملته عجيبًا ترافقه ضربات أقدام عارية، واستمر الجمهور يردد هذا النشيد قرابة ثلاثين ثانية، فقد اعتاد أن يفعل ذلك كلما اجتاحته عاطفة فياضة. وكانت هذه الأنشودة تسبيحًا بحكمة الأخ الأكبر وجلاله، ولكنها كانت- فوق كل شيء- لونًا من ألوان التنويم المغناطيسي الذاتي، عملًا متعمدًا لإغراق الشعور بواسطة الضوضاء الرتيبة، وخيل لونستون أن أمعاءه قد تثلجت، فإنه لم يكن يملك إلا مشاركة الجمهور في هذيانه العام خلال دقيقتي الكراهية، ولكن إنشاده لأنشودة:

الأخ... الأخ...» كان يملأه رعبًا دائمًا.. بالطبع إنه كان يردد الأنشودة مع الآخرين،» فقد كان من المستحيل أن يفعل غير ذلك؛ نظرًا لأن إخفاء الإحساسات، والسيطرة على انفعالات الوجه والاشتراك مع الآخرين فيما يفعلون كان انفعالًا غريزيًا.. وفي تلك اللحظة بالذات حدث ذلك الشيء المهم- هذا إذا كان قد حدث فعلًا.

التقيت عيناه بعيني أوبرين لحظة، وكان الأخير قد همّ واقفًا، وخلع عويناته ثم تهيأ لوضعها فوق أنفه بحركته المعتادة، وفي لمحة عابرة لم تدم أكثر من جزء من الثانية التقت عيناه بعيني ونستون، وعرف ونستون في التو أن أوبرين يفكر في الشيء نفسه الذي يفكر هو فيه، وتبادلا رسالة لا يمكن تجاهل محتوياتها، لقد بدا أن عقليهما قد فتحا وبدأت الأفكار تنساب من عقل الواحد إلى عقل الآخر عن طريق العيون، وخُيل كأن أوبرين يقول: «إنني أعرف إحساسك بالدقة، وأعرف كل شيء عن غضبك، وحقدك، وحنقك، لكن لا تقلق فإنني إلى جانبك!»، ثم تبددت ومضة الذكاء، وعاد وجه أوبرين يكسوه الغموض كغيره ممن كانوا في القاعة.

حدث كل ذلك في لمح البصر، حتى أن ونستون نفسه لم يكن واثقًا من أن ما حدث قد حدث فعلًا؛ لأن مثل هذه الحوادث لا تترك أثرًا بعدها، وكل ما فعلته أنها أحيت في نفسه الاعتقاد بأن هناك آخرين غيره أعداء للحزب. ولعل الشائعات التي كانت تتردد عن وجود مؤامرات سرية واسعة النطاق صحيحة.. ولعل «الإخوة» موجودة فعلًا.. لقد كان من المستحيل على الإنسان، رغم الاعتقالات التي لا نهاية لها والاعترافات وأحكام الإعدام، أن يصدق أن «الإخوة» إن هي إلا خرافة. لقد كان ونستون يؤمن بصحة هذه الشائعات في بعض الأحايين وينكرها في البعض الآخر، فلم تكن هناك أدلة قاطعة على وجود

«الإخوة»، وإنما كانت هناك لمحات قد تعني شيئًا وقد لا تعني أي شيء على الإطلاق، وكانت هناك كلمات تسمع همسًا من أحاديث عابرة، وأخرى ترى مسجلة فوق جدران دورات المياه، وربما التقى غريبان وأتى أحدهما بإشارة من يده تدل على تعارفهما.. كان كل شيء مجرد تكهن، ومن الجائز جدًا أن يكون الأمر كله مجرد خيال.. ولقد عاد ونستون إلى مجلسه بغير أن ينظر إلى أوبرين مرة أخرى، ولم تخطر بباله فكرة معاودة هذا الاتصال الخاطف.. لقد تبادل الاثنان نظرة سريعة لم تستغرق أكثر من لحظة أو لحظتين، ولكن الأمر انتهى عند هذا الحد.. كان حدثًا تذكاريًا في هذا العالم المغلق الذي كان على الإنسان أن يعيش فيه.

واستوى ونستون جالسًا في مقعده، ثم تجشأ، فقد كان الجن يضايق معدته، وأعاد تركيز عينيه على الصفحة التي أمامه، واكتشف أنه كان يكتب أثناء استغراقه في التفكير، وكأنما كان يفعل ذلك بطريقة آلية. لم يكن الخط في هذه المرة ذلك الخط المشوه الذي بدأ الكتابة به، فقد جرى قلمه بسهولة فوق الورق الناعم وسجل العبارات التالية بأحرف كبيرة مرتبة:

يسقط الأخ الأكبر يسقط الأخ الأكبر يسقط الأخ الأكبر يسقط الأخ الأكبر وقد تكررت هذه العبارة حتى ملأت نصف صفحة.

وما إن أدرك ما فعلته يداه حتى امتلأ رعبًا وهلعًا.. ولكنه سرعان ما سرى عنه؛ لأن كتابة هذه الكلمات لم تكن أكثر خطورة من البدء في كتابة هذه المذكرات.

وتملكته الرغبة في أن يمزق الصفحات التي كتبها ويتخلى عن مشروعه برمته.

ولكنه لم يفعل ذلك؛ لأنه أدرك ألا فائدة ترجى من هذا العمل، فسواء كتب «يسقط الأخ الأكبر» أو امتنع عن كتابتها فالنتيجة واحدة، وسواء استرسل في كتابة مذكراته أو انقطع عنها فالنتيجة واحدة أيضًا؛ لأنه سرعان ما يقع في قبضة بوليس الفكر.. لقد ارتكب، وما زال يرتكب، بل وسيعتبر مرتكبًا لجريمة كبرى تنطوي على جميع الجرائم الأخرى، حتى ولو لم يحمل القلم ويجري به فوق الورق.. وهم يطلقون على هذه الجريمة اسم «جريمة الفكر». وجريمة الفكر ليست من الأشياء التي يمكن إخفاؤها، فقد تستطيع أن تخفيها عن الأعين بنجاح فترة من الزمن، وربما سنوات، ولكن رجال بوليس الفكر لا يلبثون أن ينقضوا عليك إن عاجلًا أو عاجلًا.

ويلقى القبض على المجرم إبان الليل دائمًا، حيث تمتد يد إلى كتفه وتهزه بغلظة وعنف، فيفتح عينيه ليرى الأضواء مسلطة عليه ورجال بوليس الفكر يحيطون به بوجوههم الصلبة القاسية. وفي أغلب الحالات ينتهي أمر المقبوض عليهم بغير محاكمة، وبغير أمر اعتقال، فالناس يختفون.. ويختفون بالليل دائمًا.. لقد رفع اسمك من السجلات، وأزيل كل شيء سجل عن كل ما أتيته من أعمال، كما تنكر السلطات وجودك، وسرعان ما تصبح نسيًا منسيًا.. لقد محي اسمك من سجل الأحياء واستؤصلت شأفتك وتبخرت كما كانوا يقولون عادة.

واستولت الهيستيريا على ونستون لحظة.. وبدأ يكتب بسرعة وبخط متعرج: «سيطلقون النار عليّ.. ولكني لا أبالي.. سيطلقون النار عليّ، وستنفذ الرصاصة من مؤخرة عنقي، ولكنني لا أعير ذلك اهتمامًا.. ليسقط الأخ الأكبر.. نعم.. إنهم دائمًا يطلقون النار عليك من الخلف، ولكنني لا أبالي.. ليسقط الأخ الأكبر».

ثم اتكأ إلى الوراء وقد شعر بشيء قليل من الخجل، ووضع القلم جانبًا، وفي اللحظة التالية راح يحملق بشدة؛ فقد سمع طرقًا على الباب.

ترى.. هل آن الأوان؟ وجلس متحفزًا كالجرذ وهو يأمل أن ينصرف الطارق حينما يخفق في أول محاولة، ولكن الطرق تكرر، ولما كان أسوأ شيء يمكن أن يأتيه الإنسان في مثل هذه الظروف هو أن يتلكأ في الاستجابة للطارق، فقد بدأ قلبه يطرق بعنف، ولكن وجهه كان- بحكم العادة- جامدًا لا يعبر عن شيء.. فهمّ واقفًا، وسار متثاقلًا نحو الباب.

الفصل الثاني

عندما وضع يده على مقبض الباب لاحظ أنه ترك الكراسة مفتوحة فوق المنضدة، وقد غطيت إحدى صفحاتها بعبارة (يسقط الأخ الأكبر) مكتوبة بحروف كبيرة يمكن رؤيتها عبر الغرفة، فأدرك أنه ارتكب أمرًا إدّا، ولكنه سرعان ما أدرك أنه رغم ما كان يسيطر عليه من فزع، فإنه لم يشأ أن يلوث الورقة بغلق الصحيفة قبل أن يجف المداد.

وتنفس بشدة ثم فتح الباب وفي التوّ طغت عليه موجة دافئة من الارتياح إذ رأى امرأة شاحبة الوجه مهدمة، ذات شعر طويل ينساب كالسلك، ووجه مجعد، تقف خارج الباب وبادرته بقولها في صوت مقبض متحشرج: «أوه أيها الرفيق، خيل إليّ أني سمعتك تدخل المنزل. هل تظن أن في استطاعتك المجيء لتلقي نظرة على بالوعة مطبخنا؟ لقد سدت و...».

كانت محدثته مدام بارسونز زوجة جاره في نفس الطابق. وكانت كلمة «سيدة» من الكلمات التي ينكرها الحزب، إذ كان المفروض عليك أن تنادي كل شخص بكلمة رفيق، لكن الإنسان كان لا يملك إلا أن يستعمل هذه الكلمة مع بعض السيدات بحكم الغريزة.

وتبعها ونستون عبر الممر، وبالرغم مما كان يبدو عليها من كبر السن، فإنها لم تكن قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، ويخيل للناظر أن تجاعيد وجهها مليئة بالغبار. وكانت مباني فيكتوري مانسون متهدمة قديمة، إذ أنشئت سنة 1930 تقريبًا، ويتساقط ملاطها باستمرار من السقوف والحوائط، وتنفجر المواسير كلما اشتد الصقيع، وينضح السقف كلما تساقط الجليد، ونظام التدفئة متوسط إن لم يكن معدومًا لدواعٍ اقتصادية.

وكان الأفراد يتولون متطوعين إصلاح ما يمكنهم إصلاحه، متحملين في سبيل ذلك مضايقات يومية كثيرة، أما الإصلاحات الأخرى فقد كان لا بد من موافقة لجنة قد تستغرق سنتين قبل أن تبت في إصلاح لوح زجاجي لإحدى النوافذ.

وأضافت السيدة بارسونز قائلة: «من الطبيعي أن السبب الوحيد لاستدعائك هو أن توم لم يحضر بعد».

وكان مسكن أسرة بارسونز أكبر من مسكن ونستون، إلا أن قذارته كانت من نوع مختلف، ويظهر على كل شيء به آثار التكسير، كأن حيوان كاسر دخلها ودهس ما فيها بأقدامه، فقد كان مُلقى على الأرض أدوات الرياضة من عصي الهوكي وقفازات الملاكمة وكرة قدم مقطوعة وزوج من السراويل الرياضية القصيرة مشبعة بالعرق، وقد قلب باطنها، والمنضدة مليئة بالأطباق القذرة، وبعض كتب الأطفال، وعلقت على الحوائط أعلام خاصة بهيئة الشباب والجواسيس، وصورة كاملة للأخ الأكبر. وكانت رائحة العرق تطغي على رائحة الكرنب المسلوق المألوفة في البناء جميعه. وكان يكفي أن يستنشق الإنسان هذه الرائحة ليعلم- لسبب غير معلوم- أنها رائحة عرق شخص غير موجود في المنزل في تلك اللحظة. ومن حجرة أخرى أمسك شخص بمشط وقطعة من ورق التواليت محاولًا مجاراة الألحان الموسيقية الحربية المنبعثة من الستار الناقل (التلسكرين).

وألقت السيدة بارسونز بنظرة لها مغزاها على الباب قائلة: «إنهم الأطفال ولم يخرجوا من المنزل اليوم وبالطبع...» وكان من عادتها أن تقطع عباراتها في وسط الكلام. وكانت بالوعة المطبخ مليئة حتى حافتها بالماء الآسن القذر، وتفوح منها رائحة أسوأ من رائحة الكرنب، وانحنى ونستون ليفحص «كوع» الماسورة، وكان يكره استعمال يديه كما يكره الانحناء الذي كان يثير سعاله. وتطلعت السيدة بارسونز إلى البالوعة بعجز قائلة: «بالطبع

لو كان توم موجودًا لأصلحها في لحظة، إذ إنه يحب ذلك النوع من الأعمال ويجيد استعمال يديه».

وكان بارسونز زميلًا لونستون في وزارة الصدق، وكان رجلًا بدين الجسم، لكنه نشيط ذو حماقة خارقة، عبارة عن كتلة من الحماس المقترن بالغباء، فإنه كان من ذلك النوع الذي يعتمد عليه استقرار الحزب أكثر من اعتماده على بوليس الفكر؛ لتفانيه في الإخلاص دون أن يوجه أي أسئلة. وإذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، أُعفي رغمًا عنه من منظمة الشباب، وقبل تخرجه من منظمة الشباب، استطاع أن يقضي عامًا في منظمة الجواسيس بعد أن جاوز السن القانوني للالتحاق بها، ثم التحق بعمل ثانوي في الوزارة لا يتطلب ذكاء، ومن ناحية أخرى كان من الوجوه اللامعة في لجنة الرياضة، ويشترك في جميع المنظمات الأخرى التي تعمل في تنظيم الرحلات الجماعية سيرًا على الأقدام، والاستعراضات. واشترك بصفة عامة في كل نشاط اختياري، وقد يحدثك بفخر هادئ، وهو ينفث الدخان من غليونه، بأنه كان يواظب على التردد على المركز الاجتماعي في كل ليلة خلال السنوات الأربع الماضية، وكانت تتبعه رائحة عرقه النفَّاذة أينما حل، وقد تبقى وراءه بعد أن ينصرف كدليل غير متعمد على ما يبذله في حياته من جهد شاق.

وقال ونستون وهو يعالج «صمولة» الكوع الواصل بالبالوعة: «ألديك مفتاح إنجليزي؟» واعتدلت السيدة بارسونز في الحال قائلة: «مفتاح إنجليزي! لا أعلم على وجه التحقيق، فلعل الأطفال...».

ودخل طفلاها إلى حجرة الجلوس وهما يدبان بأحذيتهما ويقرعان بالمشط مرة أخرى، وأحضرت السيدة بارسونز «المفتاح الإنجليزي» ونزح ونستون الماء وأزال باشمئزاز خصلة الشعر البشري التي كانت تسد الماسورة، ونظف أصابعه بقدر المستطاع بالماء البارد من الصنبور، وعاد إلى الحجرة الأخرى. وصرخ صوت وحشيّ قائلًا: «ارفع يديك فوق رأسك» وإذا بطفل مليء في التاسعة من عمره تقريبًا يقفز من وراء المنضدة، وكانت تبدو عليه أمارات القسوة، يهدده بمسدس أوتوماتيكي مما يستعمله الأطفال، ومعه شقيقته التي تصغره بعامين تقلده ممسكة بقطعة من الخشب، وقد ارتديا سراويل قصيرة زرقاء، وقميصين لونهما رماديّ، وحول عنقيهما منديل أحمر، وهو الزي الرسمي الخاص بالجواسيس. ورفع ونستون يديه فوق رأسه وهو يشعر بالضيق، إذ كان سلوكهما سيئًا وليس مجرد عبث أطفال، وصرخ الطفل قائلًا: «أنت خائن... أنت مجرم فكر، أنت جاسوس أوراسي... لا بد أن أطلق عليك النار، وأستأصل شأفتك من الوجود، وأرسلك إلى مناجم الملح».

وفجأة شرعا يقفزان حوله وهما يصيحان بكلمتي «خائن» و«مجرم فكر»، وكانت الطفلة الصغيرة تقلد أخاها في كل حركة، وكان عملهما شيئًا مخيفًا نوعًا ما، يشبه قفزة نمر صغير على وشك أن يبلغ أشده ليصبح مفترسًا، وكان يبدو في عين الطفل نوع من الضراوة فضلًا عن رغبة ظاهرة في ضرب أو لكز ونستون، وبدا على الطفل شعور بأنه بلغ السن الذي يمكنه من ذلك، وكان من حسن حظ ونستون أن المسدس الذي في يد الطفل لم يكن حقيقيًّا.

وأخذت السيدة بارسونز تنقل النظر بين ونستون وطفليها بعصبية ظاهرة، بينما لاحظ ونستون، على ضوء غرفة الجلوس القوي، وجود غبار حقيقي في تجاعيد وجهها، ثم قالت: «إنهما يثيران ضجة كبيرة؛ لأنهما مستاءان لعدم خروجهما لمشاهدة موكب الإعدام شنقًا، إذ لديّ من المشاغل ما يمنعني من مصاحبتهما، علاوة على أن توم لم يعد من عمله في الوقت المناسب»... وزمجر الطفل بصوته الأجش قائلًا: «لماذا لا نذهب لمشاهدة موكب الإعدام بالمشنقة؟» وأخذت الطفلة الصغيرة تقفز حولهم وهي تغني مرددة: «نريد أن نرى الإعدام

«بالمشنقة...! نريد أن نرى الإعدام بالمشنقة.

وتذكر ونستون أنه كان من المقرر أن يعدم شنقًا بعض الأسرى الأوراسيين من مجرمي الحرب مساء اليوم في الساحة العامة، وكان ذلك يحدث مرة كل شهر، ويعتبر من المشاهد الشعبية، ويطالب الأطفال دائمًا بالذهاب لمشاهدته. واستأذن ونستون من السيدة بارسونز واتجه نحو الباب، وما كاد يخطو ست خطوات في الممر، حتى شعر بشيء يلطمه في مؤخر عنقه مسببًا له ألمًا مميتًا، كأن سيخًا محميًا قد اخترقه، واستدار على عقبيه في اللحظة التي رأى فيها السيدة بارسونز تجذب ابنها إلى داخل الباب، وهو يعيد إلى جيبه النبل صائحًا والباب يغلق عليه «جولد شتاين» لكن الذي أدهش ونستون حقًا هو نظرة الخوف واليأس التي كست وجه المرأة الأغبر.

وعاد إلى مسكنه ومرق بسرعة أمام الستار الناقل (التلسكرين) وجلس إلى المنضدة وهو لا يزال يحك قفاه، وتوقفت الموسيقى المنبعثة من الستار الناقل، وحل محلها صوت عسكري صارم يذيع بنوع من التلذذ الوحشي وصفًا لتسليح القلعة العائمة الجديدة الراسية بين جزر أيسلندا وجزر الفارو.

ثم جال بخاطر ونستون أن تلك المرأة البائسة تقضي حياة كلها رعب مع هذين الطفلين، وأنهما بعد سنة أو سنتين سيراقبانها ليلًا ونهارًا؛ بحثًا عن أدلة على عدم إخلاصها لمبادئ الحزب، فقد كان الأطفال جميعًا يثيرون الفزع في هذه الأيام، والأسوأ من هذا كله أنهم كانوا يتحولون إلى وحوش صغيرة يصعب قيادتها؛ نتيجة لتعاليم بعض المنظمات، كمنظمة الجواسيس، حيث يتولد فيهم عدم الميل إلى الثورة ضد نظام الحزب، وعلى العكس يحبون الحزب وكل شيء يتعلق به، كالأناشيد والاستعراضات والأعلام والرحلات والتمرن على البنادق الخشبية والهتاف بالكلمات الرنانة وبعبارة الأخ الأكبر، إذ كان كل ذلك بالنسبة لهم كلعبة لطيفة، وتتحول وحشيتهم ضد الأجانب وأعداء البلاد وذوي الأفكار الإجرامية، حتى أصبح من المألوف أن يخشى من يعدو الثلاثين من عمرهم أولادهم، إذ لم يكن يمضي أسبوع دون أن تظهر في جريدة التايمز مقالة تصف فيها كيف سمع «الطفل البطل» مصادفة عن تآمر والديه، وكيف وشى بهما إلى بوليس الفكر.

وانقشع عن ونستون الألم الذي سببته طلقة النبل، والتقط قلمه بفتور وهو يتساءل عما إذا كان هناك شيء آخر يضيفه إلى الكراسة!! وفجأة عاد يفكر في أوبرين من جديد.

فمنذ حوالي سبع سنوات رأى في نومه أنه كان يسير في حجرة حالكة الظلام، حينما سمع شخصًا يجلس إلى جانبه يقول: «سنتقابل في المكان الذي لا يوجد فيه ظلام» قال ذلك بهدوء دون لهجة آمرة واستمر هو في سيره دون توقف. والشيء العجيب أن الوقت الذي قيلت فيه تلك الكلمات، أثناء الحلم، لم تترك في نفسه أي أثر، بل أخيرًا وتدريجيًا أخذت معانيها تتضح، ولم يستطع أن يتذكر الآن ما إذا كان قد رأى أوبرين قبل ذلك الحلم أو بعده، ولا يتذكر متى عرف أن ذلك الصوت كان صوته. وعلى كل حال فقد تمكن من التعرف عليه، لقد كان أوبرين هو الذي تحدث إليه في الظلام، ولم يتمكن ونستون إطلاقًا من أن يتأكد من صداقة أوبرين أو عدائه له حتى بعد أن التقت نظراتهما في صباح هذا اليوم، إذ كانت بينهما صلة تفاهم أهم من شعور المحبة والزمالة الحزبية، فقد قال:

«وسنتقابل في المكان الذي لا يوجد فيه ظلام» ولم يعلم ونستون ماذا كان المقصود بذلك، بل كان يعتقد أن ذلك سيتحقق بطريقة ما.

وتوقف الصوت الصادر من الستار الناقل، وسار في الهواء الساكن نداء النفير الواضح الجميل، ثم استمر الصوت الأجش: «انتبهوا! نرجوكم الانتباه، فقد وردت الآن أخبار عاجلة

من جبهة مالابار، فقد أحرزت قواتنا في جنوب الهند نصرًا عظيمًا، وقد صرح لي بأن أعلن أن الخبر الذي أذيعه الآن سيقرب الحرب كثيرًا من نهايتها... هذه هي النشرة..» وبدا لونستون أن هناك أخبارًا سيئة، وأخذ يتتبع وصفًا كله فخر عن فناء جيش أوراسيا، وأرقام عجيبة عن القتلى والأسرى، ثم أذيع أنه ابتداء من الأسبوع القادم سيقتصر توزيع الشيكولاتة على عشرين جرامًا بدلًا من ثلاثين.

وتجشأ ونستون مرة ثانية، فقد أخذ مفعول الخمر في الزوال، تاركًا ونستون يشعر بالهبوط، واحتفالًا بالنصر أو لينسى الناس ما فقدوه من مقرر الشيكولاتة، فقد انتقل الستار الناقل إلى نشيد «أوشانيا للجميع» وكان المفروض أن يقف المرء انتباهًا، إلا أن صاحبنا ما كان ليُرَى وهو في موضعه الحالي.

وانتهى نشيد أوشانيا للجميع لتحل محله موسيقى خفيفة، وانتقل ونستون إلى النافذة موليًا ظهره إلى الستار الناقل، وكان الجو ما يزال باردًا صافيًا، وعلى بعد مسافة سمع صوتًا كئيبًا مزعجًا لانفجار قنبلة صاروخية، إذ كان يسقط منها أسبوعيًا على لندن حوالي الثلاثين.

وكانت الرياح ما زالت تعبث بالصورة الكبيرة المعلقة في الشارع، وتبعًا لحركاتها كانت كلمة (أنجسوك) تظهر وتختفي من ورائها متضمنة مبادئها المقدسة، فمن لغة جديدة إلى تفكير مزدوج إلى عدم استقرار الماضي، وشعر كأنه يتجول في غابات في قاع البحر، وكأنه الغريب التائه في عالم مريع يعيش فيه وحيدًا، فقد مات الماضي وأضحى المستقبل بعيدًا عن التصور، إذ كيف يتأكد له أنه يوجد الآن مخلوق حي واحد يقف بجانبه؟ وكيف يعرف أن حكم الحزب سوف لا يستمر إلى الأبد؟

على الواجهة البيضاء لوزارة الصدق ظهرت الشعارات الثلاثة للحزب- الحرب سلام، الحرية عبودية، الجهل قوة- كأنها ترده إلى عالم الحقيقة.

وأخرج من جيبه عملة من فئة الخمسة والعشرين بنسًا منقوش على أحد وجهيها الشعارات الثلاثة، وعلى الوجه الآخر ظهرت صورة لرأس الأخ الأكبر. وحتى من العملة كانت عيناه تتبعانك في كل مكان، فمن وجه العملة وطوابع البريد ومن فوق صندوق السجائر والأعلام ومن فوق الملصقات وأغلفة الكتب كانت عيناه ترقبانك ويغشاك صوته، فلا مهرب لك سواء كنت نائمًا أو متيقظًا، أو كنت تأكل، أو تعمل خارج الجدران أو داخلها، في الحمام أو الفراش، فلم يكن لك ما تملك سوى بضع سنتيمترات مكعبة داخل جمجمتك.

واستدارت الشمس وظهرت العشرة آلاف نافذة بمبنى وزارة الصدق معتمة، بعد أن انحسرت عنها أشعة الشمس كنافذة إحدى القلاع، وخفق قلبه لذلك البناء الهرمي الضخم البالغ المتانة، والذي يتعذر مهاجمته، ولا تكفي ألف قنبلة صاروخية لتحطيمه- وعاود تفكيره، لمن يكتب تلك المذكرات؟ للماضي أو للمستقبل أو لعصر قد يكون خياليًا، وقد ربض أمامه، ليس الموت فحسب، بل العدم. فقد تصبح مفكرته رمادًا ويتحول هو إلى بخار، ولا أحد غير بوليس الفكر سيقرأ ما كتب قبل محوه من الوجود. وكيف تستغيث الذاكرة بالمستقبل ولن يبقى أي أثر مادي منك أو أي أثر لكلمة كتبتها على ورقة ما؟

وأعلن الستار الناقل الثانية بعد الظهر، وكان عليه أن يغادر المنزل في ظرف عشر دقائق ليستأنف عمله في الثانية والنصف.

ومن الغريب أن رنين الساعة المنبعث من الستار الناقل غير حالته النفسية، بعد أن كان شبحًا وحيدًا ينطق الحقيقة التي لم يسمعها أحد، وعاد ثانية إلى منضدته وتحمس قلمه وكتب:

إلى المستقبل أو إلى الماضي، إلى زمن يكون الفكر فيه حرًّا، عندما يتميز الرجال ... كل عن الآخر ولا يعيشون منفردين، وإلى زمن سيجد الصدق لنفسه مكانًا فيه، ولا يمكن أن يُلغى فيه ما أُبرم من عمل.

ومن عهد التماثل والوحدة والأخ الأكبر وازدواج التفكير أقدم تحياتي.

وإذ أصبح قادرًا على تكوين أفكاره، خيل إليه حينئذ أنه قد أخذ الخطوة الإيجابية واعتبر نفسه ميتًا، واستمر يكتب «جريمة الفكر لا تسبب الموت، بل هي الموت» والآن وقد اعتبر نفسه ميتًا، أصبح جل همه أن يبقى على قيد الحياة أطول مدة ممكنة. وتلوث أصبعين من أصابع يده اليمنى بالحبر يعتبر من التوافه التي تكشف عنك، فقد يلفت ذلك نظر متطفل متعصب (ربما امرأة أو من يشبه السيدة ذات الشعر الأصفر، أو ذات الشعر الأسود التي تعمل بقسم القصص) فيتساءل لماذا كان يكتب في وقت الغذاء؟ ولماذا استعمل طريقة القلم القديمة؟ وماذا كان يكتب؟ ثم يلقي بملاحظته إلى الجهة المختصة. واتجه إلى غرفة الاغتسال وأزال المداد بعناية فائقة بقطعة من الصابون الشديد السمرة، والذي يحك البشرة كورق السنفرة، إلا أنه كان ملائمًا لتلك المهمة.

وأعاد المفكرة إلى الدرج، إذ كان من العبث إخفاؤها، وكل ما يمكنه عمله هو أن يتأكد ما إذا كان وجودها قد اكتشف، فإذا وضع شعرة مثلًا بين نهاية الصفحات، فإنه من الممكن ملاحظتها، لهذا التقط بأطراف أصابعه حبة من الحبوب الضاربة للبياض، وثبتها على ركن الغلاف في وضع يجعلها تسقط من مكانها إذا رفع الكتاب.

الفصل الثالث

كان ونستون يحلم بأمه.

أدرك أن سنه لم يكن يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة عندما اختفت أمه. وكانت امرأة طويلة القامة مهيبة الطلعة، تميل إلى الصمت، بطيئة الحركة وذات ثروة من الشعر الناعم. وإنه ليذكر، بغير وضوح، أن أباه كان أسمر الوجه نحيف القوام، يرتدي دائمًا ثيابًا داكنة اللون نظيفة (كان ونستون يذكر بصفة خاصة النعل الرقيق لحذاء والده) كما كان يستعمل عوينات. وقد اختفى كليهما أثناء إحدى حركات التطهير الأولى الكبرى في السنوات الخمسينية.

وفي هذه اللحظة كانت أمه تجلس في مكان عميق تحت أقدامه، وقد احتضنت أخته الصغيرة بين ذراعيها، وما كان ليستطيع أن يتذكر شيئًا عن شقيقته، اللهم إلا صورة لطفلة نحيلة ضعيفة دائمة الهدوء ذات عينين يقظتين واسعتين. وكانت كلتاهما تتطلعان إليه من مكان ما تحت الأرض، كقاع بئر أو مقبرة عميقة. لقد كانا في قاعة مركب تغرق تنظران إليه خلال المياه المعتمة، وكان الهواء لا يزال يملأ الصالة، كما كان في استطاعتهم جميعًا أن يشاهدوا بعضهم بعضًا. وبينما أمه وأخته تغوصان في المياه الخضراء شيئًا فشيئًا، وعلى وشك أن يختفيا عن الأنظار إلى الأبد، وبينما هو يقف في الضوء والهواء، كانت أمه وأخته تموتان غرقًا. وكانتا في ذلك الموضع السفلي؛ لأنه كان في أعلى. وكان جميعهم يدركون ذلك، ويرى أثر ذلك الإدراك واضحًا على وجهيهما، ولم يبد على وجهيهما أو قلبيهما ندم، اللهم إلا يقينهما من نهايتهما؛ لكي يظل هو على قيد الحياة، كجزء من طبيعة الموقف الذي لا خيار فيه.

ولم يستطع أن يتذكر ماذا حدث، ولكنه عرف من حلمه أن حياة أمه وأخته ذهبت فداء له بطريقة ما. لقد كان من تلك الأحلام التي تعتبر امتدادًا لحياة الفرد الواعية، بينما تحتفظ الذاكرة بالمشهد الرئيسي للحلم، الذي يستوعب الفرد وقائعه وأفكاره التي تظل حية لها تقديرها بعد أن يستيقظ. والشيء الذي أدركه ونستون الآن، هو أن موت أمه منذ ثلاثين عامًا خلت كان فاجعة تدعو إلى الحزن الذي أصبح لا وجود له الآن. وأن كلمة فاجعة كانت دارجة الاستعمال في العهد القديم، حيث كان هناك عزلة وحب وصداقة، ويساعد أفراد العائلة بعضهم دون أن يسألوا عن السبب. وكانت ذكرى أمه تمزق قلبه إذ ماتت وحبه يملأ قلبها، ولم يكن ليستطيع مبادلتها حبًّا بحب لأنانيته وحداثة سنه؛ ولأنها، بطريقة ما لا يتذكرها، ضحّت بنفسها في سبيل عقيدة الفداء التي كانت من خصائصها ولا تستطيع لها تبديلًا، كما أدرك أن مثل تلك الأمور لا يمكن أن تحدث الآن، حيث الخوف والحقد والألم وانعدام التقدير للعاطفة، وحيث لا توجد أحزان عميقة أو معقدة كالتي خيل إليه أنه شاهدها في عيون أمه وأخته الواسعة، وهما تتطلعان إليه خلال المياه الخضراء من الأغوار البعيدة، وهما تموتان غرقًا.

وفجأة وجد نفسه يقف على أرض خضراء كثيرة الينابيع في أمسية من أيام الصيف، وأشعة الشمس المائلة للغروب تكسو الأرض لونًا ذهبيًّا، ويشاهد منظرًا عامًّا كثيرًا ما رآه في أحلامه، ولم يتأكد إطلاقًا ما إذا كان قد رآه في العالم الحقيقي أم لا، وكان في يقظته يطلق عليه اسم «البلاد الذهبية» لقد كان منظرًا لمرعى ولحشائش أتت عليها الأرانب، وظهرت فيه طرق مهدتها الأقدام، وانتثرت فيها الروابي الصغيرة هنا وهناك، وفي الجهة المقابلة للحقل وبجانب السور المتداعي، كانت أشجار الدردار تتمايل مع النسيم الرقيق، وتتحرك أوراقها في تجمعات كثيفة كشعر المرأة، وبالقرب من الأشجار ظهر غدير ماء رائق يسري ببطء وبجانبه تسبح الأسماك في البرك تحت شجر الصفصاف.

وكانت الفتاة ذات الشعر الأسود تتقدم نحوه عبر الحقل، وخيل إليه أنها تجردت من ملابسها دفعة واحدة وألقتها بجانبها باحتقار، ولم يثر جسمها الأبيض الناعم أية رغبة عنده، وأخذ ينظر إليها نظرة متجردة، ولم يستحوذ عليه في تلك اللحظة إلا إعجابه بالطريقة التي ألقت بها ملابسها جانبًا، فمثل تلك الرشاقة وعدم المبالاة كفيلة بأن تمحي من الوجود ثقافة بأكملها ونظامًا كاملًا للتفكير، كأنه كان من الممكن بحركة واحدة رشيقة من الذراع أن يصبح الأخ الأكبر والحزب وبوليس الفكر لا شيء. واستيقظ ونستون وكلمة «شكسبير» على شفتيه.

وكان ينبعث من الستار الناقل صفير ثاقب قوي على وتيرة واحدة، ينفذ من الآذان مستمرًا لمدة ثلاثين ثانية، إيذانًا بالنهوض للعمل في المكاتب في تمام الساعة الثامنة إلا عشر دقائق. ومال ونستون بجسده العاري إلى خارج الفراش، وكانت التمرينات الرياضية ستبدأ خلال ثلاث دقائق، وفي اللحظة التالية ازداد اعتدالًا على أثر سعال شديد كان ينتابه كلما استيقظ من نومه، ويفرغ ما في صدره من هواء، حتى ليتعذر عليه أن يستعيد تنفسه إلا إذا استلقى على ظهره، وأخذ يردد شهيقًا عميقًا، وانتفخت عروقه لما سببه له السعال من مجهود وعاودته آلام علته المزمنة.

وانطلق صوت نسائي ثاقب من الستار الناقل قائلًا: «المجموعة من سن الثلاثين إلى سن الأربعين، نرجوكم أن تأخذوا أماكنكم. من سن الثلاثين إلى سن الأربعين!».

ووقف ونستون وقفة الانتباه أمام الستار الناقل الذي ظهرت فيه صورة لامرأة نحيفة ظاهرة العضلات ترتدي مئزرًا وحذاء رياضيًا، وقالت: «مدوا الأذرع ثم اثنوها معي: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة. واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، هيا أيها الرفاق اعطوا حركاتكم شيئًا من الحيوية!! واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة. واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة...».

ولم يستطع الألم الذي سببه له السعال أن يزيل من عقل ونستون تأثير الحلم، بينما جددته لحد ما حركات التمرينات الرياضية. وبينما كان يفتح ذراعيه آليًا إلى الأمام والخلف، وقد ظهر بمظهر البهجة العابسة، ذلك المنظر الذي كان يلائم الحركات البدنية، كان ذهنه في نضال؛ ليشق طريقه إلى العهد الغامض لطفولته المبكرة، الأمر الذي كان من الصعوبة بمكان، فقد اختفى كل ما حدث قبل الخمسين سنة الأخيرة، حيث لم تكن توجد أية مراجع ظاهرة يمكنك أن ترجع إليها.

فقد كنت تتذكر الحوادث دون أن تقدر على استعادة ظروفها، فقد تغير كل شيء منذ ذلك العهد حتى أسماء البلاد وأشكالها على الخرائط فمثلًا، بلدة (إيرسترب رقم واحد) لم يكن ذلك اسمها في تلك الأيام، بل كانت تسمى إنجلترا أو بريطانيا، أما مدينة لندن، فقد كان على يقين من أنها احتفظت باسمها.

ولم يستطع ونستون أن يتذكر، على وجه التحديد، عهدًا كانت فيه بلاده دون حرب. ولكن، كان من الواضح مرور فترة طويلة هادئة من السلام أثناء طفولته؛ لأن من ذكرياته المبكرة، ذكرى غارة جوية أخذت الجميع على غرة، وربما كان ذلك وقت أن سقطت القنبلة الذرية على مدينة (كولشستر) ولم يكن يتذكر الغارة، ولكنه تذكر يد والده وقد شدت على يده وهما يسرعان بالنزول إلى مكان عميق تحت الأرض، ويدوران باستمرار مع سلم حلزوني كان يحدث صريرًا تحت قدميه اللذين انتابهما الإعياء، حتى أنه أجهش بالبكاء، مما اضطرهما للتوقف للراحة، وكانت أمه تتبعهما على مسافة بعيدة على طريقتها الحالمة البطيئة، وهي تحمل شقيقته الطفلة أو- ربما كانت تحمل لفافة من القماش- إذ لم يكن متأكدًا مما إذا كانت شقيقته قد ولدت حتى ذلك الحين. وأخيرًا دخلوا إلى مكان مزدحم صاخب تبين فيه نفقًا لإحدى المحطات.

وكان بعض الناس يجلس على الأرض الحجرية للمكان، وآخرون التصقوا ببعضهم جلوسًا على أسرة معدنية، ووجد ونستون وأمه وأبيه مكانًا لهم على الأرض، حيث كان يجلس بالقرب منهم رجل وامرأة جنبًا إلى جنب على أريكة خشبية، وقد ارتدى الرجل العجوز سترة بسيطة سوداء اللون، وقبعة من القماش الأسود انحسرت عن شعر أبيض ووجه محتقن وعينين زرقاوين ملأتهما الدموع، وكانت رائحة الخمر تفوح منه، كأنها كانت تخرج من مسام جسمه بدلًا من العرق. هذا وكان يخيل للمرء أن عينيه كانتا تذرفان بدل الدموع خمرًا، ورغم أنه كان في حالة سكر خفيف، إلا أنه كان يعاني مرارة حزن لا يطاق. وأدرك ونستون بعقلية الطفل أن حدثًا مريعًا من ذلك النوع الذي لا يطويه النسيان ولا سبيل إلى إصلاحه قد حدث لتوه، وخيل إليه أنه عرف كنهه: إن شخصًا حبيبًا إلى قلب الرجل العجوز- ربما كانت حفيدته الصغرى- قد لقي حتفه، وكان الرجل العجوز يردد، كل بضعة دقائق، قوله: «ألم أقل إنه ما كان يجدر بنا أن نثق بهم، فهذا ما أصابنا نتيجة ثقتنا بهم. لقد كنت أقول ذلك دائمًا، فما كان يجب علينا أن نثق في هؤلاء المتوحشين.»

ولم يستطع ونستون أن يتذكر الآن من هم المتوحشون الذين كان عليهم ألا يثقوا بهم.

ومنذ ذلك الوقت تقريبًا، كانت الحرب مستمرة اسميًا ولو أنها، عمليًا، لم تكن مثل تلك الحرب التي يتذكرها. لعدة شهور خلال عهد طفولته، كان قتال مختلط يدور في الشوارع، وفي لندن بالذات، ويتذكر بعضها بوضوح. وكان من المستحيل متابعة التاريخ الإجمالي للعهد ومعرفة من الذي كان يقاتل الآخر في أية فترة معينة، لعدم الإشارة إلى ذلك في أي تقرير كتابي أو النطق بكلمة تشير إلى أي جيش آخر سوى الموجود حاليًا، ففي تلك اللحظة مثلًا وهي سنة 1984 (إذا كانت حقًا سنة 1984؟) لم يكن هناك تصريح عام أو خاص يعترف بأن القوى الثلاث كانت في يوم ما قد تجمعت في ترتيب مغاير. والواقع أن ونستون ليذكر جيدًا أن ذلك حدث بعد انقضاء أربعة أعوام منذ أن اشتبكت أوشانيا في الحرب مع استاسيا متحالفة مع أوراسيا، ولكن ذلك كله لم يكن يعدو بعض المعرفة السرية التي اتفق له أن يلم بها؛ لأن ذاكرته لم تكن خاضعة تمامًا لسيطرتهم، فمن الناحية الرسمية لم يحدث أي تبديل أو تغيير في الحليفة إطلاقًا. كانت أوشانيا في حرب مع أوراسيا، ومن ثم، فإن أوشانيا كانت دائمًا في حرب مع أوراسيا، إذ إن عدو اللحظة الراهنة هو شر مستطير، وعلى ذلك فإن إبرام أي اتفاق معه في الماضي أو المستقبل يعتبر ضربًا من المستحيل.

وأخذ يفكر وهو يدفع بأكتافه إلى الخلف من شدة الألم (وقد وضع يديه على أعلى الفخذين، وكانوا يديرون أجسامهم من الوسط كتمرين المفروض فيه أنه يقوي عضلات الظهر) كان يفكر للمرة العشرة آلاف أنه لشيء مخيف حقًا أن يكون في استطاعة الحزب أن يتحكم في الماضي، ويقول عن هذا الحادث أو ذاك إنه لم يحدث إطلاقًا، فإن ذلك قطعًا كان أشد هولًا من مجرد التعذيب والموت.

لقد قال الحزب إن أوشانيا لم تتحالف إطلاقًا مع أوراسيا، وكان ونستون سميث يعلم أن أوراسيا كانت حليفة لمدة وجيزة تقرب من أربع سنوات. لكن... أين الدليل على تلك المعلومات؟ كان الدليل الوحيد في ذاكرته التي ستمحى حالًا. ولو قبل الآخرون الأكذوبة التي قدمها الحزب- وإذا روت جميع التقارير نفس القصة- فعندئذ تسجل في التاريخ وتصبح حقيقة.. هذا وكانت جمل الحزب الرنانة تقول: «إن من يتحكم في الماضي يتحكم في المستقبل، ومن يتحكم في الحاضر يتحكم في الماضي» ولو كانت طبيعة الماضي قابلة للتغيير، فإنه لم يتغير أبدًا، فما يصدق الآن فقد صدق منذ الأبد وسيصدق إلى الأبد. وكان ذلك من البساطة بمكان، فكل ما كان يعمل له الحزب، ما هو إلا سلسلة لا تنتهي من

الانتصارات على ذاكرتك، ويسمى ذلك «التحكم في الحقيقة» ويسمى في اللغة الجديدة «ازدواج التفكير».

وصاحت المذيعة بشيء من السرور: «استرح!» وأنزل ونستون ذراعيه إلى جانبيه وملأ رئتيه ببطء بالهواء، وعاد ذهنه إلى عالم التفكير المزدوج الذي يدعو للذهول، وكان يقتضي منك أن تعلم ولا تعلم، أن تكون على بينة من الحقيقة كاملة، بينما تروي بحذر أكاذيب ملفقة، وأن تحتفظ في وقت واحد برأيين مختلفين، ومع علمك أنهما متناقضان، فإنك تؤمن بهما معًا، وأن تستعمل المنطق عندما تبرر شيئًا ضد المنطق، وأن تنكر الأخلاق بينما تتمسك بها، وأن تعتقد في استحالة الديمقراطية وأن الحزب هو حامي الديمقراطية، وأن تنسى ما يجب أن ينسى، ثم تستعيده في ذاكرتك في اللحظة التي يطلب فيها، ثم تنساه بسرعة مرة أخرى.

وأن تحرك اللاشعور عن طريق الشعور، ثم تعود مرة أخرى إلى اللاشعور، فيما يتعلق بعملية الإيحاء الذاتي التي باشرتها. وحتى فهم معنى كلمة التفكير المزدوج كان يتضمن التفكير المزدوج ذاته.

ودعتهم المدربة إلى الانتباه مرة أخرى وقالت بحماس: «الآن دعونا نرى من منا يستطيع أن يلمس بأطراف أصابع يديه أطراف أصابع قدميه. أرجوكم أن تبدأوا من فوق العجز (واحد اثنين... واحد اثنين...)».

وكان ونستون يكره ذلك التمرين لما يسببه من آلام تسري من كعبيه حتى العجز وتنتهي عادة بسعال شديد، ثم أخذ يفكر في الماضي الذي لم يتغير فحسب، بل أبيد تمامًا. إذ كيف يمكنك أن تثبت أوضح الحقائق بينما لا يوجد ما يدل عليها خارج ذاكرتك؟ وحاول أن يتذكر السنة التي سمع فيها لأول مرة عن الأخ الأكبر، وغلب على ظنه أن ذلك كان في وقت ما، ما بين سنتي ستين وسبعين، الأمر الذي كان من المستحيل التأكد منه، فقد ظهر الأخ الأكبر كقائد وحارس للثورة منذ أيامها الأولى، وأخذوا يدفعون بالزمن الذي تمت فيه أعماله الباهرة تدريجيًا إلى الوراء، حتى امتد إلى العهد الذي لا يمكن لأحد أن يتصوره فيما بين سنتي 1930 1950، عندما كان الرأسماليون بقبعاتهم الغريبة الشكل المستديرة ما زالوا يركبون عرباتهم أو سياراتهم الكبيرة اللامعة ذات الجوانب الزجاجية في شوارع لندن.

ولم يكن هناك من يعلم مقدار ما في مثل تلك القصص من صدق أو اختلاف. ولم يستطع ونستون أن يتذكر متى ظهر الحزب إلى عالم الوجود، ولم يستطع كذلك أن يصدق أنه سمع بكلمة (أنجسوك) قبل سنة 1960، فمن الممكن أن تكون قد استعملت قبل ذلك ضمن تعبيرات اللغة القديمة، إذ كانت تستعمل كلمة (الاشتراكية الإنجليزية)، فقد تبخر كل شيء حتى أصبح سحابًا، وأحيانًا، كان يمكن أن تضع أصبعك على أكذوبة صارخة، فمثلًا لم يكن صدقًا ما ظهر في كتب تاريخ الحزب من أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات، إذ إنه كان يتذكر الطائرات منذ طفولته المبكرة، ولكنك لا تستطيع إثبات شيء ما عن ذلك، فلم يكن هناك أي دليل على الإطلاق. ومرة واحدة في حياته أمسك بيده دليلًا رسميًا قاطعًا يفيد تزوير حقيقة تاريخية و...

وصاح الصوت الشرس من الستار الناقل قائلًا: «سميث! سميث!، رقم 6079. نعم أنت... من فضلك انثني أكثر من ذلك، من فضلك يمكنك أن تفعل أحسن من ذلك. إنك لا تحاول، انحن أكثر من فضلك، هذا أحسن... أيها الرفيق. والآن لتقف الفرقة كلها معتدلة وتراقبني».

وتصبب عرق ساخن فجائي من جسم ونستون، وظل وجهه جامدًا لا أثر فيه للنفور أو

الغيظ، فإن رعشة واحدة من عينك قد تقضي عليك، ووقف يراقب، بينما دفعت المدربة يديها فوق رأسها بطريقة لا تمت إلى الرشاقة بأية صلة، ولكن تدل على مقدرة ملحوظة، وانحنت انحناءة كانت كافية لأن يصل أول مفصل من أصابع يدها إلى ما تحت أطراف أصابع القدم.

هذا هو المطلوب أيها الرفاق، هكذا أريد أن أراكم تعملون. راقبوني مرة أخرى. لقد» بلغت من العمر تسعة وثلاثين عامًا، وأنجبت أربعة أطفال، والآن انظروا» وانثنت مرة أخرى، وأضافت عندما اعتدلت ثانية قائلة: «إنكم ترون ركبتيّ دون انثناء. ويمكنكم جميعًا عمل ذلك إذا أردتم. فكل من يقل سنه عن خمسة وأربعين عامًا، قادر على أن يلمس أطراف أصابع قدميه. لم نحظ جميعًا بشرف القتال في الخطوط الأمامية، ولكن يمكننا على الأقل أن نظل مستعدين، تذكروا أولادنا في جبهة مالابار، والبحارة في القلعة العائمة، فكروا فيما هو معهود إليهم عمله. والآن حاولوا مرة أخرى...... هذا أحسن أيها الرفاق، أحسن بكثير» قالت ذلك مشجعة، عندما نجح ونستون بمجهود كبير في لمس أطراف أصابع القدم دون أن يثني ركبتيه لأول مرة منذ سنين عديدة.

الفصل الرابع

وبدأ ونستون عمله، فجذب البوق الكاتب نحوه، وقد صدر منه دون وعي تنهد عميق لم يستطع أن يمنعه بالرغم من قرب الستار الناقل، وأزال الغبار من فم البوق الكاتب، وثبت عويناته، ثم فض أربع لفائف صغيرة من الورق، كانت قد خرجت من الأنبوبة الهوائية الموضوعة على الجانب الأيمن من مكتبه، ثم ألصقها ببعض.

وكانت هناك ثلاثة منافذ في حوائط القاعة، وأنبوبة هوائية على يمين البوق الكاتب تستعمل للرسائل المكتوبة، وأخرى على اليسار أكبر منها مُعدّة للصحف، وفي الحائط الجانبي، بالقرب من ذراع ونستون، كانت توجد فتحة مستطيلة مغطاة بشبكة سلكية وتستعمل للأوراق المهملة، ويوجد منها عشرات الألوف في جميع أنحاء البناء، وفي كل حجرة وأيضًا في كل ممر وعلى مسافات متقاربة، وكانت تسمى لسبب ما (فتحات الذاكرة) وكان عندما يدرك الفرد أن أية ورقة أصبحت غير صالحة أو يرى ورقة مهملة ملقاة، فإنه كان يرفع غطاء ثقب الذاكرة آليًا ليلقيها فيه، حيث كانت تبتعد بسرعة وهي تدور مع تيار هوائي دافئ، وتختفي في الأفران الكبيرة المخبأة في مكان ما من تجاويف البناء.

وفحص ونستون القصاصات الأربع التي استخلصها، فوجد أن كلًّا منها قد حوت رسالة مكتوبة في سطر أو سطرين، في لهجة مختصرة تخالف لهجة اللغة الجديدة الحقيقية، ولو أن كثيرًا من كلماتها التي كانت تستعمل للأغراض المصلحية استعمل بكثرة في كتابة معظم كلمات تلك الرسائل التي كتب فيها:

الوقت: 17 / 3 / 84. خطاب الأخ الأكبر أُبلغ مشوهًا إلى أفريقيا يصحح.

الوقت: 19 / 12 / 83 أهمل برنامج الثلاث سنوات الربع الرابع به 83 خطأ مطبعي راجع النسخة المتداولة.

الوقت: 14 / 2 / 84 إنتاج الشيكولاتة الوفير أسيء التعبير عنه. صحح.

الوقت: 3 / 12 / 83 الأمر الذي أصدره الأخ الأكبر يشمل إطراء لأشخاص لا وجود لهم. أعد كتابة الأمر مستعينًا بالملف.

وانتاب ونستون شعور خفي بالرضا. ولما كانت الرسالة الرابعة معقدة ومهمة، فقد أبقاها بجانبه مرجئًا البت فيها إلى حين ينتهي من أمر الثلاث رسائل التي كانت لا تخرج عن العمل اليومي في شيء، بينما الرسالة الثانية كانت عبارة عن قائمة محشوة بالأرقام.

وأدار ونستون «الأرقام الخاصة» على الستار الناقل وطالب بالنسخ المطابقة لهذه الأرقام من جريدة التايمز، فاندفعت إليه من الأنبوبة الهوائية بعد بضع دقائق.

وكانت الرسائل التي تسلمها، تشير إلى عبارات فقرات إخبارية، رُؤِي تغييرها لسبب ما، أو كما يقول التعبير الرسمي «تنقح»، فمثلًا ظهر في عدد جريدة التايمز الصادر في السابع والعشرين منه، أن الأخ الأكبر، تنبأ في خطبته في اليوم السابق أن جبهة جنوب الهند ستظل هادئة وأن هجومًا أوراسيًّا سيقع قريبًا على شمال أفريقيا.

والذي حدث، هو أن القيادة العليا الأوراسية قامت بهجومها على جنوب الهند وتركت شمال أفريقيا دون هجوم، فكان إذًا من الضروري إعادة كتابة نبذة من خطبة الأخ الأكبر بطريقة تجعله يتنبأ بالشيء الذي حدث فعلًا. أو مرة أخرى، نشرت جريدة التايمز في التاسع عشر من ديسمبر التنبؤات الرسمية للأنواع المختلفة للبضائع المعدة للاستهلاك في

الربع الأخير من سنة 1983، الذي كان أيضًا عبارة عن الربع السادس للبرنامج التاسع للثلاث سنوات، وعدد اليوم يحتوي على تقرير بالإنتاج الحقيقي، والذي يتضح منه أن التقديرات كانت ظاهرة الخطأ، وكان عمل ونستون هو تعديل الأرقام الأصلية لتطابق الأرقام السابقة. أما عن الرسالة الثالثة، فكانت تشير إلى خطأ طفيف يمكن إصلاحه في دقائق معدوات، فمنذ مدة قريبة في شهر فبراير، أصدرت وزارة الوفرة وعدًا، والتعبير الرسمي له «وعدًا قاطعًا» بعدم إنقاص مقرر الشيكولاتة خلال سنة 1984. والحقيقة كما يعلم ونستون أن مقرر الشيكولاتة أنقص من ثلاثين جرامًا إلى عشرين في نهاية الأسبوع، وكل ما كان مطلوب هو أن يتضمن الوعد الأصلي تحذيرًا عن احتمال ضرورة نقص المقرر في أحد أيام شهر أبريل.

وبعد أن انتهى ونستون من الرسائل، أرفق التصحيحات التي أملاها بنسخة مطابقة من جريدة التايمز، ودفع بها جميعًا إلى الأنبوبة الهوائية، وطوى الرسائل الأصلية وجميع الملاحظات الأخرى التي أجراها، ودفع بها إلى فتحة الذاكرة لتذهب طعمة للنيران.

ولم يكن ونستون يعلم تفصيلًا بما يحدث في الفراغ الذي تؤدي إليه الأنبوبة الهوائية، اللهم إلا فكرة عامة، فبمجرد أن تجمع جميع التصحيحات التي رُؤِي ضرورة إجرائها في أي عدد من جريدة التايمز، فإن ذلك العدد يعاد طبعه وتباد النسخة الأصلية، وتحل محلها النسخة المعدلة التي توضع في الحوافظ. وما كان إجراء التغيير المستمر هذا مطبقًا على الصحف فحسب، بل على الكتب والنشرات الدورية والصور والأفلام والصور الهزلية والصور العادية، وعلى جميع وسائل النشر أو المخطوطات التي تتضمن أية معان تتعلق بالمبادئ أو السياسة. فمن يوم لآخر ومن دقيقة لأخرى كان الماضي يعدل بحيث يصبح مطابقًا للحاضر، وبهذه الطريقة كان من الممكن إثبات كل ما يتنبأ به الحزب بأدلة مكتوبة، فلم يكن يسمح بوجود أية جمل في الأخبار أو تعبير لرأي يتعارض مع مقتضيات الزمن، فالتاريخ كله كان مجرد أوضاع تمحى بعناية وتعاد كتابته حسب مقتضيات الحاجة، ولا يمكن إثبات حدوث أي تزييف. والقسم الآخر من إدارة التسجيلات كان أكبر بكثير من ذلك الذي كان يعمل فيه ونستون، ويتكون من أشخاص كل مهمتهم أن يتتبعوا ويجمعوا جميع نسخ الكتب والصحف والمخطوطات الأخرى التي ألغيت، ويعدوها للإبادة، فمثلًا أعداد جريدة التايمز التي أعيدت كتابتها لتغيير حدث في الاختصاصات السياسية أو لتنبؤات خاطئة نطق بها الأخ الأكبر، وأعيدت كتابتها عشرات المرات، تظل باقية في الحوافظ تحمل تاريخها الأصلي، وقد اختفت أية نسخة أخرى تتعارض معها، وكذلك كانت الكتب تجمع وتعاد كتابتها مرات ومرات ويعاد إصدارها، دون أية إشارة إلى حدوث أي تغيير، حتى التعليمات المكتوبة التي كان يتسلمها ونستون ويتخلص منها بمجرد أن ينهي الغرض المطلوب، لم تذكر ولم تشر إلى ارتكاب أي عمل من أعمال التزييف، بل كان السبب يعزى دائمًا إلى الخطأ ورداءة الطبع أو النقل، وكان من الضروري التصحيح مراعاة للدقة.

وفي الواقع أدرك ونستون، وهو يعيد إصلاح أرقام وزارة الرخاء، أن حقيقة الأمر لم تكن مجرد تزييف، بل إحلال عبث بآخر، فمعظم الموضوعات التي كانت تعالجها لم تكن لها أية صلة بالواقع الحقيقي ولا حتى ذلك النوع من الصلة الذي يوجد في الأكذوبة المباشرة، وكانت الإحصاءات خيالية من ناحية صياغتها الجديدة مثلما كانت في الصيغة المنقولة عنها، كما كانوا يحرفون في التنقيح المنقول، وكان ذلك يستغرق منك وقتًا كثيرًا لتنساه، مثال ذلك، إن نبوءة وزارة الرخاء كانت قد حددت إنتاج الأحذية خلال ربع سنة بمائة وستة وأربعين مليون حذاء، على حين أن الإنتاج الحقيقي بلغ اثنان وستين مليونًا، إلا أن ونستون عندما أعاد كتابة النبوءة حدد الرقم بسبعة وخمسين مليونًا ليسمح للادعاء المعتاد بأن الإنتاج قد زاد عن المطلوب. ومهما يكن من أمر، فإن رقم اثنان وستون مليونًا ليس أقرب إلى الحقيقة من رقم سبعة وخمسين مليونًا، أو أكثر من رقم مائة وستة وأربعين

مليونًا. ومن المحتمل جدًا أنه لم تنتج أحذية على الإطلاق، وبالمثل فإن أحدًا ما كان يعرف عدد الأحذية التي أنتجت فعلًا، كما لم يكن هناك من يهتم بذلك. وكل ما كان يعرفه الإنسان هو أن كل ربع عام كان ينتج على الورق أحذية بعدد النجوم، بينما في الواقع يسير نصف سكان أوشانيا تقريبًا حفاة الأقدام. وكان ذلك هو الحال في جميع أنواع الحقائق المسجلة كبيرها وصغيرها، وبذلك كان يزول كل شيء تدريجيًا خلال عالم الخيال الذي أصبح فيه تاريخ السنة موضع شك.

ونظر ونستون عبر القاعة حيث كان شخص ضئيل الجسم دقيق التقاطيع ذو لحية سوداء يدعى تيلوستون يعمل بهمة، وقد نشر صحيفة على ركبتيه وتكاد تلتصق فتحة البوق الكاتب بفمه، وقد ظهرت عليه سيماء من يحاول الاحتفاظ بسرية ما يلقي إلى الستار الناقل، ورفع رأسه في اتجاه ونستون حيث ومض من نظارته بريق عدائي.

وكان ونستون لا يكاد يعرف تيلوستون ولم تكن لديه فكرة عن العمل الذي يقوم به، إذ لم يكن مسموحًا لمن يعملون في قسم التسجيلات التحدث عن عملهم، وكانت القاعة طويلة عديمة النوافذ، يوجد بها صفان من القمرات ويتردد فيها حفيف الأوراق الذي لا ينقطع وهمهمة الأصوات الهامسة في الأبواق الكاتبة، ويجلس فيها اثني عشر شخصًا لم يكن ونستون يعرف حتى أسماءهم ولو أنه كان يراهم يوميًا مسرعين في غدوهم ورواحهم في الممرات، أو كان يراهم وهم يهتزون أثناء عرض دقيقتي الحقد، وكان يعلم أن المرأة ذات الشعر الأصفر موجودة في القمرة المجاورة له، تكد يومًا بعد يوم في تعقب وإخفاء أسماء الأشخاص الذين تبخروا من الصحف، وعلى ذلك اعتبروا كأنهم لم يروا نور الحياة إطلاقًا. وكان ذلك العمل يلائمها تمامًا، فمنذ سنتين تبخر زوجها، وعلى بعد بضعة قمرات منه كان يعمل شخص يدعى إميل فورت هادئ حالم لا يترك أثرًا ما في نفس من يراه ذو أذنين غزيرتي الشعر ومقدرة مدهشة على التلاعب باستعمال الألفاظ ذات القوافي والأوزان، وكان مكلفًا بإكساب القصائد الشعرية طابعًا جديدًا من الأشعار ذات المعاني السمجة التي كانت تسمى «صيغ نهائية»، إلا أنه لسبب ما احتفظ بها مع مجموعة الأشعار الرسمية، وكانت تلك القاعة بعمالها الخمسين تقريبًا، تكوّن فرعًا من القسم عبارة عن «زنزانة» وحيدة في المبنى المعقد المعروف بقسم التسجيلات. كما كانت أسراب أخرى من العمال تقوم بأعمال متعددة لا حصر لها، منتشرة إلى خلف وأعلى وتحت البناء، حيث كانت توجد أيضًا محال الطبع الضخمة التي تعمل تحت رئاسة الناشرين وخبراء المطابع، وصالات التصوير الكاملة المعدة لتزييف الصور. ويوجد أيضًا قسم البرامج المذاعة، وقد زود بالمهندسين والمخرجين، وفرقة تمثيلية اختيرت بعناية لمقدرتها على تقليد الأصوات، وجيش من كتبة الاستعلامات تتلخص وظيفتهم في سحب قوائم الكتب والمخطوطات المطلوب إعادتها للنشر، ومخازن واسعة تحفظ فيها المخطوطات الصحيحة، وأفران مخبأة حيث تحرق النسخ الأصلية، وفي مكان آخر كانت توجد العقول المدبرة التي تنظم كل ذلك المجهود وترسم الخطوط الرئيسية التي تقرر الإبقاء، أو تمحو من الوجود، أو تزيف أية وثيقة تشير إلى الماضي.

وعلاوة على ذلك، فلم تكن إدارة التسجيلات إلا فرعًا من وزارة الصدق، ولم يكن عملها الأساسي أن تعيد بناء الماضي فحسب، بل أيضًا تزويد سكان أوشانيا بالصحف والأفلام وكتب النصوص وبرامج الستار الناقل والتمثيليات والقصص، وبكل ما هو معروف من أنواع الأخبار والثقافة والتربية، فمن أقسام التماثيل إلى ترديد الهتافات، ومن الأناشيد إلى مقالات طبية، ومن كتب هجاء للأطفال إلى قاموس اللغة الجديدة، هذا ولم يكن من اختصاص الوزارة تزويد الحزب بحاجاته التي لا حصر لها فحسب، بل كان عليها أيضًا أن تعيد العملية كلها بشكل مبسط لمصلحة العامة، فقد كانت هناك سلسلة كاملة من الإدارات المنفصلة تقرر الأدب الشعبي من موسيقى وتمثيليات وتسلية، ومن هنا أيضًا كانت توزع

الصحف الرخيصة التي لا تحوي شيئًا سوى أخبار الرياضة والجريمة والتنجيم والقصص المثيرة، التي كانت تباع بخمسة سنتيمات، والأفلام التي تتعرض للغرائز الجنسية، والأغاني العاطفية التي كانت تلحق بطرق آلية على جهاز يسمى (منظم الشعر) وكان يوجد قسم كامل مهمته إخراج أحط أنواع الصور التي تحض على الدعارة، والتي كانت ترسل في طرود مختومة إلى الخارج، كما كان محرمًا على أعضاء الحزب، ما عدا من كان عملهم يتعلق بهذا النوع من العمل، النظر إلى تلك الصور.

وبينما كان ونستون منهمكًا في عمله توالت عليه ثلاث رسائل من الأنبوبة الهوائية، كانت تحوي مواضيع بسيطة تمكن من التصرف فيها قبل أن يقاطعه عرض دقيقتي الحقد. وبمجرد أن انتهى العرض، عاد ثانية إلى حجرته ونظف نظارته وتناول قاموس اللغة الجديدة من فوق الرف وابتدأ عمله الصباحي الرئيسي.

وكان يجد في عمله أكبر متعة له في الحياة، وكان معظمه عملًا على وتيرة واحدة، لكنه كان يتضمن أيضًا أعمالًا صعبة معقدة، تستحوذ على كل تفكيرك، كأنك تحاول حل مسألة حسابية- فعليك أن تقوم بأعمال دقيقة في التزييف دون أن تجد ما يرشدك إلا معلوماتك عن مبادئ (أنجسوك) وفهمك لما يريد الحزب منك من قول. وكان ونستون يجيد القيام بذلك النوع من العمل، وعلى ذكر ذلك، فقد كان موضع ثقة، يعهد إليه بتنقيح المقالات الرئيسية في جريدة التايمز التي كانت تكتب كلها باللغة الجديدة. وفض الرسالة التي كان قد وضعها جانبًا منذ البكور وقرأ فيها «الوقت 3/12/83 الأمر الذي أصدره الأخ الأكبر يشمل «إطراء» لأشخاص لا وجود لهم. أعد كتابة الأمر مستعينًا بالملف»، وكان ذلك يعني حسب اللغة القديمة (اللغة الإنجليزية العادية): (كانت إذاعة الأمر اليومي للأخ الأكبر في عدد التايمز الصادر في الثالث من ديسمبر سنة 1983 غير مرضية على الإطلاق؛ لأن الأمر يشير إلى أشخاص لم يوجدوا. أعد كتابته كاملًا ثم اعرض المسودة على الجهات العليا قبل حفظه).

وقرأ ونستون المقالة الخاطئة، وكان أمر الأخ الأكبر ذلك اليوم يكاد يكون مخصصًا كانت تمون بحارة القلعة العائمة (F.F.C.C) لمدح العمل الذي قامت به مؤسسة تسمى بالسجائر ووسائل الترفيه، وأشير إلى رفيق يدعى ويذرز من أعضاء الحزب الداخلي في تقرير خاص، حيث كوفئ بوسام يسمى «وسام استحقاق الشهرة من الدرجة الثانية».

دون إيضاح ما. وكان من (F.F.C.C) وفجأة وبعد ثلاثة شهور حُلت مؤسسة ال المفهوم أن ويذرز وصحبه أصبحوا موضع نقمة، دون أي ذكر لما حدث في الصحف أو على الستار الناقل، وكان ذلك متوقعًا منذ أن بطل تقديم المخطئين السياسيين إلى المحاكمة أو التشهير بهم علنًا، فحركات التطهير الكبرى التي تشمل آلاف الناس والتي كانت مصحوبة بالمحاكمات العلنية للخونة ومجرمي الفكر، الذين أعدموا على أثر ما قدموا من اعترافات خطيرة، أثارت الاشمئزاز بما اقترفت أيديهم، كانت عبارة عن تمثيليات من نوع خاص لا تتكرر عادة أكثر من مرة كل سنتين. والعادة أن من وقع عليه غضب الحزب كان يختفي ولا يسمع عنه مرة أخرى إطلاقًا، ولم يكن لدى المرء أقل دليل يوضح ما حدث لهم. فمن وقت لآخر اختفى من معارف ونستون حوالي ثلاثين شخصًا علاوة على والديه.

وحك ونستون أنفه بهدوء بأحد دبابيس الورق، وكان الرفيق تيلوستون ما يزال منحنيًا على البوق الكاتب كمن يدلي بسر، ثم رفع رأسه لحظة ظهرت خلالها الومضة العدائية من وراء نظارته، وأخذ ونستون يفكر فيما إذا كان تيلوستون منهمكًا يؤدي نفس العمل الذي يقوم به، فلم يكن من الممكن أن يعهد إلى شخص واحد بهذا العمل الذي كان يستلزم دهاء، ومن ناحية أخرى، فإن تركه إلى لجنة كان يعتبر اعترافًا بأن هناك تلفيقًا يحدث، ومن المحتمل جدًّا أن حوالي اثني عشر شخصًا كانوا يعملون في الوقت الحاضر

متنافسين في قلب ما قاله الأخ الأكبر مثلًا، ثم لا يلبث أحد كبار رجال الحزب الداخلي أن يختار هذه الصيغة أو تلك ويعيد إملاءها (العمليات) ثم يعيد نشرها، ويشير بعمل الإجراءات المعقدة الخاصة بمحو جميع المراجع التي قد يرجع إليها، ثم تأخذ الأكذوبة المختارة طريقها بين السجلات الدائمة وتصبح حقيقة.

ولم يكن ونستون يعلم سبب النقمة التي حلت على ويذرز، فربما كانت تهمة الفساد أو عدم الكفاية، أو لأن الأخ الأكبر كان يتخلص من تابعيه المحببين إلى الشعب، أو لأن ويذرز أو أحد المقربين إليه حامت حوله الشبهات بأنه ذو ميول ضالة، وكان هذا هو أكثرها احتمالًا، وكان ذلك كثير الحدوث لأن حركات التطهير والتبخير كانت جزءًا رئيسيًّا من الدولاب الحكومي. وكان الدليل الحقيقي الوحيد لكل ذلك يكمن في جملة «الإشارة إلى أشخاص لم يوجدوا» التي تشير إلى أن ويذرز قد مات فعلًا، إذ كان لا يمكنك أن تقطع بذلك في كل حالة يعتقل فيها الناس، فأحيانًا كان يفرج عنهم، ويسمح لهم بالبقاء أحرارًا لمدة سنة أو سنتين قبل أن يعدموا، وأحيانًا يعود من كنت تعتقد أنه مات منذ مدة طويلة إلى الظهور بشكل يبعث على الخوف، وتراه في إحدى المحاكمات العلنية وهو يوقع بمئات غيره بشهادته، قبل أن يختفي هو إلى الأبد هذه المرة، وعلى أية حال، فقد أصبح ويذرز «غير ذي ذات» فإنه لم يوجد، وما كان له كيان حي على الإطلاق. وقرر ونستون أن تغيير الغرض من خطاب الأخ الأكبر كان لا يكفي، بل من المستحسن أن يترك خطابه يعالج شيئًا لا علاقة له إطلاقًا بخطابه الأصلي الذي أشار إليه في خطابه الخاطئ.

وكان عليه أن يحيل الخطبة إلى التشهير المعاد بالخونة ومجرمي الفكر، ولكن ذلك كان من الوضوح بمكان، بينما لو اخترع نصرًا للجبهة الحربية أو فخرًا لزيادة الإنتاج في برنامج الثلاث سنوات التاسع، فإن ذلك كان يسبب ارتباكًا شديدًا في السجلات. وفجأة قفزت إلى ذهنه صورة شخص يدعى «أوجيلفي» مات منذ مدة قصيرة في الحرب في ظروف باسلة، وكان الأخ الأكبر في كثير من المناسبات يخصص الأمر اليومي في تخليد ذكراه، كعضو متواضع من أعضاء الحزب، كما كان يعتبر حياته مثلًا يحتذى، واليوم يجب أن تخلد ذكرى الرفيق أوجيلفي بكتابة بضعة سطور ونشر صورتين مصطنعتين تعيده حالًا إلى الحياة.

وفكر ونستون قليلًا ثم جذب البوق الكاتب نحوه، وابتدأ يملي على طريقة الأخ الأكبر المألوفة، «بطريقة حربية ومتعالية في نفس الوقت» وباتباع طريقة الأسئلة التي يجيب عليها في الحال. وكان من السهل تقليدها فمثلًا «أي دروس نتعلمها من تلك الحقيقة أيها الرفاق؟ هي الدروس التي تعتبر أيضًا من المبادئ الأساسية لمبدأ أنجسوك... إن... إلخ... إلخ».

فعندما كان عمر الرفيق أوجيلفي ثلاث سنوات رفض جميع اللعب ما عدا طبلة ومدفعًا أوتوماتيكيًّا ونموذجًا لطائرة هليكوبتر. وفي سن السادسة التحق بقسم الجواسيس،وكان عمره يقل سنة عن السن المقرر باستثناء خاص من اللوائح، وفي سن التاسعة وصل إلى مركز قائد فريق، وفي سن الحادية عشر وشى بعمه لبوليس الفكر، بعد أن سمع عرضًا محادثة فهم منها أن لعمه ميولًا إجرامية، وفي سن السابعة عشر كان منظمًا لمنطقة هيئة الشباب المناهض للغريزة الجنسية، وإذ بلغ التاسعة عشر صمم قنبلة يدوية اعتمدتها وزارة السلام، وعند أول تجربة لها قتلت واحدًا وثلاثين أسيرًا أوراسيًّا، وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره مات في ميدان القتال، إذ بينما كان يحلق بطائرة فوق المحيط الهندي حاملًا رسائل مهمة، تبعته إحدى قاذفات القنابل التابعة للعدو، فأثقل جسمه بمدفعه الرشاش وقفز من الهليكوبتر إلى المياه العميقة ومعه الرسائل وكل شيء، يا لها من نهاية... نهاية يحسد عليها ولا ريب، ثم أضاف الأخ الأكبر بعض الملاحظات عن طهارة حياة الرفيق

أوجيلفي وعقليته الفريدة من نوعها، فقد كان زاهدًا في كل شيء، لا يدخن ولا يعرف فترات للراحة عدا ساعة واحدة كل يوم كان يقضيها في المعهد الرياضي. وعاش أعزبًا معتقدًا أن الزواج ورعاية عائلة لا يتفقان مع تكريس الأربع والعشرين ساعة للعمل. ولم يكن يناقش إلا مبادئ «أنجسوك» ولا هدف له في الحياة إلا سحق العدو الأوراسي وتصيد الجواسيس والمخربين ومجرمي الفكر والخونة.

وأخذ ونستون يراجع نفسه في إمكان منح الرفيق أوجيلفي وسام الاستحقاق «للشهرة» وأخيرًا قرر ألا جدوى من ذلك، لما سيتبعه من شطب في المراجع لا ضرورة له.

ومرة أخرى نظر إلى منافسه في القمرة المقابلة، وخيل إليه أن هاتفًا يقول له عن يقين إنه كان يعمل في نفس العمل الذي يقوم به، ولم يكن هناك سبيل لمعرفة من صاحب التعديلات التي ستقبل، ولكنه أحس إحساسًا عميقًا بأنه سيكون هو. وبذلك أصبح الرفيق أوجيلفي حقيقة بعد أن كان منذ ساعة فقط غائبًا عن الأذهان. كما أدهشه الأمر العجيب، إذ من الممكن إحياء من مات من الرجال دون من هم على قيد الحياة، فالرفيق أوجيلفي لم يكن موجودًا على الإطلاق في الوقت الحاضر، فإذ به يبعث من الماضي، وبمجرد أن ينسى التزييف فإنه سيكون موجودًا رسميًّا وبنفس الوضوح مثل شارلمان ويوليوس قيصر.

الفصل الخامس

كان المقصف ذو السقف المنخفض يقع في أحد الطوابق الأرضية تحت البناء، حيث أخذ طابور الغداء يتحرك ببطء، وقد امتلأت القاعة بالناس في ضوضاء تكاد تصم الآذان، وامتلأ الجو بأبخرة الطعام المطهي المتصاعدة من المكان المعد لإعداد الطعام، والتي كادت رائحته النفاذة تغلب على رائحة خمر النصر «جن»، وفي الجانب البعيد من القاعة ظهر «البار» وهو عبارة عن فتحة في الحائط أعدت لبيع الجن بسعر عشر سنتيمات للجرعة الكبيرة.

واستدار ونستون إلى الخلف على صوت يقول: «هذا هو الرجل الذي كنت أبحث عنه»، كان ذلك صوت صديقه سايم الذي كان يعمل في إدارة الأبحاث، ولم تكن كلمة صديق من الكلمات الصادقة التعبير، فلم يكن لك أصدقاء في هذه الأيام، بل رفاق تجد بينهم من تطيب لك رفقتهم أكثر من غيرهم. وكان سايم من الفلاسفة المتخصصين في اللغة الجديدة، وكان أحد أفراد الفريق الكبير من الخبراء الذين عهد إليهم وضع النسخة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة، وكان نحيف البنية أصغر من ونستون، ذو شعر ناعم طويل، وعيون بارزة حزينة ساخرة تتفرس في وجهك بإمعان وهو يتحدث إليك. وقال مخاطبًا ونستون:

كنت أريد أن أسألك إن كنت قد حصلت على أية شفرات حلاقة؟» وأجاب ونستون» بسرعة: «ولا واحدة... لقد بحثت في كل مكان فلم يعد لها وجود».

وكان صاحبنا يحتفظ خفية بزوج من الشفرات السليمة لاختفائها كلية من محال الحزب منذ شهور خلت، شأن الأدوات الضرورية الأخرى التي ما كانت تمضي فترة من الوقت دون أن تختفي إحداها من محال الحزب، وكذلك كان الحال في الشفرات الآن، وكان ذلك يحدث للأزرار وأحيانًا لخيوط الصوف، وتارة لأربطة الأحذية، وكان يمكنك الحصول على كل هذه الأشياء بتصيدها خلسة من السوق «الحر». وأضاف ونستون كاذبًا:

«إني أستعمل ذات الشفرة منذ ستة أسابيع».

وتحرك الطابور مرة أخرى إلى الأمام، وعندما توقفوا استدار صاحبنا وواجه سايم مرة أخرى، وتناول كل منهم صينية علقت بها آثار الدهن، وذلك من كومة على حافة الحاجز العريض. وسأل سايم قائلًا: «هل رأيت الأسرى معلقين في الهواء بعد تنفيذ الإعدام شنقًا أمس؟» وأجاب ونستون دون اهتمام: «لقد كنت أعمل، وأظن أني سأرى ذلك في الصور» وأجاب سايم: «إحلال غير سديد».

وجالت عيناه الساخرتان فوق وجه ونستون كأنهما تقولان: «إني أعرفك، وأرى ما يعتمل في أعماقك. وأعلم جيدًا جدًّا لماذا لم تذهب لترى هؤلاء الأسرى وهم يشنقون» وكان سايم متطرفًا في عقيدته، يحدثك بسرور وفخر عن غارات الهليكوبتر على قرى الأعداء، وعن محاكمات واعترافات مجرمي الفكر، وعن الإعدام في زنزانات وزارة الحب، وكان من الممكن أثناء الحديث معه البعد به عن مثل تلك الموضوعات، واستدراجه بقدر الإمكان إلى النواحي الفنية للغة الجديدة التي كان متمكنًا منها. وأدار ونستون رأسه جانبًا ليتجنب عينيه المتفرستين، إلا أن سايم ابتدره قائلًا: «لقد كان الإعدام شنقًا جيدًا وأظن أنهم أفسدوه عندما ربطوا أقدامهم، إذ كنت أفضل رؤيتها وهي ترفس... والأهم هو تدلي اللسان، وقد ازرق لونه، هذا هو ما لفت نظري».

وصاح رجل من عامة الشعب يرتدي فوطة بيضاء وبيده «مغرفة»: «بعده من

فضلك» ودفع سايم وونستون كلٌّ لصينيته من تحت فتحة الطعام، حيث تلقفت كل منهما الوجبة الرسمية، وكانت عبارة عن ملء معيار معدني من الطعام المطهي، رمادي اللون المائل إلى الاحمرار وقطعة من الخبز وأخرى من الجبن، وكوب من قهوة النصر بغير لبن، وقطعة واحدة من السكرين.

وقال سايم: «توجد منضدة هناك أسفل الستار الناقل، هلم بنا إليها؛ لنأخذ كأسًا من الجن ونحن في الطريق»، وقدم لهما الجن في أوعية من الفخار لم تكن لها مقابض، ثم اتخذا طريقهما عبر الغرفة المزدحمة، ووضع كلٌّ صينيته على وجه المنضدة المعدني، وفي أحد الأركان ترك أحدهم بركة من المرق كانت عبارة عن سائل قذر خليط يشبه القيء، وتناول ونستون وعاء الخمر وانتظر برهة ليستجمع أعصابه، وابتلع السائل الذي يشبه الزيت في مذاقه، وبعد أن أزال الدموع من عينيه اكتشف فجأة أنه جوعان وابتدأ يبتلع «الطبيخ» بالملعقة وكان يعثر فيه على أشياء مكعبة كقطع إسفنجية مائلة للاحمرار، لعلها كانت قطعًا من اللحم.. هذا ولم ينبس أحدهما ببنت شفة حتى فرغا من تناول طعامهما.

وكان ينبعث من المائدة التي على يسار ونستون وإلى الخلف قليلًا، صوت شخص يتكلم بسرعة في ثرثرة خشنة تشبه البطة في صياحها، كانت تغطي على الضوضاء العامة المتصاعدة من رواد المقصف.

وتكلم ونستون بصوت مرتفع حتى يتغلب على الضجيج: «إلى أي حد وصل القاموس؟» وأجاب سايم: «ببطء وإني أعالج الصفات الآن، وإنه ليبدو مدهشًا» وتهلل وجهه في الحال عند ذكر كلمة اللغة الجديدة، ودفع بصينيته جانبًا وأمسك بقطعة الخبز في يده الرقيقة، وبقطعة الجبن في الأخرى، ومال فوق المائدة؛ حتى يتمكن من الكلام دون صياح وقال: «إن الطبعة الحادية عشرة هي الطبعة النهائية، فنحن في سبيل الوصول باللغة الجديدة إلى شكلها النهائي، وهو الشكل الذي ستكون عليه عندما لا يتكلم أحد بغيرها، وعندما ننتهي منها سيتعلمها مثلك من جديد، واسمح لي أن أقول إنك تظن أن عملنا الرئيسي هو اختراع كلمات جديدة نحذف منها بالمئات كل يوم، فنحن نختصر في اللغة حتى نصل إلى أصولها، فسوف لا تحتوي النسخة الحادية عشرة على كلمة واحدة تصبح مهجورة قبل سنة 2050».

وقضم بدافع الجوع قطعة الخبز وابتلع مرتين ملء فمه من الخبز، واستمر في حديثه وامتلأ وجهه الأسمر حيوية، وفقدت عيناه تعبيرها الساخر، وأصبحت حالمة، وأضاف قائلًا: «إن تحطيم الكلمات عمل جميل، وأغلب الوقت يضيع في الأفعال والصفات، إلا أنه يمكن الاستغناء عن مئات الأسماء دون أدنى ضرر. إنها ليست فقط المترادفات بل أيضًا الأضداد. وعلى أية حال، ما هو المبرر لوجود كلمة تعني العكس لكلمة أخرى؟ فالكلمة تشتمل على عكسها فلنأخذ مثلًا كلمة «حسن» فإذا كانت لديك كلمة مثل «حسن» فما الداعي لكلمة «رديء» فكلمة «غير حسن» تعطي تعبيرًا أحسن؛ لأنها عكس محدد يفتقر إليه العكس الآخر، ومرة أخرى إذا أردت معنى أقوى لكلمة «حسن» مثل «عظيم» و«فخم» وغير ذلك من المترادفات فكلمة «أكثر حسنًا» تعطي المعنى، فنحن نستعمل تلك الكلمات حاليًا، ولكن في التحوير النهائي للغة الجديدة سوف لا يوجد غيرها. وفي النهاية سيعطي مبدأ الحسن والسوء ست كلمات ولا تنسى أن الفكرة كانت أصلًا هي فكرة الأخ الأكبر».

وغطى وجه ونستون نوع من الحماس الفاتر عند ذكر كلمة الأخ الأكبر، إلا أن سايم استنتج منها في الحال حاجته إلى الحماس، وقال بحزن: «إنك لا تقدر اللغة الجديدة تقديرًا حقيقيًا يا ونستون، حتى وأنت تكتبها، فإنك تفكر باللغة القديمة. لقد قرأت بعض تلك القطع التي تكتبها من حين لآخر في جريدة التايمز، إنها جيدة، لكنها مجرد ترجمة، إنك تستند في قرارة نفسك إلى اللغة القديمة بكل ما فيها من معان غير محددة وأشكال لا

فائدة منها. إنك لا تفهم جمال تحطيم الكلمات، ألا تعلم أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في العالم التي يقل عدد كلماتها كل سنة؟».

ولقد كان من الطبيعي أن يدرك ونستون ذلك، إلا أنه لم يكن يدري ما يقول، ولذا فقد اكتفى بأن ابتسم بلطف. وقضم سايم قطعة أخرى من الخبز الأسود اللون ومضغها بسرعة، واستمر يقول منفعلًا: «ألا ترى أن الهدف الكلي للغة الجديدة هو تضييق نطاق الفكر؟ ففي النهاية ستجعل التفكير الإجرامي مستحيلًا لفظيًا، فلن توجد كلمات للتعبير عنه، فكل فكرة يمكن أن نحتاج إليها سيعبر عنها تمامًا بكلمة واحدة، يتحدد معناها بدقة وتمحى معانيها الإضافية وتنسى. وفي النسخة الحادية عشرة، لسنا بعيدين عن ذلك المعنى، ولكن الإجراءات ستستمر مدة طويلة بعد موتنا، وكل سنة ستقل الكلمات شيئًا فشيئًا، ويقل نطاق الإدراك تبعًا لذلك، وحتى الآن، لا داعي ولا عذر لارتكاب جريمة الفكر، فالمسألة مجرد أن ينظم المرء نفسه، ويتحكم في الحقيقة، وفي نهاية الأمر لن تكون هناك حاجة حتى لاستعمال ذلك، فستصبح الثورة كاملة بمجرد أن تكمل اللغة الجديدة. فأنجسوك هي اللغة الجديدة، واللغة الجديدة هي أنجسوك»، ثم أضاف بسرور خفي: «هل خطر على بالك يا ونستون أن في نهاية سنة 2050 لن يكون هناك شخص واحد على قيد الحياة يمكنه أن يفهم مثل تلك المناقشة التي تدور بيننا الآن»، وقال ونستون مفكرًا «ما عدا...» إلا أنه توقف.

وكان على طرف لسانه أن يقول: «ما عدا العامة» ولكنه راجع نفسه؛ لأنه لم يكن متأكدًا تمامًا ما إذا كانت هذه الملاحظة تخالف المبادئ، ومن المرجح أن سايم أدرك ما كان يريد ونستون أن يقوله، إذ استطرد دون عناية قائلًا: «العامة ليسوا مخلوقات بشرية، فمن المرجح أنه بحلول سنة 2050 ستختفي جميع المعلومات الحقيقية عن اللغة القديمة، وسيذهب كل أدب الماضي وسيبقى كل من شوسر وشكسبير وميلتون وبيرون فقط في تراجم اللغة الجديدة، ولن يتحولوا تمامًا إلى شيء مخالف، بل سيتحولون إلى شيء مضاد لما اعتادوا أن يكونوه، حتى أدب الحزب سيتغير وكذلك الهتافات، إذ كيف تحتفظ بهتاف مثل «الحرية عبودية» بينما مبدأ الحرية يكون قد محي، وفي الحقيقة لن يكون هناك تفكير كما تفهمه الآن، فسلامة المبادئ تعني عدم التفكير أو الحاجة للتفكير، سلامة المبادئ هي اللاشعورية».

واعتقد ونستون اعتقادًا راسخًا أن سايم سيتبخر في يوم من الأيام، نظرًا لحدة ذكائه ووضوح آرائه، ولأنه يتكلم معه بإفاضة تامة والحزب لا يحب ذلك النوع من الناس، ففي يوم من الأيام سيختفي، فذلك مكتوب على وجهه.

وفرغ ونستون من خبزه وجبنه واستدار قليلًا إلى الجانب في مقعده؛ ليشرب قهوته، وكان الرجل ذو الصوت الخشن يجلس إلى المائدة التي وراء ونستون، وكانت سيدة صغيرة تجلس معه، وقد أدارت ظهرها ناحية ونستون، ويظهر عليها موافقتها على كل ما كان يقول، وتنصت إليه بشغف شديد، وربما كانت تعمل كسكرتيرة له، إذ من وقت لآخر كان ونستون يتسمع بعض الملاحظات مثل قولها: «أظنك على حق وأوافقك تمامًا» تنطق بها في صوت نسائي أحمق، وحتى أثناء كلام الفتاة، لم يتوقف الصوت الآخر لحظة واحدة أبدًا. وكان ونستون يعرفه شكلًا ولا يعرف عنه أكثر من أنه يشغل منصبًا مهمًّا في قسم القصص. وكان رجلًا في حوالي الثلاثين من عمره، ذا حنجرة قوية وفم كبير، دائم الحركة، ورأس تميل قليلًا إلى الوراء، ونظرًا للوضع المنحرف الذي كان يجلس فيه، التقطت عويناته الضوء وعكست إلى ونستون دائرتين فارغتين بدلًا من العينين، وكان من المستحيل تمييز كلمة واحدة من سيل الكلمات التي كانت تتدفق من فمه، مما كان يثير الخوف. ومرة واحدة التقط ونستون جملة واحدة «فناء نهائي وكامل لمبدأ جولد شتاين» وكان صوته

يشبه صوت البطة، وكان لا يفتأ يشهر بجولد شتاين، ويطالب بإجراءات حازمة ضد مجرمي التفكير والمجرمين، كما كان يمتدح الأخ الأكبر والأبطال في جبهة مالابار، ومهما كان في الأمر فكان يمكنك أن تقطع بأن كل كلمة من كلماته كانت بعيدة عن المبدأ الصحيح. وانتاب ونستون شعور عجيب بأن ذلك الشخص لم يكن إنسانًا حقيقيًا، بل نوعًا من التماثيل المعدة لعرض الملابس، فلم يكن عقل الرجل هو الذي يتكلم بل حنجرته. وكان الشيء الذي يخرج منه مكونًا من كلمات تخرج دون وعي كصياح البطة.

وسكت سايم لحظة وهو يرسم بيد الملعقة أشكالًا مختلفة في بركة المرق الباقي من الطعام، بينما استمر الصوت الذي يشبه صياح البطة في الانطلاق بسرعة، وكان يسمع بسهولة بالرغم من الطنين المحيط به.

وقال سايم: «توجد كلمة في اللغة الجديدة لا أدري إذا كنت تعرفها، وهي «صياح البطة» أي تتكلم كالبطة، إنها من تلك الكلمات المهمة التي تحوي معنيين متضادين، فإن أطلقت على شخص معارض فهي سبة، وإن أطلقت على شخص مرغوب فيه فهي إطراء.

وللمرة الثانية أدرك ونستون أن سايم لا بد أن يتبخر دون أدنى شك، وغمره شعور بالحزن، ولو أنه كان يعلم باحتقار سايم له وكرهه إياه إلى حد ما، ويعلم مقدرته الفائقة على التشهير به كمجرم فكر، لو وجد أي سبب يدعوه لذلك. وكان هناك شيء من الدقة الخاطئة عند سايم وينقصه شيء من التكتم وحصافة الرأي. وكان لا يمكنك أن تقول عنه إنه لا يؤمن بالمبادئ، بل كان يؤمن بمبادئ أنجسوك ويقدس الأخ الأكبر ويتلذذ بالانتصارات، ولم يكن ذلك بدافع الوفاء، لكن بنوع من المقدرة التي لا تعرف الراحة، ومتتبعًا أول بأول للأخبار التي لا يصل إليها العضو العادي للحزب. وكان يعلق به جو خفيف من سوء السمعة، وقرأ كثيرًا من الكتب، ويتردد على مقهى يسمى «مقهى شجر الكستناء (أبو فروة)» التي يكثر من التردد عليها الرسامون والموسيقيون. ولم يكن هناك قانون ولو غير مكتوب يمنع من التردد على ذلك المكان، ولو أنه كان من الأمكنة المشئومة التي تعود أن يجتمع فيها العجائز وقواد الحزب الذين أصابهم الخزي قبل أن يصيبهم التطهير نهائيًا. وكان جولد شتاين نفسه كما يقال، يُرى هناك في بعض الأحيان منذ عشر سنين. ولو أدرك سايم ولو لمدة ثلاث ثوان طبيعة صديقه ونستون وسره وأفكاره؛ لأبلغ عنه فورًا بوليس الفكر، كما كان يجب على أي فرد آخر أن يفعل في مثل هذه الحالة، لكن سايم كان أكثر استعدادًا للوشاية به من الكثيرين، وكان الإخلاص للمبادئ عنده يعني اللاشعورية. ونظر سايم قائلًا: «ها هو بارسونز قادم».

وكان شيء في نبرات صوته يكاد أن يقول: «الأحمق الكبير». وكان بارسونز يجاور ونستون في مسكنه في فيكتوري مانسون، وشق طريقه عبر الغرفة، وكان يشبه نصف برميل متوسط الحجم، ذو شعر جميل، ووجه يشبه وجه الضفدعة، وعندما بلغ الخامسة والثلاثين، كان الشحم قد تكدس حول رقبته ووسطه، لكن حركاته كانت جادة وصبيانية، ومظهره الكلي يشبه منظر طفل كبير النمو بشكل غير عادي، ورغم أنه كان يرتدي الرداء الرسمي، فقد كان من المستحيل أن تتخيله دون السراويل الزرقاء القصيرة والسترة الرمادية اللون والمنديل الأحمر المحيط برقبته، وهو الزي الخاص بالجواسيس. هذا وتتكون لدى الناظر إليه صورة لركبته المنداة بالعرق وأكمامه الملفوفة إلى الوراء على ساعديه. وكان يحبذ دائمًا ارتداء السراويل القصيرة عندما كان يشترك في رحلة جماعية أو أي نشاط جسماني.

وحياهما قائلًا: «هالو... هالو..» وجلس إلى المائدة وقد انبعثت منه رائحة عرق شديدة، وكان وجهه الأحمر ندي بقطرات من العرق. وأخرج سايم رقعة من الورق سطر عليها عامودًا طويلًا من الكلمات، وأخذ يقرأها وقد أمسك بقلم حبر بين أصابعه.

وغمز بارسونز ونستون قائلًا: «انظر إليه وهو يعمل أثناء ساعات الغداء، أليس هذا هو الحماس نفسه؟ وما هذا الذي تعمله أيها الولد العجوز؟ أظن أنه شيء لا أستطيع فهمه. أيها الولد العجوز سميث، سأخبرك لماذا أتبعك، إنه ذلك الاشتراك الذي نسيت أن تعطيه لي» وقال ونستون وهو يشعر بأن الأمر يتعلق بالمال: «أي اشتراك هذا؟» وكانت المطالبة بالاشتراكات تكاد تستغرق ربع مرتب الفرد، وكانت من الكثرة حتى ليصعب حصرها. ورد بارسونز قائلًا: «إنه ذلك التبرع لأسبوع الحقد، وذلك الاشتراك الذي يجمع من المنازل، وأنا الذي أجمع من سكان المبنى الذي نسكنه. فنحن نبذل كل ما في وسعنا لإخراج استعراض ضخم، وأقول لك إنها لن تكون غلطتي إذا لم يتمكن مبنى فيكتوري مانسون من تقديم أكبر عرض من الأعلام في كل الشارع. لقد وعدتني بدولارين!».

وأخرج ونستون ورقتين علاهما الدهن والقذارة وأعطاهما له، حيث سجلهما في مفكرة صغيرة قائلًا: «وبهذه المناسبة أيها الولد العجوز، لقد سمعت أن وحشي الصغير قذفك بالنبل أمس. لقد أعطيته درسًا جيدًا بسبب فعلته هذه، والحقيقة أني أخبرته بأني سآخذ منه النبل إذا تكرر ذلك مرة أخرى»، فرد ونستون قائلًا:

«أظن أنه كان يشعر بالضيق لعدم خروجه لمشاهدة الإعدام شنقًا!».

«آه، أظن كذلك. فكل من ولدي وحش صغير شرير، لكن إذا تحدثنا عن الحماس، فمن الطبيعي أنه لا يشغلهما إلا الجواسيس والحرب. أتعلم ماذا فعلت ابنتي يوم السبت الماضي عندما كانت وفريقها في رحلة خارج طريق «بركا مستيد؟» لقد تسللت مع فتاتين من فريق الرحلة بعيدًا، وأمضين بعد الظهر وهن يتتبعن رجلًا غريبًا واقتفين أثره لمدة ساعتين خلال الغابات، وأخيرًا عندما وصلن إلى «امرشام» سلمته إلى الداورية. وتساءل ونستون وقد أخذته الدهشة: «ولماذا؟» واستطرد بارسونز بفخر يقول: «لقد تأكدت ابنتي أنه من عملاء الأعداء، أسقط بواسطة مظلة هابطة، لكن المهم هو الآتي أيها الولد العجوز! ما الذي دفعها إلى متابعته من المكان الذي رأته فيه أولًا؟ لقد اكتشفت أنه يرتدي حذاء غريب الشكل، كما قالت إنها لم تر أحدًا يلبس حذاء مثله من قبل، مما يوحي بأنه أجنبي. هذا عمل مجيد لجاسوسة في السابعة من عمرها!!».

وقال ونستون: «ماذا حدث للرجل؟» فرد بارسونز: «هذا ما لا أعلمه، ولكن لن أدهش إذا...» وأشار بارسونز بيده في حركة من يصوب بندقية، وأحدث صوتًا بلسانه ليعبر عن صوت الطلقة، وصاح سايم دون أن يرفع نظره عن قطعة الورق. وقال ونستون موافقًا بحكم الواجب: «بكل تأكيد، فيجب ألا يترك الأمر للظروف» وقال بارسونز: «إن ما أقصده هو أن الحرب قائمة».

وانطلق صوت النفير من الستار الناقل الموضوع فوق رؤوسهم كأنه يؤكد هذا القول، ومع ذلك فإن ما صدر من الستار لم يكن إعلانًا عن نصر حربي، بل كان إعلانًا من وزارة الرخاء، فصاح صوت شاب متحمس قائلًا: «أيها الرفاق، انتبهوا! فإن لدينا أخبارًا عظيمة، لقد كسبنا معركة الإنتاج، فقد أكملت الكشوف الخاصة بإنتاج جميع أنواع السلع المعدة للاستهلاك، وهي تثبت أن مستوى المعيشة ارتفع بما لا يقل عن عشرين في المائة عما كان عليه في السنة الماضية، وفي هذا الصباح عمت أوشانيا جميعها مظاهرات فرح، فخرج العمال صفوفًا من مصانعهم ومكاتبهم، وقاموا باستعراض في الشوارع حاملين الأعلام، معبرين عن امتنانهم للأخ الأكبر للحياة الجديدة السعيدة التي وهبتها لنا قيادته الرشيدة.. والآن نقدم لكم الأرقام التكميلية.. مواد الطعام..».

وتكررت جملة «حياتنا الجديدة السعيدة» مرات عديدة، كتعبير عن إخلاص وزارة الرخاء، وجذب صوت النفير انتباه بارسونز وجلس يستمع بخشوع فاغرًا فاه، ولم يكن

يفهم ما تعبر عنه الأرقام، بل كان يدرك أنها شيء يبعث على الرضاء، وأخذ يفرغ غليونه الكبير القذر المملوء دخانًا محترقًا، ولما كان مقرر الدخان عبارة عن مائة جرام أسبوعيًا لا يسمح بملء الغليون حتى نهايته، فقد اكتفى بملء نصفه، بينما كان ونستون يدخن إحدى سجائر النصر، وقد أمسك بها أفقيًا بعناية، ولم يتبق معه إلا أربع سجائر، حتى يتسلم حصته المقررة في اليوم التالي، وصرف ذهنه حاليًا عن الاستماع إلى الأصوات البعيدة مستمعًا إلى الكلام الفارغ الذي كان ينساب من الستار الناقل والذي كان يفهم منه قيام مظاهرات تهتف بشكر الأخ الأكبر على زيادة مقرر الشيكولاتة إلى عشرين جرامًا في الأسبوع. فهل كان من الممكن أن يبتلعوا ذلك؟ ولم يمض إلا أربع وعشرون ساعة؟ نعم، لقد ابتلعوه وكذلك بارسونز، صدق ذلك بسهولة وبغباء كغباء الحيوان، وكذلك المخلوق الذي لا عيون له الجالس على المائدة الأخرى، فقد ابتلعها بتعصب وحماس ورغبة وحشية في التشهير وفي تبخير أي شخص يظن أن المقرر في الأسبوع الماضي كان ثلاثين جرامًا. أما سايم فقد ابتلع ذلك على طريقته المعقدة المشتملة على ازدواج التفكير. أكان هو الوحيد الذي يحتفظ بذاكرته؟

واستمرت الإحصاءات الخرافية تنهمر من الستار، وبمقارنتها بالسنة الماضية يتضح وجود زيادة في الطعام والملابس والمنازل وأثاثاتها وأواني الطهي والوقود، لقد كانت زيادة في كل شيء ما عدا الأمراض والجريمة، كما كان التقدم يطرد سنة بعد سنة ودقيقة بعد أخرى، وتناول ونستون ملعقته مقلدًا سايم، وأخذ يعبث في المرق الباهت اللون، وقد سال فوق المائدة راسمًا خطًّا طويلًا، وأخذ يتأمل في قاعة الطعام ذات السقف المنخفض والحجرة المزدحمة والحوائط القذرة بسبب ما احتك فيها من أجساد لا حصر لها، وقد صفت فيها المناضد المعدنية والكراسي المحطمة التي كانت متقاربة جدًّا من بعضها حتى لتجلس عليها وقد لمس مرفقك مرفق جارك، والملاعق المثناة والصواني المشرشرة والأواني البيضاء القذرة، وقد كسى الدهن كل شيء ذي سطح، والأقذار في كل شق والروائح الحامضة النافذة المتصاعدة من الخمر الرديء والقهوة الرديئة والملابس القذرة، ومن ثم، كان الاحتجاج يظهر دائمًا في المعدة وعلى البشرة، وكنت تشعر بأنك قد سلبت شيئًا من حقك. ولم تكن لدى ونستون ذكريات ما عن أي شيء يختلف كثيرًا عن الحاضر، ففي أي وقت لم يكن لديه طعام كافٍ لغذائه، ولم يمتلك إطلاقًا جوارب أو ملابس داخلية خالية من الثقوب في أي وقت يمكن أن ترجع إليه ذاكرته. وكان الأثاث دائمًا محطمًا ومتداعيًا، والحجرات قليلة التدفئة وأنفاق القاطرات دائمة الازدحام، والمنازل تتساقط جزءًا جزءًا، والخبز أسود اللون، والشاي شحيحًا، والقهوة ذات طعم قذر، والسجائر قليلة، والأسعار مرتفعة، والأشياء نادرة إلا النوع الوحيد من الخمر (الجن)، وكان ذلك يزداد سوءًا كلما تقدم الجسم في العمر، حيث يمرض قلب الإنسان بسبب عدم الراحة والقذارة، وندرة الأشياء، وفصول الشتاء الطويلة، والجوارب التي يتسرب إليها الماء، والمصاعد الكهربائية التي لا تعمل أبدًا، والماء البارد والصابون الذي يلهب الجلد، والسجائر التي تتحول إلى قطع صغيرة، والطعام الرديء. أليس هذا دليل كاف على أن الوضع الحالي لم يكن وضعًا طبيعيًا؟ فلماذا إذا كان المرء يشعر بعدم قدرته على احتمال ذلك، ما لم تكن لديه ذاكرة وراثية تنبئه بأن تلك الأشياء كانت على عكس ذلك في يوم من الأيام التي خلت؟

وجال بنظره مرة أخرى في قاعة الطعام، فرأى القبح يظهر على كل شخص، ويظل ذلك حتى ولو ارتدى لباسًا غير الرداء الرسمي الأزرق. وفي الجانب البعيد من الغرفة كان رجل صغير يجلس وحيدًا على مائدة وهو يحتسي قدحًا من القهوة ويشبه الخنفساء إلى حد كبير، بينما كان يردد الطُرف بين الحاضرين وقد انبعثت من عينيه نظرات تدل على الريبة. وخطر ببال ونستون أنه من السهل عليك، إن لم تتلفت حواليك، أن تؤمن بأن النموذج البدني الذي حدده الحزب كمثل أعلى هو الشاب طويل القامة مفتول العضلات، والعذارى غائرات الصدور شقراوات الشعر، وقد امتلأن حيوية ولفحت وجوههن الشمس

واتصفن بالاندفاع، والحقيقة أن ذلك كان بعيدًا جدًّا عن تقديره، فمعظم الناس في (ايرستريب رقم 1) كانوا صغار الجسم، عابسين غير متناسقين، كما كان من العجيب أن يتكاثر وجود مثل ذلك الشخص الذي يشبه الخنفساء في الوزارات، وكان من أحسن النماذج التي تزدهر تحت رعاية الحزب: رجال ضمرت أجسادهم يشبهون الدمى، ثم يترهلون وما زالوا في عنفوان الشباب، ذوي أرجل قصيرة وحركات سريعة ووجوه مكتنزة غامضة وأعين ضيقة.

وأعلن نداء النفير نهاية نشرة وزارة الرخاء، وحلت محلها موسيقى صادرة من أدوات نحاسية، واستولت على بارسونز نوبة من الحماس المبهم لمناسبة الانتهاء من إذاعة أرقام الإحصائية، وأخرج غليونه من فمه، وقال وهو يهز رأسه هزة المعرفة: «لقد كانت وزارة الرخاء تعمل عملًا مجيدًا هذه السنة، وبهذه المناسبة، أيها الولد العجوز سميث، أظنك لم تحصل على أية شفرات حلاقة يمكنك أن تعطيها لي؟» فقال ونستون: «ولا واحدة، فما زلت أستعمل نفس الموسي منذ ستة أسابيع».

- آه، أظن ذلك [واعتذر ونستون].

وانطلق الصوت الذي يشبه صياح البطة مرة ثانية، بعد أن توقف مؤقتًا اثناء إذاعة إعلان وزارة الرخاء، وكان في هذه المرة أكثر ارتفاعًا من ذي قبل، ولسبب ما، وجد ونستون نفسه يفكر في السيدة بارسونز بشعرها الذي يشبه شعر المذبة، والغبار الذي يملأ تجاعيد وجهها، ففي بحر سنتين سيشي بها طفلاها لدى بوليس الفكر ثم تتبخر، وكذلك سيتبخر كل من سايم وونستون وأوبرين. ومن الناحية الأخرى، فلن يتبخر بارسونز ولا المخلوق معدوم العينين ذو الصوت الذي يشبه صياح البطة، وكذلك لن يتبخر الرجال الذين يشبهون الخنافس والذين يتنقلون بسرعة ويتحركون برشاقة خلال ممرات الوزارات التي يتيه فيها الإنسان، ولا الفتاة ذات الشعر الأسود التي كانت تعمل بقسم الصور، ومع أنه قد خيل إليه أنه يعرف بالغريزة من سيبقى ومن سيهلك، إلا أنه لم يكن من السهل أن يعرف ما هو ذلك المصير الذي ينتظر الباقين على قيد الحياة.

وفي تلك اللحظة استيقظ من تأملاته على أثر حركة فجائية بدرت من صاحبته ذات الشعر الأسود التي كانت تجلس إلى المائدة التالية، إذ استدارت قليلًا في مقعدها وهي ترمقه بجانب عينيها محملقة فيه بشدة غريبة، وما كادت عيناها تلتقي بعينيه حتى أشاحت بوجهها بعيدًا.

وغمر العرق ظهر ونستون وتخلص بسرعة مما استولى عليه من رعب مخيف ترك وراءه شعورًا بالقلق والضيق. وأخذ يتساءل: لماذا كانت تراقبه؟ ولماذا تستمر في متابعته؟ ولسوء الحظ لم يستطع أن يتذكر منذ متى كانت في مكانها هذا، هل كانت به قبل وصوله أو بعده. وبالأمس كانت تجلس أيضًا خلفه أثناء عرض دقيقتي الحقد، رغم عدم وجود حاجة ظاهرة إلى ذلك. والتفسير الصحيح لذلك هو أن هدفها الحقيقي كان أن تستمع إليه؛ لتتأكد مما إذا كان يصيح عاليًا بما فيه الكفاية أم لا.

وعاودته فكرته السابقة عنها: فمن المرجح، أنها لم تكن عضوًا في بوليس الفكر، بل كانت على وجه التحديد جاسوسة هاوية أشد خطرًا من الجميع، ولم يعرف كم مضى من الوقت وهي تنظر إليه، ربما كان ذلك لمدة خمس دقائق لم تكن فيها تعبيرات وجهه كما يجب أن تكون عليه، فإن تترك لأفكارك العنان أثناء وجودك في مكان عام أو في نطاق الستار، كان مصدر الخطر مرعب قد يودي بك. فإن أتفه الحركات منك تفسر على أنك تخفي شيئًا غريبًا، كحركة عصبية أو نظرة غير إرادية قلقة، وكان إذا ظهر على وجهك تعبير لا يتفق وما كان يجب أن يكون عليه حسب الحال (كأن يظهر عليك الارتياب عند

إعلان نصر، مثلًا) يعتبر ذلك ذنبًا يستوجب العقاب، وكان لذلك كلمة في اللغة الجديدة «مقدمة جرم».

وأدارت له الفتاة ظهرها مرة أخرى، وربما رغم كل ذلك، لم تكن تراقبه حقيقة، وربما كان من المصادفات، أن تجلس بالقرب منه يومين متتاليين. وانطفأت سيجارته فوضعها على حافة المائدة على أن ينتهي من تدخينها بعد العمل، إذا تمكن من المحافظة على ما فيها من دخان، ومن المرجح جدًّا أن يكون الشخص الذي على المائدة التالية من جواسيس بوليس الفكر، ومن المرجح أيضًا أن يدخل زنزانة وزارة الحرب خلال ثلاثة أيام، لكن عقب السيجارة لا يجب أن يضيع هباء.

وأعاد سايم قصاصة الورق إلى جيبه بعد أن طواها، وابتدأ بارسونز يتحدث ثانية وقال وهو يدير مبسم غليونه: «هل سبق أن أخبرتك أيها الولد العجوز عن تلك المناسبة عندما أشعل ولديّ النار في رداء سيدة السوق العجوز، إذ رأياها تلف (السجق) في إعلان عليه صورة للأخ الأكبر؟ وإذ تسللا وراءها وأشعلا فيها النيران بعلبة من الثقاب. لم يعرفا كيف يحرقاها جيدًا! ياللوحشين الصغيرين! إن التدريب الذي يلقنونه إياهم هذه الأيام من أعلى مستوى- إنه أحسن من التدريب الذي كان سائدًا في أيامي- لقد زودوهم أخيرًا بسماعات أُذُن؛ ليسترقوا السمع من خلال ثقوب الأبواب، وفي إحدى الليالي أحضرت ابنتي واحدة منها وأجرته على ثقب باب غرفة جلوسنا، وتبينت أنها كانت تسمع ضعف ما كانت تسمع بوضع الأذن المجردة على الثقب، وواضح أن ذلك ما هو إلا لعبة، ومع ذلك فإنها تعطيهم الفكرة الصحيحة».

وفي تلك اللحظة صدر من الستار الناقل صفير حاد كإشارة للعودة إلى العمل، ووقف الرجال الثلاثة على أقدامهم لينضموا إلى الصراع القائم حول المصعد، وسقط الدخان الباقي من سيجارة ونستون.

الفصل السادس

وكان ونستون يكتب في مفكرته:

كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت، وكان الوقت مساء والظلام مخيمًا، وفي شارع» جانبي ضيق كانت تقف، بالقرب من أحد الأبواب التي في الحائط تحت أحد مصابيح الشارع الضئيلة الإضاءة، امرأة ذات وجه صغير عليه طلاء كثيف من النوع الذي يروقني في بياضه الذي يشبه القناع والشفاه الحمراء اللامعة، وكان نساء الحزب لا يطلين وجوههن أبدًا، ولم يكن هناك أي شخص آخر في الشارع الذي خلا من الستار الناقل. وقالت ...دولارين«.

وعندما وصل في كتابته إلى ذلك، كان من الصعب عليه أن يستمر، فأغلق عينيه وضغط عليهما بأصابعه محاولًا أن يمحو المنظر الذي ظل ماثلًا في مخيلته، وطغت عليه رغبة جامحة في أن يأتي بعمل عنيف صاخب، كأن يصيح بأعلى صوته، أو أن يضرب رأسه في الحائط ويلكز المنضدة ويقذف بالمحبرة خارج النافذة؛ ليحجب تلك الصورة التي كانت تعذبه.

وأخذ يردد بينه وبين نفسه: إن ألد أعدائك هو جهازك العصبي، فإن ما يعتمل في نفسك من توتر في أية لحظة خليق بأن يعبر عن نفسك بأية صورة مرئية. وتذكر رجلًا مر به في الطريق منذ بضعة أسابيع مضت، كان منظره عاديًا تمامًا، وهو عضو في الحزب يبلغ من العمر حوالي الخامسة والثلاثين أو الأربعين، طويل القامة نحيفها ويحمل حقيبة عادية، وإذ كان يبعد كل منهما عن الآخر بضعة أمتار، التوى فجأة الجانب الأيسر من وجه الرجل في حركة عصبية، وتكرر ذلك ثانية عندما مر كل منهما بالآخر، وكانت تلك الحركة عبارة عن تقلص عضلي خاطف كالسرعة التي يغلق بها مفتاح آلة التصوير، وكان من الواضح أن تلك الحركة من عاداته، وتذكر ما خطر على باله حينئذ إذ تساءل عن السبب الذي أدى بذلك الرجل المسكين إلى هذه الحال. إذ كان المخيف في الأمر أنه من الجائز جدًا أن تكون تلك الحركة لا إرادية. والأخطر من ذلك خطر الموت أن تتكلم أثناء نومك فلم تكن هناك وسيلة للاحتراس منه. والتقط أنفاسه واستمر يكتب:

وذهبت معها من خلال المدخل عبر فناء خلفي إلى مطبخ في الطابق الأرضي حيث» ...كان هناك فراش بجانب الحائط ومصباح ضئيل الضوء فوق المنضدة وهي«.

وصر بأسنانه وود لو استطاع أن يبصق، وبينما هو مع هذه المرأة في مطبخ الطابق الأرضي، إذ خطرت زوجته كاترين بباله، فقد كان ونستون متزوجًا- كان متزوجًا على أية حال- ومن المحتمل أنه كان لا يزال متزوجًا؛ لأنه كان يعلم أن زوجته لم تمت بعد، وخيل إليه أنه يستنشق مرة أخرى الرائحة الساخنة المتصاعدة من مطبخ الطابق الأرضي، وهي رائحة مختلطة برائحة البق والملابس القذرة وبعبير رديء لعطر رخيص، إلا أنه كان معزيًا على أية حال؛ لأنه ما من امرأة في الحزب استعملت العطر إطلاقًا، كما لا يمكن لأي شخص أن يتصور أنها تستطيع أن تفعل ذلك، بل كان ذلك قاصرًا على عامة الشعب، وكانت تلك الرائحة تتوارد في ذهنه مع الزنا دون أن يدرك لذلك سببًا.

وكانت مرافقته لتلك المرأة هي تجربته الأولى منذ سنتين تقريبًا. فبكل تأكيد كان الاجتماع بالمومسات ممنوعًا وخطيرًا، إلا أنه لم يكن مسألة حياة أو موت، بل كان من القواعد التي يمكن الخروج عليها من حين لآخر بشيء من المضايقة، فإذا قبض عليك مع إحداهن ولم تكن قد ارتكبت ذنبًا آخر، فجزاؤك قضاء ما لا يزيد عن خمس سنوات في أحد معسكرات العمل الإجباري، الأمر الذي كان من السهل الإفلات منه بأن تتجنب القبض عليك

متلبسًا بالجريمة. وكانت الأحياء الفقيرة تعج بالعاهرات، وبعضهن كان الممكن قضاء وطرك معهن نظير زجاجة من الخمر (جن) الذي كان يمتنع شربه على عامة الشعب. وكان هدف الحزب الحقيقي هو تشجيع الدعارة للتنفيس عن الغرائز التي كان من المستحيل كبتها جميعًا على الدوام، وما كان ينظر للدعارة على أنها دعارة، ما دامت تتم بين نساء الطبقة الوضيعة المحتقرة في الخفاء ومجردة من أي شعور باللذة، وكانت جريمة الاختلاط الجنسي من الجرائم التي لا تغتفر إذا وقعت بين أفراد الحزب. هذا ولو أن المتهمين في حملات التطهير الكبرى كانوا يجبرون دون استثناء على الاعتراف بها، إلا أنه كان من الصعب أن يخطر على البال أن ذلك كان من الأفعال التي حدثت فعلًا.

ولم يكن هدف الحزب مجرد منع الرجال والنساء من أن يخلصوا لبعضهم بشكل يمكنه من السيطرة عليهم، وإنما كان غرضه الحقيقي المستتر هو تجريد العملية الجنسية من كل لذاتها. ولم يكن الحب هو العدو بقدر ما كانت الشهوانية، سواء في حالة الزواج أو في حالة الاتصال الجنسي غير المشروع. وكانت هناك لجنة كونت خصيصًا لتعرض عليها جميع حالات الزواج الخاصة بأعضاء الحزب، ورغم أن المبدأ الذي كانت تتبعه هذه اللجنة في إصدار موافقتها لم يكن معروفًا، إلا أن التراخيص كانت ترفض دائمًا إذا بدا من الخطيبين أن هناك جاذبية بدنية بينهما. وكان ينظر إلى الاختلاط الجنسي على أنه عملية تافهة تدعو للاشمئزاز تمامًا كعملية تناول حقنة ما. ولم يكن يعبر عن ذلك بكلمات واضحة، بل كان كل عضو في الحزب يفهم ذلك منذ طفولته المبكرة، ولذلك أيضًا أنشئت منظمات كمنظمات الشباب المناهض للغريزة الجنسية، التي كانت تدافع عن العزوبة الكاملة للجنسين، وتطالب بإنجاب الأطفال بطريقة التلقيح الصناعي، على أن يعهد بهم بعد ذلك إلى معاهد عامة. وكان ونستون يدرك أنهم غير جادين في قصدهم هذا، إلا أن مثل ذلك القول كان يلائم، بطريقة ما، مثالية الحزب الذي كان يحاول قتل الغريزة الجنسية، وإن استحال ذلك، فعلى الأقل يضفي عليها شكلًا مشوهًا قذرًا. وبقدر اهتمام المرأة بمثل تلك النظريات كانت جهود الحزب تكلل بالنجاح.

وعجب لنفسه كيف لم يعد يذكر كاترين إلا نادرًا، وقد عاودته ذكراها الآن بعد أن انفصل عنها حوالي عشر أو أحد عشر عامًا تقريبًا. وكان من الممكن أن تمر أيام كاملة دون أن يخطر بباله أنه كان متزوجًا منها في يوم من الأيام، بل كل ما في الأمر أنهما اجتمعا معًا لمدة خمسة عشر شهرًا تقريبًا. ولما كان الحزب لا يقر الطلاق فقد انفصلا، الأمر الذي كان يقره الحزب في الحالات التي لم ينجب فيها الزوجان أطفالًا.

وكانت كاترين فتاة طويلة القامة ناعمة الشعر رشيقة الحركة ذات وجه يدل على القحة وأنف معقوف.. كان وجهها من تلك الوجوه التي يخالها المرء نبيلة حتى يكتشف أنها لا تنم عن شيء. وكان قد قرر منذ أيام زواجهما الأولى (ربما كان قد تزوجها لوجود علاقة ودية بينهما أكثر مما بينه وبين أي شخص آخر) أنها تمتلك دون نظيراتها أكثر العقول التي قابلها إسفافًا وجهلًا. ولم تكن برأسها أية فكرة تخرج عن الهتافات الرنانة للحزب، وكان يطلق عليها بينه وبين نفسه «شريط الصوت البشري» ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يحتمل الحياة معها لولا شيء واحد: العلاقة الجنسية.

وكان يخيل إليها أنها تفزع منه ويتيبس جسدها عندما يقترب منها، فإذا احتضنها فكأنه يحتضن صورة خشبية شدت بمفاصل، وحتى إذا احتضنته كانت كأنها تدفعه بعيدًا بكل قوتها، وكانت صلابة عضلاتها تساعد على نقل ذلك الشعور الغريب إليه. ثم ترقد مغمضة العينين دون مقاومة أو رغبة في التعاون معه، بل كانت تقف موقفًا سلبيًا كان يسبب له شعورًا غريبًا بالضيق لا يلبث أن يتحول إلى شيء فظيع. وكان على استعداد لأن يبقي على عشرتها ويعيشا كأعزبين، إلا أنها رفضت ذلك الوضع بقولها إن عليهما أن ينجبا

طفلًا، ومن ثم استمرت العملية تتكرر بانتظام مرة كل أسبوع كلما كان ذلك ممكنًا، كما كانت تذكره بها صباحًا على أنها أمر لا مفر منه مساءً. وكانت تطلق على هذه العملية عبارة «صناعة طفل» أو عبارة «واجبنا نحو الحزب» أجل، وإنه لحق أنها استعملت ذلك التعبير، وسرعان ما كان ينتابه شعور بالخوف كلما حل اليوم الموعود، وانتهى الأمر عندما شاء حسن الحظ ألا ينجبا طفلًا، فكفت عن هذه المحاولة، وما هي إلا فترة أخرى حتى افترقا.

وتنهد ونستون بصوت منخفض، والتقط قلمه وابتدأ يكتب ثانية:

«وألقت بنفسها على الفراش، وفي الحال وبدون مقدمات، وبطريقة في منتهى الفظاعة والخشونة، يمكنك أن تتصورها، رفعت ثوبها، وأنا...».

ووجد نفسه يقف تحت ضوء المصباح الخافت وامتلأت خياشيمه برائحة البق والعطر الرخيص، وقلبه بشعور المغلوب على أمره الحانق والذي اختلط، حتى في تلك اللحظة، بذكرى جسد كاترين البارد أبدًا بتأثير قوة الحزب الإيحائية. وتساءل: لماذا تكون دائمًا كذلك؟ لماذا لا تكون له امرأة تخصه بدلًا من تلك المعارك التي تتكرر على فترات على مدى العام؟ كان مباشرة العملية الجنسية على أصولها حدثًا لا يمكن التفكير فيه، إذ كانت نساء الحزب جميعًا متشابهات، فقد استولى عليهن الورع بحكم الولاء للحزب عن طريق التكييف الذهني المبكر والمعلومات الفارغة التي كانت تزجى إليهن في المدارس وفي هيئات الجواسيس، وهيئات الشباب المناهض للغرائز الجنسية، وفي المحاضرات وفي الاستعراضات والأغاني، علاوة على جمل الحزب الرنانة، كما كان ينتزع منهن كل شعور طبيعي. وكان عقله يؤكد له أن هناك استثناءات لذلك، ولكن قلبه لم يصدقه، إذ كن جميعًا متحصنات كما شاءت ذلك إرادة الحزب. وكان غاية آماله أن يستطيع أن يحطم حصن الفضيلة ولو مرة واحدة في حياته كلها. ولما كانت ممارسة العملية الجنسية على أصولها الطبيعية تعتبر عصيانًا، فإن الرغبة في امرأة ما كانت تعتبر جريمة فكر.

فحتى لو أمكنه إيقاظ زوجته كاترين من سباتها، فإنه يكون بذلك قد ارتكب الفحشاء رغم أنها كانت زوجته.

وآن الوقت لكتابة باقي القصة وكتب:

«وأطفأت المصباح، وعندما رأيتها في الضوء....».

وبعد أن خيم الظلام ظهر ضوء المصباح الزيتي كأنما ازداد توهجًا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها بوضوح، وتقدم نحوها خطوة ثم توقف وقد امتلأ رغبة فيها يشوبها الرعب؛ لإدراكه الخطر الذي تعرض له بحضوره إلى ذلك المكان، إن كان من المحتمل أن يقبض عليه أثناء خروجه، وربما كان رجال الداورية في انتظاره خارج الباب الآن، حتى ولو خرج دون أن يقربها..!

وكان ما رآه فجأة في ضوء المصباح عبارة عن امرأة عجوز التصقت بوجهها طبقة سميكة جدًا من طلاء الزينة، حتى ليخيل للناظر أنها على وشك أن تتشقق كقناع من الورق المقوى، وظهرت خيوط بيضاء في شعرها، وعندما انفرج فمها قليلًا لم يكشف اللهم إلا عن فراغ كفراغ الكهف يبعث منظره على الخوف إذ كانت بلا أسنان. وشعر أن ذلك ما حدث له إلا ليكتبه ويعترف به.

وأخذ يكتب بسرعة بخط غير منتظم.

«وعندما رأيتها في الضوء تبين أنها امرأة عجوز لا يقل سنها عن الخمسين ولكني

تقدمت منها وباشرتها كالمعتاد».

وضغط بأصابعه على جفنيه ثانية، إذ لم يأت العلاج بثمرته المرجوة ولم يغير شيئًا، فما زال يشعر برغبة جامحة إلى الصياح بكلمات دنيئة بأعلى صوته.

وكتب ونستون:

«إذا كان هناك أي أمل، فإنه يكمن بين العامة».

لو كان هناك أمل لوجب أن يكمن بين العامة؛ لأنه بين تلك الكتل الحاشدة التي يتكون منها خمسة وثمانون في المائة من شعب أوشانيا، يمكن خلق القوة التي تدمر الحزب، مهما طال به الزمن، فقد كان من المستحيل القضاء على الحزب عن طريق أعضائه، كما كان أعداؤه- هذا لو كان له أعداء- لا يمكنهم أن يتجمعوا أو حتى يتعارفوا، وحتى على فرض صدق أسطورة (الإخوة) وأنها موجودة حقًّا، فإنه كان من المفهوم أن أعضاءها لا يمكنهم أن يتجمعوا في عدد يزيد على اثنين أو ثلاثة أشخاص، وكان أمر الثائر يكتشف من نظرة في عينيه أو رعشة أو همسة بكلمة عابرة، لذلك لو أمكن للعامة أن يدركوا قوتهم الحقيقية، لما كانت هناك حاجة للتآمر، بل كل ما كان يحتاجه الأمر، هو أن ينفضوا عن أنفسهم كما ينفض الحصان الذباب بعيدًا، ولو شاءوا لأحالوا الحزب هشيمًا تذروه الرياح بين عشية وضحاها، ولا بد أن يخطر لهم ذلك إن عاجلًا أو آجلًا... ومع ذلك..!

وتذكر ما حدث مرة بينما كان يسير في شارع مزدحم، عندما انبعث صياح مدوّ لمئات الأصوات (أصوات نساء) من شارع جانبي، كانت صرخة غضب ويأس قوية وكبيرة، عميقة ومرتفعة، كانت ترن كانعكاس دقات الناقوس، وقفز قلبه ظنًّا منه أنهم بدأوا...! لقد انطلق العامة أخيرًا. وعندما وصل إلى المكان رأى جمعًا من الغوغاء يبلغ عدده حوالي المائتين أو الثلاثمائة امرأة وقد تجمعن حول أكشاك سوق الشارع، وبدا على وجوههن حزن عميق، كأنهن ركاب يواجهون الآخرة على سفينة تغرق. وفي تلك اللحظة تحول القنوط الجماعي إلى مجموعة من المشاجرات الفردية، واتضح له أن أحد تلك الأكشاك كان يبيع مقالٍ صفيحية مشوهة الشكل ورقيقة، وكان من الصعب الحصول على أوعية للطبخ إذ نفدت الكمية في ذلك الوقت على غير انتظار، بينما الفائزات من النساء كن يحاولن الهرب بما أخذن، وبعضًا من النساء يضربوهن، بينما عشرات أخريات يصحن حول الكشك متهمات حارسه بالمحاباة وبإخفاء مقالٍ أخرى في مكان ما. وانبعث صراخ آخر صادر من امرأتين منتفختين وقد أمسكت إحداهن بمقلاة وتحاول كل منهما انتزاعها من يد الأخرى، ومرت برهة وهما تتجاذبانها حتى انفصلت اليد. وكان ونستون يراقبهما باشمئزاز، فمنذ برهة وجيزة انطلقت صرختهن من الحناجر، فيا للقوة المخيفة التي لا تتزعزع...! لماذا لا يصرخن كذلك من أجل شيء له قيمته؟

لا من أجل مقلاة..!

ومضى يكتب:

«وحتى يكمل إدراكهم فسوف لا يثوروا أبدًا ولا يمكن لإدراكهم أن يكمل إلا بعد أن يثوروا».

وغلب على ظنه أنه لا بد من أن يكون ذلك وصفًا مأخوذًا عن أحد كتب النصوص التي وضعها الحزب. وطبعًا كان الحزب يدعي أنه حرر العامة من العبودية، وقبل الثورة كان الرأسماليون يضطهدون الشعب اضطهادًا كبيرًا وكان الشعب جائعًا، يُضرب بالسياط وتجبر النساء على العمل في مناجم الفحم، وكان الأطفال يباعون إلى المصانع وهم في سن السادسة، ومن تعاليم الحزب- تمشيًا مع مبادئ التفكير المزدوج- أن العامة خلقوا بالفطرة من طبقة أدنى، وأنه يجب إخضاعهم كالحيوانات وذلك بتطبيق قواعد بسيطة قليلة، وفي

الحقيقة كان ما يعرف عن العامة قليل، وما كان من المهم معرفة الكثير عنهم ما داموا يعملون ويتكاثرون، ولم تكن هناك أهمية لأي نشاط آخر لهم، فقد ترك لهم الحبل على الغارب كقطيع من البقر ترك طليقًا في مراعي أرجنتينا. لقد ألغوا نوعًا نموذجيًا من الحياة بدا لهم أنه طبيعي، وأنه طابع من حياة أجدادهم، فقد ولدوا في القاذورات، ونشأوا في الأزقة الموحلة، وذهبوا إلى العمل وهم في سن الثانية عشر، ومروا خلال فترة وجيزة من الجمال المزدهر والرغبة الجنسية، وتزوجوا في سن العشرين وبلغوا متوسط العمر في سن الثلاثين، ويموت معظمهم في سن الستين، ويقومون بالعمل البدني الثقيل ورعاية المنزل والأولاد، ويشتركون في مشاجرات تافهة مع الجيران، ويشاهدون الأفلام ومباريات كرة القدم ويحتسون الجعة (البيرة)، وفوق كل ذلك كان الميسر يملأ أفق عقولهم. ومن ثم لم تكن السيطرة عليهم أمرًا عسيرًا، فكان عدد قليل من رجال بوليس الفكر يتنقل بينهم ناشرًا شائعات كاذبة، ويمحو من الوجود الأفراد القلائل الذين يرى منهم مقدرة على أن يصبحوا خطرين، ولم تبذل أية محاولة لتعليمهم العقائد الخاصة بمثالية الحزب، إذ لم يكن من المرغوب فيه أن يكون لدى عامة الشعب وعي سياسي قوي، بل كان كل ما يطلب منهم هو وطنية بدائية يلجأون إليها عند الضرورة، لحملهم على قبول ساعات عمل أكثر أو قبول نقص في المواد التموينية، وحتى عندما كان ينتابهم شعور بعدم الرضى، كما كان يحدث أحيانًا، فإن تذمرهم لم يكن ليؤدي بهم إلى شيء؛ لأنهم كانوا يعيشون بلا مبادئ عامة، ولذلك كانوا يركزون أحزانهم في تظلمات زهيدة محدودة مسالمة، إذ كان أكبر الشرور لا يسترعى انتباههم بصفة دائمة.. ولم يكن لدى معظم عامة الشعب ستائر ناقلة في منازلهم، وحتى البوليس المدني كان لا يتدخل بينهم إلا غرارًا. وكان عدد الجرائم كبيرًا في لندن، عالم كامل وسط عالم من اللصوص وقطاع الطرق ومحترفي الدعارة وتجارة المخدرات والمحتالين من كل نوع، وما كان لذلك أي اعتبار ما دام يجري بين عامة الشعب.

وفي جميع المسائل الأخلاقية، كان يسمح لهم بأن يتبعوا تقاليدهم الموروثة، فلم تكن تفرض عليهم الطهارة الجنسية للحزب، ولا عقاب على الاختلاط الجنسي بينهم، كما كان يسمح بالطلاق وبالعبادات الدينية، إذا أبدى عامة الشعب أية إشارة تفيد رغبتهم فيها، إذ كان لا يرقى إليهم الشك، فقد كان من مبادئ الحزب قوله (عامة الشعب والحيوانات أحرار).

وانحنى ونستون وحك علته المزمنة التي بدأت تسبب له ضيقًا. والشيء الذي كان يتردد على رأسه باستمرار هو عدم قدرته على معرفة ما إذا كانت الحياة الآن تشبه حقيقة ما كانت عليه قبل الثورة. وأخرج من الدرج نسخة من نصوص التاريخ الخاص بالأطفال، وكان قد اقترضها من السيدة بارسونز، وابتدأ ينقل قطعة منه إلى المفكرة:

«في الأيام القديمة، قبل الثورة المجيدة، لم تكن لندن هي تلك المدينة الجميلة التي نعرفها الآن.. لقد كانت مكانًا مظلمًا قذرًا تعسًا حيث يجد الإنسان صعوبة في أن ينال من الأكل كفايته، وحيث مئات بل ألوف من الناس يسيرون حفاة لا يجدون سقفًا ينامون تحته، والأطفال الذين لا يكبرونك سنًا كانوا مجبرين على العمل من أجل سادة قساة يجلدونهم بالسياط إذا أبطأوا، ولا يطعمونهم إلا فتات الخبز الجاف والماء، ووسط ذلك الفقر المدقع، كانت توجد بعض المنازل الجميلة الضخمة ويسكنها قوم أغنياء يقوم على خدمتهم أكثر من ثلاثين خادمًا، وهؤلاء القوم الأغنياء كانوا يسمون بالرأسماليين، كما كانوا مترهلي الأجسام، كئيبي المنظر، وذوي وجوه خبيثة كصورة أحدهم المنشورة على الصفحة المقابلة، ويمكنك أن تراه وقد ارتدى معطفًا طويلًا أسود اللون، وكان يعرف باسم «السترة الرسمية السوداء» وقبعة غريبة لامعة صنعت على شكل مدخنة الموقد، وكانت تسمى «قبعة عالية» ذلك كان الرداء الرسمي للرأسماليين الذين يملكون كل شيء في العالم، وكل من عداهم كان عبدًا لهم. ومن ثم كانوا يمتلكون جميع الأراضي والمنازل والمصانع والأموال،

حتى إذا خرج أحد عن طاعتهم ألقي به في السجن أو فصل من عمله أو مات جوعًا. وإذا تحدث إليهم أي شخص عادي، كان عليه أن يجمع أطراف ثوبه وينحني لهم ويرفع قبعته ويخاطبهم بكلمة «سيدي»، كان رئيس كل هؤلاء الرأسماليين يسمى الملك و.....«.

وكان يعرف باقي ما في الكتاب المصور، فقد كانت فيه إشارة إلى الأساقفة في أرديتهم ذات الأكمام الواسعة، والقضاة في ملابسهم الفضفاضة ورؤوس الأموال المختزنة، وآلة التعذيب التي على شكل عامود به ثقوب لوضع الرأس واليدين، والطواحين التي يديرها الإنسان بنفسه ومأدبة العمدة، وعملية تقبيل أقدام البابا.

وكان هناك شيء له اسم لم يذكر في كتب الأطفال طبعًا، كان هو القانون الذي يعطي الحق لكل رأسمالي أن يضاجع أية امرأة تعمل في أحد مصانعه.

كيف كان يمكنك أن تعرف مقدار ما في ذلك من أكاذيب؟ فقد يكون مستوى الإنسان العادي حقًا أحسن الآن مما كان عليه قبل الثورة. والدليل الوحيد على ما هو عكس ذلك هو الاحتجاج الصامت في قرارة نفسك، والشعور الغريزي بأن الأوضاع التي تعيش فيها كانت مما لا تستطيع معها صبرًا. وأدهشه أن يكون الشيء الحقيقي المميز للحياة الحديثة لم يكن القسوة وعدم الأمن، بل كان العرْيُ والقذارة وعدم الوضوح.

وإذا أمعنت النظر فيما حولك، لتبين لك أن مظاهر الحياة لم تكن تتفق في شيء مع تلك الأكاذيب التي كانت تتدفق من الستار الناقل، ولا مع المثل العليا التي كان الحزب يدعي أنه قد وصل إليها. وكان نموذج الحياة الذي أنشأه الحزب شيئًا ضخمًا مخيفًا وبراقًا، عبارة عن عالم من الصلب والخرسان، والآلات الهائلة والأسلحة المخيفة، وشعب من المحاربين والمتعصبين يسيرون قدمًا إلى الأمام في اتحاد كامل يفكرون تفكيرًا واحدًا متماثلًا، ويهتفون هتافات حزبية واحدة، ويعملون على الدوام، ويقاتلون وينتصرون ويضطهدون، ويبلغ تعدادهم ثلاثمائة مليون من الأنفس ذوي الوجوه المتشابهة. أما الحقيقة المتعفنة، فكانت في المدن كئيبة المنظر، حيث يتحرك قوم يعانون من سوء التغذية جيئة وذهابًا في أحذية يتسرب إليها الماء، ويقيمون في منازل القرن التاسع عشر المزدحمة، والتي تفوح منها دائمًا رائحة الكرنب ورائحة دورات المياه الرديئة. وكان ونستون يفكر وكأنه يتأمل منظرًا عامًا للندن الشاسعة الخربة، مدينة ذات مليون صندوق قمامة، وكان يختلط بذلك كله صورة للسيدة بارسونز، ذات الوجه المجعد والشعر الذي يشبه المنشة، وهي تئن يائسة بسبب ماسورة المجاري المسدودة.

وانحنى صاحبنا وحك قدمه مرة أخرى، وكان الستار الناقل يصم الآذان ليلًا ونهارًا، وهو يدلي بالإحصاءات التي تثبت أن الشعب اليوم لديه الطعام الوفير، والملابس الكثيرة والمنازل العديدة ووسائل الترفيه، وأن أعمارهم قد طالت، وأنهم يعملون ساعات أقل، وأنهم أضخم بنية وأصح عافية وأقوى ساعدًا وأسعد حالًا وأكثر ذكاءً وثقافة من هؤلاء الذين كانوا على قيد الحياة منذ خمسين سنة خلت. هذا ولم يكن من الممكن أبدًا التدليل على صدق أو كذب كلمة واحدة من ذلك، فمثلًا كان الحزب يدعي أن نسبة التعليم في البالغين قد بلغت خمسة عشرة في المائة قبل الثورة، كما ادعى كذلك أن نسبة الوفيات في الأطفال بلغت مائة وست في الألف، بينما بلغت قبل الثورة ثلاثمائة في الألف، وعلى هذا المنوال كانت الإحصاءات تجري شبيهة بمعادلة بسيطة ذات طرفين مجهولين، كما كان من المحتمل جدًّا أن يكون المعنى اللفظي لذلك، أن كل كلمة في كتب التاريخ وكذلك الأشياء التي يقبلها المرء على علاتها، كانت مجرد خرافات، كما كان يعلم أنه ما كان يجب أن يوجد ذلك القانون الذي يبيح للرأسمالي مواقعة أية امرأة كانت تعمل في مصانعه، أو وجود مخلوق يسمى رأسمالي، أو أي رداء مثل القبعة العالية.

فقد تحول كل شيء إلى ضباب وطمس الماضي ونسي ما طمس وأصبح حقيقة. ومرة واحدة في حياته تملك دليلًا قويًّا لا يخطئ لعمل من أعمال التزوير، وأمسك به في يده لمدة ثلاثين ثانية، وربما كان ذلك الوقت سنة 1978، كان ذلك حوالي الوقت الذي انفصل عن كاترين.

وتبتدئ قصة ذلك في منتصف العقد السابع وهو عهد حركة التطهير الكبرى التي أخرج فيها جميع الزعماء المؤسسين للحزب مرة واحدة. وما وافت سنة 1970 إلا ولم يبق أحد منهم عدا الأخ الأكبر، أما الباقون جميعهم فقد قدموا للمحاكمة على أنهم خونة مناوئين للثورة، كما هرب جولد شتاين وظل مختبئًا ولا يعلم أحد مقره.

أما عن الآخرين، فقد اختفى قليل منهم بينما أعدم الباقي، بعد محاكمة علنية صورية قدموا فيها اعترافات بجرائمهم، وكان من ضمن من بقي على قيد الحياة ثلاثة رجال يدعون أرنسون وراذر فورد وجونز، وربما كان ذلك حوالي عام 1965 عندما اعتقل هؤلاء الثلاثة، وكما يحدث عادة، فإنهم قد اختفوا لمدة سنة أو أكثر، فلم يكن أحد يعلم ما إذا كانوا ما زالوا على قيد الحياة، ثم فجأة أُظهِروا مرة أخرى ليتهموا أنفسهم بالطريقة المعروفة، فاعترفوا بالتجسس لمصلحة الأعداء (في ذلك التاريخ كانت أوراسيا هي العدو) وباختلاس الأموال العامة، وبقتل كثير من أعضاء الحزب المخلصين، وبتدبير الدسائس ضد زعامة الأخ الأكبر التي ابتدأت منذ وقت طويل قبل الثورة، وبقيامهم بأعمال التخريب مسببين مصرع المئات والألوف من الناس، وبعد أن اعترفوا بكل هذا عفي عنهم وأعيدوا إلى الحزب، ومنحوا مراكز لا عمل فيها ذات مظهر مهم وكتب ثلاثتهم مقالات طويلة دنيئة في جريدة التايمز، شرحوا فيها أسباب انحرافهم وقطعوا على أنفسهم عهدًا بالإصلاح، ورآهم ونستون بعد أن أفرج عنهم يجلسون في مقهى شجرة الكستناء «أبو فروة»، وتذكر كيف كان يرقبهم من ركن عينه وقد ملأه الافتتان الممزوج بالخوف. لقد كانوا رجالًا يكبرونه سنًّا وبقايا من العالم القديم وآخر الوجوه العظيمة التي تبقت من الأيام الأولى المجيدة للحزب، وقد ظل عالقًا بهم آثار سحر ما أضفاه عليهم كفاحهم تحت الأرض واشتراكهم في الحرب الأهلية، وانتابه شعور بأنه سمع بأسمائهم قبل أن يسمع باسم الأخ الأكبر بسنين عديدة، إذ كانت التواريخ قد بدأت تطمس في ذلك الوقت، ولكنهم كانوا أيضًا خارجين على القانون ومن الأعداء الذين لا يصح الاقتراب منهم، وقضي عليهم بالفناء المؤكد خلال سنة أو سنتين، إذ لم ينج أحد إطلاقًا وقع في يد بوليس الفكر.. لقد كانوا جثثًا في انتظار إعادتها إلى القبر.

ولم يكن من الحكمة أن يرى أحد بجوار مثل هؤلاء الناس، لذلك خلت أقرب الموائد إليهم من رواد المقهى، وكانوا يجلسون وقد خيم عليهم السكون حتى قدمت إليهم الكؤوس التي تفوح منها رائحة القرنفل. وكان مظهر راذر فورد هو الذي تأثر به ونستون، فقد كان كاريكاتوريًّا مشهورًا في يوم من الأيام، ساعدت صوره الهزلية القاسية على إشعال الرأي العام الشعبي قبل وأثناء الثورة، وحتى الآن وعلى فترات متباعدة كانت صوره الهزلية تظهر في جريدة التايمز عديمة الروح لا تبعث على الإقناع، وكانت دائمًا عبارة عن تقليد للموضوعات القديمة كمناظر لمنازل الأحياء المزدحمة القذرة، وللأطفال الجائعين، ولمعارك الشوارع، وللرأسماليين ذوي القبعات العالية، وحتى من وراء المتاريس كان الرأسماليون يظهرون متعلقين بقبعاتهم العالية في مجهود يائس. لقد كان رجلًا ضخمًا ذو شعر كثيف رمادي لزج يشبه معرفة الأسد، ووجه منتفخ مجعد وشفتان غليظتان، ويبدو أنه كان قويًّا جدًّا في يوم من الأيام، إلا أنه قد انحنى جسمه وتهدل وتورم ويتمايل في كل اتجاه ويخيل أنه يكاد يتحطم بمجرد النظر إليه كجبل يتفتت.

ولم يستطع ونستون أن يتذكر الآن كيف أتى إلى المقهى في مثل ذلك الوقت، إذ

كانت الساعة السادسة مساء وكان المكان خاليًا في معظم الأوقات، وكانت تنبعث من الستار الناقل موسيقى صادرة من أدوات نحاسية، بينما جلس الرجال الثلاثة في أماكنهم صامتين دون حراك، وأحضر لهم الساقي أكوابًا أخرى من الجن دون أن تطلب، على المائدة المجاورة وضع صندوق الدومينو وقد أخرجت منه القطع دون أن يبتدئ أحد في اللعب، وعندئذ، وفي مدة لم تتجاوز نصف دقيقة حدث شيء للستار الناقل، إذ تغير اللحن وتغيرت نغمة الموسيقى أيضًا وظهر فيها شيء يصعب وصفه عبارة عن نغمة غريبة تشبه الفرقعة والنهيق أعطاها ونستون في ذهنه اسم «نغم أصفر» ثم ابتدأ صوت من الستار يغني:

......تحت شجرة الكستناء الوارفة .....

......بعتك وبعتني ......

......وها هم يرقدون هناك ونحن نرقد هنا ......

......تحت شجرة الكستناء الوارفة ......

ولم يتحرك أحد من الرجال الثلاثة، وعندما نظر ونستون إلى وجه راذر فورد المحطم رأى الدموع تملأ مقلتيه ولاحظ لأول مرة، وقد استولت عليه رعشة داخلية لم يعرف مبعثها، لاحظ أن لكل من أرنسون وراذر فورد أنفًا مكسورًا.

وبعد فترة وجيزة أُعتقل ثلاثتهم، حيث ظهر أنهم اشتركوا في مؤامرات جديدة حالما أطلق سراحهم، واعترفوا أثناء محاكمتهم الثانية بجميع جرائمهم القديمة مرة أخرى، وأضافوا إليها سلسلة كاملة من الجرائم الجديدة، ثم أُعدموا وسُجل ما لاقوه من مصير ضمن سير الحزب كتحذير للأعقاب، وبعد ذلك بخمس سنوات تقريبًا أي عام 1973، كان ونستون يفض ملفًا من المستندات، كان قد اندفع لتوه من الأنبوبة الهوائية إلى مكتبه، عندما وقع على قطعة من الورق كان من الواضح أنها انزلقت بين الأوراق الأخرى ثم نسيت، وبمجرد أن فردها رأى فحواها، وكانت عبارة عن نصف صفحة نزعت من جريدة التايمز منذ عشر سنوات تقريبًا، وكانت عبارة عن النصف الأعلى للصحيفة، ولذلك حوت التاريخ واشتملت أيضًا على صورة للمندوبين في نيويورك عن بعض أعمال الحزب، وفي وسط الجماعة برز جونز وأرنسون وراذر فورد بوضوح، وعلى كل حال كانت أسماؤهم مكتوبة في أسفل الصورة.

والمهم في الموضوع هو اعترافهم أثناء محاكمتهم الأولى والثانية بوجودهم على أرض أوراسية في ذلك التاريخ، حيث طاروا من مطار سري إلى كندا إلى موعد في مكان من سيبيريا حيث تفاوضوا مع بعض الموظفين العموميين الأوراسيين وأفضوا إليهم بأسرار عسكرية مهمة، والتصق التاريخ بذاكرة ونستون، إذ كان ذلك يوم عيد منتصف الصيف، ولا بد أن تكون القصة كلها مسجلة في أماكن أخرى عديدة كالمعتاد، كما لم يكن هناك إلا معنى واحدًا لكل هذا وهو أن الاعترافات كاذبة.

ومن الطبيعي أن ذلك لم يكن يعد في حد ذاته اكتشافًا، إذ كان ونستون لا يعتقد أيضًا في ذلك الوقت، أن الذين قضي عليهم في حركات التطهير قد ارتكبوا فعلًا الجرائم التي اتهموا بها، ولكن ذلك كان دليلًا ثابتًا، عبارة عن قطعة من الماضي الملغي، مثله مثل قطعة من العظم المتحجر، وقد ظهرت في الطبقة الأرضية غير الصحيحة، وتسبب ذلك في هدم نظرية في علم طبقات الأرض، كما كان ذلك كافيًا لأن يحيل الحزب إلى ذرات في الهواء، لو أمكن بطريقة ما نشرها على العالم وأشهر مدلولها، واستمر في عمله كأن شيئًا لم يحدث، فبمجرد أن رأى ما كان في الصورة وما عنته، غطاها بقطعة أخرى من الورق، ولحسن الحظ كانت مقلوبة إلى أسفل وبعيدة عن نطاق الستار الناقل عندما فضها، فوضع مسند الكتابة

على ركبتيه ودفع بشعره إلى الوراء ليكون بعيدًا عن الستار الناقل بقدر الإمكان. هذا ولم يكن من الصعب أن تحتفظ بجمود وجهك وأن تتحكم في نفسك بمجهود، لكن ما كان ليمكنك أن تتحكم في ضربات قلبك التي كان يسهل على الستار الناقل التقاطها لدقته المتناهية. وانتظر انقضاء عشرة دقائق شعر خلالها بخوف من أن يحدث شيء، كأن يهب تيار هوائي عبر مكتبه فيكشف أمره، إلا أنه ألقى بالصورة دون أن يكشف عنها مع بعض الأوراق المهملة إلى ثقب الذاكرة، ففي خلال دقيقة أخرى تقريبًا تكون قد تحولت رمادًا.

كان ذلك منذ عشرة أعوام أو أحد عشر عامًا خلت. ولو حدث ذلك اليوم لكان من المحتمل أن يحتفظ بتلك الصورة، فقد كان من العجيب أن مجرد إمساكه بها بين أصابعه أثار فيه إحساسًا مغايرًا لما كان عليه من قبل عندما كانت الصورة نفسها والحدث الذي سجلته مجرد ذكرى. وتساءل: تُرى هل أصبحت قبضة الحزب على الماضي أقل قوة بسبب دليل تافه لم يعد له وجود وكان قائمًا في الماضي؟

لكن، على فرض أن الصورة بعثت من رمادها اليوم بطريقة ما، فإنها لن تكون حتى مجرد دليل، إذ إنه في الوقت الذي وقع فيه على هذا الاكتشاف لم تكن أوشانيا في حرب مع أوراسيا، وليس ثمة شك في أن عملاء استاسيا هم الذين أفضى إليهم الرجال الثلاث الأموات بما يعتبر خيانة لبلادهم.

ومنذ ذلك الحين حدثت تغييرات أخرى، لم يكن في مقدوره أن يتذكر عددها، فربما حدث ذلك مرتين أو ثلاث، كما كان من المحتمل جدًّا أن الاعترافات أعيدت كتابتها مرات ومرات حتى لم يبق من تواريخها وحقائقها أقل أثر. فما كان الماضي يغير فحسب بل وبصفة دائمة. وأشد ما كان يربض على صدره كالكابوس هو أنه ما كان ليستطيع أبدًا أن يدرك بوضوح سبب موالاة ذلك الخداع الجسيم، إذ كانت الفوائد المباشرة لذلك التزوير واضحة، بينما ظل الغرض النهائي غامضًا.

وتناول قلمه مرة أخرى وبدأ يكتب: «أفهم (كيف) ولا أدرك (لماذا)».

وتساءل، كما تساءل مئات المرات من قبل، ما إذا كان هو المجنون الوحيد، فمن الجائز أن يكون المجانين مجرد أقلية مكونة من شخص واحد. ففي زمن من الأزمان كان الاعتقاد بأن الأرض تدور حول الشمس، كما هو الاعتقاد اليوم بأن الماضي غير قابل للتغيير دلالة على الجنون، أما وإنه الوحيد في ذلك الاعتقاد بأن الماضي غير قابل للتغيير، فلا بد أن يكون هو المجنون، ولم تضايقه كثيرًا فكرة كونه مجنونًا، ولكن، الخوف كل الخوف، هو أن يكون قد ضل سواء السبيل.

والتقط كتاب تاريخ الأطفال ونظر إلى صورة الأخ الأكبر التي على الغلاف، حيث كانت العينان المغناطيسيتان تحملقان في عينيه، أشبه بقوة هائلة تخفض بك إلى أسفل، شيء يتغلغل داخل جمجمتك ويطرق مخك فيخلي بينك وبين معتقداتك، ويكاد يقنعك بإنكار الوقائع المادية كما تراها حواسك. وسيعلن الحزب أخيرًا أن حاصل جمع اثنين زائد اثنين هو خمسة، وعليك أن تصدق ذلك. إذ كان منطق واقعهم يطالب به كأمر لا مناص منه، إن عاجلًا أو آجلًا..! أما فلسفتهم فكانت لا تنكر صلاحية التجربة فحسب، وإنما كانت تنكر أيضًا بكياسة الحقيقة الظاهرة، كما كانوا يعتبرون ضلال الضالين شيئًا معقولًا. وما كان يبعث على الخوف حقًّا أنهم قد لا يقتلونك لأنك تقر هذه الأوضاع، وإنما أن يكونوا هم الصادقون! إذ كيف لك أن تثبت أن إضافة اثنين إلى اثنين تنتج أربعة؟ أو أن للجاذبية عملها المعروف؟ أو أن الماضي غير قابل للتغيير؟ فإذا كان كل من الماضي والعالم الخارجي يوجدان في العقل، وكان العقل نفسه من الممكن السيطرة عليه، فماذا تكون نتيجة ذلك؟

لكن لا..! وكأن شجاعته قد ازدادت صلابتها فجأة ومن تلقاء نفسها، وراوده وجه أوبرين دون أن يكون له حل فيما يجول بخاطره، فأدرك بوضوح أكثر من ذي قبل أنه كان يؤيده. فقد كان يكتب مذكراته من أجله وإليه، على شكل خطاب لا نهاية له، لن يقرأه أحد أبدًا، ولكنه موجه إلى شخص معين كما أضفت عليه تلك الحقيقة صيغته.

وكان الحزب يوصي بأن ترفض تصديق ما تراه عيناك وما تسمعه أذناك، كوصية جوهرية للغاية ونهائية. وغاص قلبه بين ضلوعه عندما تخيل القوة الهائلة المنظمة التي تقف ضده، وفي السهولة التي يمكن لأي مفكر في الحزب أن يكشف بها أمره في مناظرة أو نقاش يعتمد على الدهاء ويعجز عن فهمه، مما يضطره إلى الإقلال من إجاباته. ومع ذلك كان يشعر أنه في جانب الحق، وأنه على صواب، بينما هم في ضلال مبين. فقد اكْتُسِبَت الصراحة والحق والصدق ليُدَافَع عنها، كما يجب التمسك بصحة القضايا المسلم بها، فالعالم المادي موجود لا تتغير قوانينه، فالأحجار صلبة والماء سائل، وتسقط الأشياء التي لا ترتكز على شيء نحو مركز الأرض، وتحت تأثير شعوره بأنه يتحدث إلى أوبرين، وبأنه كان يعرض مبدأ مقررًا، استمر يكتب: «الحرية هي حرية القول إن اثنين زائد اثنين يعطي ناتج أربعة، فإذا أسلمنا بذلك سار كل شيء في سبيله».

الفصل الثامن

وكانت رائحة البن (المحمص) تفوح في أنحاء الشارع منبعثة من مكان ما في نهاية الممر- رائحة بن حقيقي وليس بن النصر- فتمهل صاحبنا رغمًا عنه، إذ كان قد عاد منذ ثانيتين على الأرجح إلى عهد طفولته، الذي كاد أمره أن ينسى، ثم قفل أحد الأبواب محدثًا صوتًا، واختفت على أثره الرائحة فجأة كأنها كانت صوتًا.

وكان قد تجول عدة كيلومترات فوق الأرصفة حينما شعر بعلته المزمنة تعاوده، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تخلف فيها عن قضاء إحدى الأمسيات في مركز الجمعية، ولم يكن هناك ثمة شك في أن ذلك كان من الأعمال التي تدل على الرعونة، لأنك تعلم علم اليقين أن عدد مرافقيك كان يراجع بعناية. ومن حيث المبدأ، ما كان لعضو الحزب أن يستمتع بوقت فراغ أو ينفرد بنفسه إطلاقًا إلا وهو في فراش النوم، بل كان من المفروض أن يشترك في أي نوع من أنواع الترفيه الجماعي. كما كان يعتبر دائمًا تهاونًا خطيرًا أن يقدم على عمل يفهم منه أنه يستطيب الوحدة، حتى ولو كان ذلك في نزهة على الأقدام يقوم بها منفردًا، ولما كان يعبر عن ذلك في اللغة الجديدة بكلمة «حياة خاصة» ويقصد بها ميد أي «الفردية» و«العزلة» ولكنه عندما انصرف من الوزارة في ذلك المساء أغراه هواء شهر أبريل المعطر، ورأى السماء أشد زرقة من أي وقت مضى في هذه السنة، وفجأة بدت له الأمسية الطويلة الكثيرة الضوضاء في مقر الجمعية، والألعاب المجهدة المزعجة، والمحاضرات وصخب الرفاق، الذي كان يزيده مشروب الجن، بدأ كل هذا من الأمور التي لا يمكن احتمالها؛ مما دفعه إلى أن يدير ظهره إلى موقف السيارات العامة ويبتعد متجولًا في مجاهل لندن، تاركًا لنفسه العنان وهو يضرب على غير هدي في شوارع غير معروفة له شمالًا ثم شرقًا ثم شمالًا مرة أخرى.

وكانت الكلمات التي كتبها في مفكرته «لو كان هناك أمل فإنه بين عامة الشعب» قد عادت تتردد في ذهنه كتقرير عن الحقيقة الخفية. وكان قد وصل في مسيره إلى مكان ما في أحد الأحياء القذرة الداكنة اللون، والتي كانت تقع شمال شرق ما كان يعرف في يوم من الأيام باسم محطة «سانت بانكراس»، كما كان الشارع الذي يسير فيه مرصوفًا بالأحجار المستديرة وعلى جانبيه كانت المنازل مكونة من طابقين وأبوابها محطمة وتطل مباشرة على رصيف الشارع، وتشبه إلى حد ما جحور الجرذان، كما كان عدد كبير من الناس محتشدًا في داخل وخارج مداخل الأبواب المعتمة وفي الأزقة الضيقة المتفرعة على جانبي الطريق، فمن فتيات في ريعان الصبا وقد طلين شفاههن بطريقة فجّة، إلى شباب يطارد الفتيات، ونساء منتفخات يسرن متهاديات ويكشفن لك عما ستكون عليه الفتيات بعد عشرة سنوات، ومخلوقات انحنت كبرًا فتعثرت في سيرها أو تسير على أقدام مفرطحة، وأطفال في ثياب مهلهلة وأقدام عارية يلعبون في برك الماء والنشع القذرة، ثم يتفرقون على صيحات الغضب الصادرة من أمهاتهم، وربما كان ربع عدد نوافذ الشارع محطمًا بدون ألواح. هذا ولم يلق معظم الناس بالًا إلى ونستون اللهم إلا أقلية منهم رمقته بنظرات الدهشة الممزوجة بالحذر. وكان يقف على مدخل أحد الأبواب، امرأتان بدينتان عقدت كل منهما ساعديها اللذين في لون الطوب الأحمر فوق المئزر، وعندما اقترب ونستون منهما كانتا تتبادلان حديثًا سمع جزءًا منه.

- أجل، لقد قلت لها إن كل هذا حسن. ولكنك لو كنت في مكاني لفعلت نفس الشيء الذي فعلته، وقلت أيضًا: إن النقد سهل إذ ليس لديك من المشاكل ما لديّ.

وقالت الأخرى: آه! إذًا هذا هو الموضوع الذي حدث.

وعندما مر بهما ونستون توقفتا فجأة عن الحديث وهما تتفحصانه بسكون عدائي،

وفي الحقيقة لم يكن ذلك عداء بالشكل المفهوم، بل مجرد حذر وجمود وقتي كالذي يحدث عند مرور حيوان غير مألوف، إذ لم يكن منظر الرداء الرسمي للحزب من الأشياء المألوفة في مثل ذلك الشارع، كما أنه لم يكن من الحكمة أن تشاهد في مثل تلك الأنحاء إلا إذا كانت لديك مهمة محددة، فإذا حدث والتقيت برجال الداورية فلا بد لهم أن يستوقفوك ويسألوك: «هل تسمح لنا برؤية أوراقك أيها الرفيق؟ ماذا تفعل هنا؟ في أي وقت تركت عملك؟ أهذا هو طريقك المعتاد للعودة إلى منزلك؟» وهلم جرّا، وأكثر من ذلك أيضًا.. ولم تكن هناك تعليمات تمنع العودة إلى المنزل من غير الطريق المعتاد، بل كان ذلك كافيًا للفت نظر بوليس الفكر إليك.

وفجأة ساد الهرج والمرج في الشارع وانبعثت صرخات التحذير من كل جانب وأخذ الناس يتدافعون إلى مداخل الأبواب كالأرانب، وبحركة واحدة قفزت امرأة صغيرة السن من مدخل باب قريب جدًا من ونستون وسحبت طفلًا نحيلًا كان يلعب في بركة من الماء «النشع» ولفت مئزرها حوله، وقفزت عائدة به إلى الداخل.

وفي تلك اللحظة اندفع رجل يرتدي حلة سوداء من زقاق جانبي، وقفز نحو ونستون وهو يشير بفزع إلى السماء صارخًا فيه:

«سفينة....! احذر أيها الرجل الرسمي! إنها تدوّي فوق رأسك! انبطح بسرعة».

وكان العامة لسبب ما يستعملون كلمة «سفينة» كناية عن القنابل الصاروخية، وكانوا غالبًا على حق عندما يوجهون لك تحذيرًا من هذا القبيل. ولو أنه من المفروض أن القنبلة الصاروخية تسير أسرع من الصوت، لكن الظاهر أنه كان لديهم نوع من الحساسية ينبئهم بها قبل وصولها بثوانٍ معدودة. وألقى ونستون بنفسه بسرعة على وجهه وقد لف ساعديه حول رأسه، ثم سمع صوتًا مدويًا خيل إليه أن الرصيف قد ارتفع معه من مكانه. وتناثرت أشياء خفيفة الوزن على ظهره، وعندما وقف على قدميه، وجد أنها كانت عبارة عن قطع صغيرة من زجاج أقرب النوافذ إليه، وقد غطت جميع جسمه، وكانت كومة صغيرة من الملاط ملقاة أمامه على الرصيف، وشاهد في وسطها خطًا أحمر لامعًا، وعندما اقترب تبين فيه يدًا بشرية وسط بركة من الدماء، وقد فصلت تمامًا من طرف المعصم، وابيض لونها حتى أنها كانت تشبه الملاط الملقي.

وركل ذلك الشيء بقدمه إلى البالوعة واستدار إلى شارع جانبي ليتجنب الزحام، وما هي إلا ثلاث أو أربع دقائق حتى كان قد ابتعد عن المنطقة التي أصابتها القنبلة.. وعادت الشوارع إلى حياتها الحقيرة الصاخبة كأن شيئًا لم يحدث. وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء تقريبًا وقد غصت الحانات بروادها من عامة الشعب، وظلت أبوابها المهتزة في حركة دائمة، وانبعثت منها رائحة البول ونشارة الخشب والجعة الحامضة. وفي منعطف ناشئ من نتوء واجهة أحد المنازل، وقف ثلاثة رجال متقاربين جدًا من بعض وقد أمسك الأوسط بجريدة مفتوحة، بينما كان رفيقاه يطالعانها من فوق أكتافه، وحتى قبل أن يصبح على مسافة تسمح له بتقدير أثر انهماكهم على وجههم، كان يرى ذلك الأثر واضحًا على كل جزء من أجسامهم، رغم أنه لم يكن قد اقترب منهم بعد، وكان من الواضح أنهم يقرأون خبرًا مهمًا.

- ألا يمكنك أن تنصت إلى ما أقول أيها الملعون؟ لقد أخبرتك أنه منذ أربعة عشر شهرًا لم يربح أي عدد ينتهي بالرقم 7.

- أجل... لقد حدث ذلك مرة.

- كلا لم يحدث. فمنذ سنين وأنا أحتفظ في منزلي بجميع المجموعات، وقد كتبتها

على قطعة من الورق بانتظام كالساعة، وليس بها أي عدد ينتهي بالرقم 7.

- أجل لقد ربح رقم سبعة.. دعني أتذكر العدد الملعون.. إنه أربعة صفر سبعة، وكان ذلك في شهر فبراير بل الأسبوع الثاني من شهر فبراير.

- فبراير... يا لك من أحمق... إني أحتفظ بالأرقام جميعًا.

- وصاح فيهما الرجل الثالث قائلًا: كفى... كفى...

لقد كان حديثهم هذا عن اليانصيب، وبعد أن ابتعد ونستون عنهم بمسافة ثلاثين مترًا، نظر خلفه فوجدهم ما زالوا يتناقشون بوجوه منفعلة غاضبة، وكان اليانصيب وما يسحب منه أسبوعيًا من مكافآت ضخمة هو الحدث العام الوحيد الذي يوليه العامة اهتمامًا جديًا، وكان من المرجح أن هناك بضعة ملايين من العامة كان اليانصيب بالنسبة لهم هو السبب الأساسي، إن لم يكن الوحيد، لتمسكهم بأهداب الحياة، فقد كان سببًا لبهجتهم وحماقتهم ومسكّنًا لهم ومقويًا لعقولهم، وطالما كان اليانصيب موضع اهتمام، كان الذين يعرفون القراءة والكتابة معرفة سطحية يظهرون قدرتهم على حل المسائل المعقدة وعلى عمل احتمالات بارعة تعتمد على الذاكرة. وكان هناك حشد كامل من الرجال يعتمدون على كسب عيشهم من بيع قوائم المجموعات والتنبؤات والتعاويذ المجلبة للحظ.

ولم يكن لونستون شأن بأعمال اليانصيب التي كانت وزارة الرخاء تشرف عليها، ولكنه كان يدرك (والواقع كان كل شخص في الحزب يدرك) أن الجوائز كانت خيالية للغاية، حيث كان يقتصر فعلًا على دفع المبالغ الصغيرة، بينما كان رابحو الجوائز الكبرى أشخاصًا لا وجود لهم، الأمر الذي لم يكن من الصعب تدبيره لتعذر الاتصال الحقيقي بين طرفي أوشانيا.

لكن، لو كان هناك أمل فإنه يرقد بين العامة وعليك أن تتمسك بذلك الرأي كما أنك لو صغته في كلمات.. كان له وقع معقول وستؤمن به عندما تشاهد المخلوقات البشرية التي تمر بك على رصيف الشارع. وما كاد يستدير إلى شارع منحدر حتى انتابه شعور بأنه جاء إلى هذا المكان من قبل، وأن هناك طريقًا عامًا رئيسيًا لا يبعد كثيرًا. ثم سمع أصواتًا تصيح، ثم انحنى الطريق انحناءة شديدة وانتهى بمخرج مكون من درجات تؤدي إلى زقاق منخفض حيث كان بعض الباعة يبيعون في أكشاكهم خضراوات ذابلة. وفي تلك اللحظة تذكر ونستون المكان، لقد كان الزقاق يؤدي إلى الشارع الرئيسي، وعند المنعطف الثاني وعلى مسيرة لا تزيد عن خمس دقائق، كان يوجد حانوت بيع الأشياء القديمة الذي اشترى منه الكراسة... والتي أصبحت الآن مفكرته، وكان قد اشترى يد ريشته وزجاجة مداد من مكتبة صغيرة لا تبعد كثيرًا.

وتوقف قليلًا عند قمة الدرج، فقد كانت في الجانب المقابل للزقاق حانة قذرة، كسى الغبار نوافذها حتى لتظهر وكأنها مغطاة بالصقيع، حينما اندفع رجل يدخل عبر الباب المهتز، وكان هرمًا مقوس الظهر، لكنه كان نشطًا ذات شارب أبيض أشعث مدببًا إلى الأمام كشارب الجمبري. وعندما وقف ونستون يراقبه، خطر له أن ذلك الرجل الذي بلغ من العمر ما يزيد على الثمانين عامًا، كان كهلًا عندما اندلعت الثورة، كما كان وأمثاله من الرجال هم الحلقات الباقية من عالم الرأسمالية الذي اختفى، كذلك لم يترك الكثيرون من رجال الحزب ممن كانت عقولهم قد تكونت في عهد ما قبل الثورة، كما أبيد معظم رجال الطبقة الأكبر سنًا أثناء حركتي التطهير الكبرى في السنين الستينية والسبعينية، أما من بقي منهم على قيد الحياة فقد أدى بهم ما لاقوه من رعب إلى حالة من القصور الذهني الكامل، ولو كان هناك إنسان ما على قيد الحياة يستطيع أن يقدم صورة صحيحة عن الأوضاع في الجزء

الأول من هذا القرن، فمن الممكن أن يكون ذلك من العامة. وفجأة عادت إلى ذهنه المقطوعة التي نقلها من كتاب التاريخ إلى مفكرته واستولى عليه دافع جنوني: أن يدخل إلى الحانة ويقابل ذلك العجوز ليتعارف به، وخطر له أن يسأله: «هلا أخبرتني عن حياتك عندما كنت صغيرًا؟ وماذا كانت عليه الحال في تلك الأيام؟ هل كانت الأمور أحسن مما هي عليه الآن أم أسوأ؟».

وهبط الدرج على عجل خشية أن يتسع الوقت فينتابه الفزع فيرجع، وعبر الشارع الضيق، وكان ذلك بالطبع جنونًا، ولم تكن هناك قواعد محددة تمنع تبادل الحديث مع العامة أو التردد على حاناتهم، ولكنه كان عملًا غير عادي على الإطلاق حتى يمر دون أن يفتضح، ودفع الباب أمامه حيث واجهته رائحة الجعة الحامضة البشعة، وعندما دخل انخفضت الضوضاء إلى نصف ما كانت عليه تقريبًا، وشعر بأن جميع من كانوا وراء ظهره ينظرون إلى ردائه الرسمي، كما توقفت مباراة في قذف السهم كانت تدور في الطرف الآخر من الحجرة لمدة ثلاثين ثانية، بينما كان الرجل العجوز الذي تعقبه يقف عند البار، ويبدو على خلاف مع رجل البار صاحب الأنف الذي يشبه الخطاف، وكان ممتلئ الجسم طويل القامة ذا ساعدين قويين وفي سن الشباب، بينما تجمع فريق آخر حولهما يراقبون المنظر وقد حملوا كؤوسهم.

وقال الرجل العجوز وقد شد أكتافه كمن يستعد للعراك: «ألا أبدو في نظرك مواطنًا كاملًا؟ ألا يوجد كأس «باينت» بين خمورك الحقيرة؟» وأجاب رجل البار وقد انحنى إلى الأمام واضعًا أطراف أصابعه على مسند البار: «بحق الشيطان ما هو الباينت؟» فقال الرجل العجوز: «يا للخجل! أيدعي أنه ساقي ولا يعرف ما هو الباينت؟ هو نصف الربع، وهناك أربعة أجزاء في الجالون، فهل ألقي عليك درسًا فيما بعد عن ال.ا. ب.ت...» وأجاب الساقي باختصار: «لم أسمع بذلك؛ لأننا لا نستعمل إلا اللتر ونصف اللتر، وها هي الأكواب على الرف أمامك».

وقال الرجل العجوز مصممًا: «ولكني أريد باينت، ألا يمكن أن تملأ لي باينت؟ لم تكن لدينا هذه الأكواب القذرة عندما كنت شابًّا»، وأجاب الساقي وهو يلتفت إلى باقي الزبائن: «عندما كنت في شبابك كنا نحن نعيش فوق الأشجار».

وضحك الجميع، وكان القلق الذي أحدثه دخول ونستون قد اختفى، واشتدت حمرة وجه الرجل العجوز الأبيض والذي كان ممتلئًا بآثار البثور، واستدار مبتعدًا وهو يتمتم، ولما مر بونستون أمسك بذراعه بلطف قائلًا: «هل لي أن أقدم لك شرابًا؟» فرد الآخر قائلًا: وقد شد أكتافه مرة أخرى: «إنك سيد مهذب» وكأنه لم يلحظ رداء ونستون الرسمي، وأضاف متحديًا الساقي: «باينت..! باينت من الجعة».

وصب لهما الساقي في كأسين سميكين بعد أن غسلهما في دلو تحت البار. وكانت الجعة هي الشراب الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في حانات العامة، وكان المفروض ألا يشرب أفراد الشعب الجن، ولكن عمليًا، كان يمكنهم الحصول عليه بسهولة تامة. وكانت لعبة رمي السهم على أشدها مرة أخرى، وبدأ المجتمعون يتحدثون عن أوراق اليانصيب ونسوا أمر ونستون إلى حين. وكانت توجد مائدة تحت النافذة، حيث تمكن ونستون والرجل العجوز من تبادل الحديث دون خوف من أن يسترق أحد السمع عليهما، إذ كان ذلك من الأمور البالغة الخطورة، وعلى أية حال فإن أهم ما عمل ونستون على التحقق منه بمجرد دخوله، هو التأكد من خلو المكان من الستار الناقل.

وقال الرجل متأففًا عندما استقر جالسًا وراء كأسه: «كان في استطاعته أن يعطيني باينت، فنصف لتر لا يكفي ولا يرضي، ولتر كامل كثير جدًّا ويؤذي المثانة، هذا بصرف

النظر عن السعر».

فقال له ونستون وهو يحاوره: «لا بد أن تكون قد رأيت تغييرات كثيرة منذ أن كنت شابًّا».

وكأن الرجل العجوز كان يتوقع أن تكون تغييرات قد حدثت في الحانة، فأخذت عيناه الضعيفتان تنتقلان من لوح لعبة السهام إلى البار ومن البار إلى باب دورة المياه، وأخيرًا أجاب: «كانت الجعة أحسن وأرخص..! فعندما كنت شابًّا كانت الجعة اللطيفة، وكنا نسميها «والدب» تباع بسعر أربعة بنسات للباينت، وكان ذلك قبل الحرب بكل تأكيد»، وسأله ونستون: «أي حرب تلك؟» فأجاب الرجل بغموض: «إنها كلها حروب» ورفع كأسه وقد شد كتفيه ثانية وقال: «أتمنى لك صحة سعيدة».

وظهرت تفاحة آدم بارزة في حلقه الهزيل، وكانت تتحرك إلى أعلى وأسفل في حركات مفاجئة حتى اختفت الجعة. وتوجه ونستون إلى البار وأحضر نصفين آخرين من الجعة، بعد أن اتضح أن الرجل العجوز قد نسي تحامله على من يشرب لترًا كاملًا.

وقال ونستون: «إنك أكبر مني سنًّا بكثير وكنت رجلًا كاملًا قبل أن أولد، فلا بد أنك تذكر ما كانت عليه الحياة في الأيام الخالية قبل الثورة. إن الذين في سني لا يعلمون فعلًا أي شيء عن تلك الأيام، وليس أمامنا إلا أن نقرأ عنها في الكتب، ومن الممكن أن يكون ما ذكر عنها غير صحيح. وأحب أن أعرف رأيك في ذلك، إذ تقول كتب التاريخ إن الحياة فيما قبل الثورة كانت تختلف اختلافًا كليًّا عما هي عليه الآن، إذ كانت على أفظع ما يمكننا تصوره من ظلم وعسف وفقر، وكان أغلب الناس هنا في لندن، لا يجدون كفايتهم من طعام من مولدهم وحتى مماتهم، ونصفهم لا يملك حتى الأحذية في أقدامهم، كما كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة، ويتركون المدارس في سن التاسعة، وينام كل عشرة أفراد في حجرة، وفي الوقت نفسه، كانت توجد فئة قليلة من الناس قوية وغنية لا تزيد على بضعة آلاف وكانت تسمى بالرأسماليين الذين كانوا يمتلكون كل ما يمكن امتلاكه، ويعيشون في منازل فخمة يقوم عليها ثلاثون خادمًا أو نحو ذلك، ويشربون الشمبانيا ويرتدون القبعات العالية..».

وفجأة تألق وجه الرجل العجوز وقال: «قبعات عالية..! جميل منك أن تذكر ذلك، لقد خطر لي نفس الشيء البارحة فقط ولا أعلم لماذا. لقد دار بذهني أني لم أر أية قبعة عالية منذ سنين، إذ كانت آخر مرة ارتديت فيها إحداها بمناسبة جنازة شقيقتي من أمي وكان ذلك في....! لا يمكنني أن أحدد التاريخ، لكن لا بد أن ذلك كان منذ خمسين عامًا، وقطعًا كانت القبعة مؤجرة لتلك المناسبة، طبعًا أنت تفهم ما أريد...».

فقال ونستون صابرًا: «ليس المهم هو موضوع القبعات العالية، فالموضوع بالضبط أن هؤلاء الرأسماليين وقلة من المحامين ورجال الدين ومن إليهم، وكل من يرتزق من وراء هؤلاء، كانوا سادة الأرض، فكل شيء قد وجد لمصلحتهم وأنتم العمال عامة الناس، كنتم لهم عبيدًا، لهم أن يفعلوا بكم ما شاء لهم الهوى، فكان في استطاعتهم أن يشحنوكم على سفينة إلى كندا كقطيع من المواشي، ويضاجعوا بناتكم، وإن أرادوا أمروا بجلدكم بما كانوا يطلقون عليه «القطة ذات التسع أذيال» وكان عليكم أن ترفعوا قبعاتكم إذا مروا بكم، كما كان كل رأسمالي يتجول وبرفقته عصابة من المحظوظين.

وتهلل وجه الرجل مرة أخرى وقال: «المحظوظون! ها هي كلمة لم أسمع بها منذ زمن طويل.. المحظوظون...! إنك ترجع بي إلى الوراء سنين طويلة. كنت أذهب أحيانًا إلى حديقة هايد بارك بعد ظهر أحد أيام الآحاد؛ لأستمع إلى الرجال وهم يخطبون، كما كان

جميع الناس هناك من كاثوليك إلى جيش الخلاص إلى يهود إلى هنود، وكان هناك رجل لا أستطيع أن أتذكر اسمه، ولكنه كان خطيبًا قويًا، يتحدث عن تابعي البورجوازيين والخدم المنوط بهم ملابس الطبقة الحاكمة، وتحدث عن الطفيليين، وكان يسميهم الفعلة مشيرًا بذلك إلى حزب العمال..! أتفهم ما أقول؟».

وشعر ونستون أنهما كانا يتحدثان في أشياء متعارضة فقال: «إن ما أريد أن أسألك عنه هو: هل تشعر بأنك تتمتع بقسط من الحرية أوفر مما كنت تتمتع به في تلك الأيام؟ هل تشعر بأنك تعامل كأنك إنسان حتى الآن؟ ففي الأيام الغابرة كان الأغنياء والناس الذين في القمة...».

فأضاف الرجل العجوز متذكرًا: «مجلس اللوردات» وقال ونستون: «مجلس اللوردات إذا شئت، بل إن ما أسأل عنه هو: هل كان هؤلاء الناس يعاملونك باحتقار لمجرد أنهم كانوا أغنياء وكنت فقيرًا؟ وهل كان حقيقة مثلًا أنه كان من الواجب عليك مناداتهم بلفظ «سيد» وأن تخلع قبعتك عندما تمر بهم؟».

وظهر على الرجل العجوز أنه قد استغرق في التفكير، وشرب ما يقرب من ربع جعته قبل أن يقول: «أجل، لقد كانوا يحبون أن تلمس قبعتك لهم ويحبون أن تظهر لهم الاحترام، ولم أكن أنا شخصيًا أوافق على ذلك، ولكني كنت أعمل ذلك في كثير من الأحيان، ويجب أن نقول إن المفروض...» ورد ونستون قائلًا: «وهل كان ذلك أمرًا معتادًا- إنني أردد ما قرأت في كتب التاريخ- هل كان ذلك من الأمور العادية عند هؤلاء الناس؟ وهل كان خدمهم يدفعونك من الإفريز إلى بالوعة المجاري؟».

وقال الرجل العجوز: «لقد دفعني أحدهم مرة، وإني لأذكر ذلك كأنه كان بالأمس. لقد كان هناك سباق ليلي للقوارب، كان عراكًا مخيفًا اعتادوا عليه في السباق الليلي للقوارب، واصطدمت بشاب صغير في شارع شافتسبري، لقد كان سيدًا.. سيدًا بمعنى الكلمة، يرتدي قميصًا «منشيًا» وقبعة عالية ومعطفًا أسود، كان يسير مترنحًا عبر الرصيف عندما اصطدمت به عرضًا فقال: «ألا تستطيع أن ترى طريقك؟» فقلت: «أتظن إنك قد اشتريت الرصيف القذر!» فقال: «سأحطم رأسك أيها الأحمق إذا تطاولت عليّ» فقلت: «إنك ثمل وسأسلمك إلى البوليس في نصف دقيقة»، وأقول الحق، فقد وضع يده على صدري ودفعني دفعة قوية كادت ترسلني تحت عجلات سيارة عامة.. لقد كنت شابًا في ذلك الوقت، وكنت على وشك أن أعطيه درسًا لولا...».

وتملك ونستون شعور باليأس، لقد كانت ذاكرة الرجل العجوز خالية إلا من أكوام تافهة من التفاصيل، وقد يسأله المرء طوال اليوم دون أن يخرج بأية معلومات حقيقية، وبذل محاولة أخيرة.. قال: «ربما لم أكن واضحًا في قولي! فإن ما أحاول قوله هو الآتي: إنك على قيد الحياة منذ زمن طويل، وقد عشت نصف عمرك قبل الثورة منذ سنة 1925 مثلًا، وكنت قد بلغت أشدك. فهل يمكنك أن تتحدث عما يمكنك أن تتذكره، هل الحياة سنة 1925 كانت أحسن مما هي عليه الآن أم أسوأ؟

وإذا أمكنك أن تختار، فهل تفضل العيش في ذاك الوقت أم الآن؟».

ونظر الرجل العجوز متأملًا في لوحة لعبة السهام، ثم فرغ، وهو يتباطأ عن ذي قبل، من شرب جعته، وعندما تكلم قال بنغمة فلسفية متسامحة كأن الجعة قد لينت عريكته: «أعلم ما تتوقع مني أن أقوله، فإنك تنتظر مني أن أتحدث وكأني عدت حالًا إلى شبابي مرة أخرى، كما يحدثك معظم الناس إذا سألتهم، كأنهم عادوا حالًا إلى شبابهم؛ ففي شبابك تملك الصحة والقوة، وعندما تبلغ عمري فإنك لا تكون كذلك، أقاسي شيئًا خبيثًا في قدمي،

ومثانتي مضطربة بفظاعة وتضطرني إلى مغادرة الفراش ست أو سبع مرات في الليلة الواحدة، ومن ناحية أخرى، فإن للرجل المسن مميزات عظيمة، فإنه لا يشكو مثلًا من متاعب خداع النساء، وهذا أمر مهم، فإنني لم أقرب امرأة منذ ثلاثين عامًا، إنك لا تثق بالمرأة في هذه السن، ولا تحتاج إليها، فأي شيء إذًا أهم من ذلك!».

واستند ونستون على قاعدة النافذة، فما كانت هناك جدوى من الاستمرار، وكان على وشك شراء كمية أخرى من الجعة، عندما نهض الرجل العجوز فجأة واختفى داخل دورة المياه كريهة الرائحة، التي كانت تقع في جانب الحجرة، حيث ابتدأ مفعول نصف اللتر من الجعة يظهر أثره عليه، بينما ظل في مكانه يحملق في كأسه الفارغة حوالي دقيقة أو دقيقتين، ثم تنبه بصعوبة عندما حملته قدماه إلى خارج الطريق مرة أخرى.. «هل كانت الحياة قبل الثورة أفضل مما هي عليه الآن؟» كان ونستون يتأمل ذلك السؤال البسيط الضخم الذي لن يجد له جوابًا طوال عشرين سنة على الأكثر. لكنه كان في الحقيقة، وحتى في وقتنا هذا عديم الجواب منذ أن أصبحت تلك الفئة القليلة المبعثرة الباقية على قيد الحياة منذ العهد القديم، عاجزة عن مقارنة عصر بآخر، وقد يتذكرون مليونًا من الحوادث التي لا تجدي، كمشادة مع زميل في العمل أو البحث عن منفاخ دراجة مفقود، أو الانفعال الذي اعترى وجه شقيقة توفيت منذ أمد طويل، أو تصاعد الغبار على شكل حلزوني في صباح يوم عاصف منذ سبعة وعشرين عامًا خلت، بينما كانت الحقائق عن الحوادث الجارية خارج نطاق تصورهم، إذ كانوا كالنملة التي يمكنها أن ترى الأشياء الصغيرة دون الكبيرة. وعندما أصبحت الذاكرة في حالة عجز وزيفت الحقائق المكتوبة- عندما حدث ذلك- أضحى ادعاء الحزب بأنه قام بتحسين وسائل الحياة الإنسانية مقبولًا فرضًا؛ لأنه لم توجد ولن توجد أية وسيلة للتحقق من ذلك.

وفي تلك اللحظة امتنع فجأة عن متابعة تفكيره وتوقف عن المسير، ثم نظر حوله فوجد نفسه في شارع ضيق به عدد قليل من المحال الصغيرة المعتمة منتشرة بين منازل أعدت للسكنى، وفوق رأسه مباشرة، علقت ثلاث كور معدنية ظهرت كأنها كانت ذات طلاء ذهبي في وقت ما، وخيل إليه أنه يعرف المكان. طبعًا..! كان يقف خارج محل بيع الأشياء القديمة الذي اشترى منه المفكرة.

واقشعر بدنه خوفًا، فمنذ البداية كان شراء تلك الكراسة عملًا يدل على التهور التام حتى أنه أقسم ألا يقترب من ذلك المكان مرة أخرى، ومع ذلك فبمجرد أن ترك لأفكاره العنان عادت به قدماه إليه مرة أخرى من تلقاء نفسها، كما لفت نظره في نفس الوقت أن المحل كان لا يزال مفتوحًا بالرغم من أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة مساء. وخطر خلال الباب الخارجي وهو يشعر بأن أمره يكون أقل ريبة داخل المحل منه لو كان قد ظل ساكنًا بالقرب منه على الرصيف، فلو سأله سائل عن سبب وجوده بالمحل لكان جوابه أنه يحاول شراء شفرة للحلاقة! أمرًا معقولًا!.

وكان صاحب المحل قد فرغ لتوه من إشعال قنديل معلق انبعثت منه رائحة غير نظيفة لكنها مقبولة، وكان رجلًا ربما بلغ الستين من عمره يبدو عليه الضعف مقوس الجسم ذا أنف يدل على حب الخير وعينين هادئتين عليهما عوينات سميكة، وكان جميع شعره أبيض اللون ما عدا حاجبيه، فقد كان لونهما أسود وكانا كثيفين، وكانت عيناه وحركاته المهذبة النشطة ومنظره وهو يرتدي سترة قديمة من القطيفة السوداء، كل ذلك قد أكسبه هيئة رجل الفكر، كأنه كان من رجال الأدب أو الموسيقى، وكانت لهجته أرق عبارة من لهجة معظم عامة الشعب.

وقال الرجل بمجرد أن رآه: «لقد عرفتك وأنت تقف على الرصيف، فأنت السيد الذي اشترى الكراسة النسائية المكونة من مجموعة من الورق الجميل المعد لحفظ الصور،

وأخشى أن أقول إنه لم يصنع مثلها منذ خمسين عامًا» ثم رمق ونستون من فوق نظارته واستمر قائلًا: «هل هناك خدمة أقوم بها من أجلك؟ أم إنك ترغب في إلقاء نظرة شاملة على المحل؟».

وأجاب ونستون: «لقد خطر لي أثناء مروري أن أنظر إلى الداخل، إذ لا أريد أي شيء آخر، إن المحل مرضي كل الرضا».

وقال الآخر: «هذا حسن إذ لا أعتقد...» وأشار بيده الرخوة التي تشبه سعف النخيل معتذرًا: «إنك ترى كيف أن المحل خال من البضائع، ولا أذيع سرًا إن قلت إن تجارة العاديات على وشك الانقراض، فلم يعد هناك شيء يطلب ولا شيء مختزن، فالأثاث والأواني الزجاجية والخزفية قد انقطع ورودها تدريجيًا، علاوة على أن الأدوات المعدنية قد أذيب معظمها، إذ لم أر شمعدانًا نحاسيًا منذ سنين».

وفي الحقيقة كان داخل المحل الضيق ممتلئًا في غير نظام، لكن كانت معظم الأشياء الموجودة فيه لا قيمة لها إطلاقًا، وكان فراغ الأرضية محدودًا جدًا، إذ صف حول الحوائط عدد لا يحصى من إطارات الصور المغطاة بالزيت وكانت «فاترينة المحل» تحتوي على أطباق مملوءة بالترابيس والصواميل وساعات كالحة اللون، ولا يظهر منها ما يفيد أنها كانت في حالة جيدة يومًا ما، ومتنوعات من سقط المتاع، وأزاميل بالية ومباري للأقلام كعلب العطوس، ومشابك من العقيق وما شابه ذلك، وهي الأشياء الوحيدة التي يمكن الإفادة منها. وبينما كان ونستون يتجول في اتجاه المائدة لفت نظره شيء أملس مستدير يلمع بهدوء في ضوء المصباح فالتقطه.

كان عبارة عن قرص ثقيل من الزجاج منفوش من جانب ومفرطح من الجانب الآخر على شكل نصف كرة كاملة، وكان لون الزجاج ومادته على درجة عظيمة من النقاء، كماء المطر عند نزوله، ويوجد في سطحه من الداخل جسم عجيب لونه أحمر قاني يشبه الوردة أو زهرة الريح البحرية، وقد عمل السطح الزجاجي المقوس على تكبيره.

وسأل ونستون بإعجاب: «ما هذا؟».

وأجاب الرجل العجوز: «إنها من المرجان من المحيط الهندي، حيث عملوا على تشكيلها وخلطها بالزجاج، ويدل مظهرها على أنها صنعت منذ ما لا يقل عن مائة سنة خلت».

وأجاب ونستون: «إنها شيء جميل!».

وقال الآخر بما يدل على التقدير: «إنها شيء جميل، لكن لا يوجد الكثير ممن يقولون مثل ذلك القول في هذه الأيام»، ثم سعل وأضاف: «وإذا فكرت في شرائها الآن فإنها ستكلفك أربع دولارات، وأستطيع أن أتذكر أن شيئًا كهذا كان المرء يحصل عليه بثمانية دولارات، وكانت تساوي... على كل لا يمكن حسابها، ولكنها كانت تعتبر مبلغًا كبيرًا من المال، لكن من يهتم هذه الأيام بالعاديات الحقيقية أو حتى القدر القليل الباقي؟».

ودفع ونستون الأربع دولارات فورًا ودس الشيء الملفوف في جيبه، ولم يكن جمالها هو ما أعجبه فيها من صفات بقدر ما كان يحيط بها من جو يعتبر من خصائصها ويفيد انتماءها إلى عهد يخالف تمامًا العهد الحاضر، علاوة على أن زجاجها الذي كان في نقاء ماء المطر لا يشبه أي زجاج آخر سبق أن رآه، وكانت ذات إغراء مضاعف، إذ كان من الواضح أنها عديمة الفائدة، ولو أن صاحبنا قد أدرك أنها كانت تستعمل في يوم من الأيام كثقل للورق، علاوة على أنه كان يشعر بثقلها الشديد في جيبه، لكنها لم تسبب بروزًا واضحًا فيه

لحسن الحظ، وكان من الأمور الشاذة، بل التي تدعو إلى الريبة أن يحتفظ بها عضو في الحزب في حيازته، وكان كل شيء قديم وجميل موضع شك مبهم على الدوام. وبعد أن تسلم الرجل العجوز الدولارات الأربع، ازداد ابتهاجه حتى أن ونستون تبين أنه كان من الممكن أن يقبل دولارين أو ثلاثة.

وقال: «توجد حجرة أخرى في أعلى، ربما يهمك أن تلقي نظرة عليها، ولا توجد فيها أشياء كثيرة سوى بعض قطع الأثاث، وسنوقد مصباحًا إذا سمحت أن ترافقني إلى أعلى».

وأضاء مصباحًا آخر وتقدم بظهر منحنٍ، وببطء بدأ يصعد السلم الأفقي المحطم، ثم اتجه في ممر ضيق يؤدي إلى حجرة لا تطل على الشارع، بل على فناء مرصوف بالأحجار المستديرة وغاص بأدوات المداخن، كما لاحظ صاحبنا أن الأثاث كان لا يزال مرتبًا، كأن الحجرة كانت معدة للسكن، وكانت هناك قطعة من السجاد على الأرض، وكانت هناك صورة أو صورتان معلقتان على الجدران، ووضع بالقرب من المدفأة مقعد غائص ذو مساند، ومن فوق رف المدفأة انبعث صوت ساعة زجاجية من الطراز القديم ذات ميناء مقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، وتحت النافذة وضع فراش كبير يكاد يملأ ربع مساحة الغرفة، وكانت الحواشي لا تزال موضوعة فوقه.

وقال الرجل العجوز بما يشبه الاعتذار: «كنا نعيش هنا حتى ماتت زوجتي، وإني أبيع الآن الأثاث شيئًا فشيئًا، ولم يبق إلا ذلك السرير الجميل المصنوع من خشب «الموجنة» أو على الأقل سيكون كذلك إذا تمكنت أن تتخلص من البق الذي فيه، ولكني أخشى أن تجد في ذلك شيئًا من العناء».

وكان يمسك بالمصباح عاليًا ليضيء الغرفة كلها، وبدا المكان في الضوء الضعيف مغريًا بشكل عجيب، ومرت فكرة بذهن ونستون- لو كانت لديه الجرأة ليتحمل تبعة ذلك- فمن المرجح أن يكون من السهولة بمكان أن يستأجر الغرفة نظير بضعة دولارات أسبوعيًّا. وفي الواقع كان يجب إهمال تلك الفكرة الطائشة المستحيلة بمجرد التفكير فيها، إلا أن الحجرة أيقظت في نفسه نوعًا من الحنين أو الذكرى المتوارثة، فقد خيل إليه أنه كان يعرف تمامًا ماذا سيكون عليه شعوره لو جلس في حجرة مثلها على مقعد ذي مساند بجانب المدفأة المشتعلة، وقد مد قدميه على حاجز المدفأة في وحدة تامة وأمن مطلق، دون أن يراقبه أحد، فلا صوت إنسان يطارده أو يشاركه هدوءه، إلا صوت الماء المغلي في الغلاية وصوت الساعة الحبيب.

ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتمتم قائلًا: «لا يوجد هنا ستار ناقل» وقال الرجل العجوز: «آه.. لا... لا يوجد؛ لأنه باهظ الثمن جدًّا ولم يخيل لي أبدًا أني أشعر بحاجة إليه لأي سبب كان. والآن ها هي منضدة (ذات لوح خشبي من الداخل يفتح ويغلق) ومن البديهي أنها تحتاج إلى تركيب مفصلات جديدة، إذا أردت أن تستعمل اللوح».

وفي الركن الآخر من الحجرة كان يوجد رف كتب اجتذب ونستون نحوه في الحال، فوجده لا يحتوي إلا على مهملات، إذ كانت عملية مطاردة الكتب وإبادتها قد تمت على نطاق واسع في الأحياء الشعبية، مثلما حدث في أي مكان آخر، حيث لم يكن من المرغوب فيه إطلاقًا أن يوجد في مكان ما من دولة أوشانيا نسخة من أي كتاب طبع قبل سنة 1960، وكان الرجل العجوز لا يزال ممسكًا بالمصباح ويقف في مواجهة صورة موضوعة في إطار من خشب الورد ومعلق على الجانب الآخر من المدفأة وفي مواجهة الفراش.

وابتدأ يتحدث بلطف: «والآن لو كنت من هواة الصور القديمة».

وتقدم ونستون عبر الحجرة ليفحص الصورة التي كانت عبارة عن رسم من الصلب

المحفور لمبنى بيضوي الشكل ذي نوافذ مستطيلة وبرج صغير في المقدمة، وكان يحيط بالبناء سور، وفي الطرف الآخر كان يوجد شيء على شكل تمثال، وأخذ ونستون يحدق فيها بعض الوقت، فقد كانت تبدو مألوفة، وإن التبس عليه أمرها، ولكنه لم يستطع أن يتذكر التمثال.

وقال صاحبنا العجوز: «إن الإطار مثبت في الحائط، ولكني على استعداد لنزع المسامير من أجلك إذا سمحت».

وأخيرًا تكلم ونستون: «أنا أعرف ذلك البناء، إنه عبارة عن أنقاض الآن، ويقع في منتصف الشارع المتفرع عند سراي العدالة».

«هذا صحيح، إنه متفرع عند دار القضاء، وقد قذف بالقنابل منذ سنة.. أوه... منذ سنين عديدة خلت، إذ كان عبارة عن كنيسة في يوم من الأيام تسمى (كنيسة القديس كليمنت دان)» ثم ابتسم كمن يعتذر، وكأنه يدرك أنه يقول شيئًا يدعو للسخرية إلى حد ما. ثم أضاف: «يقال إن أجراس سانت كليمنت، تقول برتقال وليمون».

وقال ونستون: «ماذا تقول؟».

«أوه... تقول أجراس سانت كليمنت: البرتقال والليمون، لقد كنا نردد ذلك النغم عندما كنت ولدًا صغيرًا، ولا أذكر بقيته، ولكني أعرف أنه ينتهي بعبارة (ومن هنا تتقدم شمعة لتقودك إلى الفراش، ومن هنا يتقدم منجل ليفصل رأسك) لقد كان ذلك نوعًا من الرقص، وكانوا يرفعون لك أذرعتهم لتمر من تحتها وعندما يصلون إلى (ومن هنا يتقدم منجل ليفصل رأسك) فإنهم يخفضون أذرعتهم ويمسكونك. لقد كانت مجرد أسماء للكنائس، وتتضمن جميع أسماء كنائس لندن المهمة».

وأخذ ونستون يتساءل إلى أي قرن كانت الكنائس تنتمي على وجه التقريب، إذ كان من الصعب دائمًا تحديد عمر أي مبنى لندني، فأي شيء كبير يترك تأثيرًا في النفس ولو كان واضحًا من مظهره أنه جديد، كانوا يدعون فورًا أنه بني منذ عهد الثورة، بينما أي شيء آخر يبدو بوضوح انتماؤه إلى عهد أبعد من ذلك، كان ينسب إلى عهد مظلم يسمى القرون الوسطى، إذ كان ينظر إلى قرون عهد الرأسمالية على أنها لم تنتج شيئًا له أية قيمة، لذلك ما كان باستطاعة المرء أن يتعلم التاريخ من فن المعمار أكثر مما كان يدرسه في الكتب، فأي شيء قد يلقي ضوءًا على الماضي، حُور بطريقة منظمة كالتماثيل والنقوش والنصب التذكارية وأسماء الشوارع.

وقال ونستون: «لم أكن أعرف أبدًا أنها كانت كنيسة».

ورد الرجل العجوز قائلًا: «في الواقع لا يزال يوجد بعض منها، ولو أنها تستعمل لأغراض أخرى، والآن... ماذا كانت بقية ذلك النشيد؟ آه.. لقد تذكرته!

(تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت، برتقال وليمون)».

(وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن، إنك مدينة لي بثلاث فارذنج).

وهذا هو كل ما يمكنني أن أتذكره الآن. والفارذنج كان عملة نحاسية صغيرة تشبه السنت الحالي».

وسأل ونستون: «وأين كانت تقع كنيسة القديس مارتن؟».

كنيسة القديس مارتن؟ إنها لا تزال قائمة، وتقع في ميدان النصر بإزاء معرض الصور،» «إنها الآن عبارة عن بناء بواجهته قبة مثلثة وأعمدة ودرج كبير.

وكان ونستون يعرف ذلك المكان جيدًا، فقد كان متحفًا لمعروضات الدعاية من جميع الأنواع، كنماذج لأبراج القنابل الصاروخية والقلاع العائمة واللوحات الشمعية، وصور توضح فظائع الأعداء وما شابه ذلك.

وأضاف الرجل العجوز قائلًا: «كانوا يطلقون عليه القديس مارتن راعي الحقول، ولو أني لا أرى أية حقول في هذه الأنحاء!».

ولم يشتر ونستون الصورة، فربما كانت حيازتها أكثر خطورة من حيازة ثقل الورق الزجاجي، كما أنه يستحيل حملها إلى المنزل، إلا إذا انتزعت من إطارها. ولكنه تباطأ بضع دقائق أخرى متحدثًا إلى الرجل العجوز، حيث اكتشف أن اسمه لم يكن «ويكسي» كما كان يتضح ذلك من الكتابة فوق واجهة المحل، بل ظهر إنه كان يدعى «شارنجتون» وكان أعزب يبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا، وسكن ذلك الحانوت منذ ثلاثين سنة، حاول خلالها تغيير الاسم الموجود فوق الواجهة، ولكنه لم يصل أبدًا إلى الطريقة الصحيحة لعمل ذلك. وقد ظل النشيد الذي لم يتذكر إلا نصفه يتردد في رأس ونستون طول الوقت الذي استغرقه الحديث (تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت: برتقال وليمون، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن: إنك مدينة لي بثلاثة فارذنج) لقد كان نشيدًا غريبًا، إلا أنك إذا رددته بينك وبين نفسك، فإنك تتخيل حقيقة سماع رنين الأجراس، أجراس لندن المفقودة والتي ما زالت موجودة في مكان ما، وقد اتخذت شكلًا آخر أو أهمل شأنها.

وكان يخيل إليه أنها تجلجل بشدة منبعثة من كل برج ضخم، وبقدر ما كان يستطيع أن يتذكر لم يسبق له إطلاقًا أن سمع في حياته أجراس الكنيسة وهي تدق.

وافترق عن السيد شارنجتون ونزل السلم منفردًا حتى لا يدع الرجل العجوز يراه وهو يستطلع الشارع قبل أن يخرج من الباب. وكان قد صمم على المغامرة بزيارة المحل مرة أخرى بعد مرور فترة مناسبة تبلغ شهرًا مثلًا، فربما كان ذلك لا يزيد خطرًا على تخلفه عن إحدى أمسيات المركز، وكان العمل الأحمق الحقيقي هو عودته مرة أخرى إلى المكان الأول الذي اشترى منه المفكرة دون أن يعرف ما إذا كان صاحب المحل موضع ثقة ومع ذلك...!

أجل- لقد فكر ثانية- سيعود لشراء قطع أخرى جميلة من الأشياء المهملة، وليشتري صورة القديس كليمنت دان المحفورة بعد أن ينتزعها من إطارها ويحملها إلى منزله مخفيًا إياها تحت سترة ردائه الرسمي، ثم يستخلص بقية تلك الأشعار من ذاكرة مستر شارنجتون، وخطر في ذهنه مرة أخرى ولفترة وجيزة ذلك المشروع الجنوني الخاص باستئجار الحجرة العليا، وربما مرت به خمس دقائق شعر فيها بالغبطة وفقد معها حذره، حتى أنه خرج إلى رصيف الشارع دون أن يلقي ولو بنظرة خلال النافذة، وما أن ابتدأ يتمتم بنغمة مرتجلة: ترد أجراس كنيسة القديس كليمنت البرتقال والليمون، وأنت مدينة لي بثلاثة فارذنج هكذا تردد..! حتى خيل إليه فجأة أن قلبه يتحول إلى ثلج واضطربت أمعاؤه، حيث رأى إنسانًا قادمًا نحوه على بعد لا يتجاوز عشرة أمتار مرتديًا الرداء الرسمي، لقد كانت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في إدارة القصص، فلم يكن من الصعب عليه أن يتعرف عليها رغم ضعف النور، ونظرت في وجهه مباشرة، ثم استمرت في طريقها مسرعة كأنها لم تره.

ولمدة ثوان قليلة، شُلت حركته حتى لم يستطع أن يتقدم، ثم استدار إلى اليمين وابتعد متثاقلًا دون أن ينتبه إلى أنه يسير في الاتجاه غير الصحيح. وعلى أية حال فقد

وضح الأمر، إذ لم يعد هناك شك بعد ذلك في أن الفتاة كانت تتجسس عليه، وقد تبعته إلى هذا المكان، إذ لم يكن من المعقول أن يكون من محض الصدف أن تتجول الفتاة في نفس الليلة في ذات الشارع الخلفي المعتم الذي يقع على بعد كيلومترات عن أي حي يقطن فيه أعضاء الحزب، لقد كان ذلك أكثر من أن يكون مجرد مصادفة. فإما أنها كانت حقًّا جاسوسة لبوليس الفكر، أو مجرد جاسوسة هاوية، الأمر الذي كان يسبب له ضيقًا شديدًا، فقد كانت مراقبتها له تكفي لإثبات ذلك، ومن المرجح أيضًا أنها رأته وهو يدخل الحانة.

وكان يسير بجهد ومع كل خطوة يخطوها كانت الكتلة الزجاجية في جيبه تضربه بشدة في فخذه، حتى أنه كان على وشك أن يخرجها ويلقي بها بعيدًا. وكان أسوأ ما في الأمر هو الألم الذي يشعر به في جوفه، فقد ظل دقيقتين وهو يشعر بقرب منيته، إن لم يصل إلى دورة مياه في الحال، لكن لم تكن هناك دورة مياه عامة في مثل ذلك الحي، ثم مرت الأزمة تاركة وراءها ألمًا ثقيلًا.

وتوقف ونستون عن المسير، إذ كان الشارع عبارة عن زقاق مسدود، وظل يتساءل لبضعة ثوان وهو في حيرة من أمره، وما كاد يستدير على عقبيه ويبتدئ في العودة من حيث أتى، حتى خطر بباله أن يجري فربما لحق بالفتاة التي مرت به منذ ثلاثة دقائق فقط، وبعد ذلك فباستطاعته أن يتبعها حتى يصلا إلى مكان هادئ ثم يحطم رأسها بحجر، أم لعل الثقل الزجاجي الذي في جيبه كان كافيًا لهذا الغرض. ولما كان لا يحتمل مجرد التفكير في القيام بأي جهد جسماني؛ نظرًا لأنه لم يكن في استطاعته أن يجري أو يوجه ضربة ما، وفوق ذلك كانت الفتاة قوية البنية وفي سن الشباب وتستطيع الدفاع عن نفسها، لهذا فقد تخلى فورًا عن تلك الفكرة، وخطر له أن يسرع إلى مركز الجمعية ويبقى فيه حتى موعد غلقه؛ ليثبت إلى حد ما وجوده في مكان آخر ذلك المساء، لكن كان ذلك مستحيلًا أيضًا، فقد استولى عليه إعياء مميت، وكان كل ما يتمناه أن يعود إلى المنزل بسرعة ويجلس في سكون.

وعندما عاد إلى منزله كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء، وكانت الأنوار تطفأ عادة في الساعة الحادية عشرة والنصف. وتوجه إلى المطبخ حيث ابتلع ما يقرب من فنجان شاي مليء بجن النصر، ثم توجه إلى المنضدة التي في الخلوة وجلس إليها وأخرج المفكرة من الدرج، ولكنه لم يفتحها في الحال، إذ كان ينبعث من الستار الناقل صوتًا نسائيًّا وقحًا يصرخ مرددًا أغنية وطنية، أما هو فراح يحملق في غلاف الكراسة المرمري اللون، محاولًا دون جدوى أن يبعد ذلك الصوت عن وعيه.

والمعروف أنهم كانوا دائمًا يأتونك ليلًا، لذلك كان من أسلم الأمور أن تقتل نفسك قبل أن يقبضوا عليك، كما فعل بعض الناس من قبل، وكما كان الكثير من حوادث الاختفاء انتحارات حقيقية، ولكنك كنت تحتاج إلى شجاعة اليائس لتقتل نفسك في دنيا يتعذر فيها إطلاقًا الحصول على أسلحة نارية، أو أي سم سريع مضمون المفعول.

وأخذ يفكر بشيء من الحيرة في عدم وجود أية فائدة للألم والخوف، وكيف يخون جسم الإنسان صاحبه في الوقت المناسب الذي يحتاج فيه إلى مجهود خاص، إذ غالبًا ما يتصلب ويصبح في حالة من القصور، فمثلًا لو كان قد تصرف بسرعة كافية فربما كان قد قضى على الفتاة ذات الشعر الأسود، ولكن السبب الحقيقي لفقده مقدرته على التصرف، هو ما كان فيه من خطر داهم. وأدرك فجأة أن المرء في وقت الشدائد لا يقاتل أبدًا ضد عدو خارجي، بل يكافح دائمًا ضد جسده.

وحتى في هذه اللحظة كان تسلسل تفكيره مستحيلًا بسبب الألم الشديد الذي يحس به في جوفه، بالرغم مما شربه من جن. كما أدرك أن نفس ذلك الشيء يحدث في جميع

مواقف البطولة أو الحزن المماثلة في ميدان القتال، أو في غرف التعذيب، أو على سفينة تغرق، إذ تنسى دائمًا البواعث التي يكافح الإنسان من أجلها؛ لأن الجسد ينتفخ حتى يملأ عليك دنياك، وحتى إذا لم يشمل الرعب حركتك، أو لم يدفعك الألم إلى الصراخ، فالحياة صراع متصل ضد الجوع أو البرد أو الأرق، أو ضد معدة ملأتها الأحماض أو من أسنان تؤلم صاحبها.

وكان من المهم أن يكتب شيئًا في مفكرته ففتحها، لكن سيدة الستار كانت قد بدأت تذيع أغنية جديدة بصوت خيل إليه أنه التصق بمخه كشظية غير مستوية من الزجاج، ثم حاول أن يفكر في أوبرين الذي من أجله أو إليه كانت المذكرات تكتب، وبدلًا من ذلك، ابتدأ يفكر فيما سيحدث له من أمور بعد أن يبتعد به بوليس الفكر. لم يكن الأمر صعبًا إذا قتلوك في الحال؛ لأنك كنت تتوقع ذلك، ولكن الصعوبة فيما كان يحدث قبل الموت (ما كان لأحد أن يتحدث عن مثل ذلك إلا أنه كان معروفًا للجميع)... إجراءات الاعتراف التي لا بد أن تمر بها، فمن زحف على الأرض صارخًا تطلب الرحمة، إلى سماع قرقعة عظامك المتكسرة وخصلات الشعر التي تنتزع جملة واحدة حتى تدمي رأسك. فما دامت النهاية واحدة، فلماذا تتحمل كل هذا؟ ولماذا لا يكون من الممكن أن تقتطع بضعة أيام أو أسابيع من حياتك؟

إذ لم ينج أحد أبدًا من اكتشاف أمره أو يفلت من الاعتراف. فإذا حدث مرة واستسلمت إلى جريمة فكر، فبكل تأكيد ستكون ميتًا في يوم محدود، فلماذا إذًا الشعور بذلك الرعب الذي ما كان ليغير شيئًا من الواقع؟

ونجح قليلًا عن ذي قبل عندما حاول أن يستعيد في ذاكرته صورة أوبرين عندما كان يقول له في الحلم: «سنتقابل في المكان الذي لا يوجد فيه ظلام» فأدرك أو خيل له أنه علم، أن المقصود بالمكان الذي لا يوجد فيه ظلام، هو المستقبل المزعوم الذي سوف لا يراه أحد على الإطلاق، ولكن كان باستطاعة الفرد أن يسهم فيه بطريقة غير معروفة، إلا أنه لم يتمكن من متابعة تسلسل أفكاره أكثر من ذلك، بسبب الصوت الصادر من الستار الذي كان يسبب له ألمًا في أذنه. وما كاد يضع سيجارة في فمه حتى تساقط، بسرعة على لسانه، نصف دخانها الذي كان كالغبار اللاذع، حتى أنه كان من الصعب عليه أن يخرجه من فمه مرة أخرى، وما لبث وجه الأخ الأكبر أن طغى على عقله محتلًّا مكان وجه أوبرين، وكما فعل منذ بضعة ايام خلت أخرج قطعة نقود من جيبه ونظر إليها فوجد أن الوجه يحملق إليه في رزانة وهدوء، ولكنه تساءل ما هو نوع الابتسامة التي كان يخفيها الشارب الأسود؟ وكصوت جرس مصنوع من الرصاص عادت إليه الكلمات:

الحرب سلم الحرية عبودية الجهل قوة.

الجزء الثاني

الفصل الأول

انتصف النهار، فغادر ونستون مكتبه، ومضى إلى دورة المياه.

ورأى شخصًا مقبلًا نحوه من الطرف الآخر للممر الطويل ساطع الضوء، كانت الفتاة ذات الشعر الأسود الناعم، وكانت قد انقضت أربعة أيام منذ التقى بها خارج حانوت التحف القديمة. وحينما اقتربت منه لاحظ أنها تضع ذراعها الأيمن في رباط لم يستطع أن يميزه بادئ الأمر؛ لبعد المسافة ولأن لونها شبيه بلون الثوب الذي كانت ترتديه. وكان من المحتمل أن تكون يدها قد هرست حينما كانت تلف وتدور حول آلات (كاليدوسكوب) الكبيرة التي «تطبخ فيها» الحبكة القصصية، فقد كان وقوع مثل هذا الحادث أمرًا مألوفًا في «قسم القصص».

وعندما أصبحت المسافة التي تفصل بينهما قرابة أربعة أمتار، تعثرت الفتاة وسقطت فوق وجهها، فانطلقت منها صرخة مدوّية تدل على فرط الألم، ولا ريب أنها سقطت على ذراعها المصاب. وتوقف ونستون عن السير، وكانت الفتاة قد نهضت واقفة وقد اصفر وجهها، بينما اكتسبت شفتاها احمرارًا لم يسبق له مثيل من قبل، وتركزت عيناها في عينيه، وقد ارتسمت فيهما نظرة أقرب إلى الخوف منها إلى الألم.

وتحركت في قلب ونستون عاطفة غريبة، فأمامه عدو يحاول أن يفتك به، وأمامه أيضًا مخلوقة بشرية تتألم، ولعل عظام ذراعها قد كسرت، واندفع إلى الأمام بالغريزة ليمد لها يد المعونة، فقد أحس وكأن الألم قد أصاب جسمه حينما رآها تسقط فوق ذراعها المعصوب وسألها: هل أصابك مكروه؟

- ليس هناك شيء يستحق الذكر.. إنه ذراعي.. سوف أصبح أحسن حالًا بعد لحظة.

كانت تتكلم وكأن قلبها يخفق بعنف.. أما وجهها فقد اشتد اصفراره.

- أرجو ألا تكون هناك إصابة ما أخرى في جسمك؟

- كلا.. إنني بخير.. لقد تألمت لحظة، وهذا هو كل شيء.

وبسطت له يدها الأخرى، فعاونها على النهوض، وكانت قد استعادت بعض لونها، وبدت في حال أحسن كثيرًا من ذي قبل.

وعادت تقول بعد قليل: لم يحدث شيء ذو بال، فكل ما هنالك أن يدي ارتطمت بالأرض. شكرًا لك أيها الرفيق!

واستأنفت سيرها في الاتجاه الذي كانت منطلقة فيه، وكانت تسير فخطى نشطة كأنما لم يحدث لها شيء على الإطلاق، ولم يكن الحادث قد استغرق أكثر من نصف دقيقة. ولقد كان الحرص على كتمان الإنسان شعوره بحيث لا تبدو انفعالاته فوق صفحة الوجه قد أصبح عادة اكتسبت مرتبة الغريزة، وكان الاثنان يقفان أمام الستار الناقل مباشرة عندما وقع الحادث، ومع ذلك كان من العسير جدًّا على ونستون أن يحول دون ظهور الدهشة الطارئة التي ارتسمت على وجهه، فقد حدث أثناء الثانيتين أو الثلاث التي كان يعاون الفتاة خلالها على النهوض، أن تركت شيئًا في يده، ولم يكن هناك شك في أنها فعلت ذلك عمدًا، وكان هذا الشيء صغيرًا رقيقًا، وعندما دلف من باب دورة المياه، وضع الشيء في

جيبه وتحسسه بأطراف أصابعه، كانت قصاصة من الورق مطوية على شكل مربع.

وعندما كان يقف أمام «المبولة» استطاع، بتحريك أصابعه، أن ينشر الورقة، وكان من الجلي أنها تحمل رسالة ما مكتوبة، وقد راودته نفسه لحظة أن يمضي إلى إحدى قمرات الاغتسال ويقرأ الرسالة بلا إبطاء، ولكنه سرعان ما أدرك ما في هذه الحماقة من جهالة، فليس هناك مكان يكون الإنسان أكثر تعرضًا فيه للستائر الناقلة ورقابتها المستمرة من هذا المكان.

وعاد أدراجه إلى مكتبه، وجلس، وألقى بقصاصة الورق بغير اهتمام بين الأوراق الأخرى الموضوعة فوق مكتبه، ثم ارتدى عويناته وحرّك الجهاز الناطق الكاتب نحوه، وقال لنفسه: «خمس دقائق! خمس دقائق على أقل تقدير!».. وطرق لبه بعنف بالغ في صدره. وكان من حسن الحظ أن العمل الذي كان يؤديه في تلك اللحظة من أعمال الروتين البحتة، فقد كان يصحح قائمة مطولة من الأرقام لا تستدعي اهتمامًا شديدًا.

وقال لنفسه إنه مهما يكن من شأن الرسالة المسجلة على الورقة، فلا ريب أن لها معنى سياسيًا. وكل ما أمكنه أن يستنتجه في تلك اللحظة أن هناك احتمالين، أولهما- وهو الأرجح- أن الفتاة جاسوسة من جواسيس بوليس الفكر، وهو ما كان يخشاه، ولم يستطع أن يعرف لماذا يختار بوليس الفكر هذه الوسيلة لتسليم رسائله، لعل لديه من الأسباب ما يبرر ذلك، فقد تحتوي الورقة على تهديد أو دعوة للحضور، أو أمر بالانتحار، أو فخ من نوع ما. بيد أنه كان هناك احتمال أكثر طيشًا، وكان هذا الاحتمال لا يفتأ يطوف بذهنه وهو يحاول عبثًا أن يكبته، ومؤداه أن هذه الرسالة لا علاقة لها البتة ببوليس الفكر، ولكنها مرسلة من إحدى المنظمات السرية، فلعل لجماعة «الإخوة» كيانًا! ولعل الفتاة عضوة فيها! لا شك في أن الفكرة كانت سخيفة، ولكنها طرأت على باله في اللحظة التي أحس فيها بوجود قصاصة الورق في يده. بيد أن التفسير الآخر والأكثر احتمالاً لم يخطر بباله إلا بعد انقضاء دقيقتين آخريين. وحتى في هذه اللحظة، ورغم أن عقله قال له إن من المحتمل أن تعني هذه الرسالة موته، فإنه لم يصدق ذلك، وظل متشبثًا بقبس من الأمل، بينما راح قلبه يطرق بعنف، ولم يستطع أن يمنع صوته من الارتعاش، وهو يملي أرقامه على آلة التسجيل، إلا بصعوبة.

ولف رزمة كاملة من أوراق العمل، ووضعها في الأنبوبة الهوائية. وكانت قد انقضت ثماني دقائق، فأعاد تثبيت عويناته فوق أنفه، وتنهد، وجذب مجموعة أوراق العمل التالية، وكانت قصاصة الورق فوقها، فنشرها، فإذ به يرى الكلمة التالية مكتوبة فوقها بخط كبير سيئ التركيب:

«أحبك» وأصابه الذهول عدة لحظات، بحيث نسي أن يلقي بدليل الجريمة في ثقب الذكريات. وحينما فعل ذلك، ورغم علمه بما ينطوي عليه، إبداء اهتمام كبير، من خطر، فإنه لم يستطع مقاومة ذلك الإغراء الذي سيطر عليه ليقرأ الرسالة مرة ثانية ويتأكد من أن الكلمة المسجلة حقيقية وليست وهمًا.

وكان من العسير عليه أن يثابر على العمل فيما تبقى من ساعات ذلك الصباح، ولقد كان هناك ما هو أسوأ من ضرورة تركيز عقله فيما أمامه من عمل معقد، وذاك هو حاجته إلى إخفاء ما اجتاحه من انفعال عن الستار الناقل، وأحس كأن نارًا مشبوبة في جوفه، وخيل إليه أن تناول طعام الغداء في المقصف الحار، شديد الاكتظاظ والضوضاء، عملية تعذيب، بينما هو يأمل في أن تتاح له الوحدة والانفراد بنفسه خلال ساعة الغداء. بيد أن سوء الحظ أبى إلا أن يقذف بالأحمق بارسونز ليجلس بجواره، وقد طغت رائحة عرقه البغيضة على رائحة الطعام المطهي الخفيفة. ومضى جاره الثقيل يثرثر ويحدثه حديثًا

مملًّا عن الاستعدادات الخاصة بأسبوع الكراهية، وكان بارسونز متحمسًا بصفة خاصة لنموذج عرضه متران يجري إعداده لرأس الأخ الأكبر، أعدته فرقة الجاسوسات التي تنتمي إليها ابنته خصيصًا لهذه المناسبة. ولقد كان الشيء الذي أثار ونستون أنه لم يكن يستطيع سماع ما يقوله بارسونز وسط الضوضاء العالية التي كانت تملأ المكان، ومن ثم كان مضطرًا إلى مطالبة محدثه بإعادة قول هذه الملاحظة أو تلك بين الحين والحين. ولقد لمح الفتاة ذات مرة وهي جالسة مع فتاتين آخريين حول إحدى المناضد في الجانب الآخر من الغرفة، وبدا له أنها لم تره، أما هو فلم يحول نظره في اتجاهها مرة أخرى.

وكان بعد الظهر أكثر احتمالًا، إذ ما إن فرغ من تناول طعام غدائه حتى تلقى عملًا يستغرق أداؤه عدة ساعات، ويستلزم الانصراف عن التفكير في أي شيء آخر.

وكان هذا العمل هو إجراء تزوير في عدة تقارير من تقارير الإنتاج منذ سنتين بطريقة تلقي ظلًّا من الريبة على نزاهة عضو بارز في الحزب الداخلي، أصبحت تحوم الشكوك حوله في ذلك الحين. وكان ونستون يتقن مثل هذا اللون من العمل، ومن ثم فقد أبعد الفتاة تمامًا عن تفكيره أكثر من ساعتين كاملتين، ثم لم تلبث ذكرى وجهها أن عاودته، وقد اقترنت هذه الذكرى برغبة جامحة عاصفة لا تقاوم في الاختلاء بنفسه، فإن التفكير في هذا التطور الجديد في حياته كان مستحيلًا بغير الوحدة والانفراد. وكانت تلك هي الليلة المحددة له للذهاب إلى مركز المجتمع، ومن ثم فقد التهم وجبة طعام أخرى عديمة الطعم في المقصف، ثم انصرف سريعًا إلى المركز، وساهم في بحث سخيف ل «جماعة المناقشة». وبعدئذ لعب دورتين من تنس الطاولة واحتسى عدة كؤوس من الجن، وقضى نصف ساعة وهو جالس يصغي إلى محاضرة عنوانها علاقة أنجسوك (الاشتراكية الإنجليزية) «بالشطرنج». وكان الضيق قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا، ولكن كانت تلك أول مرة يشعر فيها بعدم الرغبة في ترك المركز، فقد جعلته رؤية كلمة «أحبك» يشعر برغبة طاغية تملأ كيانه في أن يظل على قيد الحياة، وخيل إليه فجأة أن من الغباء الإقدام على المجازفات.. وعندما أشرفت الساعة على الحادية عشر مساء، كان قد عاد إلى منزله واستلقى على فراشه في الظلام، حيث كان يمكنه أن يظل بمأمن من الستار الناقل طالما لزم الصمت، وإن كان في استطاعته أن يمضي في التفكير بلا توقف.

وكانت المشكلة المادية التي واجهته هي: كيف يتصل بالفتاة ويدبر معها لقاء.. إنه لم يعد يفكر في احتمال أنها تنصب له فخًا. كان يعرف أن الأمر كذلك نظرًا لما كانت عليه من انفعال واضح حينما سلمته الرسالة، فقد كان من الواضح أنها كانت هلعة وجلة، وهو أمر طبيعي لا غبار عليه في مثل هذه الظروف، ولم يخطر بباله أن يرفض غرامها، رغم ما كان يجول بخاطره، منذ خمس ليال، في أن يحطم جمجمتها بحجر مستدير، ولكن ذلك لم يعد أمرًا ذا بال. وراح يفكر في جسدها العاري الممتلئ شبابًا مثلما رآه في الحلم، لقد ظنها حمقاء مثل جميع بنات جنسها، وأن رأسها محشو بالأكاذيب والحقد، وجوفها مملوء بالثلج. وأصابه نوع من الحمى عندما خطرت بباله فكرة احتمال فقده إياها، وإفلات هذا الجسم الأبيض الفتيّ من يديه!

كان أخشى ما يخشاه هو أن تعدل عن رأيها إذا لم يسرع بالاتصال بها، ولكن العقبة المادية التي كانت تقف في سبيل مثل هذا اللقاء كانت ضخمة، كان موقفه أشبه بموقف من يحاول تحريك «حجر» شطرنج في الوقت الذي يتهدد الموت فيه الملك، فأينما يدير الإنسان وجهه يرى الستار الناقل. والواقع أن جميع وسائل الاتصال بها خطرت على باله في مدى خمس دقائق منذ قرأ رسالتها، أما الآن، وقد أصبحت أمامه فسحة من الوقت للتفكير، فقد راح يستعرض هذه الوسائل واحدة بعد الأخرى، كما لو كان يصف قطعًا من الأدوات فوق منضدة.

كان من الواضح أنه من المستحيل أن يتكرر لقاء كلقاء ذلك الصباح، فلو أن عملها كان في قسم السجلات لهان الأمر نسبيًا، ثم إنه لا يعرف على وجه التحقيق أين يوجد قسم القصص في المبنى، ولا يملك شيئًا يتعلل به في الذهاب إليه. أما إذا كان يعرف أين تقطن، وفي أية ساعة تنصرف من العمل، لعمل على مقابلتها في طريق عودتها إلى منزلها، أما محاولة تتبعها إلى منزلها فلم تكن مأمونة؛ لأنها تعني التسكع خارج الوزارة وهو أمر خليق بأن يجتذب الأنظار إليه. وأما أن يبعث لها برسالة بالبريد فأمر يستحيل الإقدام عليه، إذ كانت الرسائل تفتح عند نقلها طبقًا لروتين متبع لم تكفل له أية سرية. والواقع أن أشخاصًا قلائل هم الذين كانوا يكتبون خطابات، إذ كانت هناك بطاقات مطبوعة تحتوي على قائمة مطولة من العبارات يستخدمها الناس حينما يرغبون في أن يبعثوا برسائل، وفي هذه الحالة يكفي أن يشطب الإنسان العبارات التي لا تفيده فيما يريد أن يبلغه في رسالته. وعلى كل حال إنه لم يكن يعلم اسم الفتاة فضلًا عن عنوانها. وأخيرًا قرر أن آمن مكان للقائها هو المقصف، فإذا استطاع أن يجعلها تجلس وحدها إلى منضدة في منتصف الغرفة تقريبًا، وعلى بعد من الستار الناقل، وإذا كان الطنين المنبعث من حديث الطاعمين كافيًا، وإذا أمكن تحقيق كل ذلك لمدة ثلاثين ثانية، فقد يكون من المستطاع أن يتبادلا كلمات قلائل.

ومضى أسبوع بعد ذلك، كانت حياته خلاله أشبه بحلم قلق، ففي اليوم التالي لم تظهر الفتاة في المقصف إلا حينما كان يغادره، وكانت صفارة بدء العمل قد أطلقت، فأيقن أنها غيرت نوبة عملها إلى نوبة متأخرة، ومر كل منهما بالآخر بغير أن يتطلع إليه. وفي اليوم الذي تلاه كانت الفتاة موجودة في المقصف في الموعد المعتاد، ولكنها كانت مع ثلاث فتيات أخريات، وكن يجلسن أسفل الستار الناقل مباشرة. ثم مرت ثلاثة أيام أخرى بغيضة لم تظهر الفتاة فيها، وخيل أن عقله وجسده قد أصيبا بحساسية لا تطاق، أو بنوع من الشفافية جعل كل حركة، وكل صوت، وكل احتكاك، وكل كلمة يضطر إلى قولها أو الاستماع إليها، عذابًا لا يطاق. ولم يستطع أن يتخلص من طيفها حتى في نومه، ومنذ أن بدأت صلته بها لم يحاول أن يقرب مفكرته، ولم يكن هناك ما يرفه عنه بعض الشيء غير عمله، إذ كان في استطاعته أحيانًا أن ينسى نفسه ويستغرق في العمل فترات قد تمتد إلى عشر ساعات. وكان من الجلي أنه لا يملك دليلًا على ما حاق بالفتاة، فلم يكن يستطيع أن يتحرى عنها، وكان من الجائز أنها تبخرت أو انتحرت أو نقلت إلى الجانب الآخر من أوشانيا- وأسوأ من ذلك كله وأكثره احتمالًا، أنها ربما عدلت عن رأيها وقررت أن تتجنب لقاءه.

وعادت الفتاة إلى الظهور في اليوم التالي، كانت قد أزالت رباط ذراعها واكتفت بوضع ضمادة حول معصمها. وكان الارتياح الذي أحس به لرؤيتها طاغيًا بحيث إنه لم يستطع مقاومة التحديق فيها بشكل مباشر عدة ثوان. وفي اليوم التالي أوشك أن ينجح في التحدث إليها، فعندما دخل المقصف كانت تجلس إلى مائدة بعيدة عن الجدار، وكانت وحيدة، ولما كان الوقت مبكرًا، فإن المقصف لم يكن قد اكتظ بعد برواده، وسار «طابور» المنتظرين إلى الأمام حتى اقترب ونستون من مكان استلام الطعام، ثم توقف الطابور عن التحرك زهاء دقيقتين؛ لأن شخصًا ممن كانوا في المقدمة راح يتذمر لأنه لم يتسلم قرص السكارين، ولكن الفتاة كانت لا تزال وحيدة عندما حصل ونستون على «صينيته». وبدأ يتقدم من مائدتها، كان يسير نحوها وهو يتظاهر بعدم الاكتراث، ولم تعد المسافة التي تفصل بينهما أكثر من ثلاثة أمتار، وبقيت ثانيتان ليجلس أمامها، وعندئذ.. سمع صوتًا من خلفه ينادي «سميث!» فتظاهر بأنه لم يسمع النداء، فعاد الصوت يكرر النداء «سميث!» بصوت أعلى؛ فأدرك ألا جدوى من التظاهر بعدم السماع وانثنى يتطلع وراءه؛ فرأى وجه ذلك الشاب الأشقر الغبي ويلشر الذي كانت صلته به سطحية للغاية، يدعوه إلى مكان شاغر على مائدته، وقد تلاعبت على شفتيه ابتسامة جوفاء، ولم يكن الاعتذار أمرًا مأمون

العاقبة، فبعد أن عرفت شخصيته، لم يعد في استطاعته أن يذهب ليجلس إلى مائدة تجلس أمامها فتاة وحيدة، فقد كان ذلك خليقًا بأن يجتذب إليه جميع الأنظار، ومن ثم فقد جلس مع ويلشر، وعلى شفتيه ابتسامة تشف عن الصداقة، فتهلل له وجه الشاب الغبي، وعندئذ خطر لونستون أن يحطم هذا الوجه الممقوت بفأس. وبعد دقائق قلائل ازدحمت مائدة الفتاة بالطاعمين.

لكن لا ريب في أنها لاحظت أنه كان مقبلًا نحوها، ولعلها فهمت الإشارة... ولقد حرص ونستون على المجيء مبكرًا في اليوم التالي، فألقاها جالسة إلى منضدة في نفس المكان تقريبًا، وكانت وحيدة أيضًا... أما الشخص الذي كان يسبقه مباشرة في الطابور، فكان رجلًا ضئيل الجسم، سريع الحركة، أشبه بالخنفساء، له وجه مفرطح ضئيل وعينان مريبتان، وعندما ابتعد ونستون عن منضدة الخدمة في مكان تسليم الطعام وهو يحمل صينيته، لاحظ أن الرجل الضئيل يشق طريقه إلى مائدة الفتاة مباشرة، فضاعت آماله مرة أخرى. ووجد مكانًا شاغرًا حول منضدة أبعد، ولكن شيئًا ما في هيئة الرجل الضئيل أوحى إليه بأن حرص هذا الرجل على راحته سوف يدفعه إلى اختيار المنضدة الشاغرة، وتبعه ونستون بقلب مثقل كالثلج. كان يعلم ألا جدوى من مبادلة الفتاة الحديث إلا إذا استطاع أن ينفرد بها.

وفي تلك اللحظة دوى صوت ارتطام مخيف، وسقط الرجل الضئيل فوق أربعته وقد طارت صينيته في الهواء وانسكب الحساء والقهوة فوق الأرض.

ونهض الرجل واقفًا وأخذ يتطلع إلى ونستون بنظرة معادية، إذ كان من الواضح أنه ارتاب في أنه داس على قدمه فجعله يتعثر ويسقط، ولكن كل شيء مضى على ما يرام، وبعد خمس ثوان كان ونستون يجلس إلى منضدة الفتاة، بينما اشتدت طرقات قلبه بين جنبيه.

لم يتطلع إليها، وإنما بادر بفض أوعية الطعام، وانصرف إلى التهامه بلا توقف. كان من المهم جدًّا أن يبادر بالحديث إليها قبل أن يأتي أي شخص آخر، بيد أن خوفًا قاتلًا سيطر عليه في تلك اللحظة، وخشي أن تكون قد عدلت عن رأيها، بل لعلها عدلت عنه فعلًا بعد أن انقضى أسبوع كامل على محاولتها التقرب منه! كان من المستحيل أن تنتهي هذه العلاقة بنجاح، فإن ذلك لا يحدث عادة في الحياة الحقيقية. وكان من الممكن أن يحجم عن الحديث لولا أنه رأى في تلك اللحظة صديقه أمبلفورث، الشاعر ذو الأذنان كثيفتا الشعر وهو يتجول في أرجاء الغرفة ومعه صينيته باحثًا عن مكان يجلس فيه. وأدرك ونستون أن أمبلفورث لن يتردد في المجيء والجلوس معه إذا رآه؛ نظرًا لما بينهما من صلة وثيقة، ولم تكن هناك غير دقيقة واحدة للعمل، وكان ونستون والفتاة يتناولان طعامهما بلا توقف، أما اللون الذي كانا يتناولانه فكان عبارة عن ماء خفيف، هو في الواقع «شوربة لوبيا». وبدأ ونستون الحديث بصوت أشبه بالغمغمة المنخفضة، ولم يرفع أحدهما عينيه عن صفحته، وإنما استمرا في شرب الحساء، وكانا يتبادلان الكلمات القلائل الضرورية بين كل ملعقة وأخرى.

- في أي وقت تغادرين العمل؟

- في الساعة السادسة والنصف مساء.

- أين يمكن أن نلتقي؟

- ساحة النصر على مقربة من التمثال.

- إنها مليئة بالستائر الناقلة!

- لا خوف علينا إذا كانت مزدحمة بالناس.

- هل من إشارة؟

- كلا. لا تقترب مني إلى أن تراني بين أناس كثيرين، ولا تنظر إليّ، بل قف على مقربة مني.

- متى؟

- في الساعة السابعة مساء.

- حسنًا.

ولم ير أمبلفورث ونستون فجلس إلى منضدة أخرى، وأنهت الفتاة طعامها على عجل، وانصرفت، أما ونستون فلزم مكانه ريثما يدخن لفافة تبغ. ولم يعاودا الحديث، أو يتطلع أحدهما إلى الآخر بقدر ما وسعهما وما سمح به موقف اثنين يجلسان قبالة بعضهما على منضدة واحدة.

وذهب ونستون إلى ساحة النصر قبل الموعد المحدد، وأخذ يتجول حول قاعدة العامود الهائل المصنوع من المرمر الذي استقر فوق قمته تمثال الأخ الأكبر، وهو يحدق جنوبًا في السماء، حيث انتصرت طائراته على طائرات أوراسيا (كانوا يقولون إنه انتصر على طائرات استاسيا منذ سنوات قليلة) في المعركة الجوية رقم 1، وفي الشارع وأمام تمثال الأخ الأكبر كان هناك تمثال رجل يمتطي جوادًا يعتقد أنه يمثل أوليفر كروموبل. ومرت خمس دقائق بعد الموعد دون أن تظهر الفتاة، فعاد الخوف القاتل يسيطر على ونستون؛ خيل إليه أنها لن تأتي، وأنها عدلت عن رأيها. وأخذ يتقدم ببطء إلى الطرف الثاني من الساحة، وهو يتأمل كنيسة سانت مارتن التي كانت أجراسها- حينما كانت لها أجراس- تقرع بصوت يقول: «إنك مدينة لي بثلاث عملات إنجليزية» ثم رأى الفتاة واقفة عند قاعدة التمثال وهي تقرأ، أو تتظاهر بقراءة ملصقة تدور حول التمثال من أسفل إلى أعلى، ولم يكن من المأمون أن يقترب منها حتى يتجمع بعض الناس، فقد كانت الستائر الناقلة حول التمثال، ولم يلبث أن ارتفع الضجيج والصياح في تلك اللحظة عندما سمعت قرقعة عجلات سيارات ثقيلة منبعثة من الناحية اليسرى للساحة، وفجأة خيل كأن كل شخص كان يركض عبر الساحة، ودارت الفتاة حول تماثيل الأسود عند قاعدة التمثال ثم انضمت إلى المتدافعين، فتبعها ونستون، وبينما كان يركض استخلص من بعض العبارات التي كانت الجماهير تنطق بها أن قافلة من أسرى أوراسيا كانت تمر.

وكانت جماهير الناس قد تكاثفت بحيث أغلقت الطرف الجنوبي من الساحة، ومع أن ونستون كان، في الأوقات العادية، من ذلك الطراز من الأشخاص الذين يحرصون على البقاء في الصفوف الخارجية من الجماهير في مثل هذه المناسبات، فإنه راح يشق طريقه بالمناكب ويدفع الناس ليشق لنفسه طريقًا إلى قلب الجمهرة. وسرعان ما أصبح على مبعدة مسافة ذراع من الفتاة، ولكن سرعان أيضًا ما اعترض طريقه عملاق ضخم وامرأة لا تقل عنه ضخامة لعلها كانت زوجته، وبدا كأنما أنشأ الاثنان جدارًا من اللحم غير قابل للاختراق. وشق ونستون طريقه بصعوبة حتى بلغ هذين الزوجين ثم حشر كتفه بينهما بعنف، وخيل إليه أن أمعاءه قد هرست بداخل بطنه حينما انحشر بين هاتين الكتلتين الهائلتين من اللحم، ولكنه لم يلبث أن مرق بينهما وقد تصبب عرقه قليلًا، وانضم إلى الفتاة، وتلاصق كتفاهما، وقد أخذ كل منهما يحدق أمامه.

كان هناك صف طويل من سيارات النقل تحمل حراسًا مسلحين بالمدافع سريعة الطلقات، يقفون بوجوههم الجامدة كالخشب في كل ركن من أركان السيارات، وكانت هذه السيارات تسير في الشارع ببطء، بينما جلس رجال،صفر ضئال الأجسام، القرفصاء فوق أرض السيارات وقد ارتدوا ثيابًا عسكرية رثة خضراء اللون وقد التصقوا ببعضهم بعضًا، وراحت وجوههم المغولية الحزينة تبرز من فوق جوانب السيارات وهم يحدقون أمامهم دون أن يبدوا عليهم أي اهتمام. وكانت أصوات قعقعة السلاسل التي تقيدهم تسمع بين الحين والحين. ومرت سيارة إثر أخرى محملة بالوجوه الحزينة، وكان ونستون يشعر بوجود هذه الوجوه، إلا أنه لم يعن بالنظر إليها إلا لمامًا؛ فقد كانت الفتاة تقف بجانبه وقد التصق ذراعها الأيمن بمرفقه واقتربت وجنتها منه، بحيث كاد يحس بحرارتها، وسرعان ما تولت الفتاة زمام الموقف مثلما فعلت في الموقف السابق، وبدأت تتكلم بنفس الصوت معدوم الدلالة مثلما فعلت من قبل، وكانت شفتاها تتحركان فينطلق من بينهما همس يكاد يضيع وسط ضجيج الجمهور وقرقعة عجلات السيارات.

- هل تستطيع أن تسمعني؟

- نعم..

- هل تستطيع أن تستأذن من العمل بعد ظهر يوم الأحد؟

- نعم..

- إذن اصغ إليّ بعناية.. يجب أن تتذكر ما سأقوله.. اذهب إلى محطة بادنجتون...

وبدقة العسكريين راحت تشرح له الطريق الذي يتعين عليه أن يسلكه، كان عليه أن يقوم برحلة بالقطار لمدة نصف ساعة، ثم ينحرف يسارًا خارج المحطة ويمضي كيلومترين في الطريق، فيجد بوابة فقد حاجزها العلوي، فيعبرها، وينطلق في ممر بين الحقول، حتى يبلغ ممرًا آخر نبتت فيه الحشائش، فيسير فيه إلى أن يصل إلى شجرة ميتة بها طحالب كثيرة.. كانت تصف له الطريق كما لو كانت تحمل خريطة بداخل رأسها... وأخيرًا سألته هامسة:

- هل تستطيع أن تتذكر ذلك كله؟

- نعم..

- اتجه يسارًا.. ثم يمينًا.. فيسارًا مرة أخرى ثم اعبر البوابة مفقودة الحاجز العلوي..

- حسنًا.. في أي وقت؟

- حوالي الساعة الثالثة.. وربما اضطررت إلى الانتظار؛ لأنني سأسلك طريقًا آخر.. لكن هل أنت واثق من أنك ستتذكر كل شيء؟

- نعم..

- إذن.. ابتعد عني بأسرع ما تستطيع.

لم تكن بحاجة لأن تقول له ذلك، ولكنهما لم يستطيعا أن يخلصا نفسهما من الجمهور المزدحم بسرعة. كانت السيارات لا تزال تمر أمام الجماهير التي كانت تحدق فيها بشراهة، وفي البداية كانت تنبعث من أعضاء الحزب الواقفين همسات قليلة، ولكنها سرعان ما

توقفت، فقد كانت غريزة حب الاستطلاع هي السائدة، فالأجانب سواء أكانوا من أوراسيا أو من استاسيا هم نوع من الحيوانات الغريبة، ولم يكن أهالي أوراسيا يرونهم إلا حين يقعون في الأسر، وحتى في هذه المناسبات فإنهم لم يكونوا يرون وجوههم إلا للحظات عابرة، كما أنهم لم يكونوا يعرفون هؤلاء الأسرى فيما عدا عددًا قليل منهم كانوا يشنقون باعتبارهم مجرمي حرب، أما الباقون فكانوا يختفون تمامًا، ولعلهم كانوا يرسلون إلى معسكرات العمل الإجباري. وأفسحت الوجوه المنغولية المستديرة السبيل إلى وجوه أقرب إلى وجوه الأوروبيين، تعلوها الأقذار، وقد طالت لحاها وبدت عليها علامات التعب، ومن فوق عظام الخد الناتئة كانت العيون تنفذ بنظراتها خلال عيني ونستون، وكانت هذه النظرات حادة في بعض الأحايين، ولكنها لا تلبث أن تبتعد. كانت القافلة قد أوشكت على الانتهاء، وفي السيارة الأخيرة استطاع ونستون أن يرى كهلًا يكسو رأسه شعر أشيب وهو يقف منتصبًا، وقد عقد ساعديه فوق صدره كما لو كان قد اعتاد على أن تقيد يداه معًا. وكان الوقت قد حان لافتراق ونستون والفتاة، ولكن بينما الجماهير لا تزال تطن حولهما، تحسست يدها يده وضغطتها بسرعة.

ولم تدم هذه الحركة أكثر من عشر ثوان، ولكن خيل أن يديهما تشابكتا وقتًا طويلًا، ووجد ونستون متسعًا من الوقت للإلمام بكل تفاصيل راحة يد الفتاة، فقد مر بأصابعه فوق أناملها الطويلة وأظفارها حسنة التكوين والراحة التي اخشوشنت من العمل الشاق واللحم الناعم تحت الرسغ. ولقد كان مجرد تحسس هذه اليد كفيلًا بأن يعرفها عندما يراها، وفي اللحظة ذاتها خطر له أنه لا يعرف لون عيني الفتاة، وخيل إليه أنهما بنيتا اللون، ولكن أصحاب الشعر الأسود تكون عيونهم زرقاء اللون أحيانًا، وكان يعلم أن من الحمق والجهالة أن يدير رأسه ليتطلع إلى الفتاة، ومن ثم فقد شبكا يديهما بغير أن يراهما الناس وراحا يسيران قدمًا، وبدلًا من أن يرى ونستون عيني الفتاة رأى عيني الأسير الكهل وهما تحدقان فيه بحزن من خلال أهدابهما الكثيفة.

الفصل الثاني

سار ونستون في ممر يكتنفه الظل حينًا ويغمره الضوء حينًا آخر، وكان لا يفتأ يمشي فوق أرض كستها زهور ذهبية اللون، كلما افترقت أغصان الأشجار في إحدى المناطق. وكانت الأرض أسفل الأشجار الواقعة على يساره مرصعة بأزهار على شكل أجراس، وكأنما كان النسيم العليل يقبل وجوه الناس، ولا عجب فقد كان اليوم هو الثاني من شهر مايو. ومن مكان ما في قلب الغابة ارتفع تغريد الطيور وزقزقة الحمام.

كان ونستون قد وصل إلى مكان اللقاء مبكرًا، ولم تصادفه أية صعوبات في رحلته، ويبدو أن الفتاة كانت خبيرة في اختيار الأماكن، ولهذا فإن فزعه وخوفه من وجوده في هذا المكان كان أقل مما ينبغي أن يكون. ومع ذلك فإنه يجدر بالإنسان ألا يفترض أن الريف أكثر أمنًا من لندن، صحيح إن هذا المكان خالٍ من الستائر الناقلة، بيد أنه كان هناك دائمًا خطر وجود لاقط للصوت مخبأ في مكان سري يمكن أن يلتقط صوتك فيفضح شخصيتك، أضف إلى ذلك أنه لم يكن من السهل أن يقوم الإنسان برحلة بمفرده بغير أن يجتذب الأنظار إليه. ورغم أنه لم يكن من الضروري أن تحصل على «تأشيرة» على جواز سفرك ما دامت رحلتك لا تتجاوز مائة كيلومتر، إلا أن داوريات البوليس تقوم بعملها أحيانًا على مقربة من محطات السكك الحديدية، فإذا عثرت على أحد أعضاء الحزب فحصت أوراقه بدقة وأمطرته بوابل من الأسئلة المحرجة. وكان من حسن حظ ونستون أنه لم يصادف إحدى هذه الداوريات.. وحينما بدأ رحلته من المحطة كان لا يفتأ يتلفت خلفه بين الحين والحين؛ ليستوثق من أن أحدًا لا يتبعه.. وكان القطار الذي استقله مزدحمًا بعامة الشعب الذين بدا عليهم أنهم في عطلة لطيفة بسبب الطقس الصيفي في ذلك اليوم، وكانت المركبة ذات المقاعد الخشبية التي ركبها ونستون مزدحمة تمامًا بأسرة واحدة كبيرة يتراوح أفرادها بين الجدة الطاعنة في السن التي فقدت أسنانها وبين الطفل الذي لم يتجاوز عمره شهرًا، وكانت هذه الأسرة تعتزم قضاء بعد ظهر ذلك اليوم في الريف، ولتحصل- كما قال بعض أفرادها لونستون صراحةً- على كمية قليلة من الزبد من السوق السوداء.

واتسع الممر، وبعد دقيقة وصل ونستون إلى الممر الذي حدثته الفتاة عنه، وكان عبارة عن طريق للماشية في قلب الحشائش والأعشاب. ولم يكن ونستون يملك ساعة إلا أنه كان واثقًا من أن الوقت لم يبلغ بعد الثالثة مساء. وكانت الأزهار الشبيهة بالأجراس شديدة الكثافة بحيث كان من المستحيل عليه ألا يطأها بقدميه، وانحنى إلى الأمام وبدأ يقطف بعضها ليقطع الوقت من جهة، ولأنه، من جهة أخرى، كان مدفوعًا بفكرة غامضة إلى إعداد باقة من الزهور يقدمها إلى الفتاة عندما يلتقيان. وعندما جمع باقة كبيرة وراح يشم عبيرها الخفيف، سمع صوتًا من وراءه جعله يتجمد في مكانه. كان صوت قدم تطأ أغصان الشجر، واستمر ونستون يقطف الزهور فقد كان ذلك أفضل ما يفعله في هذه المناسبة.. من الجائز أن تكون الفتاة هي القادمة، كما كان من الجائز أيضًا أن يكون هناك من تعقبه.

بيد أن إقدامه على التطلع إلى الوراء كان بمثابة الاعتراف بالإثم، ومن ثم راح يقطف زهرة تلو أخرى، وسرعان ما أحس بيد توضع بلطف فوق كتفه.

رفع وجهه متطلعًا فرأى الفتاة أمامه، وهزت رأسها محذرة لتلزمه الصمت، ثم فرقت الأعشاب وتقدمته سريعًا في الممر الضيق بداخل الغاب. كان من الجلي أنها ارتادت هذا الطريق من قبل، إذ إنها كانت تتجنب المناطق الوحلة وكأنما كانت تفعل ذلك بحكم العادة، وتبعها ونستون وهو لا يزال يحمل باقة الزهور، وكان أول إحساس راوده هو الارتياح، ولكنه راح يتأمل القوام القوي الأهيف الذي كان يتحرك أمامه، والحزام القرمزي الذي شد

حول الخصر إلى درجة أبرزت معالم الردفين، وكان إحساسه بضعة نفسه يقل عليه، فقد خيل إليه أنه من الجائز أن تتراجع الفتاة فيما بدأته، إذا تطلعت وراءها في تلك اللحظة وتأملته.. ولقد أفزعته عذوبة الهواء وخضرة أوراق الشجر، وكانت أشعة شمس مايو جعلته يشعر، وهو يقطع الطريق بين محطة السكة الحديد ومكان اللقاء، بأنه مخلوق من المخلوقات التي لا يحق لها الخروج من المنازل: امتلأت مسامه بالغبار المنتشر في لندن في ذلك الوقت. وخطر بباله أنه من المحتمل أن الفتاة لم تره حتى الآن على ضوء النهار في العراء.. وبلغا الشجرة المتداعية التي حدثته عنها، فتخطتها الفتاة، وفتحت لنفسها طريقًا بين الأعشاب التي كان يبدو أنه لا توجد بينها فتحة.

وعندما تبعها ونستون وجد أنهما يقفان في بقعة طبيعية خالية من النبات، وإن اكتست أرضها بالحشائش الخفيفة وتحيط بها شجيرات طويلة تحجبها عن العيون تمامًا.. وهنا توقفت الفتاة وتحولت إليه قائلة:

- ها نحن قد وصلنا.

وواجهها وقد وقف على مسيرة عدة خطوات، ولكنه لم يجرؤ على الدنو منها، فمضت تقول:

لم أشأ أن أقول لك شيئًا ونحن في الممر خشية أن يكون هناك لاقط للصوت مخبأ، ولو أني أعتقد أنه لا توجد لاقطات صوت، وإن كان من الممكن أن يوضع أحدها في هذه المنطقة، وبذلك يمكن أن يفتضح أمرك ويعرف صوتك.. إننا هنا في أمان..

ولم يجد ونستون من نفسه الشجاعة للاقتراب منها حتى في هذه اللحظة، فراح يكرر قولها في غباء:

- إننا هنا في أمان..

- نعم.. انظر إلى الأشجار.

كانت أشجار دردار صغيرة اجتثت في يوم من الأيام، ولكنها لم تلبث أن نبتت ثانية مكونة غابة من الأعمدة لا يزيد سمك أحدها عن سمك رسغ الإنسان..

واستطردت الفتاة: لا توجد هنا أشجار كبيرة إلى درجة كافية بحيث يمكن إخفاء لاقط للصوت بينها، أضف إلى ذلك أنني ارتدت هذا المكان من قبل.

كانا يقطعان الوقت بالحديث، واستطاع ونستون أن يتحرك مقتربًا من الفتاة في تلك الأثناء، وكانت تقف أمامه منتصبة القامة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة امتزجت بشيء من السخرية، وكأنما كانت تتساءل عن سبب تباطؤه في العمل. وكانت زهور الأجراس قد تساقطت على الأرض، وخيل أنها سقطت من تلقاء ذاتها، وأمسك ونستون بيد الفتاة، وقال:

- هل تصدقين أنني لا أعرف ما لون عينيك حتى الآن؟

ولاحظ أن عينيها عسليتا اللون، أما أهدابها فكانت سوداء فاحمة.

سألها: أما وقد رأيتيني على حقيقتي، فهل لا تزالين تحتملين النظر إلي؟

- نعم.. بسهولة.

- إنني في التاسعة والثلاثين من عمري، ولي زوجة لا أستطيع التخلص منها، وأعاني

من تقلص بالشرايين، وفي فمي خمس أسنان صناعية.

فقالت الفتاة: إن ذلك لن يقلل من اهتمامي بك.

وفي اللحظة التالية كانت الفتاة بين ذراعيه، ولم يعلم أحد أيهما الذي تحرك أولًا. وفي بادئ الأمر لم يكن ونستون يشعر بشيء اللهم إلا أنه لم يكن يصدق ما يجري. لقد كان الجسم الفتي ملتصقًا بجسمه، وها هي خصلات الشعر الفاحم تغطي وجهه و..نعم! لقد رفعت الفتاة وجهها، وها هو يشبع فمها الأحمر الواسع لثمًا. وأحاطت الفتاة عنقه بذراعيها وهي تناديه بحبيبها، والغالي، والعزيز، وجذبها إلى الأرض.

فلم تقاومه البتة، وكان في استطاعته أن يفعل بها ما يشاء، ولكن واقع الأمر أنه لم يكن يحس بأية رغبة بدنية، اللهم إلا مجرد الالتصاق بها، كل ما كان يشعر به هو عدم التصديق والزهو.

كان مسرورًا بما يحدث، ولكنه لم يكن يشعر بأية رغبة بدنية، لقد حدث كل شيء بسرعة مدهشة، فأحس بالخوف من جمالها وشبابها، بعد أن عاش وقتًا طويلًا بغير أن يقرب امرأة- ولم يكن يعرف السبب في ذلك.. واعتدلت الفتاة في جلستها، وأخذت زهرة من شعرها، ثم جلست ملاصقة له وأحاطت خصره بذراعها..

ثم قالت: لا بأس يا عزيزي.. لا ضرورة للعجلة.. فما زال أمامنا متسع من الوقت.. أليس هذا المخبأ رائعًا؟ لقد عثرت عليه عندما ضللت الطريق وأنا في نزهة مع بعض رفيقاتي. إنك تستطيع سماع وقع أقدام أي شخص يكون في طريقه إلى هنا وهو على بعد مائة متر.

سألها ونستون: ما اسمك؟

- جوليا.. إنني أعرف اسمك.. إنه ونستون- ونستون سميث.

- وكيف عرفتيه؟

- أكبر ظني أنني أبرع منك في اكتشاف الأشياء يا عزيزي.. قل لي ماذا كان رأيك فيّ قبل أن أعطيك الرسالة في ذلك اليوم؟

لم يشعر ونستون بأي ميل إلى الكذب عليها، بل لقد كان يشعر بأن بدء علاقتهما بالإفضاء إليها بأسوأ ما لديه ضرب من ضروب الحب.

أجاب: كنت أكره رؤيتك، ولكم تمنيت لو أمكنني أن أغتصبك ثم أقتلك بعد ذلك.. ومنذ أسبوعين فكرت جديًا في أن أحطم رأسك بحجر، وإذا أردت أن تعلمي الحقيقة، فقد حسبت أن بينك وبين بوليس الفكر صلة وثيقة.

فضحكت الفتاة بمرح، وكان من الواضح أنها اعتبرت قوله هذا إطراء لبراعتها في التخفي.

وقالت: هل حقًا اتجه فكرك إلى أنني من أعوان بوليس الفكر! لا أحسبك كنت جادًا في هذا الظن!

فأجاب: حسنًا.. ربما لم يكن الأمر كذلك تمامًا، ولكن مظهرك العام- فكونك فتاة في ربيع العمر، متألقة، صحيحة البنية- جعلني أظن أنه من المحتمل...

- ظننت أنني عضوة ممتازة في الحزب، مخلصة له في القول والعمل، ولعلك حسبت أنني ممن يعشقون الأعلام والمواكب والهتافات، والألعاب، والمجتمعات، وما شابه ذلك. ولا ريب أنك ظننت أيضًا أنه إذا أتيحت لي ربع فرصة لوشيت بك كمجرم فكر وجعلتهم يقتلونك؟

- نعم. لقد خطر ببالي شيء من هذا القبيل، فإن فتيات كثيرات من هذا الطراز كما تعلمين..

فقالت وهي تخلع الحزام القرمزي رمز اتحاد الشبان المناهضين للشئون الجنسية وتلقي به فوق غصن شجرة:

- إن بوليس الفكر اللعين هو الذي يثير مثل هذه الخواطر.

وبدا كأن تحسسها خصرها ذكرها بشيء، فدفعت يدها في جيب ثوبها وأخرجت منه لوحًا من الشيكولاتة، وقسمته إلى قسمين أعطت أحدهما لونستون، وقبل أن يمد ونستون يده ليأخذ قطعة الشيكولاتة أدرك من رائحتها أنها من نوع غير عادي.. كانت غامقة لامعة ملفوفة في ورق فضي، على حين أن الشيكولاتة العادية كانت ذات لون بني كئيب، مفتتة، أما طعمها، فإن أقرب وصف يستطيع الإنسان أن يذكره له، فهو أنه أشبه بدخان متصاعد من حريق قمامة، إلا أنه كان قد تذوق شيكولاتة مثل التي قدمتها له الفتاة بين الحين والحين. ولقد أثارت أول نفحة من رائحتها ذكرى لم يستطع أن يحددها تمامًا ولكنها كانت قوية مزعجة.

سألها: من أين حصلت على هذه الشيكولاتة؟

فقالت بدون مبالاة: من السوق السوداء.. إنني فتاة من ذلك الطراز الذي يستلفت الأنظار. فأنا أجيد الألعاب الرياضية، كما أنني كنت رئيسة إحدى شراذم الجاسوسية، ولقد تطوعت للعمل ثلاث أمسيات كل أسبوع في اتحاد الشبان المناهضين للشئون الجنسية. وكثيرًا ما قضيت الساعات تلو الساعات وأنا ألصق منشوراتهم السخيفة فوق جدران مدينة لندن، وأحمل دائمًا أحد طرفي العلم في المواكب. كما أنني أبدو مرحة دومًا ولا أتنصل من أية مسئولية. وأشترك دائمًا مع الجماهير في صياحها وهتافها، فإن ذلك خير وسيلة للسلامة.

وذابت أول قطعة من الشيكولاتة على لسان ونستون، كان طعمها لذيذًا، ولكن ونستون كان لا يزال يكابد من تلك الذكرى التي ظلت تطوف بذاكرته طوال الوقت، كانت أشبه بشيء قوي التأثير، ولكنه يستعصي على التحديد والتعريف، كذلك الشيء الذي يراه الإنسان من ركن عينه. وأخيرًا صرف ونستون تفكيره في ذلك الشيء الغامض المبهم بعد أن أدرك أنه لا يعدو أن يكون ذكرى عمل كان يحب ألا يفعله ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

قال لها: إنك ما زلت في مقتبل العمر، فأنت تصغرينني بعشر سنوات أو بخمسة عشر سنة. فما الذي اجتذبك إلى رجل مثلي؟

- شيء ما في وجهك جعلني أقرر المجازفة، فإنني حاذقة في اكتشاف الأشخاص الذين لا يخلصون للحزب. ومن ثم فما أن وقعت عيناي عليك حتى أيقنت أنك ضدهم.

وأدرك ونستون أنها تعني الحزب بقولها «ضدهم»، وعلى الأخص الحزب الداخلي الذي كانت تتكلم عنه بحقد ساخر، جعل ونستون يشعر بالقلق والاضطراب، رغم أنه كان يعلم

أنهما بمأمن في هذا المكان، إن كان في الإمكان أن يكونا بمأمن في أي مكان، ولقد أدهشه شيء واحد فيها، وذلك هو خشونة لغتها، فقد كان المفروض في أعضاء الحزب ألا يصدر منهم سب أو لعن، وندر إن كان هو نفسه يسب أو يلعن بصوت عال الأقل، إلا أنه يبدو أن جوليا لم تكن لتستطيع أن تذكر الحزب وبصفة خاصة الحزب الداخلي، بغير أن تستعمل ذلك الطراز من الكلمات التي يراها الإنسان مسجلة بالطباشير فوق جدران الأزقة التي ينسال الماء فوقها.

ولم يشعر بنفور من أسلوبها فقد كان علامة من علامات ثورتها على الحزب ووسائله كلها، وهو أمر يبدو طبيعيًا ينهض مع قواعد الصحة، كما يفعل الجواد حينما يعطس إذا شم رائحة الدريس الرديء. وكانا قد خرجا من البقعة المكشوفة وبدآ يتجولان في الظلال مرة أخرى وقد أحاط كل منهما خصر صاحبه بذراعه كلما سمح لهما الاتساع بأن يسيرا جنبًا إلى جنب. ولاحظ أن خصرها أكثر ليونة بعد أن خلعت الحزام. ولم يتعد حديثهما مرتبة الهمس، وعندما خرجا من المنطقة المكشوفة قالت جوليا إنه يحسن بهما أن يسيرا بهدوء، وبعد قليل بلغا حافة الغابة الصغيرة فاستوقفته جوليا قائلة:

- لا تخرج إلى العراء، فقد يكون هناك من يراقبنا. إننا في أمان طالما ظللنا وراء أغصان الأشجار.

ووقفا في ظل أشجار البندق، وكانت أشعة الشمس لا تزال تلفح وجهيهما رغم أنها كانت تنفذ من خلال أوراق الشجر التي لا حد لها. وتطلع ونستون إلى الحقل الممتد وراء الغابة، فأحس برجفة تهز جسمه ببطء، فقد عرف هذا الحقل بمجرد أن وقع بصره عليه.. كان الحقل عبارة عن مرعى عتيق به ممر غير منتظم للسابلة وتلال صغيرة هنا وهناك، وعلى حافته المقابلة غير الممهدة كانت أغصان أشجار الدردار تتمايل بخفة شديدة مع النسيم، وكانت أوراقها تتحرك بضعف في كتل كثيفة أشبه بشعر النساء. وأيقن ونستون أنه لا بد أن يكون هناك جدول ماء قريب محجوب عن العيون به مستنقعات خضراء يسبح فيها السمك النهري.

سألها هامسًا: ألا يوجد جدول ماء على مقربة؟

- نعم يوجد جدول ماء. إنه عند حافة الحقل التالي، وبه سمك، سمك كبير تستطيع أن تراه وهو راقد في المستنقعات يحرك ذيله أسفل أشجار الصفصاف.

فغمغم: إنها البلاد الذهبية، تقريبًا!

- البلاد الذهبية؟

- لا شيء حقًا.. إنه منظر رأيته أحيانًا في الحلم.

فهمت جوليا: انظر!

كان طائر الدح قد حط على غصن لا يبعد عنهما أكثر من خمسة أمتار في مستوى وجهيهما تقريبًا. ومن الجائز أن الطائر لم يرهما، فقد كان يقف في الشمس بينما كانا يقفان في الظل. ونشر الطائر جناحيه، ثم أعادهما إلى مكانهما بعناية، وخفض رأسه لحظة كأنما كان يسجد للشمس وبعدئذ انطلق يغرد، وكان صوته الممتلئ يبعث على الفزع في ذلك الهدوء الشامل، وتشبث ونستون وجوليا ببعضها وقد خلب الصوت لبهما، واستمرت الموسيقى دقيقة بعد أخرى وقد تنوعت نغماتها بشكل يدعو إلى أشد الدهشة، ولم تكن هناك نغمة متكررة كأنما كان الطائر يتعمد استعراض مقدرته. وكان الطائر يتوقف أحيانًا

لثوان قلائل، فينشر جناحيه ثم يعيدهما إلى مكانهما، وبعدئذ ينفخ صدره وينطلق في التغريد، وراح ونستون يراقبه بشيء من التبجيل الغامض. وتساءل: لمن كان هذا الطير يغني؟

وما السبب في تغريده؟ لم يكن هناك أليف أو غريم يراقبه، فما الذي جعله يحط فوق حافة الغابة المهجورة ويطلق موسيقاه هباء؟ ولم يلبث ونستون أن أحس بالعجب وتساءل: هل يمكن أن يكون هناك لاقط للصوت على مقربة منهما؟ لقد حرص وجوليا على أن يكون حديثهما همسًا، ومن ثم فلن يستطيع لاقط الصوت أن ينقل ما قالاه، وإن كان من المحقق أنه نقل تغريد الطائر. ولعل هناك رجلًا ضئيلًا أشبه بالخنفساء قابع عند الطرف الآخر للاقط الصوت يصغي باهتمام- يصغي إلى ذلك. ولكن تدفق الألحان العذبة لم يلبث أن طرد جميع الأفكار من ذهنه. وخيل إليه كأن سائلًا قد انسكب فوق جسمه واختلط بأشعة الشمس ثم تبخر خلال أوراق الأشجار. وكف ونستون عن التفكير، واكتفى بالحس. كان يحيط خصر الفتاة بذراعيه، وقد أحس به لينًا دافئًا، فجذبها إليه حتى التصق صدره بصدرها، وخيل إليه أن جسمها قد ذاب في جسمه، وراح يتحسس أجزاء جسدها فلم تتمنع، والتقت شفتاهما، وكانت القبلات في تلك اللحظة مختلفة تمامًا عن تلك الجافة التي تبادلاها منذ فترة، وبعد أن انفصلت شفاههما تنهد كل منهما تنهيدة عميقة، وكأنما دب الذعر في قلب الطير فارتفع في الهواء وهو يرفرف بجناحيه.

وقرب ونستون شفتيه من أذن الفتاة وهمس: الآن!

فهمست بدورها: ليس هنا.. هلم بنا إلى المخبأ فإنه أكثر أمنًا.

وعادا أدراجهما إلى المنطقة الخالية من النبات وهما يطآن الأغصان بأقدامهما، وعندما احتوتهما حلقة أشجار الدردار مرة أخرى، استدارت جوليا وواجهت ونستون، وكان صدراهما يعلوان ويهبطان في حركات سريعة متلاحقة، ولم تلبث الابتسامة أن عادت إلى الظهور على شفتي الفتاة، وراحت تتأمل ونستون لحظة، ثم تحسست «مشبك» ثوبها و... نعم! كان الموقف كله أشبه بالحلم.. فبسرعة أشبه بالخيال تجردت الفتاة من ثيابها، وألقت بها جانبًا بحركة رائعة، وكأن حضارة كاملة قد زالت من عالم الوجود في تلك اللحظة، وتألق جسدها الأبيض في ضوء الشمس، ولكنه لم يتطلع إلى هذا الجسد مباشرة، وإنما ركز عينيه في وجهها الأنمش وابتسامتها الخفيفة الجريئة، ثم رجع أمامها وأخذ يدها في يده، وسألها:

- هل أتيت هذا الفعل من قبل؟

- بالطبع.. أتيته مئات المرات- عشرات المرات على الأصح!

- مع أعضاء الحزب؟

- نعم.. مع أعضاء الحزب دائمًا.

- مع أعضاء الحزب الداخلي؟

- كلا.. ليس مع هؤلاء الأوغاد.. إن كثيرين منهم يتحرقون شوقًا لذلك لو أتيحت لهم نصف فرصة.. إنهم ليسوا قديسين كما يتظاهرون.

ووثب قلب ونستون بين ضلوعه، لقد فعلت ذلك عشرات المرات، وتمنى لو أنها فعلته مئات المرات- بل آلافها. فإن كل شيء يشير من قريب أو بعيد إلى الفساد الذي كان يملأ قلبه بالأمل الطائش.. من يدري؟ لعل الحزب كان مباءة فساد أسفل الغطاء، وما مذهب الشدة ونكران الذات إلا ستارًا يخفي الجور والطغيان. ولو كان في استطاعته أن يصيبهم

جميعًا بالبرص أو الزهري لفعل ذلك عن طيب خاطر! إنه كان مستعدًا لأن يفعل أي شيء لإشاعة الفساد في الحزب وإضعافه ونسفه!

وجذب الفتاة إلى الأرض بحيث ركعا وجهًا لوجه وقال لها: كلما ازداد عدد الرجال الذين استسلمت لهم، ازداد حبي لك.. هل فهمت؟

- نعم تمامًا.

- إنني أكره الطهارة وأكره الخير، ولا أريد أن تكون هناك فضيلة في أي مكان، وأريد أن يصبح كل إنسان فاسدًا حتى عظامه.

- حسنًا.. لا بد إذن إنني ألائمك يا عزيزي، إذ إن الفساد قد استشرى فيّ حتى عظامي.

- هل تحبين هذا العمل؟ لست أعني معي فقط، وإنما أعني العمل في حد ذاته؟

- إنني أحبه إلى درجة العبادة.

كان ذلك ما أراد أن يسمعه منها قبل كل شيء آخر. فلم يكن حب إنسان لإنسان وإنما هي الغريزة الحيوانية، والرغبة التي لا تختلف من إنسان لآخر، هي القوة التي سوف تمزق الحزب إربًا إربًا. ومددها فوق الحشائش بين الزهور المتساقطة، ولم يجد صعوبة هذه المرة، وسرعان ما خفت سرعة تنفسهما حتى أصبحت عادية، ثم انفصلا عن بعضهما وقد انتباهما إعياء مشوب بسرور وثقلت أجفانهما. ومد ونستون يده نحو ثوبها الملقي فوق الغصن ونشره فوقها، وفي التو استسلما للنوم وظلا مستغرقين فيه قرابة نصف ساعة.

واستيقظ ونستون أولًا، فاستوى جالسًا، وراح يراقب وجه الفتاة الذي كساه النمش، وهي نائمة بسلام وقد توسدت رأسها براحتي يديها. ولم تكن الفتاة جميلة، اللهم إلا إذا استثنيت فمها، وكانت هناك هالتان حول عينيها لا تلبث أن تكتشفهما إذا تأملتها مليّا، أما شعرها القصير الفاحم فكان غزيرًا بشكل غير عادي وناعمًا. وتذكر في تلك اللحظة أنه لا يزال يجهل اسمها بالكامل وعنوان سكنها.

وأثار الجسم الفتي القوي، الذي جعله النوم في حالة عجز في تلك اللحظة، فيه شعورًا بالشفقة والرغبة في حمايتها، بيد أن الرقة التي لا تتسم بأي تعقل والتي استشعرها وهو واقف تحت شجرة البندق والطير يغرد، هذه الرقة لم تعاوده مرة أخرى، فجذب الثوب عن جسد الفتاة وراح يتأمل خصرها الأبيض اللين، وتذكر أن الإنسان كان يتطلع إلى جسد الأنثى في الأيام الغابرة ويشتهيه، وبذلك تنتهي القصة. ولكنك لا تستطيع أن تفوز بالحب النقي أو بالشهوة الصافية في هذه الأيام؛ فلم تعد هناك عاطفة نقية لأن كل إنسان كان يعاني الخوف والحقد. لقد كان عناقهما معركة، إنه ذروة النصر.. كان لطمة وجهت إلى الحزب.. كان عملًا سياسيًّا.

الفصل الثالث

قالت جوليا: في استطاعتنا أن نأتي إلى هنا مرة أخرى، فليس هناك خطر من الالتجاء إلى المخبأ الواحد مرتين، ولكننا لن نأتي قبل انقضاء شهر آخر أو شهرين على الأقل.

كان تصرفها قد تغير على أثر استيقاظها من النوم، فأصبحت أرهف حسًّا واكتسبت طابع العمل الجدي، وبعد أن ارتدت ثوبها، وشدت الحزام القرمزي حول خصرها، بدأت تضع تفاصيل رحلة العودة إلى المدينة، وكان من الطبيعي أن يدع ونستون هذه المهمة لها، فقد كانت تتمتع بما ينقصه من دهاء عملي. وكان يبدو أيضًا أن معلوماتها لا تنضب عن الريف المحيط بلندن، ولا شك في أنها حصلت على هذه المعلومات من الرحلات الجماعية سيرًا على الأقدام. ولقد كان الطريق الذي حددته لعودته يختلف عن ذلك الذي سلكه عند مجيئه، كما كان ينتهي به إلى محطة سكة حديد غير تلك التي نزل عندها من القطار. قالت له وكأنما كانت تفضي إليه بمبدأ عام مهم:

- لا تسلك الطريق الذي سلكته في المجيء، في العودة إلى منزلك.

ومضت تقول إنها ستنصرف أولًا، وأن على ونستون الانتظار نصف ساعة قبل أن يلحق بها، وحددت له مكانًا يتقابلان فيه بعد انتهائهما من العمل بعد أربعة أمسيات، كان شارعًا في حي حقير حيث يوجد سوق مكشوف يزدحم عادة بالرواد ويشتد فيه الصخب، وقالت إنها ستتسكع بين الحوانيت متظاهرة بالبحث عن رباط حذاء أو خيط حياكة، وإذا تبين لها أن الجو صالح للقاء فستفرغ أنفها في منديلها عند اقترابه، وإلا فإن عليه أن يمر بها بغير أن يبدي ما يدل على معرفتها، فإذا ساعدهما الحظ فسيكون في استطاعتهما أن يتجاذبا الحديث وسط الجماهير ربع ساعة حيث يتفقان على موعد آخر.

وبعد أن اطمأنت إلى أنه استوعب التعليمات، قالت: والآن، يجب أن أنصرف، فإن موعدي الساعة السابعة والنصف. إنني مضطرة للذهاب إلى اتحاد الشبان المناهضين للشئون الجنسية لأقضي ساعتين في توزيع النشرات أو ما شابهها.. أليس هذا سخف؟ هلم نظف ثوبي، هل علقت أية غصون بشعري؟ هل أنت متأكد؟

إذن، الوداع يا حبيبي! الوداع!

وألقت بنفسها بين ذراعيه، وقبلته بعنف، وبعد لحظة كانت تشق طريقها بين أشجار الدردار، ولم تلبث أن اختفت في الغاب بغير أن تحدث ضوضاء تُذْكر، وتَذَكَّر ونستون أنه لم يسألها عن اسم أسرتها أو عنوانها، ولكنه لم يهتم بذلك إذ كان يعلم أنهما لن يستطيعا اللقاء في مكان مغلق أو يتبادلا أية رسائل مكتوبة.

ولكنهما لم يعودا ثانية إلى تلك البقعة المكشوفة في الغاب، وفي خلال شهر مايو لم تتح لهما غير فرصة واحدة أخرى لتبادل الحب، وكان ذلك في مخبأ آخر تعرفه جوليا.. قبة جرس إحدى الكنائس التي خربتها القنابل في منطقة تكاد تكون مهجورة بالريف، حيث انفجرت إحدى القنابل الذرية منذ ثلاثين عامًا. كان مخبأ آمنًا للغاية، إذا أمكنك الوصول إليه، ولكن الوصول إليه كان محفوفًا بأشد المخاطر. أما مقابلاتهما الأخرى فكانت تتم في الشوارع. وكانا يتقابلان في أماكن مختلفة كل ليلة ولا يطول لقاؤهما أكثر من نصف ساعة في كل لقاء. ولقد كان في استطاعتهما أن يتبادلا الحديث في الشارع، فلم يكن ذلك بالشيء الذي يستلفت الأنظار.

وكانا يحرصان على السير فوق الأفاريز المزدحمة، ولكنهما لم يكونا يسيران متجاورين، ثم يتجاذبان أطراف حديث عجيب متقطع أشبه بالأضواء التي تنبعث متقطعة

من إحدى المنائر، تتخللها فترات صمت مفاجئة كلما اقترب منهما أحد أعضاء الحزب ببزته الرسمية، أو حينما يدنوان من إحدى الستائر الناقلة، ثم لا يلبثا أن يستأنفا الحديث بعد عدة دقائق، مبتدأين حيث توقفا في منتصف إحدى العبارات، ثم يكفان فجأة عن الحديث عندما يصلان إلى المكان الذي اتفقا على الافتراق عنده. وفي اليوم التالي يبدآن حديثهما من حيث انقطع في أمسهما بغير أية مقدمة. وكان من الواضح أن جوليا معتادة تمامًا على هذا اللون من الحديث الذي كانت تطلق عليه اسم «الحديث بالتقسيط»، وفضلًا عن ذلك، كانت شديدة البراعة في الكلام بغير أن تحرك شفتيها. ولقد استطاعا أن يتبادلا قبلة ذات مرة خلال إحدى مقابلاتهما الليلية التي استمرت شهرًا كاملًا، وكان ذلك عندما كانا يمران صامتين في شارع جانبي (كانت جوليا تتوقف تمامًا عن الكلام كلما ابتعدا عن الشوارع الرئيسية)، وفجأة، سمعا زئيرًا يصم الآذان، واضطربت الأرض، وأظلم الجو وألفى ونستون نفسه ممددًا فوق جانبه، وقد أصابته جروح كثيرة وركبه الفزع، فأيقن أن قنبلة صاروخية انفجرت على مقربة، وفجأة، لاحظ ونستون أن وجه جوليا لا يبعد عنه بأكثر من سنتيمترات قليلة، وكان مصفرًا كوجوه الموتى، حتى شفتاها كانتا مصفرتين.. أتراها لقيت حتفها؟! وجذبها وضمها إليه، وسرعان ما تبين له أنه يقبل وجهًا دافئًا، ولكنه لاحظ أن مادة كالمسحوق وجدت سبيلها إلى شفتي جوليا، وكان وجهاهما مغطيين بطبقة كثيفة من الملاط.

وفي بعض الأمسيات كانا يصلان إلى مكان اللقاء ولكنهما يضطران إلى أن يمرا ببعضهما بغير أن يتبادلا كلمة أو إشارة لظهور إحدى الداوريات من منعطف أو تحليق طائرة هليكوبتر فوق الرؤوس. وبفرض أن لقاءهما كان أقل خطورة، فإنه كان من العسير عليهما أن يجدا وقتًا للقاء، فقد كانت ساعات العمل في الأسبوع ستين ساعة لونستون، وكان أسبوع عمل جوليا أطول من ذلك، كما كانت أيام عطلتهما تتغير تبعًا لضغط العمل، ولهذا كان من النادر أن تتفق مع بعضها، وعلى كل حال، كان من النادر أن تحصل جوليا على أمسية كاملة حرة، إذ كانت تقضي وقتًا طويلًا جدًا في سماع المحاضرات ومشاهدة التجارب وتوزيع النشرات التي تحث على الانضمام إلى اتحاد الشبان المناهضين للشئون الجنسية، أو تعد الأعلام لأسبوع الكراهية، أو تجمع التبرعات لحملة الادخار وما شابهها من وجوه النشاط. وقالت لونستون إن ذلك كان بمثابة إخفاء للحقيقة، فإنك إذا استطعت أن تحافظ على التزام القواعد الصغيرة أمكنك أن تخرق الكبيرة منها، بل لقد حثت ونستون على التطوع بإحدى أمسياته وقضاء بضع ساعات في إعداد الذخائر، وهو عمل كان يضطلع به أعضاء الحزب شديدي التعصب. وهكذا كان ونستون يقضي أربع ساعات من إحدى أمسيات الأسبوع في عمل ممل للغاية يتولى فيه ضم قطع معدنية صغيرة إلى بعضها لعلها كانت أجزاء من فتائل القنابل في مصنع رطب سيئ الإضاءة، حيث كانت طرقات المطارق تختلط بشكل مزعج بالموسيقى المنبعثة من الستائر الناقلة.

وعندما التقيا في قبة الكنيسة سدا الثغرات التي كانت قائمة في حديثهما، وكان ذلك في ظهر يوم شديد القيظ.. كان الجو حارًا راكدًا في الغرفة الصغيرة المربعة التي تعلو الأجراس، وكانت رائحة روث الحمام النفَّاذة تملأ الغرفة، وجلسا يتحدثان ساعات طوالًا فوق أرض الغرفة المغطاة بالتراب وأغصان الأشجار، وكان أحدهما يقف بين حين وآخر؛ ليلقي نظرة من خلال ثقوب إطلاق السهام ويتأكد من أنه ليس هناك قادم.

كانت جوليا في السادسة والعشرين من عمرها، وكان تقيم مع ثلاثين فتاة في منزل مؤنث، وكانت تعمل، كما تكهن، على آلات كتابة القصص بمصلحة القصص.

وكانت تحب عملها الذي يتكون أساسًا من إدارة وخدمة محرك كهربائي قوي ولكنه خدَّاع. ومع أنها لم «تكن ماهرة» إلا أنها كانت مغرمة باستعمال يديها، وكانت تشعر بالألفة

حينما تقف أمام الآلات، وكان في استطاعتها أن تصف بالدقة العملية الكاملة لتأليف إحدى القصص، ابتداء من القصص التوجيهية العامة التي تصدرها لجنة التخطيط، إلى اللمسات الأخيرة التي كانت تدخلها فرقة إعادة الصياغة على القصص. ولكنها لم تكن تهتم بالإنتاج النهائي، قالت إنها «لا تهتم كثيرًا بالقراءة»، فإن الكتب ليست في نظرها إلا سلعًا يجب أن تنتج مثل المربى وأربطة الأحذية.

ولم تكن جوليا تحتفظ بأية ذكريات لما حدث قبل عام 1960، وكان الشخص الوحيد الذي عرفته، والذي كان يتحدث عن أيام ما قبل الثورة هو جدها، الذي اختفى عندما كانت في الثامنة من عمرها. ولقد كانت قائدة فرقة الهوكي بالمدرسة، وربحت بطولة الجمباز عامين متتاليين، كما كانت قائدة شرذمة من شراذم الجاسوسية، وسكرتيرة فرع في جماعة اتحاد الشباب قبل أن تنضم إلى اتحاد الشبان المناهضين للشئون الجنسية. وكانت تتمتع بسمعة طيبة، ولقد اختارها الحزب للعمل في القسم الفرعي لمصلحة القصص الذي كان يضع قصص رخيصة توزع بين العامة، وكان الاسم الذي أطلقه من يعملون في هذا القسم عليه هو «ماك هاوس»، ولقد قضت فيه عامًا قدمت خلاله معاونتها في إنتاج كتيبات موضوعة بداخل أغلفة مختومة تحمل عناوين مثل «قصص مثيرة» أو «ليلة واحدة في مدرسة بنات» لكي يبتاعها شباب العامة خفية، إذ إنهم كانوا يتوهمون أنهم يبتاعون شيئًا غير مشروع.

سألها ونستون بفضول: ماذا تحوي هذه الكتب؟

سخافات.. إنها تبعث على العمل.. إن الحبكات لا تتجاوز ست، ومع ذلك فإنهم - يحورونها المرة بعد الأخرى. بالطبع أنا لم أدخل غرفة فرقة «إعادة الصياغة» لأنني لست أديبة يا عزيزي.

وشد ما كانت دهشة ونستون حينما علم أن جميع من يعملون في هذا القسم فتيات، فيما عدا رئيسه، وكانت الفكرة في ذلك أن الرجال أقل سيطرة على غرائزهم الجنسية من النساء، ومن ثم فإنهم يتعرضون للفساد بالقاذورات التي كانوا يعالجونها.

وأضافت جوليا: حتى النساء المتزوجات لا يقبلن في هذا القسم، إذ إنهم يفترضون أن الفتيات طاهرات دائمًا، ولكن ها أنت ترى واحدة منهن تشذ عن هذه القاعدة.

قالت إنها عرفت الحب لأول مرة وهي في سن السادسة عشرة، حيث اغتصبها عضو حزب في الستين من عمره، لم يلبث أن انتحر فيما بعد ليتجنب القبض عليه..

وأردفت: «لقد أحسن صنعًا وإلا لانتزعوا اسمي منه عند اعترافه بجرائمه.. ومنذ ذلك الحين استسلمت لغيره، فقد كانت الحياة بسيطة جدًا في نظرها.. إنك تنشد وقتًا طيبًا، وهم، وكانت تعني الحزب، يريدون أن يمنعونك من الحصول عليه، ومن ثم فإنك تخرق القواعد ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. وخيل أنها تظن أنه من الطبيعي، إنهم يريدون أن يحرموك من متعك كما تريد أنت أن تتجنب الوقوع في قبضتهم.. كانت تمقت الحزب، وقد عبرت عن ذلك بأفظع وأخشن الكلمات، ولكنها لم تحاول أن تنتقده بصفة عامة، فإنها لم تكن لتأبه بمذهب الحزب إلا حيثما يتصل هذا المذهب بحياتها. ولاحظ ونستون أنها لم تكن تستعمل أية كلمة من كلمات اللغة الحديثة، اللهم إلا الكلمات التي كان الناس يتداولونها في حياتهم اليومية. ثم إنها لم تسمع إطلاقًا عن «الإخوة» ورفضت أن تصدق بوجودها، وكانت تعتبر أن أي تنظيم ثوري ضد الحزب خليق بأن يفشل؛ لأنه مجرد عمل سخيف يدل على الغباء..

وكانت المهارة في نظرها هي أن يحطم الإنسان القواعد، ويظل على قيد الحياة بعد

ذلك. وعجب ونستون، كم عدد الفتيات أمثالها بين الجيل الصغير، قوم شبوا في عالم ثوري لا يعلمون شيئًا آخر، ويتقبلون الحزب على اعتبار أنه شيء غير قابل للتعديل كالجو، لا يتمردون على سلطانه، ولكنهم يتجنبونه مثلما يروغ الأرنب من الكلب.

ولم يتعرضا في حديثهما إلى احتمال زواجهما، فقد كان ذلك أمرًا بعيد المنال لا يستحق التفكير فيه، ولم يكن يدور بخلدهما إطلاقًا أن أية لجنة يمكن أن تجيز مثل هذا الزواج، حتى إذا أمكن التخلص من كاترين، وهي زوجة ونستون، بطريقة ما. حقًّا لقد كان زواجهما أمرًا ميئوسًا منه حتى كحلم يقظة.

سألته جوليا: ما شكل زوجتك؟

- كانت، هل تعلمين كلمة «حسنة التفكير» التي ابتدعتها اللغة الحديثة؟ أعني شديدة الإخلاص للحزب، عاجزة عن التفكير الشرير..

- كلا، إنني لم أسمع هذه الكلمة من قبل، ولكن أعرف هذا الطراز من الأشخاص بمجرد رؤيتي له.

وبدأ يحدثها عن حياته الزوجية، وكم كان عجبه شديدًا حينما تبين له أنها تعرف الأجزاء المهمة فيها، فوصفت له جسد كاترين، وكيف كان يتصلب عند اللمس- كأنها رأته أو تحسسته- والطريقة التي كانت تبعده بها عنها في عنف، حتى عندما تكون ذراعاها مشبكتين حوله بشدة، ولم يجد ونستون صعوبة في الخوض في مثل هذا الحديث مع جوليا، أما كاترين فلم تعد ذكراها تؤلمه منذ أمد طويل، فقد غدت امرأة ممقوتة بالنسبة إليه.

قال لها: لقد كان في استطاعتي احتمال هذا العذاب لولا أمر واحد.

وحدثها عن الحفلة القصيرة الباردة التي كانت كاترين ترغمه على احتمالها في ليلة ما من كل أسبوع. قال: لقد كانت تكره هذا الوصال، ولكنها كانت لا تسمح لأي شيء في الوجود بوقفه.. تطالبني به! ولكني لا أظنك فكرت في شيء من ذلك.

فقالت جوليا: إنه واجبنا نحو الحزب.

- كيف عرفت ذلك؟

- لقد التحقت بالمدرسة أيضًا يا عزيزي. إنهم يلقون حديثًا جنسيًّا على الفتيات اللائي تجاوزن السادسة عشر مرة كل شهر، وفي حركة الشباب يحدثونك عن الشئون الجنسية في صراحة تامة، وأكبر ظني أن أحاديثهم تجد صداها في نفوس أغلب الفتيات، ولكن الناس منافقون كما نعلم.

وبدأت جوليا تسهب في حديثها عن هذا الموضوع، قالت: إن كل شيء يرجع إلى غريزتها الجنسية، فكلما أثيرت هذه الغريزة شعرت بحدتها، ولكنها لم تكن كونستون، إذ إنها كانت تدرك المعنى الداخلي للطهارة الجنسية في نظر الحزب، إن هذه الغريزة الجنسية لم تخلق فقط عالمًا خاصًّا بها خارجًا عن نطاق سيطرة الحزب، ومن ثم كان يجب القضاء عليها إذا أمكن ذلك، وإنما الأهم من ذلك هو أن الحرمان الجنسي يصيب الإنسان بالهيستيريا، وهو أمر مرغوب فيه؛ لأن في الإمكان تحويل هذه الهيستيريا إلى حمى حرب وعبادة للزعامة، ومن ثم فقد شرحت جوليا هذه النظرية على النحو التالي:

«عندما تباشر العملية الجنسية فإنك تستهلك نشاطًا، ثم تشعر بعد ذلك بسعادة غامرة،

ولا تهتم بأي شيء في الوجود، وهم لا يطيقون إحساسك هذا؛ لأنهم يريدون منك أن تتفجر نشاطًا طوال الوقت، وكل هذه الطوابير التي تروح وتغدو في الطرقات، وما يقترن بها من هتافات وتلويح بالأعلام، إن هي إلا طاقة جنسية خشنة، فإذا كنت سعيدًا في قراراتك، فلماذا لا تتحمس للأخ الأكبر ومشروعات السنوات الثلاث ودقيقتي الكراهية، وغير ذلك من سخافاتهم الدموية؟

كان ما تقوله الفتاة صحيحًا، فقد كانت هناك صلة وثيقة مباشرة بين العفة والمذهب السياسي، إذ كيف يمكن الاحتفاظ بما يطالب الحزب أعضاءه به من خوف وكراهية وتصديق أعمى في أعلى مستوى، إلا إذا سدت المنافذ على غريزة قوية، واستعملت هذه الغريزة المكبوتة كقوة دافعة؟ لقد كان الحافز الجنسي مصدر خطر على الحزب، ولهذا حسب الحزب له حسابًا، ولقد ضرب الحزب على نفس النغمة فيما يتعلق بغريزة الأبوة والأمومة، إنه لم يستطع أن يلغي الأسرة تمامًا، بل لقد كان يشجع الناس على حب أولادهم بطريقة عتيقة، ومن الناحية الأخرى كان الأولاد يُحَولون، بطريقة منظمة، لكي ينقلبوا ضد أبويهم ويُعَلمُون كيف يتجسسون عليهما، ويبلغون عن كل انحراف يطرأ عليهما. والواقع أن الأسرة أصبحت امتدادًا لبوليس الفكر، كانت إذًا تستخدم لمحاصرة أي شخص بوشاة يعرفونه أحسن معرفة سواء بالليل أو بالنهار.

وفجأة عادت ذاكرته إلى كاترين، لقد كان من المحقق أن تشي كاترين به لبوليس الفكر، لولا أنها كانت من الغباء بحيث إنها لم تستطع اكتشاف خيانته لعقيدة الحزب، إلا أن الشيء الذي جعله يتذكرها، في هذه اللحظة بالذات، هو شدة الحرارة في ذلك المساء، حتى لقد انسال العرق بغزارة فوق جبهته، وبدأ يحدث جوليا عن شيء حدث، أو بالأحرى لم يحدث، في إحدى أمسيات الصيف القائظة منذ أحد عشر عامًا.

كان ذلك بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة شهور على زواجه، وكان هو وزوجته قد ضلَّا الطريق في إحدى الرحلات الجماعية سيرًا على الأقدام في مكان ما ب «كنت». كانا قد تلكآ، خلف الآخرين دقيقتين، ولكنهما سلكا منعطفًا خاطئًا، وسرعان ما وجدا أنفسهما عند حافة محجر طباشيري قديم، وكان ارتفاع الحافة عن الأرض يتراوح بين عشرة أمتار وعشرين مترًا، وبقاع المحجر صخور ذائبة، ولم يجدا أحدًا يستفسران منه عن الطريق. وعندما أدركا أنهما ضلا الطريق بدأ القلق يستحوذ على كاترين، فقد كان البعد عن ضوضاء جمهرة الجوالة الصاخبة ولو للحظة كفيلًا بأن يجعلها تشعر بأنها ارتكبت إثمًا. كانت تريد الإسراع بالعودة من الطريق الذي سلكاه، ثم تحاول سلوك الطريق المضاد. بيد أن ونستون لاحظ في تلك اللحظة أن بعض الزهور تنمو بين شقوق بطن الجبل أسفلهما، وكان منها ما له لونان، ولم يكن شك في أن جذر هذه الزهور واحد، ولما لم يكن ونستون قد رأى شيئًا من هذا القبيل من قبل، فقد نادى كاترين لتلقي نظرة على الزهور الغريبة.

هتف: انظري يا كاترين! انظري إلى هذه الزهور.. أعني المجموعة الموجودة بقرب القاع، ألا ترين أن لها لونين مختلفين؟

كانت كاترين قد تهيأت للعودة، ولكنها أقبلت على ونستون بغيظ، ومالت إلى الأمام نحو بطن الجبل لترى ما كان زوجها يشير إليه، وكان ونستون يقف على مسافة قليلة خلفها فوضع يده فوق خصرها ليساعدها على الاحتفاظ بتوازنها، وخطر له بغتة في تلك اللحظة أنهما وحيدان تمامًا، فلم يكن هناك مخلوق بشري في المنطقة كلها، ولم تكن هناك ورقة شجر تتحرك أو طير مستيقظ، وفي مكان كهذا يتضاءل خطر وجود لاقط للصوت مخبأ، وحتى إذا كان هناك لاقط، فإنه لن يلتقط غير الأصوات. كانت هذه الساعة أشد ساعات بعد الظهر حرارة وأكثرها جلبًا للنوم، وكانت أشعة الشمس الحامية تسقط فوق جسديهما كشواظ من نار، وبدأ العرق يتصبب فوق وجه ونستون، وفي هذه اللحظة خطرت له

الفكرة..

سألته جوليا، ولماذا لم تلق بها من حالق؟ لو كنت مكانك لفعلت!

- نعم يا عزيزتي كنت تفعلين ذلك.. ولا ريب أنني كنت أفعله، لو أنني كنت وقتذاك ما أنا عليه الآن.. الحق أنني لست واثقًا من شيء.

- هل أنت آسف لأنك لم تفعل ذلك؟

- نعم.. إنني آسف.

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب فوق الأرض المغطاة بالتراب، فجذبها إليه، واستقر رأسها فوق كتفه، وطغت رائحة شعرها الجميل على رائحة روث الحمام الكريهة..

وخيل إليه أنها صغيرة جدًّا وما زلت تترقب شيئًا من الحياة، ولكنها لم تكن تدرك أن إلقاء شخص مبغوض من فوق حافة الجبل لا يمكن أن ينهي المتاعب.

قال: الواقع إنني لو فعلت ذلك لما غير من الأمر شيئًا.

- إذن لماذا أنت آسف لأنك لم تتخلص منها؟

- لأنني أفضل العمل الإيجابي على العمل السلبي، ففي المباراة التي كنا نلعبها، لم يكن في استطاعتنا أن نفوز، وواقع الأمر أن بعض أنواع الفشل أفضل من البعض الآخر.

وأحس بكتفيها ترتعشان دلالة على معارضتها.. كانت تعارضه دائمًا كلما قال شيئًا من هذا القبيل، إنها لا تقبل إطلاقًا الموافقة على أن قانون الطبيعة يقضي بهزيمة الفرد بصفة دائمة، صحيح إنها كانت تعلم أن مصيرها الهلاك، وأن بوليس الفكر لن يلبث أن يكتشف أمرها إن عاجلًا أو آجلًا، ويقتلها، ولكنها كانت تؤمن ببعض عقلها بأنه من الممكن، بطريقة ما، إنشاء عالم سري تستطيع أن تعيش فيه حسبما تشاء، وكل ما تحتاج إليه لتحقيق هذه الغاية هو الحيطة والدهاء والشجاعة. ولكنها لم تدرك أنه ليس هناك ما يسمى بالسعادة، وأن النصر الوحيد كامن في المستقبل البعيد بعد أن تموت بوقت طويل، وأنه يجب عليك أن تعتبر نفسك من الهالكين، ابتداء من اللحظة التي تعلن فيها الحرب على الحزب.

فقالت جوليا: إننا لم نهلك بعد!

- صحيح إننا لن نمت جسديًّا، ومن المحتمل أن نعيش ستة شهور، أو عامًا وربما خمسة أعوام.. إنني أخاف الموت، وأنت ما زلت صغيرة، ومن المحتمل أنك تخافين من الموت أكثر مني. من الواضح أننا سنحاول إرجاء مصرعنا أطول وقت مستطاع، ولكن ذلك لن يغير من الأمر إلا أقل القليل، فطالما بقي البشر بشرًا فإن الموت والحياة يستويان.

- أوه! هذا سخف! هل تفضل النوم معي أم مع هيكل عظمي؟ ألا تستمتع بالحياة؟ ألا تحب أن تتحسس أعضاء الإنسان، هاأنذا أمامك. ها هي يدي، وها هي ساقي.. إنني حقيقة، إنني جسم صلب.. إنني حيَّة! ألا تحب هذا؟

واستدارت وعصرت صدرها في صدره، واستطاع أن يشعر بثدييها المكتملي النمو المشدودين من خلال ثوبها، وخيل كأن جسدها يسكب بعض شبابها وحيويتها في جسده.

قال: نعم.. أحب ذلك.

إذن كف عن حديث الموت.. واصغ إليّ يا عزيزي، فإن علينا أن نتحدث عن موعد لقائنا التالي، فقد نضطر إلى الالتقاء في الغاب مرة أخرى، بعد أن هجرناه فترة طويلة. بيد أنه يجب عليك أن تسلك طريقًا آخر في ذهابك إليه هذه المرة، لقد اخترت لك الطريق.. عليك أن تستقل القطار.. لكن انظر، فسأرسم لك الطريق.

وبطريقتها العملية، مهدت جزءًا من الأرض المغطاة بالتراب، والتقطت ريشة من ريش الحمام من عش قريب، ثم بدأت ترسم خريطة على الأرض.

الفصل الرابع

أخذ ونستون ينقل بصره في أرجاء الغرفة الصغيرة الحقيرة الكائنة أعلى متجر مستر شارنجتون، فرأى سريرًا عريضًا مرتبًا بجوار النافذة، فوقه بطاطين ممزقة ووسادة بغير غطاء. وكانت فوق رف المدخنة ساعة عتيقة الطراز ذات ميناء تبين اثنتي عشرة ساعة فقط، وكانت هناك منضدة في ركن الحجرة فوقها ثقل الورق الزجاجي، الذي كان قد ابتاعه عند آخر زيارة له، وكان هذا الثقل يتألق في الغرفة نصف المظلمة.

وكان هناك حاجز للموقد بداخله موقد غاز محطم، ووعاء وفنجانان، زوده بها مستر شارنجتون نفسه. وأشعل ونستون الموقد، ووضع فوقه إناء به ماء ليغلي، إذ كان قد أحضر غلافًا مملوءًا ببن النصر وبعض أقراص السكرين. وكانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة السابعة والدقيقة العشرين. أما الفتاة فكانت ستصل في السابعة والنصف.

وراح قلبه يردد كلمة واحدة: إنه لحمق! إنه لحمق! إنها لمخاطرة متعمدة انتحارية لا ضرورة لها! فإن هذه الجريمة هي أقل الجرائم التي يستطيع عضو الحزب إخفاءها. والواقع أن الفكرة خطرت بباله لأول مرة بسبب منظر مرسوم على ثقل الورق الزجاجي عكسته المرآة الموضوعة فوق المنضدة. ولقد صح ما تكهن به، فإن مستر شارنجتون لم يثر أية صعوبة في تأجير الغرفة، وكان من الواضح أنه سر من الحصول على الدولارات القلائل التي سيدرها عليه الإيجار، كما أنه لم يبد أية دهشة أو استنكار حينما علم أن ونستون يريد أن يتخذ من هذه الغرفة وكرًا للغرام. وبدلًا من ذلك راح يتطلع إلى ما وراء ونستون، ويتكلم في موضوعات عامة، وقال إن السرية شيء ثمين جدًّا، فكل إنسان يحتاج إلى مكان يستطيع أن يختلي فيه بنفسه أحيانًا، وأن الواجب يقضي على كل شخص يعلم بأمر مثل هذه الأماكن أن يحتفظ بهذه المعلومات لنفسه. ثم ختم حديثه قائلًا إن للمنزل بابين أحدهما يطل على الساحة الخلفية ويشرف على ممر خاص.

وسمع ونستون صوتًا نسائيًا يغني تحت النافذة، فاختلس النظر محتجبًا خلف الستار المصنوع من الموسلين، كانت شمس يونية لا تزال عالية في كبد السماء، وكانت أشعتها تغمر الساحة، ورأى ونستون امرأة مخيفة الشكل متينة البنيان، كعامود من أعمدة الإنارة، لها ساعدين عضليين حمراوي اللون، وترتدي «فوطة» مشدودة عند خصرها برباط، وكانت هذه المرأة تروح وتغدو بين وعاء مملوء بالثياب المغسولة وحبل الغسيل، حيث كانت تعلق عدّة من أشياء مربعة بيضاء اللون عرف ونستون فيها «فوط» أطفال، وكانت كلما استطاعت أن تخلي فمها من مشابك الغسيل انطلقت تغني بصوت غليظ:

كان وهمًا ميئوسًا منه مر كسحابة يوم من أبريل بيد أن النظرة والكلمة وما تبعها من أحلام سلبت قلبي مني!

كانت هذه الأنشودة تتردد في جميع أرجاء لندن منذ عدة أسابيع، وكانت واحدة من أناشيد مماثلة لا حصر لها، ينشرها قسم إضافي في مصلحة الموسيقى ليرددها العامة. وكانت كلمات هذه الأغنيات توضع بدون أي تدخل بشري بواسطة آلة خاصة تعرف باسم «ناظمة الشعر». بيد أن المرأة كانت تردد الأغنية بنغمات فيها نبض وفيها حياة جعلت هذا الهذيان التافه يكتسب وقعًا يكاد يكون سارًّا. وكان في استطاعة ونستون أن يسمع المرأة وهي تغني، ويسمع صوت حذائها وهو يحتك ببلاط الأرض، وصياح الأطفال في الشارع، كما كان يسمع جلبة المرور الخافتة التي كانت تصدر من مكان بعيد. ومع ذلك كانت الغرفة تبدو ساكنة بشكل عجيب، ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود ستار ناقل في الغرفة.

وعادت خواطره تحدثه: يا للجهالة! يا للجهالة! يا للجهالة! فلم يكن من المعقول أن

يتمكنا من ارتياد هذا المكان لفترة تزيد على أسابيع معدودات بغير أن يفتضح أمرهما. بيد أن فكرة البحث عن خبأ مغلق قريب كانت شديدة الإغراء بالنسبة إليهما معًا، بعد أن تعذر عليهما التردد على قبة الكنيسة المهدمة؛ نظرًا لأن ساعات عملهما زيدت بشكل لا يطاق بسبب الترتيبات التي تعد لأسبوع الكراهية. ومع أنه كان لا يزال هناك شهر على موعد هذا الأسبوع، إلا أن الترتيبات الهائلة المعقدة التي تكتنفه ألقت أعباء إضافية على كل شخص، وأخيرًا استطاع كلاهما أن يحصل على عطلة نصف يوم في يوم واحد، وكانا قد اتفقا على العودة إلى الغاب، ففي المساء السابق على الموعد التقيا في الطريق لفترة قصيرة، وكالعادة حرص ونستون على تجنب النظر إلى جوليا وهما يسيران نحو بعضهما في قلب الزحام، ولكن النظرة السريعة التي ألقاها عليها جعلته يعتقد أنها أكثر اصفرارًا من العادة.

وحينما تبينت ألا خطر عليها من الكلام همست تقول: لقد ألغيت عطلة بعد ظهر الغد.

- ماذا تقولين؟

- لن أستطيع المجيء بعد ظهر غد.

- ولم لا؟

- أوه! إنه السبب المعتاد.. لقد بدأ مبكرًا عن موعده هذه المرة.

واجتاحه غضب شديد، ففي خلال الشهر الذي عرفها فيه تغيرت طبيعة عاطفته من ناحيتها، فقد كانت علاقتهما مشوبة بالشهوة أول الأمر، وكان أول اجتماع بينهما مجرد عمل إرادي، ولكن الأمر لم يلبث أن طرأ عليه تغيير شامل بعد ثاني اجتماع، فقد أحس بأن رائحة شعرها، وطعم فمها وملمس بشرتها قد تغلغلت في كيانه أو في الهواء الذي يحيط به، لقد أصبحت ضرورة مادية بالنسبة له.. شيئًا لا يريده فحسب، وإنما كان يشعر بأن من حقه أن يحصل عليه، فلما قالت له إنها لن تستطيع المجيء انتابه شعور بأنها تخدعه، ولكن شدة ازدحام الجماهير في تلك اللحظة أدنتهما من بعضهما فالتقت راحتاهما مصادفة، وأحس بها تضغط أطراف أصابعه بشكل لم يفصح له عن الرغبة، وإنما عن الحب. وخطر له في تلك اللحظة أنه حينما يعيش الإنسان مع امرأة يجب أن يعتبر هذا العارض بالذات شيئًا طبيعيًا يحدث بانتظام. وفي تلك اللحظة اكتسحه حب جارف من نحوها لم يسبق له أن عاناه من قبل، وتمنى لو أنهما كانا متزوجين منذ عشرة أعوام. وتمنى لو أنه كان يستطيع أن يمشي معها في الطرقات مثلما كان يفعل في تلك اللحظة ولكن علانية وبلا خوف، وهما يتحدثان في شتى الموضوعات ويبتاعان ما يحتاجان إليه من أدوات المنزل. وتمنى فوق كل شيء لو كان لهما مكان يستطيعان أن يختليا فيه ببعضهما بغير أن يلتزما إتيان تلك العملية في كل مرة يلتقيان فيها، ولم تطرأ عليه فكرة استئجار غرفة مستر شارنجتون في تلك اللحظة بالذات، وإنما خطرت له في اليوم التالي. وعندما عرض الفكرة على جوليا وافقت عليها بسرعة لم تكن متوقعة، وكان كل منهما يعرف، أن هذا العمل جنوني، إذ كان بمثابة التقدم نحو قبريهما بمحض إرادتهما. وعندما جلس فوق حافة السرير في انتظار مجيئها راح يفكر مرة أخرى في أقبية وزارة الحب، ولشد ما أدهشه أن الفزع الذي يترقبه الإنسان يطوف بشعوره حينًا ويختفي منه حينًا آخر.. فها هو الخطر يكمن لهما في المستقبل، وهذا الخطر سيعقبه حتمًا الموت مثلما يسبق رقم مائة رقم 99. صحيح إن الإنسان لا يستطيع أن يتجنب وقوع الكارثة، ولكنه يستطيع أن يرجئ وقوعها، ومع ذلك فإن الإنسان بدلًا من أن يعمد إلى هذه الإرجاء، يقبل بين الحين والحين على فعلة إرادية من شأنها تقصير أمد الفترة التي تفصل بين حاضره ووقوع الكارثة.

وسمع ونستون وقع أقدام سريعة فوق الدرج في تلك اللحظة، واندفعت جوليا داخلة

إلى الغرفة، وكانت تحمل حقيبة أدوات مصنوعة من الخيش البني اللون من ذلك الطراز الذي كان قد رآها تحمله إبان روحاتها وغدواتها في الوزارة. واندفع نحوها يحتويها بين ذراعيه، ولكنها تخلصت منه بشيء من العجلة؛ لأنها كانت لا تزال تحمل الحقيبة في يدها.

وقالت: مهلًا نصف ثانية، دعني أطلعك أولًا على ما أحضرته، هل معك شيئًا من بن النصر الكريه؟ لقد خطر ببالي إنك ستحضر قليلًا منه، ولكنك تستطيع أن تهمله لأننا لن نحتاج إليه.. انظر!

وركعت فوق ركبتيها، وفتحت الحقيبة وأخرجت بعض «المفاتيح الإنجليزية» والمفكات وكانت تملأ الجزء الأعلى من الحقيبة، ثم أخرجت من تحتها عدة لفائف أنيقة من الورق، وقدمت أولاها لونستون، وما كاد يلمسه حتى ساوره إحساس بالدهشة، وبأنه سبق له معرفة هذا الشيء.. كانت اللفافة محتوية على مادة ثقيلة أشبه بالرمل، لا تلبث أن تنبعج عند اللمس.

قال: سكر.. أليس كذلك؟

- إنه سكر حقيقي.. لا سكرين.. وها هو رغيف من الخبز- الخبز الأبيض، لا الخبز الكريه الذي نأكله. وإليك علبة صغيرة من المربى، وأخرى من اللبن، لكن انظر!

هذه هي اللفافة التي أفخر بها حقًّا، ولقد اضطررت إلى لفها بقطعة من الخيش لأنها.....

ولم تكن هناك حاجة لكي تقول له لماذا لفت اللفافة، فقد ملأت رائحتها الغرفة.. وكانت رائحة غنية دافئة خيل إليه كأنها رائحة من روائح عهد طفولته المبكرة، ولكنها ليست من الروائح التي يصادفها الإنسان في الوقت الحاضر إلا بين الحين والحين، حينما يسير في ممر يوشك أحد الأبواب المطلة عليه أن يغلق، أو حينما تنبعث بطريقة غامضة من شارع مزدحم بالناس حيث يشمها الإنسان لحظة ثم تختفي ثانية.

غمغم: إنه بن.. بن حقيقي!

- إنه البن الذي يشربه أعضاء الحزب الداخلي.. لقد أحضرت كيلو كاملًا.

- وكيف استطعت الحصول على هذه الأشياء؟

- إنها كلها سلع الحزب الداخلي، إن هؤلاء الملاعين لا ينقصهم شيء على الإطلاق، إلا أن الخدم وغيرهم يسرقون بعض هذه الأشياء، و...انظر، لقد أحضرت لفافة صغيرة من الشاي أيضًا.

وكان ونستون قد جلس القرفصاء بجوارها، فمزق اللفافة، وهتف:

- إنه شاي حقيقي لا أوراق «البلاك بري».

فقالت جوليا بغموض: لقد انتشر الشاي في البلاد أخيرًا، فأكبر الظن أنهم استولوا على الهند أو غيرها من البلاد التي تنتج الشاي، لكن اصغ إليّ يا عزيزي، أرجو أن توليني ظهرك ثلاث دقائق، اذهب واجلس على حافة السرير الأخرى، لكن لا تقترب كثيرًا من النافذة، ولا تنظر إليّ حتى أطلب ذلك منك.

وراح ونستون يحدق من خلال الستائر، وكانت المرأة ذات الساعدين حمراوي اللون لا

تزال تروح وتغدو في الساحة بين وعاء الثياب والحبل، ورآها ونستون تخرج «مشبكين» من فمها، ثم تنطق في الغناء بعاطفة عميقة مسرورة:

يقولون إن الزمن يشفي جميع العلل يقولون إن الإنسان يستطيع النسيان دائمًا ولكن الابتسامات والدموع عبر السنين ما زالت تعتصر خيوط قلبي!

ويبدو أن المرأة كانت تحفظ جميع مقاطع الأغنية عن ظهر قلب، وراح صوتها يسبح إلى أعلى مع هواء الصيف الجميل، رقيق النغم، ممتزجًا برنة تشف عن السعادة العميقة، وكان منظرها يوحي إلى الإنسان بأنها تكون راضية تمام الرضاء لو لم تكن لهذه الأمسية من أمسيات شهر يونية أية نهاية، ولو لم تنته مجموعة الثياب المغسولة حتى تظل في مكانها هذا ألف عام تنشر «الكوافيل» وتردد الأغنية التافهة. وقد بدا له في تلك اللحظة أن من الحقائق الغريبة أنه لم يسمع إطلاقًا أحد أعضاء الحزب وهو يغني وحده ومن تلقاء ذاته، فلعل ذلك كان مما يتعارض مع مبادئ الحزب، باعتباره شذوذ خطر كتكلم الإنسان مع نفسه، ولعل الناس لا يقبلون على الغناء إلا حينما يشرفون على الموت جوعًا، فلا يجدون ما يرفهون به عن أنفسهم إلا الأناشيد.

قالت جوليا: تستطيع أن تستدير الآن.

فاستدار، ومضت لحظة خيل إليها فيها أنه لا يعرف الفتاة، والواقع أنه كان يتوقع أن يراها عارية، ولكنها لم تكن كذلك، بل إن التحول الذي طرأ عليها كان أكثر إثارة للدهشة من العري، ذلك أنها طلت وجهها بالمساحيق والأصباغ.

لا ريب أنها عرجت على أحد الحوانيت في حي البروليتاريا حيث ابتاعت لنفسها مجموعة كاملة من أدوات الزينة.. كانت شفتاها قد ازدادتا احمرارًا وتوهج خداها باللون الأحمر أيضًا، كما طلت أنفها، بل لقد لاحظ ونستون أن هناك لمسة من مادة ما تحت العينين جعلتهما أكثر تألقًا، صحيح أن زينتها لم تكن متقنة، ولكن إلمام ونستون بمثل هذه الأمور لم يكن تامًّا؛ لأنه لم ير من قبل، بل ولم يكن يتصور أن يرى امرأة من نساء الحزب تطلي وجهها بالمساحيق والأصباغ، وكان التحسين الذي طرأ على مظهر جوليا مثيرًا حقًّا، فإن بضع لمسات في المواضع المناسبة جعلتها تبدو أكثر أنوثة، وإن لم تجعلها أروع جمالًا. ولقد زاد شعرها القصير وثوب الرجال الذي كانت ترتديه في إبراز جمالها. وعندما احتواها بين ذراعيه فاحت رائحة البنفسج الصناعي وملأت خياشيمه، وهنا تذكر المطبخ نصف المعتم والمرأة التي يشبه فمها كهفًا، لقد كانت هذه المرأة تستعمل العطر نفسه، ولكنه لم يلبث أن صرف هذا الخاطر من ذهنه.

هتف: وعطر أيضًا!

- نعم يا عزيزي.. عطر أيضًا.. هل تدري ماذا سأفعل بعد ذلك؟ سأحصل على ثوب نسائي من مكان ما وأرتديه بدلًا من هذا السروال الملعون، وسأرتدي جوارب حريرية وحذاء ذا كعب عال! سأصبح امرأة، لا رفيقة حزب، في هذه الغرفة.

وخلعا ثيابهما واعتليا السرير الفخم المصنوع من خشب الماهوجني، وكانت تلك أول مرة يتجرد ونستون فيها من ثيابه أمام جوليا، إذ كان يشعر دائمًا بالخجل الشديد لضآلة جسمه واصفرار لونه وتلك العروق النافرة المنفرة في مفصل قدمه وأسفل ركبتيه. ولم تكن فوق الفراش أغطية سوى تلك «البطانية» متناهية الرقة ناعمة الملمس، وقد أدهشتهما ضخامة السرير وشدة مرونته.

وقالت جوليا: أكبر الظن أنه مملوء بالبق، لكن ذلك لا يهمنا بالطبع!

ولا عجب، فقد كانت الأسرة الكبيرة غير مألوفة في ذلك الحين، اللهم إلا في بيوت العامة، ولقد نام ونستون في إحداها في صباه ولكن جوليا لم ترها من قبل.

وسرعان ما استسلما للنوم، واستغرقا فيه فترة قصيرة، وعندما استيقظ ونستون كان عقرب الساعة قد زحف حتى بلغ التاسعة تقريبًا، ولكنه لم يتحرك من مكانه؛ نظرًا لأن جوليا كانت تتوسد ذراعه، وكان معظم زينة وجهها قد انتقل إلى وجهه أو إلى الوسادة، بيد أن بقعة خفيفة من الطلاء الأحمر كانت لا تزال تضفي جمالًا على خدي الفتاة، وسقط شعاع أصفر من الشمس الغاربة على نهاية السرير فأضاء موضع الموقد حيث كان الماء يغلي فوقه. أما المرأة التي كان تغني في الساحة فقد توقفت عن الغناء، إلا أن صياح الأطفال البعيد كان لا يزال يتصاعد من الطريق. وراح ونستون يتساءل: هل كان من الطبيعي أن ينام الناس فيما سلف من أيام على أسرة كهذه في أمسيات الصيف الحارة؟ هل كان الرجل والمرأة ينامان ملتصقين ببعضهما متجردين من ثيابهما، يتطارحان الهوى كلما غلبهما الحنين إليه، ويتحدثان حسبما يشاءان وعما يشاءان بغير أن يشعرا بأن هناك ما يضطرهما إلى النهوض. فيبقيان ممددين فوق الفراش وينصرفان إلى الإصغاء للأصوات الهادئة المتصاعدة من الخارج؟ من المحقق أن شيئًا من ذلك لم يكن عاديًا في أحد الأيام!

وفي تلك اللحظة استيقظت جوليا، ففركت عينيها، ورفعت نفسها فوق مرفقيها، وتطلعت إلى الموقد.

ثم قالت: لقد تبخر نصف الماء، سأنهض بعد لحظة لأعد القهوة، فما زالت أمامنا ساعة نقضيها هنا، متى يقطعون التيار الكهربائي عن منزلك؟

- في الساعة الحادية عشرة والنصف مساء.

- إنهم يقطعونه في الساعة الحادية عشرة مساء عندنا، ولكننا مضطرون إلى العودة للمنزل قبل ذلك لأن... آه! اخرج أيها الوغد القذر!

ومالت فجأة فوق حافة الفراش، والتقطت حذاء من على الأرض وقذفت به إلى ركن الغرفة بحركة صبيانية تشبه تلك الحركة التي رآها تفعلها عندما ألقت بالمعجم على صورة جولد شتاين في صباح ذلك اليوم المعهود أثناء دقيقتي الكراهية.

سألها وقد غلبته الدهشة: ما هذا؟

- إنه جرذ.. لقد رأيته يخرج أنفه الكريه من الغطاء الخشبي أسفل الجدار، حيث يوجد ثقب.. ولكنني أفزعته على كل حال.

فغمغم ونستون: جرذان! وفي هذه الغرفة!

فقالت جوليا بدون مبالاة وهي تعاود الرقاد:

- إنها منتشرة في كل مكان، ففي مطبخ منزلنا بعض هذه الجرذان، ثم إن بعض أحياء لندن غاصة بها، هل تعرف أن الجرذان تهاجم الأطفال؟ نعم.. ففي بعض شوارع هذه الأحياء لا تجرؤ المرأة على ترك طفلها وحده مدة دقيقتين. إن الجرذان السوداء الضخمة هي التي تهاجم الأطفال، وأسوأ ما تفعله هذه الجرذان اللعينة هو...

فأغلق ونستون عينيه بقوة وقاطعها قائلًا: لا تستمري في هذا الحديث!

- عزيزي..! لقد اصفر لونك، فماذا دهاك؟ هل تخاف من الجرذان؟

- إن أخوف ما أخافه في هذا العالم هو الجرذ!

فالتصقت به وأحاطته بأطرافها كأنما أرادت أن تهدئ من روعه بحرارة جسدها، ولكنه لم يعد إلى فتح عينيه مباشرة، فقد مرت به عدة لحظات ساوره خلالها إحساس بأنه عاد يعاني من حلم مزعج كان لا يفتأ يتراءى له بين الحين والحين طوال حياته.. لقد كان الحلم واحدًا في جميع الأحوال. كان يرى نفسه واقفًا أمام جدار من الظلام، وعلى الجانب الآخر كان هناك شيء لا يطاق، شيء بغيض للغاية لا يستطيع الإنسان مواجهته، وكان أعمق إحساس يستولي عليه في الحلم هو خداع الذات، إذ الواقع أنه كان يعلم ما وراء هذا الجدار من الظلمة، وكان في استطاعته، ببذل مجهود جبار أشبه بذلك الذي يبذله حينما ينتزع قطعة من مخه، أن يجذب هذا الشيء إلى العراء، ولكنه كان يستيقظ دائمًا بغير أن يكشف كنه هذا الشيء، وإن كان يرتبط بطريقة ما بما كانت تقوله جوليا عندما قاطعها الحديث.

قال: إنني آسف.. غاية ما في الأمر أنني لا أحب الجرذان.

- لا تنزعج يا عزيزي، فلن نبقي هذه الوحوش اللعينة هنا، سأسد هذا الثقب قبل أن ننصرف، وعند حضورنا في المرة التالية سأحضر معي بعض الملاط وأغلقه جيدًا.

وفي تلك الأثناء كان الفزع قد ذهب قليلًا عن ونستون، وحل محله شعور خفيف بالخجل من نفسه، وجلس مستندًا إلى رأس السرير، أما جوليا فهبطت من فوق الفراش، وارتدت ثوبها الرسمي، وأعدت القهوة. وكانت الرائحة المتصاعدة من الغلاية نفاذة مثيرة حتى اضطرا إلى إغلاق النافذة خشية أن يلاحظها أحد يتصادف وجوده خارج النافذة فيستولي عليه حب الاستطلاع.

وقد أكسب السكر الحقيقي حريري الملمس القهوة مذاقًا لذيذًا هو مذاق القهوة الحقّة نفسها، وهو شيء كاد ونستون ينساه بعد أن ظل يتناول القهوة بالسكرين أعوامًا طوالًا. وأما جوليا فأخذت تتجول في الغرفة وقد دفنت إحدى يديها في جيبها وحملت بالأخرى قطعة من الخبز المدهون بالمربى، وكانت تتطلع بغير مبالاة إلى رف الكتب وهي تشرح أحسن طريقة لإصلاح قوائم المنضدة. ثم تهاوت فوق المقعد الضيق ذي المسندين لترى هل هو مريح أم لا! ونهضت وتقدمت من المدفأة وأخذت تفحص الساعة التي لا تبين إلا اثنتي عشرة ساعة باهتمام، وسرعان ما حملت ثقل الورق الزجاجي إلى الفراش لتلقي عليه نظرة في الضوء، فأخذه ونستون منها وقد خلبه كالعادة، فنظر الزجاج الرقيق الشبيه بمنظر ماء المطر.

سألته جوليا: ما هذا يا ترى؟

- لا أظن أنه شيء، أعني أنه لم يكن ذا نفع في أحد الأيام، وهذا هو ما يعجبني فيه، إنه ذكرى صغيرة من التاريخ الذي نسي الحزب أن يغيره. إنه رسالة من مائة عام إذا عرف الإنسان كيف يقرأها.

فأومأت برأسها ناحية الصورة المعلقة فوق الجدار المقابل وقالت:

- وهذه الصورة! هل عمرها مائة عام أيضًا؟

- بل أكثر.. ربما مائتان. هذا ما لا أستطيع أن أقطع فيه برأي؛ لأن من المستحيل على الإنسان أن يكتشف عمر أي شيء في هذه الأيام.

وتقدمت جوليا من الصورة لتتأملها، ثم قالت وهي تضرب سفل الجدار أسفل الصورة

مباشرة:

- ها هو الثقب الذي أخرج الجرذ اللعين أنفه منه.. ما هذا المكان؟ لقد رأيته من قبل في جهة ما.

- إنها كنيسة، أو أنها على الأقل كانت كنيسة سانت كليمانت دان.

وعاودته في تلك اللحظة ذكرى المقطع الذي لقنه له مستر شارنجتون، وأضاف إليه ما يلي: «تقول أجراس سانت كليمانت، برتقال وليمون!».

وشد ما كانت دهشته حينما سمعها تردد المقطع التالي:

- «إنك مدينة لي بثلاث قطع من النقود، هذا ما تقوله أجراس سانت مارتن.. فمتى ستدفعينها لي؟ سألتها أجراس أولد بايلي».

وأردفت: لست أذكر شيئًا بعد ذلك، ولكني أذكر أن الأنشودة تنتهي هكذا «ها هو شمعدان ينير لك الفراش، ها هو السياف قد جاء ليقطع رأسك!».

كانا أشبه بجزئين في كلمة سر، إلا أنه لا بد أن يكون هناك سطر آخر بعد عبارة «أجراس أولد بايلي»، ولعل في الإمكان الحصول عليه من ذاكرة مستر شارنجتون إذا كان من المناسب سؤاله عنه.

سألها: من علمك ذلك؟

- جدي.. لقد اعتاد أن يردده على مسامعي عندما كنت فتاة صغيرة. لقد تبخر جدي وأنا في الثامنة من عمري، على أية حال، إنه اختفى.. ترى ماذا كان شكل الليمونة؟

وأردفت بعد لحظة: لقد رأيت سبع برتقالات.. إنها فاكهة مستديرة صفراء اللون لها جلد سميك.

فقال ونستون: أما أنا فأستطيع أن أتذكر الليمون، كان شائعًا في السنوات الخمسينية، وكان طعمه لاذعًا بحيث يجعلك تصرّين بأسنانك حتى عندما تشمينه.

قالت جوليا: أراهن على وجود بق خلف هذه الصورة، سوف أرفعها من مكانها وأنظفها جيدًا في أحد الأيام.. أكبر الظن أن الوقت قد حان لانصرافنا، فيجب أن أبادر بإزالة هذا الطلاء.. يا له من عمل ممل! سوف أزيل أحمر الشفاه من على وجهك فيما بعد.

ولم ينهض ونستون لدقائق أخرى، كان الظلام قد بدأ ينتشر في الغرفة، فتحول ناحية الضوء، وراح يحدق في ثقل الورق الزجاجي، كان هذا الثقل، الذي لم يكن يمل من النظر إليه، عبارة عن قطعة من الزجاج بداخلها قطعة من المرجان، ورغم أن الزجاج كان شفافًا كالهواء، إلا أنه كان يبدو شديد العمق. وبدا كأن سطح الزجاج قبة سماء تضم عالمًا صغيرًا كاملًا. واستولى عليه شعور بأن في استطاعته أن يدخل إلى هذا العالم، وأنه، في الواقع، موجود بداخله مع السرير المصنوع من خشب الماهوجنى والمنضدة والساعة والصورة بل، والثقل نفسه.. كان ثقل الورق هو الغرفة التي احتوته، أما قطعة المرجان فكانت حياة جوليا وحياته مثبتين بطريقة أزلية في قلب الزجاج ذاته.

الفصل الخامس

اختفى سايم، فذات صباح لم يأت إلى عمله، وعقب أشخاص قلائل طائشون على اختفائه، وفي اليوم التالي لم يذكره أحد. فإذا كان اليوم الثالث وذهب ونستون إلى قاعة التسجيلات ليلقي نظرة على لوحة الإعلانات، رأى قائمة مطبوعة تشتمل على أسماء أعضاء لجنة الشطرنج التي كان سايم عضوًا فيها، ولاحظ أن القائمة تكاد تكون كما اعتاد أن يراها من قبل، لم يشطب منها شيء، ولكنها نقصت اسمًا واحدًا، وكان في ذلك الكفاية. لقد اختفى سايم من عالم الوجود وكأنه لم يكن.

كان الطقس حارًا إلى درجة لا تطاق، ففي الوزارة الشبيهة بقصر التيه معدومة النوافذ، كانت درجة الحرارة عادية في الغرف مكيفة الهواء، إلا أن حرارة الأفاريز بالخارج كانت تلهب الأقدام، كما كانت رائحة العرق الكريهة التي تنبعث من قطارات تحت الأرض مخيفة للغاية. وكانت الاستعدادات لأسبوع الكراهية قائمة على قدم وساق، ولهذا كان موظفو جميع الوزارات يعملون أكثر من الوقت المقرر، إذ كان لابد من تنظيم المواكب، والاجتماعات، والعرض العسكري، والمحاضرات، والتماثيل الشمعية، واللافتات، والأفلام السينمائية، وبرامج الستار الناقل. كذلك كان ينبغي إقامة الحوامل والتماثيل، وتأليف الهتافات، وكتابة الأغاني، وترويج الشائعات، وتزييف الصور.

وكانت الوحدة التي تعمل بها جوليا قد سحبت من قسم القصص لإعداد سلسلة من المنشورات الشنيعة توطئة لتوزيعها. أما ونستون، فعلاوة على عمله العادي، كان يقضي فترات طويلة كل يوم في مراجعة الملفات القديمة لصحيفة التايمز وتعديل أو تغيير أو تزييف فقرات كانت ستذكر في الخطب. وعندما كانت جموع العامة المشاغبة تطوف بالشوارع في وقت متأخر من الليل، كانت المدينة تكتسب طابعًا محمومًا، وكانت القنابل الصاروخية تتساقط على المدينة بكثرة لم يسبق لها مثيل، وفي بعض الأحايين كانت تدوي انفجارات هائلة بعيدة لم يستطع أحد أن يعللها ومن ثم تطايرت الشائعات بشأنها.

وكانت النغمة الجديدة لأغنية أسبوع الكراهية (وكانوا يطلقون عليها اسم «أغنية الكراهية») قد أعدت وانصرف الفنيون لتسجيلها لإذاعتها على الستائر الناقلة.

كانت نغمة موحشة أشبه بنباح الكلاب لا يمكن أن يطلق أحد عليها اسم «موسيقى» ولكنها كانت أشبه بقرع الطبول. وكانت ترددها مئات الأصوات على وقع أقدام سائرة، ولهذا كانت تثير الفزع في النفس.

ولقد أحب العامة هذه الأغنية، ولهذا كانوا يرددونها في الشوارع عند منتصف الليل، وهكذا أصبحت الأغنية الجديدة منافسة للأغنية القديمة التي كانت لا تزال حبيبة إلى نفوس العامة ومطلعها «كان وهمًا ميئوسًا منه».

وكان طفلا أسرة بارسونز يلعبان طوال ساعات الليل والنهار بشكل لا يطاق مستخدمين في لعبهم هذا مشطًا وقطعة من ورق التواليت. وهكذا حفلت ليالي ونستون بما لم تحفل به من قبل، كانت فرق المتطوعين التي نظمها بارسونز، تعد الطرقات لأسبوع الكراهية، فتحيك الأعلام، وترسم اللافتات والملصقات، وتثبت صواري الأعلام فوق الأسطح، وتعلق الأسلاك بشكل خطر عبر الطرقات لاستقبال القادمين. وكان بارسونز لا يفتأ يتباهى بأن مبنى النصر وحده يستطيع أن يعرض أربعمائة متر من قماش الأعلام والبيارق، وكان الرجل قد عاد ساذجًا طيب القلب يبدي سعادة غامرة لما يؤديه من عمل. وقد هيأ له العمل الشاق وشدة الحرارة عذرًا يتذرع به لارتداء سروال قصير وقميص مفتوح في المساء، وكان يرى في كل مكان وفي وقت واحد، دافعًا أو جاذبًا، ناشرًا أو طارقًا أو مشتركًا

مع الرفاق في أي عمل يتولونه مطلقًا كل ما في جسمه من عرق كريه يزكم الأنوف.

وفجأة ظهرت ملصقة جديدة في جميع أنحاء لندن، ولم تكن هذه الملصقة تحمل أي شرح، وكانت تمثل صورة مخيفة لجندي أوراسي طوله ثلاثة أو أربعة أمتار وهو يخطو إلى الأمام بوجهه المنغولي الجامد وحذائه الضخم ويتنكب مدفعًا سريع الطلقات مسددًا إلى الأمام، فإذا نظرت إلى فوهة المدفع من أية زاوية ظننت أنها مسددة إليك دلالة على براعة من وضع التصميم.. وقد ألصقت هذه الصورة فوق كل مكان خال بجدران لندن حتى فاق عددها عدد صور الأخ الأكبر. وأدى ظهور هذه الصور إلى إثارة نوبات الجنون الوطني الدورية بين العامة، رغم ما كانوا يبدونه عادة من جمود من ناحية الحرب. ولقد زاد الطين بلة أن القنابل الصاروخية كانت تفتك بعدد من السكان أكثر من المعتاد، فقد سقطت إحداها على دار للسينما ب «ستبني»، وكانت الدار مكتظة بروادها، فدفن عدة مئات منهم بين الأنقاض. وخرج جميع سكان المنطقة المجاورة لتشييع الجنازة، فكان منهم طابور استمر ساعات كاملة، كان في الواقع بمثابة اجتماع لإظهار السخط. وسقطت قنبلة أخرى فوق قطعة أرض خالية كانت تستخدم ملعبًا فمزقت عشرات من الأطفال إربًا إربًا، وخرجت مظاهرات غاضبة صاخبة- وأحرقت الجماهير تماثيل جولد شتاين ومزقت مئات من صور الجندي الأوراسي، ونهبت عددًا من المتاجر خلال هذه الفوضى، وانتشرت شائعة مؤداها أن الجواسيس كانوا يوجهون القنابل الصاروخية إلى لندن بموجات لاسلكية، وشنت الجماهير هجومًا على بيت زوجين طاعنين في السن قيل إنهما من أصل أجنبي، وأشعلت النار في المنزل ومات الزوجان مختنقين من الدخان.

وعندما كان يتسنى لجوليا وونستون الذهاب إلى حجرتهما فوق متجر مستر شارنجتون، كانا يضطجعان جنبًا إلى جنب فوق الفراش العاري تحت النافذة، وهما مجردان من ثيابهما طلبًا للبرودة، ومع أن الجرذ لم يظهر ثانية، إلا أن البق تكاثر بشكل مخيف بسبب شدة الحر. ولكن يبدو أن ذلك لم يزعج العاشقين، فقد كانا يعتبران غرفتهما فردوسًا سواء أكانت قذرة أو نظيفة، وكانا يرشان الفلفل الأسود الناعم فوق كل شيء في الغرفة بمجرد وصولهما إليها. وكانا يبتاعان هذا الفلفل من السوق السوداء، ثم يتجردان من ثيابهما ويتواصلان، والعرق يتصبب من جسديهما، ثم يستسلمان للنوم. فإذا ما استيقظا وجدا البق وقد تجمع واستعد لشن هجوم مضاد... واجتمعا خلال شهر يونية خمس- ست بل سبع مرات، وكان ونستون قد تخلى عن عادة احتساء الجن في جميع ساعات النهار، بعد أن رأى ألا حاجة تدعوه للشراب، فامتلأ جسمه، وتحسنت حالة تصلب ساقه، ولم يعد ينظر إلى سير الحياة كأمر لا يحتمل، كما لم يعد يشعر بذلك الحافز الذي كان يدفعه إلى التطلع بغضب نحو الستار الناقل، أو يسب ويشتم بأعلى صوته. لقد أصبح لهما الآن مخبأ أمين يكاد يشبه منزلًا، ومن ثم فإنه لم يكن يشعر بأي ضيق إزاء اضطرارهما للقاء مرات قليلة ولمدة ساعتين فقط في كل مرة. كل ما كان يعنيه هو أن تظل الغرفة الكائنة فوق المتجر موجودة، فإن مجرد الاطمئنان إلى وجودها وعدم الاعتداء عليها أو مهاجمتها، كان في حد ذاته يكسبه شعورًا بالارتياح الشديد.. كان ينظر إليها مثلما ينظر إلى عالم كامل، كانت بمثابة جيب من جيوب الماضي تستطيع الحيوانات المنقرضة أن تسير فيه. وكان ينظر إلى مستر شارنجتون نظرته إلى حيوان منقرض، وكثيرًا ما كان يتوقف عن الصعود إلى الغرفة ليتجاذب أطراف الحديث مع مستر شارنجتون. وعرف أن الكهل نادرًا أن يغادر منزله، وأنه لم يكن له إلا عملاء قلائل جدًا، وكانت حياته أشبه بحياة الأشباح في ذلك الحانوت الصغير المظلم وفي المطبخ الخلفي الضيق الذي كان يعد طعامه فيه والذي كان يشتمل، فيما يشتمل عليه، على مذياع «جرامافون» عتيق جدًّا له بوق هائل. وكان الكهل يبدي سرورًا عظيمًا كلما أتيحت له فرصة للحديث مع ونستون. وكلما كان يتجول بين سلعة معدومة القيمة بأنفه الطويل وعويناته السميكة وكتفيه المقوسين في سترته المصنوعة من القطيفة.. كان يبدو كجامع تحف أكثر مما يبدو تاجرًا. وكثيرًا ما كان يبدي حماسًا فاترًا

وهو يشير إلى قطعة من «الخردة» أو سدادة زجاجة من الصيني، أو غطاء مزخرف لعلبة سعوط محطمة، أو علبة عتيقة بداخلها خصلة شعر طفل ميت، ولكنه لم يكن يطلب من ونستون شراء شيء منها، وإنما كان يتوقع منه أن يبدي إعجابه بها. وكان ونستون ينظر إلى حديث الرجل إليه مثلما يستمع الإنسان إلى صندوق موسيقى قديم. لقد ردد الكهل بعض الأبيات الشعرية القديمة على مسامع ونستون، منها قصيدة من أربعة وعشرين بيتًا عن طائر الشحرور وأخرى عن موت الديك روبين. وكان كلما ردد بعض هذه القصائد الدارسة، قال: «لقد خطر لي إنك قد تهتم بسماعها».. ولكنه لم يستطع أن يتذكر أكثر من أبيات قليلة من كل قصيدة.

وكان ونستون وجوليا يعرفان، ولا تفارق هذه الحقيقة مخيلتهما، أن حياتهما هذه لا يمكن أن تدوم. وكان الموت الذي ينتظراه يبدو في بعض الأحايين سهلًا لينًا كالفراش الذي يرقدان فوقه، وعندما كان يجتاحهما مثل هذا الشعور كانا يلتصقان ببعضهما وقد استولى عليهما شعور من الشهوانية اليائسة، كإنسان قدر له أن يموت بعد دقائق معدودات فاغتنمها ليقضي حاجته من شهواته وملذاته. وفي أحايين أخرى كانا يستسلمان للوهم فيعتقدان أن حياتهما الحالية ليست آمنة فحسب، وإنما أيضًا دائمة. كما كانا يشعران بأنهما ما داما في هذه الغرفة فلن يلحقهما أي أذى، لقد كان الوصول إلى الغرفة شاقًا وخطرًا ولكن الغرفة ذاتها كانت حرمًا مقدسًا. وعندما كان ونستون يحدق في ثقل الورق الزجاجي كان ينتابه إحساس بأن في الإمكان الدخول إلى العالم الزجاجي، وأن الإنسان ما يكاد يدخل إلى هذا العالم حتى يتمكن من وقف سير الزمن. وكثيرًا ما كانا- جوليا وهو- يستسلمان تمامًا لأحلام اليقظة فيما يتعلق بإمكان إفلاتهما من مصيرهما المحتوم، فقد يظل الحظ الحسن في جانبهما دائمًا، فيستطيعان المضي في مؤامرتهما على هذا النحو ما تبقى من حياتهما الطبيعية من زمن، أو قد تموت كاترين ويتمكنان، ببعض المناورات البارعة، من الزواج، أو أن ينتحرا معًا، أو أن يختفيا، فيغيران من هيئتهما بشكل يجعلهما غير معروفين، أو أن يتعلما لغة البروليتاريا ويحصلان على عمل في أحد المصانع، ويعيشان بقية حياتهما في شارع خلفي بغير أن يعرف أحد بأمرهما. كانت كل هذه الأوهام سخفًا بالطبع، ولم يكن ذلك يخفى عليهما، وكانا يدركان ألا مهرب لهما من مصيرهما المحتوم، ومع أن الانتحار كان هو الخطة العملية الوحيدة، إلا أنهما لم يجدا من أنفسهما ميلًا إلى الإقدام عليه. فقد كان تشبثهما بالحياة من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى أسبوع، وهما يغزلان حاضرًا لا مستقبل له، عملًا غريزيًا لا يستطيعان له دفعًا أو تجنبًا مثلما تجذب رئتا الإنسان النفس التالي طالما كان الهواء موجودًا.

وفي بعض الأحايين كانا يتحدثان عن الاشتراك في ثورة فعلية ضد الحزب بغير أن يدريا كنه الخطوة الأولى. فحتى لو كانت جماعة الإخوة الخرافية موجودة فعلًا، فما زالت تواجههما صعوبة إيجاد طريقهما إليها. ولقد حدث ونستون جوليا عن الألفة الموجودة، أو التي كان يبدو أنها موجودة، بينه وبين أوبرين، وعن الدافع الذي كان يحفزه أحيانًا أن يتقدم إليه ويعلن له أنه عدو للحزب ويطلب مساعدته، ومن العجيب حقًا أنها لم تعتبر ذلك عملًا طائشًا. ونظرًا لأنها كانت قديرة في الحكم على الناس بمجرد تأمل وجوههم، فقد بدا لها أنه من الطبيعي أن يؤمن ونستون بإمكان الاعتماد على أوبرين والثقة به لمجرد أنه لاحظ ومضة واحدة من عينيه. وعلاوة على ذلك فإنها كانت تعتقد اعتقادًا جازمًا بأن كل شخص، أو تقريبًا كل شخص كان يكره الحزب سرًا وأنه لن يتردد في الخروج على القواعد إذا علم ألا خطر عليه من ذلك، ولكنها رفضت أن تصدق بأن مقاومة منظمة واسعة النطاق يمكن أن توجد. وقالت إن القصص المتداولة عن جولد شتاين وجيشه السري ليست إلا سخفًا اخترعه الحزب لخدمة أغراضه وفرض على الناس أن يصدقوه، ومن ثم وجب عليهم أن يتظاهروا بتصديقه، ففي مرات لا حصر لها، وفي مهرجانات الحزب ومظاهراته الارتجالية كانت «أي جوليا» تنادي بأعلى صوتها مطالبة بإعدام أشخاص لم تسمع بأسمائهم

لاتهامهم بجرائم وهمية ليس لها ظل من الحقيقة. وعندما كانت تجرى محاكمات عامة كانت تقوم بدورها مع فصائل عصبة الشباب التي كانت تصطف حول قاعات المحاكمة من الصباح حتى المساء مرددة بين حين وآخر أنشودة «الموت للخونة!». أما خلال دقيقتي الكراهية فكانت دائمًا تبز الآخرين جميعًا في توجيه السباب والإهانات إلى جولد شتاين، ومع ذلك لم تكن لديها أقل فكرة عن جولد شتاين هذا أو التعاليم أو المذاهب التي كان يمثلها، فقد كبرت منذ حدثت الثورة ولكنها كانت صغيرة جدًّا قبل وقوعها، ولذلك فإنها لا تذكر شيئًا عن المعارك التي نشبت بسبب المثل العليا بين عامي 1950 و1960، ولم تكن تتصور وجود شيء مثل الحركة السياسية المستقلة، فقد كانت تؤمن بأن الحزب لا يمكن أن يقهر، وأنه سيظل قائمًا وأنه سيظل على ما هو عليه، وكل ما في استطاعتك أن تعمله هو أن تشق عصا الطاعة عليه سرًّا أو، على أكثر تقدير، أن تقدم على أعمال عنف منعزلة كقتل شخص أو نسف شيء ما.

كانت أحدّ ذكاء من ونستون وأقل تأثرًا منه بدعاية الحزب، فذات مرة كان يحدثها عن شيء ما له صلة بالحرب ضد أوراسيا، فأدهشته حينما قالت عرضًا إنها تعتقد ألا حرب هناك، وأن من المحتمل أن القنابل الصاروخية التي تتساقط يوميًّا فوق لندن كانت تطلقها حكومة أوشانيا نفسها «لإشاعة الفزع في قلب الشعب».

ولم تكن هذه الفكرة قد طرأت على باله إطلاقًا، ولقد أثارت جوليا غيرته حينما قالت له إنها كانت تعاني أشد الصعاب لتمنع نفسها من الانفجار ضاحكة خلال دقيقتي الكراهية، ولكنها كانت لا تتردد في الشك في تعاليم الحزب حينما تمس حياتها بطريقة أو أخرى. وهي غالبًا ما تكون على استعداد لقبول أساطير الحزب وآية ذلك أن الخلاف بين الحقيقة والزيف لا يهمها في كثير أو قليل، فهي مثلًا، كانت تؤمن بصحة ما تعلمته في المدرسة من أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات «أما ونستون فكان يذكر أنه تعلم أيام دراسته في أواخر السنوات الخمسينية أن الحزب يدعي اختراع طائرات الهليكوبتر فقط، وبعد ذلك باثني عشر عامًا، عندما كانت جوليا في المدرسة، ادعى الحزب بأنه اخترع الطائرة، ولن يمضي جيل آخر حتى يدعي بأنه مخترع الآلة البخارية». وعندما قال لها إن الطائرات كانت موجودة قبل أن يولد، وقبل أن توجد الثورة بوقت طويل، لم تظهر اهتمامًا بهذه الحقائق، وتساءلت: ما وجه الأهمية في معرفتنا مَنْ الذي اخترع الطائرات؟ ولقد زادت دهشة ونستون بل أصابته هزة عنيفة عندما اكتشف من حديث عابر لها أنها لا تذكر أن أوشانيا كانت مشتبكة في حرب مع استاسيا وفي سلم مع أوراسيا قبل ذلك بأربع أعوام. صحيح أنها كانت تعتبر الحرب ادعاء لا أساس له ولكن من الواضح أنها لم تلاحظ أن اسم العدو قد تغير. قالت بغموض: «كنت أعتقد دائمًا أننا في حرب مع أوراسيا». وقد أفزعه ذلك بعض الشيء، فقد اخترعت الطائرات قبل مولدها بزمن طويل، ولكن الانقلاب الذي حدث في الحرب ثم منذ أربعة أعوام أي بعد أن نضجت بوقت طويل، وتجادلا حول هذا الموضوع ربع ساعة تقريبًا، وفي النهاية نجح ونستون في إرغام ذاكرتها إلى العودة إلى الوراء حتى استطاعت أن تتذكر، بغير وضوح، أن العدو كان في أحد الأوقات استاسيا وليس أوراسيا، ولكن هذه المسألة كانت لا تزال تبدو معدومة الأهمية في نظرها. وقالت بضجر: «وما أهمية ذلك ما دامت حرب دموية تليها حرب دموية، وما دمنا نعلم أن أنباء الحروب كلها كذب في كذب؟».

وفي بعض الأحايين كان يحدثها عن إدارة السجلات والتزوير الصارخ الذي يقترف هناك. ويبدو أن مثل هذا الحديث لم يفزعها، كما أنها لم تشعر بالهاوية المفتوحة تحت قديمها حينما علمت أن الأكاذيب لا تلبث أن تتخذ شكل الحقائق. وحدثها بقصة جونز وأرنسون ورازر فورد وقصاصة الورق الخطيرة التي أمسكها بين أصابعه ذات مرة، ولكنها لم تتأثر بهذا الحديث، بل إنها لم تفهم مغزى القصة في بادئ الأمر، وسألته:

- هل كانوا أصدقاءك؟

- كلا.. لم أكن أعرفهم، فقد كانوا من أعضاء الحزب الداخلي، أضف إلى ذلك أنهم كانوا أكبر سنًّا مني، وهم ممن ينتمون إلى الأيام السابقة للثورة، ومن ثم لم أكن أعرفهم حتى بالنظر.

- إذًا لماذا تقلق بالك؟ إن الناس يلقون حتفهم في كل لحظة، أليس كذلك؟

وحاول أن يجعلها تفهم حقيقة الوضع وأن هذه الحالة استثنائية، ولم تكن مجرد قتل إنسان، وسألها: «هل تدركين أن الماضي قد ألغي فعلًا ابتداء من أمس، فإذا كان له أي وجود فإن وجوده هذا كامن في أشياء قليلة صلبة تحمل أية كلمات تفسيرية كثقل الورق الزجاجي الموضوع فوق المنضدة، ونحن أبناء هذا الجيل لا نعرف شيئًا إطلاقًا عن الثورة أو السنوات التي سبقت الثورة، فقد قضي على كل سجل أو زُوِّر، وأعيدت كتابة كل كتاب، كما أعيد رسم كل صورة، وأعطي كل تمثال وشارع وبناء اسمًا جديدًا، وغير كل تاريخ، وما زالت هذه العملية قائمة على قدم وساق يومًا بعد يوم ودقيقة بعد دقيقة. لقد أوقف التاريخ، وليس هناك وجود لشيء سوى الحاضر الذي لا نهاية له والذي لا ينبئ إلا بكل شيء صحيح عن الحزب. بالطبع، أنا أعلم أن الماضي قد زيف ولكن لن أستطيع إطلاقًا أن أبرهن على ذلك، حتى ولو كنت أنا الذي يقوم بهذا التزييف، إذ إنني ما أكاد أنتهي منه حتى يعدم كل دليل ينم عليه، والدليل الوحيد موجود بداخل عقلي، ولست أدري على وجه التحقيق إن كان هناك مخلوق واحد يشاركني ذكرياتي. لقد أمسكت بدليل مادي محسوس في مناسبة واحدة طوال حياتي بعد أن وقع الحادث بسنوات.

- وما الفائدة من ذلك؟

- لم تكن هناك أية فائدة؛ لأنني تخلصت منه بعد دقائق معدودات، ولو حدث ذلك اليوم لاحتفظت بهذا الدليل.

فقالت جوليا: أما أنا فلا أفعل ذلك! إنني على استعداد للمجازفة، ولكن من أجل شيء يستحق هذه المجازفة، لا من أجل قصاصات صحف قديمة. ولنفرض أنك احتفظت بها، فماذا كان بوسعك أن تفعل.

- ربما لم أستطع أن أفعل شيئًا يذكر، ولكنها كانت دليلًا على كل حال، ولعلها كانت تكفي لإثارة بعض الشك هنا وهناك لو أنني تجاسرت على إطلاع أحد عليها.

إنني لا أتصور أنه سيكون في مقدورنا أن نغير شيئًا من الأوضاع خلال حياتنا، ولكنني أستطيع أن أتخيل أن في الإمكان أن تتكون جماعات صغيرة للمقاومة هنا وهناك، جماعات صغيرة من أشخاص يؤازر أحدهم الآخر، وتتكاثر بالتدريج وتخلف سجلات قليلة وراءها، حتى يستطيع الجيل القادم أن يبدأ حيث انتهينا.

فقالت: أما أنا فلا يهمني الجيل القادم يا عزيزي. إن ما أهتم به هو نحن.

فقال لها: يبدو لي أنك ثائرة من الخصر فما دونه.

واعتبرت ذلك تعبيرًا بارعًا منه، فأحاطته بذراعيها وهي جد مسرورة.

كانت لا تبدي أي اهتمام بمذاهب الحزب المتشعبة، فعندما كان يحدثها عن مبادئ الاشتراكية الإنجليزية، والتفكير المزدوج، وعدم ثبات الماضي، وإنكار الوقائع المحسوسة واستخدام كلمات اللغة الحديثة، كانت تبدو عليها علامات الملل والبلبلة، وتقول له إنها لم

تكن لتبدي أي اهتمام بمثل هذه الأشياء، فإنها كانت تعلم أنها كلها سخافات، فلماذا يقلق الإنسان باله بسببها؟ كانت تعلم متى يجب عليها أن تهتف، ومتى يجب عليها أن تسب وتشتم، وهذا هو كل ما كانت تحتاج إليه. فإذا أصر على المضي في الحديث عن هذه الموضوعات، استغرقت في النوم، فقد كانت واحدة من أولئك الذين يستطيعون أن يناموا في أية ساعة وفي أي موضع.

ومن ثم فقد أدرك من الحديث معها أن من السهل أن يظهر المرء بمظهر الشخص الذي يؤمن بصحة المذهب، على حين أنه لا يدرك مطلقًا ما معنى صحة المذهب.

لقد استطاع الحزب أن يفرض رأيه العالي بنجاح شديد على قوم لا يستطيعون فهم هذا الرأي. وكان في استطاعته أن يحملهم على قبول اعتداءاته الشنيعة على الحقيقة؛ لأنهم لم يستطيعوا يومًا أن يفهموا تمامًا ضخامة ما كانوا يطالبون به، كما أنهم لم يكونوا يبدون اهتمامًا كافيًا بالأحداث العامة حتى يستطيعون أن يلاحظوا ما يحدث. ولقد ظل القوم عقلاء لنقص إدراكهم. كانوا يتقبلون كل شيء، ولم يكن ما يتقبلونه ليصيبهم بأي مكروه؛ لأنه لا يترك أي أثر وراءه مثلما تسير حبة القمح في جسم الطير بغير أن يهضمها.

الفصل السادس

وأخيرًا حدث ما توقعه ونستون، وجاءته الرسالة المرتقبة، وبدا له كأنه قضى حياته كلها في انتظار هذا الحدث.

كان يسير في الممر الطويل بالوزارة، وعندما اقترب من المكان الذي أعطته جوليا رسالتها فيه خلسة، شعر بأن شخصًا أضخم منه بنيانًا يسير وراءه، وقد سعل هذا الشخص سعالًا خفيفًا تمهيدًا للحديث معه، فتوقف ونستون عن متابعة السير فجأة؛ فرأى أوبرين.

وأخيرًا، وقف الاثنان وجهًا لوجه، وخيل لونستون أن هناك حافزًا واحدًا يسيطر عليه، وهو أن يلوذ بالفرار، وطرق قلبه بعنف شديد، وارتج عليه فلم يستطع أن يتكلم. بيد أن أوبرين استمر في سيره في الاتجاه نفسه، ووضع يده فوق ذراع ونستون برفق لحظة قصيرة حتى يسير الاثنان جنبًا إلى جنب. ثم بدأ يتكلم بلهجة تشف عن احترام عجيب جدي، كان يمتاز بها على السواد الأعظم من أعضاء الحزب الداخلي.

قال: لطالما تمنيت أن تتاح لي فرصة للحديث معك، فقد قرأت إحدى مقالاتك باللغة الحديثة في صحيفة التايمز منذ عدة أيام، وبدا لي أنك تهتم بهذه اللغة اهتمام الأدباء؟

وكان ونستون قد استرد بعض رباطة جأشه في تلك الأثناء، فأجاب:

- لست ضليعًا فيها ولكنني من هواتها فقط. إنها ليست من اختصاصي. والواقع أنني لم أشترك في وضع تراكيبها.

فقال أوبرين: ولكنك تكتب بها بأسلوب رفيع، ليس هذا رأيي وحدي، فقد كنت أتحدث أخيرًا مع أحد أصدقائك ممن يعتبرون أخصائيين في هذه اللغة، ولكنني لا أذكر اسمه في هذه اللحظة.

وللمرة الثانية خفق قلب ونستون بشدة، وأدرك بما لا يدع مجالًا للشك أن أوبرين إنما يشير إلى سايم، ولكن سايم لم يكن قد مات فحسب، وإنما ألغي كأن لم يكن له وجود على الإطلاق. ومن ثم فإن أية إشارة إليه تنطوي على خطر مميت. ومن ثم فلا شك في أن ملاحظة أوبرين تعتبر إشارة أو كلمة سر، فإن اشتراكه في عمل من أعمال الفكر جعلهما شريكين في هذا العمل. واستمرا يسيران ببطء في الدهليز، ولكن أوبرين لم يلبث أن توقف عن السير وبحركته العجيبة التي استطاع بها أن يجتذب إليه صداقة الآخرين، أعاد تثبيت عويناته فوق أنفه، ثم مضى يقول:

- إن ما أردت أن أقوله فعلًا هو إنني لاحظت أنك استعملت في مقالك كلمتين أبطل استعمالها، إلا أنهما أبطلتا منذ آن قريب جدًا. هل رأيت الطبعة العاشرة من معجم اللغة الحديثة؟

فأجاب ونستون: كلا. لم أكن أظن أنها صدرت بعد، فإننا ما زلنا نستعمل الطبعة التاسعة في إدارة السجلات.

- ليس من المنتظر أن تظهر الطبعة العاشرة قبل عدة شهور فيما أعتقد، إلا أن عدة نسخ وزعت منها سلفًا، وعندي واحدة منها، فلعله يهمك أن تلقي نظرة عليها؟

وفي التو أدرك ونستون مرمى محدثه، فأجاب: أجل، هذا يهمني جدًا.

فقال أوبرين: إن بعض التحسينات التي أدخلت على اللغة رائعة حقًا، فقد خفض عدد

الأفعال، وتلك هي ولا شك النقطة التي ستستأثر باهتمامك فيما أعتقد.

هل أرسل لك المعجم مع رسول؟ ولكنني أخشى أن أنسى ذلك كما هو شأني في مثل هذه المناسبات، فلعله من الأحسن أن تأتي إلى منزلي لتحصل عليه في الوقت الذي يلائمك! مهلًا، دعني أعطيك عنوان منزلي.

كانا يقفان أمام الستار الناقل، وبحركة لا إرادية راح أوبرين يتحسس جيبين من جيوبه، ثم أخرج مفكرة صغيرة ذات غلاف جلدي، وقلم حبر من الذهب، وتعمد أن يقفا تحت الستار الناقل مباشرة في وضع يتيح لمن عساه يراقبهما على الجانب الآخر من الستار أن يقرأ ما كان يكتبه. وكتب العنوان فوق إحدى صفحات المفكرة، ثم انتزع الورقة وسلمها لونستون.

وقال: إنني أقضي أمسياتي في المنزل عادة، فإذا لم تجدني هناك فسيعطيك خادمي المعجم. وانصرف تاركًا ونستون يحمل الورقة في يده. ولم يكن ونستون بحاجة للاحتفاظ بهذه الورقة، فكان قد حفظ العنوان جيدًا، وبعد عدة ساعات ألقى بالورقة في ثقب الذكريات مع كومة من الأوراق.

لم يستغرق حديثهما أكثر من دقيقتين على أكثر تقدير، ولم يكن لهذه القصة كلها غير معنى واحدًا محتملًا، فقد دبرت كوسيلة تتيح لونستون معرفة عنوان أوبرين.

وكان ذلك ضروريًّا لأنه بغير الاستعلام المباشر لا يستطيع أحد أن يكتشف أين يقطن أي شخص، فلم يكن هناك دليل من أي نوع. ولقد قال له أوبرين: «إذا أردت أن تقابلني فهذا هو المكان الذي يمكنك أن تجدني فيه». من يدري فقد تكون هناك رسالة سرية مخبأة في المعجم، لكن مهما يكن من أمر، لقد كان هناك شيء واحد محقق، وذلك أن المؤامرة التي كان يحلم بها قائمة فعلًا وأنه وصل إلى أطرافها الخارجية.

كان يعلم أنه سيستجيب إلى دعوة أوبرين إن عاجلًا أو آجلًا. وربما كان ذلك غدًا أو بعد زمن طويل، ذلك هو ما لم يكن واثقًا منه، إن ما حدث اليوم لم يكن إلا وليد عملية بدأها منذ عدة سنوات، وكانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل فكرة سرية لا إرادية، أما الخطوة الثانية فكانت البدء بتسجيل مذكراته، وبذلك انتقل من الأفكار إلى الأقوال، وها هو ينتقل الآن من الأقوال إلى الأعمال، أما الخطوة الأخيرة فستكون شيئًا ما يحدث في وزارة الحب، ولقد تقبل ذلك كله، فإن النهاية توجد في البداية، ولكنها كانت مخيفة أو بتعبير أصح أشبه بتذوق الموت سلفًا، أو أشبه بحياة تقل من الناحية الحيوية عن الواقع. وعندما كان يتحدث مع أوبرين وبدأت معاني كلماته تنطبع في مخيلته انتابته قشعريرة شديدة، وأحس بأنه يهبط إلى داخل القبر البارد، ولم يكن هذا الإحساس أحسن كثيرًا من رطوبة القبر الفعلية؛ لأنه كان يعلم دائمًا أن القبر موجود فعلًا وأنه في انتظاره.

الفصل السابع

استيقظ ونستون والدموع تنساب من عينيه، وتقلّبت جوليا نحوه وهي نصف نائمة وتمتمت ببضع كلمات لعلها كانت «ماذا حدث؟».

فقال لها: «لقد حلمت....»، ولكنه أمسك عن الاسترسال في الكلام، فقد كانت المسألة معقدة بشكل يجعل الكلام يقصر دون شرحها.. كان أمامه الحلم نفسه والذاكرة المتصلة به، تلك الذكرى التي سرت في خاطره سريان الكهرباء خلال ثوان بعد أن استيقظ.

وظل ونستون مضطجعًا، وعيناه مغلقتان ومغرورقتان بالدموع.. لقد رأى حلمًا كبيرًا مضيئًا امتدت حياته كلها فيه كمشهد تجلي في أمسية صيف بعد المطر، وقد رأى كل ذلك داخل ثقل الأوراق الزجاجي. وكان سطح الثقل أشبه بصفحة السماء، وكان كل ما بداخلها واضحًا مضيئًا، ويتضمن الحلم صورة أمه وهي تلف بذراعها أخته العليلة، وصورة السيدة التي كررت العمل نفسه بعد ثلاثين عامًا محاولة حماية طفلها من الرصاص الذي كانت تطلقه طائرة الهيلكوبتر، وقد رأى المنظر الأخير في أحد الأفلام، وانتهى بمصرع الأم وطفلها.

قال لجوليا: هل تعلمين إنني كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أنني قتلت أمي؟

فسالته جوليا وهي نصف نائمة: ولماذا قتلتها؟

- إني لم أقتلها.. على الأقل لم أقتلها جسمانيًا.

عندما كان ونستون يحلم، تذكر آخر نظرة ألقاها على أمه، فلما استيقظ استعاد ذكرى جميع الحوادث الصغيرة التي اقترنت بنظرة الوداع، ولكنه لم يستطع أن يذكر على وجه التحديد متى وقع حادث أمه، وإن كان يذكر أن عمره كان وقتذاك عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على الأرجح.

كان أبوه قد اختفى قبل وقوع الحادث، ومع أنه لا يذكر بالدقة تاريخ اختفائه، إلا أنه يذكر فيما يذكر الظروف التي اكتنفت اختفاء والده خلال فترة من الزمن، كانت لندن عرضة فيها لغارات جوية عنيفة، وكان الناس يهرعون إلى المخابئ وقد ركبهم الفزع، وقد سدت منافذ الشوارع بالمنازل المتهدمة، بينما امتلأت أركانها ببلاغات وإعلانات غير مفهومة، وغصت الشوارع بمظاهرات صاخبة، كان الشبان يسيرون وهم يرتدون قمصانًا ذات لون واحد. ويذكر أيضًا صفوف الناس التي كانت تترامى أمام المخابز وأصوات المدافع الرشاشة وهي تطلق من بعيد، بين الحين والحين، وفوق ذلك كله، فإنه يذكر أن الناس كانوا يفتقرون إلى ما يكفيهم من المواد الغذائية. ويذكر أيضًا تلك الساعات الطوال التي كان يقضيها مع غيره من الفتيان وهم يبحثون عن بقايا طعام، أو كسر من الخبز، أو قشور البطاطس، أو أوراق الكرنب بين فضلات الطعام.

وعندما اختفى والده لم تبد أمه أية دهشة أو حزنًا عميقًا، بيد أن تغييرًا فجائيًا طرأ على حياتها، فبدت وكأنها فقدت روحها نهائيًا.. حتى ونستون أدرك أنها إنما كانت تنتظر شيئًا لا مفر من حدوثه، وكانت تقوم بشتى أعمال المنزل، فكانت تطهو الطعام، وتغسل الثياب وترتقها، وترتب الفراش، وتنظف الغرفة، وتقوم بكل هذه الأعمال في هدوء وتؤدة، دون أن تبدي أي نشاط، حتى لكأنها تمثال صنعه فنان ولكنه يتحرك من تلقاء ذاته. وكانت تقضي الساعات الطوال وهي جالسة فوق حافة الفراش بغير حركة، وقد انصرفت إلى العناية بأخته العليلة، وهي طفلة عمرها سنتان أو ثلاث سنوات. وكانت تحتضن ونستون في بعض الأحايين وتشده إليها فترة طويلة من الزمن دون أن تنبس ببنت شفة، ورغم

صغر سنه وأنانيته، كان ونستون يعلم أن ما تفعله أمه يوحي بقرب حدوث ذلك الشيء الذي لم تفصح عنه أو تشير إليه.

وتذكر ونستون الغرفة التي كانوا يعيشون فيها.. كانت غرفة صغيرة مظلمة بها سرير شغل نصف مساحتها تقريبًا. كما كان هناك موقد للطهي خلف حاجز، ورف لحفظ الطعام، وأمام هذه الغرفة كان هناك حوض لغسيل الأواني مشترك لعدة أسر. وإن نسي فلن ينسى المعارك العنيفة التي كانت تنشب عند كل وجبة، عندما كان يصيح طالبًا بالمزيد من الطعام ويستعمل قارص الكلام أو يلجأ إلى البكاء. وكانت أمه التعسة مستعدة دائمًا لأن تعطيه أكثر من حصته؛ لأنها كانت مقتنعة تمامًا بأنه يجب أن ينال أكبر حصة بما أنه كان الصبي. ومع ذلك فقد دأب على طلب المزيد، وكانت أمه ترجوه عند كل وجبة ألا يكون أنانيًّا، وأن يتذكر أن أخته الصغيرة مريضة تحتاج إلى الطعام، إلا أنه كان يصم أذنيه ولا يستمع إلى رجائها، وكثيرًا ما كان ينفجر غاضبًا عندما تكف عن سكب الطعام في طبقه. وفي بعض الأحايين كان ينتزع الطبق والملعقة من بين يديها، أو ينتزع قطع الطعام من طبق أخته، وكان يعلم أنه إنما يميت أمه وأخته جوعًا، ولكنه لم يكن يستطيع كبح جماح نفسه، أو بالأحرى كان يشعر بأن من حقه أن يفعل ذلك، فالجوع الذي كان ينهش أحشاءه كان يبرر، فيما يرى، هذه الأفعال، وكان يسرق بين كل وجبة وأخرى ما تصل إليه يده من طعام، إذا أتاحت له أمه الفرصة ولم تقف حارسة عليه.

وذات يوم وزعت مخازن الدولة كميات من الشيكولاتة على الشعب، وكانت قد مضت شهور طويلة لم يوزع خلالها هذا الصنف على الناس، وما زال ونستون يذكر قطعة الشيكولاتة الثمينة التي كانت من نصيبهم وكان وزنها أوقيتين وهي حصة ثلاثتهم. وكان من العدل أن تقسم هذه القطعة إلى ثلاثة أقسام متساوية، ولكن ونستون ألفى نفسه يصرخ بأعلى صوته مطالبًا بالحصول على قطعة الشيكولاتة برمتها، فما كان من أمه إلا أن طلبت منه ألا يكون جشعًا، وبدأ جدال وصراع عنيف بينه وبين أمه تخلله التماسك بالأيدي والصياح والدموع والتأنيب والمساومة، وكانت أخته الصغيرة متشبثة بأمه وهي تنظر إليه بعينين تبدت فيهما الدهشة والحزن، وأخيرًا كسرت أمه قطعة الشيكولاتة وأعطته ثلاثة أرباعها وأعطت الربع الباقي لأخته، فأخذت الطفلة تتأمل قطعة الشيكولاتة، ولعلها لم تكن تعرف ما هي، أما ونستون فراح يراقبها لحظة، ثم قفز قفزة مفاجئة سريعة واختطف منها قطعة الشيكولاتة، وولى الأدبار.

ونادته أمه بأعلى صوتها: ونستون! ونستون! أعد قطعة الشيكولاتة لأختك!

وتوقف ونستون عن متابعة الركض، ولكنه لم يعد أدراجه، بينما كانت عينا أمه القلقتين تحملقان فيه. وكان يفكر- حتى في تلك الآونة- في ذلك الشيء الذي يوشك على الحدوث والذي لا يعرف كنهه.

وأما أخته فما كادت تفطن إلى أنها حرمت من شيء ما حتى انفجرت باكية، فأسرعت الأم تحيطها بذراعيها وتدفن وجهها في صدرها، وقد أوحت هذه الحركة لونستون بأن أخته قد أشرفت على الموت، فاستدار على عقبيه ومضى لا يلوي على شيء، وقطعة الشيكولاتة في يده وقد أصبحت رخوة لينة.

وإذ فرغ من التهام قطعة الشيكولاتة أحس بالخجل، وظل يتسكع في الشوارع عدة ساعات إلى أن عضه الجوع بنابه، فعاد إلى المنزل وسرعان ما اكتشف أن أمه قد اختفت، وكان اختفاء الناس قد أصبح أمرًا مألوفًا في تلك الأيام. ولقد بقيت الغرفة على حالها بعد اختفاء أمه وأخته اللتين غادرتا المنزل دون أن تأخذا ثيابهما معهما، حتى ولا معطف أمه.. وحتى ذلك اليوم لم يكن ونستون يعرف على وجه التحقيق إن كانت أمه قد لقيت حتفها

أم لا تزال على قيد الحياة، فمن الجائز جدًا أن تكون قد نفيت إلى أحد معسكرات العمل الإجباري، أما أخته فربما كانت قد نقلت، مثلما حدث له، إلى مستعمرة للأطفال المشردين «كان يطلق على هذه المستعمرات اسم مراكز الإصلاح». وقد زاد عدد هذه المستعمرات واتسعت نتيجة للحرب الأهلية، أم لعلها أرسلت إلى معسكر العمل الإجباري مع أمها، كما كان من الجائز أيضًا أن تكون قد تركت في مكان ما لتتضور جوعًا وتموت.

كان الحلم لا يزال حيًّا في مخيلته، وعلى الأخص تلك الحركة التي طوقت بها أمه ابنتها بذراعها، وعادت به الذكرى إلى حلم آخر كان قد رآه منذ شهرين، وظهرت فيه أمه وهي جالسة في سفينة مشرفة على الغرق وهو يشاهدها من علو ساحق تهبط أسفل فأسفل، بينما أمه تتطلع إليه من خلال المياه المظلمة.

وروى لجوليا قصة اختفاء أمه، ولم تفتح الفتاة عينيها، وإنما تحركت حتى أصبحت في وضع مريح.

وقالت: أظن أنك كنت نذلًا صغيرًا شقيًا في تلك الأيام، فجميع الأطفال أشقياء.

فقال لها: نعم، ولكن الأمر المهم في القصة هو.....

ولاحظ ونستون من تنفس الفتاة أنها ستعود إلى النوم، وكان يود الاستمرار في الحديث عن أمه، لقد كان مما يذكره عنها أنها لم تكن سيدة غير عادية أو ذكية، ولكنها كانت تتصف بضرب من النبل والطهارة والنقاء؛ نظرًا لأنها لم تكن تطيع إلا مشاعرها وأفكارها. كان شعورها ملكًا لها، ولم تكن أية عوامل خارجية لتستطيع التأثير عليه، ولم يكن يخطر ببالها أن العمل الذي لا تأثير له يصبح عديم الجدوى والمعنى، وكانت تؤمن بأنها إذا أحبت شخصًا فإن من واجبها أن تخلص له الحب، فإذا لم يكن لديها شيء تمنحه إياه فلا بأس في ذلك؛ لأنها ما زالت تمنحه حبها. وعندما خطف ونستون قطعة الشيكولاتة من يد أخته ضمت أمه الطفلة بين ذراعيها بحنان، ومع أنه لم تكن هناك فائدة ترجى من هذا العمل لأنه لن ينتج شيكولاتة ولن يغير شيئًا أو يمنع موت الطفلة أو أمها، إلا أنه كان من الطبيعي أن تفعل الأم ذلك... لقد فعلت المرأة المتشبثة بقارب النجاة نفس العمل، فأحاطت طفلها بذراعيها، وهي تعلم أنها لن تستطيع صد الرصاص عنه، وأن ذراعيها لن يحمياه أكثر من صفحة ورق.

ولعل أفظع ما قام به الحزب أنه استطاع إقناع الناس بأن الحوافز والشعور العادية لا قيمة لهما إطلاقًا، وفي الوقت نفسه حرم الناس من جميع ألوان السيطرة على العالم المادي، وإذا وقع الإنسان في قبضة الحزب، فإن ما يشعر به أو لا يشعر به وما يعمله أو يمتنع عن عمله، يصبح أمرًا لا أهمية له البتة. ومهما حدث فإنه سرعان ما يختفي ويصبح نسيًا منسيًا، ولا يعود الناس يذكرون عنه أو عن أعماله شيئًا... هذا ما كان يحدث في تلك الأيام، ولكن الأوضاع كانت تختلف عن ذلك منذ جيلين، فقد كان يسودهم الولاء والإخلاص، وكانوا يهتمون أشد الاهتمام بالعلاقات الفردية، وبالعناق، والدموع، كما كانوا يهتمون بكلمة يقولونها لرجل على فراش الموت، كل هذه الأشياء كانت لها قيمتها.. وفجأة خطر بباله أن أفراد طبقة البروليتاريا «عامة الشعب» ما زالوا يعيشون كما كان يعيش أسلافهم.

فولاؤهم لم يكن لحزب أو بلاد أو فكرة، وإنما كان لبعضهم بعضًا.. ولأول مرة في حياته شعر ونستون بأنه لا يحتقر أفراد العامة، ويعتبرهم مجرد قوة راكدة معدومة الحركة لا تلبث أن تدب فيها الحياة فجأة فتعيد تنظيم العالم.. لقد بقي أفراد العامة مخلوقات بشرية لم تتحجر قلوبها.. ويرتبط أفراده بالعواطف البدائية التي كان عليه هو نفسه أن

يتعلمها ببذل جهود واعية. وعندما كانت هذه الخواطر تطوف بذهنه، تذكر كيف رأى قبل ذلك ببضعة أسابيع يد طفل في الطريق، فالتقطها وألقى بها في سلة الفضلات كأنها فضلة كرنب.

قال بصوت مرتفع: إن الدهماء مخلوقات بشرية، أما نحن فلسنا من بني الإنسان.

واعترضت جوليا على ذلك قائلة: ولماذا تظن ذلك؟

كانت قد استيقظت من سباتها، ففكر ونستون قليلًا ثم أجاب: ألم يخطر ببالك ذات مرة أن أفضل شيء بالنسبة إلينا هو أن نغادر هذه الغرفة قبل فوات الأوان، وألا يرى أحدنا الآخر مرة أخرى؟

فأجابت: نعم يا عزيزي، لقد خطر ذلك ببالي مرات عديدة، ولكن لن أفعل ذلك مهما حدث.

فقال: لقد حالفنا الحظ ولكن الحظ لن يبقى دائمًا إلى جانبنا. إنك شابة وتبدين طبيعية وبريئة، فإذا ابتعدت عن أمثالي فقد تظلين على قيد الحياة خمسين سنة أخرى.

فقالت: كلا.. لقد فكرت في جميع الاحتمالات، وما ستفعله أنت سأفعله أنا، فكن شجاعًا ولا تيأس، فإنني أعرف كيف أظل على قيد الحياة.

فقال: قد نظل مع بعضنا ستة أشهر أخرى أو سنة، فعلم ذلك عند ربي، بيد أنه من المحقق أننا سنفترق في النهاية، هل تدركين كم سنشعر بالوحدة؟ إنهم إذا وضعوا أيديهم علينا، فلن يستطيع أحدنا مساعدة الآخر، وإذا اعترفت أنا أطلقوا النار عليك، وإذا رفضت الاعتراف لقيت نفس المصير، فمهما قلت أو فعلت أو امتنعت عن القول فلن يؤخر ذلك موتك ولو خمس دقائق، ولن يعرف أحدنا إطلاقًا ما إذا كان الآخر على قيد الحياة أو ميتًا، فسوف لا يكون لنا وقتذاك حولًا أو قوة، والأمر الوحيد المهم هو ألا يخون أحدنا الآخر، رغم أن ذلك لن يؤخر الأمور أو يقدمها.

فقالت: إذا كنت تعني الاعتراف، فلن تكون لنا مندوحة عنه؛ لأنه من المعروف أن كل إنسان يعترف ولا مناص له من ذلك، ما دامت لديهم وسائل التعذيب.

فقال: لست أعني هذا الاعتراف؛ لأنه ليس ثمة خيانة فيما نفعله أو نقوله، ما دام شعورنا ملك أيدينا، ولكنهم إذا تمكنوا من وضع حد لحبي لك فإن هذا هو الخيانة بعينها.

وفكرت الفتاة قليلًا ثم قالت: لن يكون لهم إلى ذلك سبيل؛ لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لن يستطيعون فعله.. إن في وسعهم أن يجبروك على أن تقول ما يريدون، ولكنهم لا يستطيعون إجبارك على أن تصدق ما قلته؛ لأنه لا سبيل أمامهم للتغلغل في أعماقك.

فقال وقد داعبه خيط من الأمل: لا.. لا.. هذا صحيح. إنهم لا يستطيعون الوصول إلى قلبك، وإذا استطعت أن تشعري بأن بقاءك إنسانة أمر له قيمته، حتى ولو لم يؤد ذلك إلى أية نتيجة، فإنك تكونين قد انتصرت عليهم.

وتذكر ونستون الستار الناقل الذي لا تصاب أذنه بصمم على الإطلاق.. إن في استطاعتهم أن يتجسسوا عليك ليل نهار، ولكنك إذا احتفظت باتزان عقلك فقد تتمكن من خداعهم؛ لأنهم- رغم ما أوتوه من مهارة- لم يتمكنوا من الوقوف على السر الذي يمكنهم من معرفة ما يدور بخلد الإنسان. وقد لا يصدق هذا القول تمامًا إذا ما وقع الإنسان في قبضتهم، فليس هناك من يعرف ماذا يحدث بداخل وزارة الحب، وإن كان التكهن بذلك

مستطاعًا: ألوان من التعذيب وعقاقير وآلات دقيقة تسجل ردود فعل الأعصاب، وتحطيم الأعصاب بالاستجواب المستمر، والسهر والوحدة، ومهما يكن فإنك لا تستطيع إخفاء الحقائق؛ لأن في وسعهم انتزاعها منك سواء بالتحقيق أو بالتعذيب. أما إذا كان هدفك أن تظل إنسانًا وليس أن تظل على قيد الحياة، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا. إنهم لن يتمكنوا من تغيير شعورك، بل إنك لن تستطيع أن تغير شعورك ولو أردت ذلك. إن في استطاعتهم كشف الستار عن جميع تفاصيل أعمالك أو أفكارك، ولكن قلبك الذي يكمن بداخل جسمك، والذي لا تعرف حتى أنت كنه أعماله الغامضة، هذا القلب سيبقى حصنًا غير قابل للاقتحام.

الفصل الثامن

وأخيرًا سبق السيف العذل.

ألفى ونستون وجوليا نفسيهما يقفان في غرفة مستطيلة الشكل تشع في جوانبها أنوار خفيفة، وكان «الستار الناقل» يذيع بصوت أشبه بالتمتمة.. وشعرا، وهما يقفان فوق سجادة ذات لون أزرق غامق وكأنهما يطآن مخملًا، وفي الطرف البعيد للغرفة كان أوبرين يجلس وراء مكتب ضخم فخم، وكان يطالع أوراقًا على نور مصباح مظلل. وعندما أدخل الخادم ونستون وجوليا إلى الغرفة لم يكلف أوبرين نفسه مشقة النظر إليهما.

وشعر ونستون بقلبه يدق بعنف، حتى لقد ارتاب في قدرته على الكلام. حقًّا، لقد سبق السيف العذل، وقاما بالزيارة الموعودة، لقد كان عملهما هذا حماقة، ولكن مجيئهما معًا كان ينطوي على حماقة أشد، بل إنه الجنون بعينه، رغم أنهما جاءا من طريقين مختلفين ولم يلتقيا إلا عند مدخل المنزل، ولكن مجرد قدومهما إلى مثل هذا المكان يحتاج إلى أعصاب قوية كالفولاذ.. كان كل شيء حولهما يثير الرعب والخوف، فقد كان من النادر أن تتاح للإنسان فرصة رؤية ما يدور بداخل مساكن أعضاء الحزب الداخلي، أو حتى يصل إلى القسم الذي يعيشون فيه في المدينة. فالجو الذي يسود مجموعة الأبنية الضخمة التي يعيشون فيها، واتساع كل شيء في هذه المساكن، وروائح الطعام الطيب غير المألوفة، والتبغ الجيد والمصاعد السريعة التي تعلو وتهبط في صمت تام، والخدم بثيابهم البيضاء يروحون ويغدون، كل ذلك كان مما يزيد في رهبة المكان وروعته. ومع أن ونستون كان يملك من الأسباب ما يستطيع أن يبرر وجوده في هذا المكان، إلا أنه كان كلما ارتقى درجة، شعر بالرعب يسيطر عليه، وخشي أن يبرز له فجأة من إحدى الزوايا حارس يطالبه بتقديم أوراقه، ثم لا يلبث أن يأمره بالانصراف بلا إبطاء. ومع ذلك فإن خادم أوبرين لم يعترض سبيلهما. كان رجلًا ضئيل الجسم، أسود الشعر، يرتدي سترة بيضاء، جامد الوجه كالصينيين.. وسار الاثنان خلف الخادم في الممر المغطى بالسجاد الجميل، وقد لاحظا أن كل ما حولهما نظيف أنيق.

ولقد أثار ذلك خوفهما؛ لأن ونستون لم يستطع أن يذكر أنه رأى ممرًا جدرانه لا تعلوها الأقذار بسبب كثرة احتكاك الأجسام بها.

كان أوبرين يمسك بقطعة من الورق بين أصابعه وهو يدرس محتوياتها بإمعان، وقد أحنى وجهه الثقيل الذي كانت ملامحه تكشف عن الذكاء والعزيمة، ومضت عشرون ثانية تقريبًا وهو جامد في مجلسه بلا حراك، ثم جذب جهاز تسجيل الكلام وأملى رسالة باللغة المألوفة في الوزارات نصها الآتي:

نوافق على الفقرات الأولى والخامسة والسابعة برمتها. أما الاقتراح الوارد بالفقرة» السادسة فمضحك للغاية، ويحذف موضوع الجريمة الفكرية. يجب زيادة عدد الآلات زيادة كبيرة.. انتهت الرسالة«.

ثم نهض بتؤدة عن مقعده، وتقدم من زائريه بهدوء، وقد انحسر عنه بعض ذلك الطابع الرسمي الذي كان يحف به وهو يملي رسالته باللغة الحديثة. ولكن انفعالات وجهه كانت تنم عن اكتئاب أكثر من ذي قبل، كما لو كان يشعر بالضيق لأن زيارتهما أزعجته، فشعر ونستون بشيء من الفزع والحيرة، وخشي أن يكون قد ارتكب غلطة تدل على الغباء، إذ ما هو دليله على أن أوبرين متآمر ضد الحزب؟ إنه لا يملك أي دليل سوى الومضة الخاطفة التي لاحظها في عيني أوبرين، وتلك الملاحظة العابرة التي نطق الرجل بها. أما ما عدا ذلك، فكان أوهامًا خفية مؤسسة على حلم.. ولم يستطع التراجع مدعيًا أنه جاء في طلب

المعجم؛ لأنه سيعجز في هذه الحالة عن تفسير سبب وجود جوليا..

وعندما وصل أوبرين إلى الستار الناقل ضغط على زر في الجدار فتوقف الجهاز عن العمل.

وصدر عن جوليا صوت خافت، صوت ينم عن فرط الدهشة، ورغم ما كان يعانيه ونستون من فزع، فإنه لم يكن أقل دهشة من الفتاة، ومن ثم فإنه لم يستطع الإمساك عن الكلام.

سأل: هل تستطيع وقف الجهاز عن الكلام؟

فأجاب أوبرين: نعم.. في استطاعتنا أن نفعل ذلك؛ لأنه امتياز من الامتيازات التي نتمتع بها.

كان أوبرين يقف الآن في مواجهتهما وقد بدا كأنه برج مائل، وارتسم على وجهه تعبير غامض لا يمكن تفسيره، وكان ينتظر أن يبدأ ونستون الحديث، ولكن عن أي شيء يتوقع أن يكون هذا الحديث؟ وقد بدا كرجل أعمال يضيق بالمقاطعة.. ولم يتكلم أحد، ولقد خيم على الغرفة صمت رهيب، بعد أن أوقف الستار الناقل عن العمل.. وتوالت الثواني سراعًا، وظل ونستون يحدق في وجه أوبرين.. وفجأة انفرجت شفتاه عن ظل ابتسامة، ثم أصلح وضع عويناته كما هي عادته.

وقال: هل أتكلم أم تتكلم أنت؟

فأسرع ونستون يقول: بل سأتكلم أنا.. لكن هل أغلقت الجهاز فعلًا؟

- نعم.. ونحن الآن على انفراد.

فقال ونستون: لقد جئنا إلى هنا لأننا..

ثم توقف عن الكلام، فقد أدرك لأول مرة غموض دوافعه، ولما كان يجهل فعلًا نوع المساعدة التي يمكنه أن يتوقعها من أوبرين، فقد كان من الصعب عليه أن يفسر سبب مجيئه إليه، ولكنه مع ذلك مضى يقول:

- إننا نعتقد بوجود نوع من التآمر، أو نوع من المنظمات السرية التي تعمل ضد الحزب، وأنك مشترك فيها. ونحن نريد أن ننضم إليها ونعمل من أجلها؛ لأننا أعداء للحزب لا نؤمن بمبادئ الحزب «الاشتراكي الإنجليزي».. «أنجسوك»، إننا مجرمو فكر، كما أننا شباب أغرار، وإني أقول لك ذلك لأننا نود أن نوضع أنفسنا تحت رحمتك، فإذا أردت منا أن ندين أنفسنا بأية وسيلة فإننا على أتم استعداد لذلك.

وتوقف ونستون عن الكلام، وتطلع من فوق كتفه، فقد شعر بأن الباب قد فتح، ورأى الخادم الصغير أصفر الوجه يتسلل إلى الغرفة بغير استئذان. وكان يحمل صفحة فوقها زجاجة وبضع كؤوس.

قال أوبرين بجمود: إن مارتن واحد منا.

وانثنى يقول للخادم: هات الشراب يا مارتن وضعه فوق المنضدة المستديرة.. هل لدينا مقاعد كافية؟ لنجلس جميعًا ونتحدث بهدوء، احضر لنفسك مقعدًا يا مارتن، فقد آن آوان العمل، ويمكنك أن تكف عن لعب دور الخادم خلال الدقائق العشر القادمة.

فجلس الرجل الضئيل واسترخى في مقعده شأن الخادم الذي يريد أن يستمتع بامتياز موقوت. وتأمله ونستون من طرف عينه. وفي التو خيل إليه أن حياة الرجل كلها عبارة عن دور محدود يقوم بأدائه، وأنه كان يشعر بأن من الخطر أن يتخلى عن هذا الدور ولو لدقائق معدودات. أما أوبرين فملأ الكؤوس بسائل أحمر قاتم، ولم يعرف ونستون ولا جوليا كنه هذا الشراب أو اسمه. ولكنه أثار في ونستون ذكريات غامضة عن شيء رآه منذ أمد بعيد فوق جدار أو في مخبأ، زجاجة هائلة تتألف من أضواء كهربائية كانت تبدو متحركة إلى أعلى وإلى أسفل وتسكب محتوياتها في كوب، وإذا نظر الإنسان إلى السائل من أعلى بدا له أسود اللون، ولكنه كان متألقًا كالجوهرة وهو في الزجاجة.. وكان لهذا السائل طعم، فرفعت جوليا كوبها وشمت السائل باهتمام وبدون مواربة، فقال أوبرين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة:

- إنهم يسمونه نبيذًا، ولست أشك في أنكما طالعتما شيئًا عنه في الكتب، وأكبر ظني أن أعضاء الحزب الخارجي لا يظفرون منه إلا بالقليل.

ثم ارتسمت على وجهه علامات الجد مرة أخرى، ورفع كأسه وقال:

- أعتقد أنه يجدر بنا أن نبدأ الشراب باحتساء نخب زعيمنا عمانوئيل جولد شتاين.

ورفع ونستون كأسه بشيء من اللهفة؛ فقد كان النبيذ شيئًا قرأ عنه وحلم به.. كان يرى أنه شيء من ذكريات الماضي البعيد الذي انطمست معالمه.. ذلك الماضي الذي كان كثيرًا ما يسترده في أفكاره السرية. ولسبب أو آخر كان يظن دائمًا أن للنبيذ طعمًا حلوًا وأن له تأثيرًا مسكرًا سريعًا. ولكنه ما كاد يجرع محتويات الكأس حتى شعر بخيبة الأمل؛ لأنه لم يشعر بذلك الطعم الجميل الذي توقعه، ولا عجب فإن اعتياده على شرب الجن خلال عدة أعوام جعله لا يستسيغ شرابًا آخر غيره. وأعاد الكأس فوق المنضدة ثم قال:

- إذن فإن هناك شخصًا اسمه جولد شتاين؟!

- نعم.. إنه حي يرزق ولكني لا أعلم أين هو.

فسأل ونستون: ما رأيك في المؤامرة، في المنظمة؟ هل هي موجودة فعلًا أو إنها مجرد بدعة استحدثتها شرطة الفكر؟

فأجاب أوبرين: بل إنها موجودة فعلًا، ونحن نطلق عليها اسم «الإخوة»، ولكنك لن تعرف عنها أكثر من أنها قائمة فعلًا، وأنك عضو فيها، وسأحدثك عنها فيما بعد.

وتطلع إلى ساعته وأردف: ليس من الحكمة حتى بالنسبة لأعضاء الحزب الداخلي أن يوقفوا الستار الناقل لأكثر من نصف ساعة.. كان يجدر بكما ألا تأتيا معًا، لذلك ينبغي أن تغادرا المكان منفردين.

ثم أحنى رأسه في اتجاه جوليا وقال: ستغادرين أيتها الرفيقة المنزل أولًا، ما زال أمامنا حوالي عشرين دقيقة، ومن ثم فسأبدأ بتوجيه بعض أسئلة إليكما، وأول هذه الأسئلة هو: ما الذي أنتما على استعداد لأن تفعلاه؟

فأجاب ونستون، إننا على استعداد لأن نصنع كل ما في مقدورنا.

واستدار أوبرين قليلًا في مقعده بحيث أصبح يواجه ونستون مباشرة متجاهلًا جوليا بعض الشيء، كأنه كان يدرك بالبداهة أن ونستون يستطيع التحدث نيابة عنها. وبدأ يوجه أسئلته بصوت هادئ منخفض كأنه يمارس لونًا من ألوان «الروتين».

- هل أنتما على استعداد للتضحية بحياتكما في سبيل القضية؟

- نعم.

- وهل أنتما مستعدان لارتكاب جريمة قتل؟

- نعم.

- وهل أنتما على استعداد لاقتراف جرائم التخريب التي قد تودي بحياة مئات من الأشخاص الأبرياء؟

- نعم.

- وهل أنتما على استعداد لخيانة وطنكما لمصلحة دول أجنبية.؟

- نعم.

- وهل أنتما مستعدان لخداع الناس، والتزوير، وإساءة سمعة البعض، وإفساد عقول الأطفال، وتوزيع العقاقير التي تضعف قوى الناس، وتشجيع البغاء ونشر الأمراض التناسلية، والإقدام على أي عمل من شأنه إضعاف قوة الحزب وتحطيمه؟

- نعم.

- لنفرض أننا رأينا من مصلحتنا أن نلقي حامض الكبريتيك على وجه أحد الأطفال، فهل أنتما مستعدان لأداء هذا العمل؟

- نعم.

- وهل أنتما على استداد لفقد شخصيتيكما وأن تعيشا بقية حياتكما كخادمين أو عاملين في أرصفة الشحن؟

- نعم.

- هل أنتما مستعدان للانتحار إذا طلبنا ذلك منكما في أي وقت؟

- نعم.

- وهل أنتما على استعداد للانفصال أحدكما عن الآخر، بحيث لا يرى أحدكما الآخر مرة أخرى إلى الأبد؟

هنا صرخت جوليا: لا.

أما ونستون فقد تمهل طويلًا قبل أن يجيب. وخيل إليه أنه فقد القدرة على الكلام، وأخيرًا، وبعد محاولات عديدة كانت الكلمات تخذله إبانها استطاع أن يقول:

لا.

فقال أوبرين: لقد أحسنت صنعًا بمصارحتي بالحقيقة لأنه من الضروري لنا أن نعرف كل شيء.

وانثنى إلى جوليا، وقال بصوت أكثر تعبيرًا:

- هل تدركين أنه حتى ولو بقي على قيد الحياة فإنه قد يصبح شخصًا آخر مختلفًا؟ فقد نضطر إلى إعطائه شخصية جديدة، وإلى تغيير وجهه وحركاته وشكل يديه ولون شعره وربما صوته أيضًا، وأنت نفسك قد تصبحين شخصًا مغايرًا، فإن في استطاعة جراحينا أن يغيروا الأشخاص بحيث لا يستطيع ذووهم وأصدقاؤهم معرفتهم، وقد نضطر في بعض الأحايين إلى بتر أحد أعضاء الشخص...

ألقى ونستون نظرة خاطفة على وجه مارتن المغولي الطابع، أما جوليا فاصفر لونها، ولكنها واجهت أوبرين بشجاعة وتمتمت ببضع كلمات دلت على موافقتها.

عندئذ قال أوبرين: حسنًا. لقد اتفقنا.

وكانت فوق المنضدة علبة من لفائف التبغ فدفعها أوبرين نحوهما وهو شارد الذهن، وأخذ لنفسه لفافة، وبعدئذٍ همّ واقفًا ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، كأنما كان الوقوف يساعده على التفكير بشكل أفضل.. وكانت لفائف التبغ من النوع الفاخر جدًا لذيذ الطعم زكي الرائحة.. وبعد لحظات تطلع أوبرين إلى ساعته مرة أخرى.. وقال:

- يحسن أن تعود إلى المطبخ يا مارتن.. تأمل وجهي الرفيقين جيدًا قبل أن تنصرف، فقد تراهما مرة أخرى، أما أنا فقد لا أراهما بعد اليوم.

ولمعت عينا مارتن وهو يتطلع إليهما مثلما فعل عندما استقبلهما أول الأمر، ولم تكن في نظرته أية علامة من علامات الود والصداقة، فقد انصرف إلى تأملهما حتى تنطبع صورتاهما في ذهنه، بغير أن يبدي أي اهتمام بهما. ثم لم يلبث الخادم أن انسحب من الغرفة بدون أن يودع الزائرين، وأغلق الباب بهدوء، وكان أوبرين لا يزال يروح ويغدو في الغرفة، وقد دس يديه في جيبه وحمل لفافة التبغ بيده الأخرى.

قال أوبرين: يجب أن تفهما أنكما ستقاتلان في الظلام، وستعيشان دائمًا في الظلام الحالك. ستتلقيان أوامر، فعليكما إطاعتها بغير أن تعرفا لماذا. وبعد فترة من الزمن سأبعث إليكما بكتاب يعلمكما الطبيعة الحقة للمجتمع الذي نعيش فيه والخطة الاستراتيجية التي سنستخدمها لتحطيم هذا المجتمع. وبعد أن تفرغا من قراءة هذا الكتاب ستصبحان عضوين عاملين في «الإخوة»، ولكنكما لن تعلما شيئًا عن الأهداف العامة التي نقاتل من أجلها، ولا عن المهام العاجلة التي تتطلبها الظروف. إنني أؤكد لكما أن «الإخوة» موجودة، ولكنني لا أستطيع أن أقول لكما إن كان أعضاؤها بالمئات أو بالملايين. وأما أنتما فلن تستطيعا أن تحددا عدد «الإخوة» من تجاربكما المقبلة؛ لأن اتصالاتكما ستقتصر على ثلاثة أعضاء أو أربعة يتغيرون بين الحين والحين، فيختفي أحدهم ويحل محله آخر، وما دمت أنا الشخص الأول في سلسلة اتصالاتكما، فإنكما ستتلقيان الأوامر مني، فإذا تبين لي أنه من الضروري أن أتصل بكما فسيكون ذلك عن طريق مارتن، أما إذا قدر لكما الاعتقال في النهاية، فسوف تعترفان لأن ذلك هو الأمر الوحيد الذي لا يمكن تجنبه، ولكن اعترافكما لن يتضمن إلا أعمالكما، ولن يكون في استطاعتكما أن تشيا إلا بعدد محدود من الأشخاص الذين لا أهمية لهم، ولعلكما لن تستطيعا خيانتي لأنني قد أكون ميتًا وقتذاك أو قد أصبح شخصًا آخر بوجه آخر.

واستمر أوبرين يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فوق السجادة الناعمة، ورغم ضخامة جسمه كانت خطواته رشيقة، وكان وجهه يوحي بالثقة وشدة الذكاء والفهم المقترن بالتهكم. وعندما كان يتحدث عن القتل والانتحار والأمراض التناسلية والأعضاء المبتورة والوجوه المغيرة كانت لهجته تنم عن بعض السخرية، وكأن صوته يقول: «إن هذه أمور لا مفر منها ولا مناص لنا من إتيانها بدون أن يختلج هدب من أهدابنا، ولكنها ليست الأعمال التي

سنتعلمها عندما تصبح الحياة خليقة بالبقاء».. وشعر ونستون بموجة من الإعجاب تنبثق منه متجهة نحو أوبرين، فنسي كل شيء عن جولد شتاين، ورأى في أوبرين شخصًا لا يمكن أن يقهر، فهو كفء لكل عمل استراتيجي، وهو قادر على التنبؤ بكل خطر. حتى جوليا تأثرت بشخصيته الجبارة، فتركت لفافتها تنطفئ واستغرقت في الاستماع إليه.

ومضى أوبرين يقول: لا نزاع في أنكما سمعتما شائعات عن وجود «الإخوة»، ولا شك في أنكما كونتما صورة ذهنية لها، ولعلكما تصورتما أنها عالم سري ضخم يعيش فيه المتآمرون ويعقدون اجتماعات سرية في أقبية، ويكتبون رسائل على الجدران، ويتعرفون على بعضهم بعضًا بكلمات سرية ورموز أو بإشارات خاصة من اليد، ولكن اعلما أنه ليس هناك شيء من ذلك، فأعضاء «الإخوة» لا مجال لديهم البتة للتعرف على بعضهم بعضًا، ومن المستحيل أن تعرف شخصية أي عضو إلا لعدد محدود جدًّا من الأعضاء الآخرين.. حتى جولد شتاين نفسه لو وقع في قبضة شرطة الفكر، لما استطاع أن يقدم لهم قائمة كاملة بأسماء الأعضاء، أو أية معلومات تؤدي إلى معرفة الأسماء كلها، إذ لا وجود لمثل هذه القائمة، ولن يستطيع الحزب استئصال شأفة «الإخوة»؛ لأنها ليست منظمة بالمعنى المفهوم، ولا يجمع بين أعضائها غير فكرة لا يمكن القضاء عليها، فليس من رابط بينكما وبين «الإخوة» إلا الفكرة، ولن تجدا رفيقًا يساعدكما أو يرفه عنكما ويشجعكما، وعندما يلقى القبض عليكما في النهاية، فلن يمد أحد لكما يد المعونة؛ لأننا لا نساعد الأعضاء مطلقًا، وعندما يتبين لنا أن الضرورة القصوى تدعو إلى إسكات أحد الأعضاء الذين يلقى القبض عليهم فإننا ننجح عادة في إدخال «شفرة حلاقة» إلى زنزانة السجين. إن عليكما أن تتعودا على الحياة بلا أمل، وبدون ترقب أية نتائج لأنكما ستعملان ردحًا من الزمن، ثم يلقى القبض عليكما، فتعترفان وبعدئذ تموتان، وتلك هي النتائج الوحيدة التي ستشاهدانها؛ لأنه ليس من المستطاع أن يحدث تغيير محسوس خلال أيام حياتنا قصيرة الأمد، فنحن والحالة هذه قد أصبحنا من الأموات، أما حياتنا الحقة فتوجد في المستقبل، وسوف نشترك في حياة المستقبل كذرات من الغبار وقطع من العظام، وليس هناك سبيل يمكننا من معرفة مدى بعد هذا المستقبل، فقد يأتي بعد آلاف السنين. ومن ثم فإن من واجبنا أن نعمل على نشر فكرتنا في الوقت الحاضر، ولكننا لن نستطيع العمل معًا كمجموعة، فعلينا أن ننشر فكرتنا من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، فذلك هو السبيل الوحيد، ومع أنه شاق وطويل المدى إلا أنه آمن الطرق؛ ما دامت شرطة الفكر تسد المنافذ في وجوهنا.

وتوقف أوبرين عن متابعة الحديث، وتطلع إلى ساعته للمرة الثالثة، ثم قال لجوليا:

- لقد حان موعد انصرافك أيتها الرفيقة، لكن مهلًا لحظة ريثما تجرعين ما تبقى في كأسك، فما زالت الزجاجة ممتلئة حتى نصفها.

وملأ الكؤوس الأربع، ورفع كأسه وهو يقول: نخب من سنشرب هذه المرة؟

ومضى يقول متهكمًا، لنشرب نخب الفوضى التي ستسود شرطة الفكر، ونخب موت الأخ الأكبر، ونخب الإنسانية، بل نخب المستقبل.

فقال ونستون: بل نخب الماضي.

وأمن أوبرين على هذا الرأي وقال: إن الماضي أهم من كل ما ذكرت.

وبعد أن فرغوا من احتساء ما في كؤوسهم، نهضت جوليا وهمت بالانصراف، ولكن أوبرين استوقفها وقدم لها قرصًا أبيض اللون، وطلب منها أن تضعه في فمها وهو يقول:

- من الضروري ألا تخرجي من هنا ورائحة الخمر تفوح من فمك؛ لأن عمال المصعد

شديدو الملاحظة.

وإذ غادرت الفتاة الغرفة وأغلقت الباب خلفها، بدا كأن أوبرين قد نسي كل شيء عنها. ولم يلبث أن استأنف السير في الغرفة، ولكنه سرعان ما توقف وانثنى إلى ونستون قائلًا:

- توجد بعض تفصيلات يجب أن نتفق عليها.. أعتقد بأن لديك مخبأ؟

وحدثه ونستون بكل شيء عن الغرفة التي استأجرها فوق حانوت شارنجتون.

فقال أوبرين: إنها تكفي لفترة من الزمن، ولكننا سنعد لك مخبأ آخر فيما بعد؛ لأنه من الضروري أن يغير المخبأ باستمرار، وسأرسل لك نسخة من كتاب جولد شتاين حالما يتيسر لي ذلك، وقد تمضي عدة أيام قبل أن أتمكن من الحصول على هذه النسخة؛ لأن ما تبقى من نسخ هذا الكتاب قليل جدًّا، إذ إن شرطة الفكر يسعون وراءها وكلما ظفروا بنسخة أحرقوها.. دعهم يفعلون ما يريدون، فإن مادة الكتاب لا تفنى، وحتى إذا أحرقت آخر نسخة من الكتاب، إن في وسعنا أن نعيد طباعته كلمة فكلمة.. هل تحمل حقيبة إلى مكان عملك؟

فأجاب ونستون: نعم.. في أكثر الأحايين.

- وما شكلها؟

- سوداء يحيط بها حزامان، وهي عتيقة جدًّا.

- حسنًا.. ستجد بين رسائلك ذات صباح، وإن كنت لا أستطيع التحديد، رسالة مني تشتمل على خطأ مطبعي، فعليك أن تطالب بنسخة أخرى منها. وفي اليوم التالي اذهب إلى عملك بغير أن تحمل الحقيبة، وفي وقت ما خلال النهار، وأثناء سيرك في الطريق، سيلمس رجل ذراعك ويقول لك: أظن أن حقيبتك سقطت منك، ويقدم لك حقيبة تحتوي على كتاب جولد شتاين لتقرأه وتعيده خلال أسبوعين.

وساد الصمت بينهما لحظة، وأخيرًا قال أوبرين:

- ما زالت أمامك دقيقتان قبل أن تنصرف من هنا، وسوف نلتقي مرة أخرى.. أما إذا لم نتقابل ثانية....

فتطلع ونستون إليه وقال مترددًا: في ذلك المكان حيث لا يوجد ظلام.

وأومأ أوبرين برأسه بغير أن تبدو عليه علامات الدهشة، وردد قول ونستون:

- في المكان الذي لا يوجد به ظلام.

نطق أوبرين بهذه العبارة وكأنما أدرك مرماها، ثم أردف قائلًا:

- هل لديك ما تريد أن تقوله قبل أن تنصرف؟ أية رسالة؟ أي سؤال؟

وفكر ونستون لحظة، ولكنه سرعان ما أدرك أنه لا يوجد لديه أي سؤال آخر يلقيه، كما أنه لم يكن يشعر بأية رغبة في أن يعالج موضوعات عامة. ولم يخطر بباله شيء ما عن الإخوة. وإنما تراءت له صورة أخرى لغرفة النوم المعتمة التي عاشت فيها أمه في أيامها الأخيرة، والغرفة الصغيرة الكائنة أعلى حانوت مستر شارنجتون وثقل الورق الزجاجي، والإطار المصنوع من خشب الورد، ومن ثم قال دون تفكير:

هل سبق أن سمعت القصيدة التي مطلعها: «تقول أجراس سانت كليمانت: برتقال - وليمون؟».

فأوما أوبرين برأسه مرة أخرى، وقال يكمل المقطع في لهجة جدية:

«تقول أجراس سانت كليمانت: برتقال وليمون».

«فتقول أجراس سانت مارتن: إنك مدينة لي بثلاث قطع نقود».

«فتقول أجراس أولد بايلي: فمتى ستدفعين لي؟».

«فتقول أجراس شورديتش: عندما أصبح ثرية».

فقال ونستون: إنك تعرف السطر الأخير!

نعم أعرفه. والآن لقد حان وقت رحيلك، والأفضل أن تأخذ قرصًا لتزيل رائحة - النبيذ.

وعندما نهض ونستون بسط أوبرين له راحته، ولكن ما كاد ونستون يصافحه حتى شعر وكأن عظام كفه قد تهشمت.

ولما وصل ونستون إلى الباب تطلع وراءه، وفي التو خيل إليه أن أوبرين يحاول أن يبعده عن أفكاره، وكان أوبرين يترقب انصرافه ويده فوق زر الستار الناقل، ومن ورائه، رأى ونستون المكتب وفوقه المصباح والسلة المصنوعة من السلك والمحملة بالأوراق. وهكذا انتهى اللقاء، وأدرك ونستون أن أوبرين لن يلبث- بعد ثلاثين ثانية- أن يعود إلى ذلك العمل المهم لمصلحة الحزب، ذلك العمل الذي قطعته زيارته.

الفصل التاسع

شعر ونستون بإعياء ما بعده إعياء بعد خمسة أيام من العمل المتواصل، قضى خلالها تسعين ساعة وهو يعمل جادًا، وكان ذلك حال كل شخص آخر في الوزارة، ولكن هذا العمل انتهى الآن ولم يعد أمامه ما يؤديه للحزب حتى صباح اليوم التالي، ومن ثم فإن في استطاعته أن يقضي ست ساعات في مخبأه وتسع في فراشه..

وبعد ظهر ذلك اليوم الصحو، غادر ونستون منزله وانطلق يسير في شارع قذر يؤدي إلى مخزن مستر شارنجتون، وكان لا يفتأ يتلفت حوله ويراقب مرور «الداوريات» رغم أنه كان واثقًا من أن أحدًا لن يعترض سبيله في ذلك اليوم. وكان يحمل حقيبة ثقيلة تحتوي على كتاب جولد شتاين الذي كان قد تسلمه منذ ستة أيام، ولم يستطع أن يفتحه أو حتى يتطلع إليه.

ففي اليوم السادس من أسبوع الحقد، وبعد سلسلة طويلة من المواكب والخطب والصراخ والغناء واستعراض الأعلام ولصق الصور ومشاهدة الأفلام وقرع الطبول ونفخ الأبواق وسير الجند وضجيج الدبابات وأزيز الطائرات وإطلاق الرصاص وصوت قنابل المدفعية، بعد ستة أيام من هذه المشاهد، بلغ الحقد على أوراسيا «Eurasia» درجة الغليان، وغدت الجماهير في حالة غيبوبة تامة بحيث لو استطاعت الظفر بالألفي مجرم حرب من الأوراسيين الذين كانوا سيعدمون علنًا في آخر يوم من أيام الأسبوع، لو وقع هؤلاء في قبضة الجماهير لمزقتهم إربًا إربًا، لكن حدث في تلك اللحظة الحاسمة أن أعلن أن أوشانيا «Oceania» لم تكن في حرب مع أوراسيا، وأنها تحارب استاسيا «Eastasia» وأن حليفتها هي أوراسيا.

بالطبع، إن الحزب لم يعترف بأن تغييرًا ما قد حدث، وكل ما عرفه الناس فجأة وفي كل مكان هو أن استاسيا وليس أوراسيا هو العدو.. وكان ونستون يشترك في مظاهرة بإحدى ميادين لندن الوسطى في اللحظة التي أعلن فيها هذا النبأ، وكان ذلك أثناء الليل والأنوار الكاشفة تملأ المكان والساحة تعج بآلاف الناس، ومن بينهم عدد كبير جدًا من تلاميذ وتلميذات المدارس يرتدون زي الجواسيس، وفي ركن من الساحة كان أحد أعضاء الحزب الداخلي يخطب في الجمهور، وكانت مكبرات الصوت تنقل كلماته إلى الجماهير، وهو يحمل حملة شعواء على العدو ويتهمه بالفظائع والمذابح وترحيل السكان والسلب والنهب وانتهاك الأعراض وتعذيب الأسرى وإلقاء القنابل على المدنيين ونشر الدعايات الكاذبة والاعتداء وخرق المعاهدات، ولم يكن في استطاعة أي إنسان يسمع الخطيب وهو يتكلم بلهجته المؤثرة إلا أن يصدقه ويقتنع بكلامه، ومن ثم يطير صوابه... وكانت الجماهير تصرخ بين كل آونة وأخرى هائجة مائجة، ولعل أقوى الصيحات والصرخات كانت تصدر عن طلاب المدارس، وبعد عشرين دقيقة من بدء الخطاب شوهد رسول يسرع إلى المنصة ويدس قصاصة ورق في يد الخطيب، فألقى الأخير نظرة سريعة عليها وقرأها بغير أن يتوقف عن الخطابة، ولم يطرأ أي تغيير على صوته أو وضعه أو محتويات خطابه، ولكن الأسماء تغيرت بغتة، وسرعان ما فهم الجمهور كنه ما حدث وأدرك، ويا له من إدراك، إن أوشانيا كانت في حرب مع استاسيا. وحدث هرج ومرج وبدأ الناس يتهامسون قائلين إن الأعلام والصور المعلقة في الساحة كانت مغلوطة وصاح أحدهم: «إن هذا ضرب من الأعمال الهدامة!».. وقال آخر: «يبدو أن عملاء جولد شتاين نشطون!». وتسلق الجواسيس الأسطح وشرعوا يمزقون الأعلام المثبتة فوق المداخن.

وبدأت الجماهير تمزق الصور واللافتات والأعلام وتطأها بأقدامها، وبعد دقيقتين أو ثلاث انتهى كل شيء، وكان الخطيب لا يزال يقف أمام المذياع ويتابع خطابه، وبعد دقيقة

أخرى صاحت الجماهير معبرة عن حقدها وغضبها كما فعلت في الماضي، مع فارق واحد هو أن هدفها الحالي لم يعد هدفها السابق.

وفي اللحظة التي عمت فيها الفوضى، وبينما كانت الجماهير تمزق الأعلام والصور واللافتات، شعر ونستون بيد رجل لم ير وجهه تلمس كتفه، وسمع صوتًا يقول: «عفوًا، أعتقد أن حقيبتك سقطت منك».. فتناول الحقيبة من يد الرجل دون أن ينبس ببنت شفة، وأدرك أنه سوف تنقضي أيام قبل أن تتاح له فرصة فحص ما بداخل الحقيبة.. وبعد أن انتهت المظاهرة عاد رأسًا إلى وزارة الصدق، مع أن الساعة كانت قد اقتربت من الحادية عشرة ليلًا، وكذلك فعل جميع موظفي الوزارة إطاعة للأوامر التي صدرت لهم بواسطة الستار الناقل رغم أن مثل هذا النداء لم يكن ضروريًا.

وقد تكهن ونستون بالسبب الذي استدعى من أجله للعمل في هذه الساعة المتأخرة من الليل: إن أوشانيا مشتبكة في حرب مع استاسيا، وأوشانيا كانت دائمًا، وما تزال، في حرب مع استاسيا. ومعنى ذلك أن جزءًا كبيرًا من المطبوعات السياسية التي وضعت خلال السنوات الخمس الأخيرة يجب أن يغير؛ نظرًا لأنه أصبح غير ذي موضوع، وكان على موظفي وزارة الصدق أن يبادروا بتنقيح التقارير والسجلات المختلفة والصحف والكتب والنشرات والأفلام والإذاعات المسجلة والصور. ورغم أنه لم تصدر لموظفي الوزارة أية تعليمات، إلا أنهم كانوا يعلمون أن الرؤساء بالوزارة يعتزمون القضاء على كل إشارة إلى الحرب مع أوراسيا أو التحالف مع استاسيا، ولهذا كانت أمامهم مهمة ضخمة، مما جعل كل موظف في إدارة السجلات يعمل ثمانية عشرة ساعة في كل يوم ولا ينام أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات. وقد جاءت الوزارة بالخدم والطهاة إلى مقر الوزارة وصدرت لهم الأوامر بتقديم الطعام إلى الموظفين وهم في مكاتبهم. وبذل ونستون المستحيل لينتهي من كل عمل في حينه قبل أن ينال قسطًا من الراحة، ولكنه كان لا يلبث أن يرى مكتبه وقد تكدست فوقه الأوراق. ولم يكن العمل آليًا، فقد كان يتطلب في بعض الأحايين مجهودًا شاقًا وعناية وتفكيرًا.. فالمعلومات الجغرافية التي يحتاج إليها الإنسان لنقل الحرب من جزء من العالم إلى جزء آخر كانت تتطلب عملًا ضخمًا جبارًا.

ولم يأت اليوم الثالث حتى بدأت عيناه تؤلمانه أشد الألم، كما أنه كان مضطرًا إلى تنظيف عويناته كل خمس دقائق.. كان العمل شبيهًا بصراع الجبابرة، ومع أن كل كلمة كان ينطق بها أو يمليها كانت كذبًا متعمدًا فإن ذلك لم يؤلمه أو يزعجه؛ لأن كل اهتمامه كان منصرفًا- ومثله في ذلك مثل بقية الموظفين- إلى أن يكون التزوير تامًا. وفي اليوم السادس هدأ دولاب العمل وتنفس الموظفون الصعداء.. كيف لا وقد أتموا عملًا جبارًا لا يمكنهم ذكر شيء عنه.. لقد أصبح من المستحيل على أي إنسان أن يبرهن بوثائق أو بمستندات على أن أوشانيا قد اشتبكت في حرب مع أوراسيا في أي وقت من الأوقات. وما كادت الساعة تبلغ الثانية عشرة، حتى أعلن على غير انتظار أن في استطاعة جميع موظفي الوزارة أن يتغيبوا عن العمل حتى صباح اليوم التالي. فحمل ونستون حقيبته المحتوية على الكتاب والتي كان يحرص على أن يضعها بين رجليه أثناء العمل وتحت جسده أثناء النوم، ومضى إلى منزله، وهناك حلق ذقنه، ثم عاد إلى غرفته واسترخى قليلًا فوق مقعده، وبعدئذ قرر الذهاب إلى مخبأه.

ولما وصل إلى غرفته أعلى حانوت شارنجتون أحس بإعياء شديد، ولكنه لم يشعر بأية رغبة في النوم، ففتح النافذة ووضع غلاية القهوة على النار، وبدأ ينتظر قدوم جوليا. ثم تذكر الكتاب، ففتح الحقيبة وأخرجه منها.. كان مجلدًا ثقيلًا له غلاف أسود اللون، ولكنه لا يحمل عنوانًا أو اسمًا، وحتى طباعته كانت غير عادية. ولما فتحه تبين له أنه قديم جدًا وأن أيدي كثيرة تداولته. وفي الصفحة الأولى قرأ عنوان الكتاب، وكان كما يلي:

حكم الأقلية الجماعي نظريته وتطبيقه بقلم إيمانوئيل جولدشتاين وبدأ ونستون يقرأ:

الفصل الأول «الجهل هو القوة» منذ أول الأزمنة التاريخية المعروفة، ويحتمل منذ نهاية العصر الحجري الأخير، كان هناك ثلاثة أنواع من الناس، أو بعبارة أخرى ثلاث طبقات من الناس: العليا والمتوسطة والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات إلى طبقات فرعية جديدة خلال العصور، وحملت هذه الطبقات الجديدة أسماء مختلفة لا عد لها ولا حصر، وقد اختلف تعداد هذه الطبقات نسبيًّا من عصر لآخر، كما اختلف موقفها، إحداها عن الأخرى، ولكن البنيان الأساسي للمجتمع لم يتغير، وحتى بعد حدوث انقلابات عنيفة وتغييرات كانت تبدو نهائية، فإن الطابع نفسه كان دائمًا يعود فيؤكد توازنه.

أما أهداف هذه الطبقات الثلاث فلم يكن في المستطاع التوفيق بينها....

وتوقف ونستون عن القراءة ريثما تختمر في ذهنه فكرة أنه يقرأ فعلًا وهو مرتاح، هادئ البال، آمن على نفسه.. لقد كان وحيدًا في الغرفة، ولم يكن أمامه ستار ناقل يتجسس ويتلصص عليه، ولا أذن تسترق السمع من وراء الباب، وكان هواء الصيف يهب عليلًا ويداعب وجنتيه، ومن مكان بعيد كان يسمع أصواتًا خافتة لأطفال يلعبون ويمرحون. أما في الغرفة نفسها فلم يكن هناك صوت اللهم إلا صوت دقات الساعة.. واسترخى ونستون في مقعده، وقد استولى عليه سرور ما بعده سرور وكأنه يعيش في جنات الخلد.. وكما يفعل الإنسان بكتاب يعرف أنه سيقرأه حتمًا ويعيد قراءة كل كلمة فيه، راح ونستون يقلب عددًا من صفحات الكتاب دون أن يقرأها حتى بلغ الفصل الثالث فمضى يقرأ:

الفصل الثاني «الحرب هي السلم» إن تقسيم العالم إلى ثلاث دول عظمى حدث تنبأ به الناس قبل منتصف القرن العشرين.. فبعد أن التهمت روسيا أوروبا، والتهمت الولايات المتحدة الإمبراطورية البريطانية، أصبحت دولتان عظميان من الدول التي أشرنا إليها موجودتين فعلًا، هما أوراسيا وأوشانيا، أما الدولة الثالثة وهي استاسيا فلم تظهر إلى عالم الوجود كوحدة منفصلة واضحة المعالم والحدود إلا بعد عقد آخر من الزمن تميز بقتال مضطرب.. وأما الحدود التي تفصل بين الدول الثلاث العظمى فهي في بعض الأمكنة عرفية، وفي البعض الآخر تمتد وتتقلص تبعًا لسير الحرب، إلا أنها تتبع خطوطًا جغرافية من الناحية العامة، وتتألف دولة أوراسيا من تلك المساحة الشاسعة من الأرض الممتدة من شمالي أوروبا وآسيا ومن البرتغال إلى مضيق بيرنج، وأما أوشانيا فتتألف من الأمريكتين والجزر الواقعة في المحيط الأطلنطي ومن بينها الجزر البريطانية وأستراليا والأجزاء الجنوبية من أفريقيا. ومساحة استاسيا أصغر من مساحة الدولتين الأخريين وحدودها الغربية مائعة وأقل تحديدًا وتتألف من الصين والبلاد الواقعة جنوبها ومن جزر اليابان وجزء كبير من منشوريا ومنغوليا والتبت يتقلص وينبسط تبعًا لتطورات الحرب.

ولقد كانت هذه الدول الثلاث في حرب مستمرة إحداها مع الأخرى. فمرة تتحالف أوشانيا مع استاسيا ضد أوراسيا، ومرة أخرى يعكس الترتيب، وخلال الخمسة والعشرين عامًا الماضية لم تقف رحى الحرب التي لم تعد نضالًا لا يبقي ولا يذر كما كان الحال في العقود الأولى من القرن العشرين، وإنما أضحت قتالًا له أهداف محدودة بين متنافستين لا تستطيع إحداهما تدمير الأخرى، مع أنه ليس هناك سبب مادي للقتال، كما أنه ليس هناك خلاف جوهري في مثلهما العليا. ولسنا نعني بذلك أن سير الحرب أو النظرة العامة إليها قد أصبحت أقل تعطشًا إلى سفك الدماء أو أكثر فروسية، بل بالعكس، أصبحت هيستيريا الحرب متفشية في جميع البلاد، وأصبح الناس ينظرون إلى اغتصاب غيرهم والسلب والنهب وذبح الأطفال والهبوط بجميع سكان الدولة المغلوبة على أمرها إلى مستوى العبيد، والانتقام من الأسرى بمختلف الوسائل التي تبلغ في فظاعتها حد غليهم في الماء الساخن وحرقهم أحياء، أصبحوا ينظرون إليها وكأنها أعمال تستحق الثناء بدلًا من الاستنكار

الصارخ، إلا أن الحرب أصبحت، من ناحية أخرى، لا تشمل إلا عددًا قليلًا من الناس أكثرهم من الأخصائيين المدربين تدريبًا عاليًا، ولا تسبب إلا إصابات قليلة نسبيًا، وعندما تنشب الحرب تكون ساحتها الحدود الغامضة التي لا يعرفها الرجل العادي إلا عن طريق التكهن والتخمين، أو حول القلاع العائمة التي تحرس البقاع الاستراتيجية عند مداخل البحار ومخارجها، أما في مراكز الحضارة فالحرب لا تعني أكثر من نقص مستمر في السلع الاستهلاكية وسقوط قنبلة صاروخية قد تودي بحياة عشرات من الناس بين كل آونة وأخرى، ولا نحسبنا مغالين إذا قلنا إن طبيعة الحرب قد تغيرت، وبعبارة أصح، إن الأسباب التي تشن الحرب من أجلها قد تغير ترتيب أهميتها، فالدوافع التي كانت تظهر ظهورًا ضئيلًا في الحروب العظمى التي دارت رحاها في أوائل القرن العشرين، أصبحت هي الدوافع المسيطرة في الوقت الحاضر، وأصبح الناس يعترفون بها حافزًا على الحرب.

وكانت جميع المناطق المتنازع عليها غنية بالمعادن وبعضها غني بالمطاط الطبيعي الذي تضطر الدول التي في الأجواء الباردة إلى إنتاجه بطريقة صناعية باهظة التكاليف. وفوق ذلك كله فإن هذه المناطق تملك احتياطيًا لا ينضب معينه من الأيدي العاملة رخيصة الأجور، ولذلك فإن أية دولة تسيطر على آسيا الاستوائية وبلدان الشرق الأوسط وجنوب الهند أو الجزر الإندونيسية تستطيع احتلال مناطق أخرى والسيطرة على أيد عاملة جديدة، وهكذا دواليك. وجدير بالملاحظة أن القتال لم يتعد أطراف المناطق المتنازع عليها، ولذلك كانت حدود أوراسيا تمتد وتتقلص بين حوض الكونغو والساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط.

أما جزر المحيط الهندي والمحيط الهادي فكانت دائمًا موضع قتال، فآنًا تحتلها أوشانيا وآنًا آخر تنتزعها استاسيا، وفي منغوليا كان الحد الفاصل بين أوراسيا واستاسيا غير مستقر، كما كانت الدول الكبرى الثلاث تدعي ملكية مناطق واسعة حول القطب لا يسكنها أحد ولم تكتشف بعد، ومع هذا كله فقد كانت موازين قوى الدول الثلاث تكاد تكون متساوية دائمًا، وكانت المناطق التي تؤلف قلب كل منها بمثابة حرم لا يخرق، أضف إلى ذلك أن القوة العاملة للشعوب المستغلة حول خط الاستواء ليست ضرورية فعلًا لاقتصاد العالم، إذ إنها لا تزيد شيئًا إلى ثروة العالم، ما دام إنتاج الأيدي العاملة هذه يستخدم لأغراض حربية،وما دام الهدف من إعلان الحرب كان دائمًا أن تصبح الدولة التي تعلن الحرب في وضع أفضل لإشعال نار الحرب ثانية.

وإذا أردت أن تفهم طبيعة الحرب في الوقت الحاضر- والتي رغم اختلاف الحلفاء والأعداء في كل حرب منها فإنها جميعًا متشابهة- فيجب أن تدرك أنه من المستحيل أن تكون هناك حرب حاسمة، ولن يستطيع أي تحالف بين دولتين من الدول العظمى أن يؤدي إلى قهر الدولة الثالثة واحتلالها نهائيًا؛ لأن هذه الدول الثلاث متكافئة القوة. كما أن صروح الدفاع الطبيعية التي تحميها من الغزو قوية راسخة كالجبال، فأوراسيا تحميها سهولها الواسعة، وأوشانيا يحميها اتساع المحيطين الأطلنطي والهادي، واستاسيا يحميها تناسل سكانها ودأبهم على العمل. وأهم من ذلك كله أنه ليس هناك شيء مادي يستحق أن تشن الحرب من أجله، فبعد أن توطدت قواعد مبدأ اقتصاديات الاكتفاء الذاتي، انتهى النضال في سبيل الوصول إلى الأسواق التجارية العالمية والسيطرة عليها، وهو السبب الأساسي الذي كانت الحروب تنشب من أجله في الماضي، كما أن التنافس على المواد الأولية لم يعد مسألة حياة أو موت؛ لأن كل دولة من الدول الكبرى تسيطر على مساحات شاسعة من الأرض، بحيث يتيسر لها الحصول على جميع المواد الخام التي تحتاج إليها من الأراضي الواقعة بداخل حدودها، وإذا كان للحرب الحديثة أي سبب اقتصادي مباشر فهو التنافس على الأيدي العاملة، فبين حدود الدول الثلاث تقع منطقة مربعة تمتد من طنجة إلى برازافيل ومن داروين إلى هونج كونج تتبادلها الدول العظمى بين آونة وأخرى، ولكن

إحداها لم تستطع السيطرة عليها دائمًا، وهذه المنطقة يقطنها ما يقرب من خمس سكان العالم، ولقد ظلت الدول الثلاث في حرب دائمة سبب رغبتها في احتلال هذه المنطقة المكتظة بالسكان، ولكن الواقع أن إحدى هذه الدول لم تستطع في أي وقت من الأوقات السيطرة على المنطقة المتنازع عليها، وإنما كانت تقتطع منها أجزاء تسيطر عليها إحدى الدول الثلاث ثم لا تلبث أن تنتزعها دولة أخرى منها بطريق الغدر، أي بالتحالف مع عدوتها الأخرى.

وهكذا ترى أن الشعوب المغلوبة على أمرها كانت كوقود للحرب، وأن وجودها لم يغير في شيء في كيان المجتمع العالمي وعملية الإبقاء عليه.

والهدف الأول للحرب الحديثة (بموجب مبادئ التفكير المزدوج، وهو هدف تعترف به الرؤوس الموجهة في الحزب الداخلي ولا تعترف به في الوقت نفسه) هو الانتفاع من إنتاج الآلة بدون رفع المستوى العام للمعيشة. ومنذ نهاية القرن التاسع ومشكلة التخلص من فائض السلع الاستهلاكية كامنة في المجتمع الصناعي، ولكنها كانت خاملة، أما في الوقت الحاضر حيث ينال قلة من الناس كفايتهم من الطعام، فإن المشكلة لا تعتبر مشكلة عاجلة، ولكنها قد تصبح كذلك حتى ولو لم تكن العمليات الصناعية للتدمير قائمة على قدم وساق. وإذا قارنا عالم اليوم بعالم ما قبل عام 1914 لرأيناه عاريًا جائعًا متهدمًا، وأما إذا قارناه بالمستقبل الخيالي الذي كان الناس يتطلعون إليه قبل عام 1914 لرأيناه أشد حلكة وتعاسة، ففي أوائل القرن العشرين كان كل فرد يعرف القراءة والكتابة يشعر بأن عالم الغد ومجتمع المستقبل سيكون رائعًا منظمًا، بل سيكون عالمًا نظيفًا طاهرًا من الزجاج والفولاذ والأسمنت الأبيض الذي لا ينفذ إليه العفن ولا يتعرض للدمار، فقد كانت العلوم تتقدم بسرعة لا تكاد تصدق، وكان من الطبيعي أن يتوقع الناس استمرار هذا التقدم، ولكن خابت ظنونهم بسبب الخراب والدمار الذي خلفته وراءها سلسلة من الحروب والثورات، ولأن التقدم الصناعي والغنى يعتمدان على التجارب التي هي وليدة الفكر الذي لا مجال له في مجتمع آلي مجند.

ونستطيع القول إن عالم اليوم أكثر بدائية بصفة عامة مما كان عليه العالم منذ خمسين عامًا.

لقد تقدمت بعض المناطق المتأخرة واخترعت بعض الأجهزة والآلات وثيقة الصلة بالحرب وتجسس الشرطة، إلا أن التجارب والاختراع قد وقفت وبقي الدمار والخراب الذي خلفته الحرب الذرية التي دارت رحاها في السنوات الخمسينية... إن الأخطار المتأصلة في الآلة ما زالت قائمة، فعندما ظهرت الآلة لأول مرة في عالم الوجود اتضح لكل ذي عينين أن الحاجة إلى استعباد بني الإنسان وإلى إيجاد مبدأ عدم المساواة قد ذهبت إلى غير رجعة، ولو استخدمت الآلة بعناية وحرص لتحقيق هذه الغاية لاستؤصلت شأفة الجوع والتعب والقذارة والأمية والأمراض خلال أجيال قليلة، وفي الواقع إن الآلة- رغم أنها لم تستخدم لتحقيق مثل هذه الغاية، وإنما استعملت بطريقة أوتوماتيكية تقوم على أساس خلق ثروات يستحيل أن تبقى مكدسة بغير توزيع- قد أدت إلى رفع مستوى معيشة الإنسان العادي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

بيد أنه من الجلي أن زيادة الثروات زيادة شاملة كانت تهدد بل بالأحرى كانت تنطوي على تحطيم مجتمع تحكمه الأقلية المقدسة، ففي عالم يشتغل كل إنسان فيه ساعات قليلة، ويحصل على ما يكفيه من الطعام، ويعيش في منزل يحتوي على حمام وسخان كهربائي، ويملك السيارة وحتى طائرة، تنتفي منه أسباب عدم المساواة بين الناس، وإذا عم ذلك جميع الناس في جميع الدول تصبح الثروة معدومة الجدوى في التفرقة بين الناس، ومما لا ريب فيه أننا نستطيع أن نتخيل مجتمعًا توزع فيه الثروة مع مرور الزمن بينما

تبقى القوة في أيدي أقلية تؤلف طبقة ذات امتيازات، بيد أن أمور مثل هذا المجتمع لا يمكن أن تستقر طويلًا في عالم الواقع؛ لأنه إذا تمتع جميع أفراد المجتمع، وعلى قدم المساواة، بأوقات الفراغ والضمان الاجتماعي، فإن جمهرة البشر، التي يجعلها النفر وكأنها لا حراك بها، سيتاح لها مجال التعلم، وعندئذ تصبح قادرة على التفكير لنفسها بنفسها، وإذا تسنى لها ذلك، فإنها سرعان ما تدرك- إن عاجلًا أو آجلًا- أن الأقلية من أصحاب الامتيازات لا عمل لها، وعندئذ تجتاحها وتزيلها من عالم الوجود، وبمرور الزمن يصبح المجتمع الوراثي ممكن الوجود على أساس الفقر والجهل، أما العودة إلى الماضي الزراعي، كما حكم بذلك بعض مفكري أوائل القرن العشرين، فليست حلًّا عمليًا؛ لأنها تتعارض مع الميل إلى استخدام الآلة على نطاق واسع بعد أن أصبح الجيل الحالي يستعمل الآلة استعمالًا أقرب إلى الاستعمال الغريزي في جميع أنحاء العالم تقريبًا، أضف إلى ذلك أن أي بلد متخلف صناعيًا يعتبر ضعيفًا في الناحية العسكرية، ومعرضًا لسيطرة البلاد الراقية بطريق مباشر أو غير مباشر.

وإذا أردنا أن نبقي الفقر مخيمًا على رؤوس جمهرة الناس بتحديد إنتاج السلع، فإن هذا الحل غير مرضٍ أيضًا، وقد حدث ذلك إلى حد كبير خلال الطور الأخير للرأسمالية بين عامي 1920 و1940، فقد ركدت اقتصاديات بلاد عديدة فأصبحت كالماء الآسن وتركت مساحات واسعة من الأرض بغير استغلال، ولم تستثمر أموال جديدة في المصانع، ومنع عدد غفير من الناس من العمل، وتركوا ليعيشوا على صدقات الدولة، ولكن ذلك أدى أيضًا إلى ضعف عسكري وإلى ظهور معارضة شديدة بين صفوف الشعب، والمشكلة التي نحن بصددها هي كيف نستطيع أن نبقي دولاب الصناعة دائرًا بغير أن تزيد الثروة الفعلية للعالم، فالسلع يجب أن يستمر إنتاجها إلا أنها يجب أن توزع أيضًا، والطريقة العملية لتحقيق هذه الغاية هي الحرب المستمرة.

إن عمل الحرب الاساسي هو الدمار، وليس من الضروري أن يحل الدمار بأرواح البشر، وإنما بإنتاج الأيدي العاملة من بني الإنسان، فالحرب أقرب طريقة من طرق تبديد وإغراق مواد من شأنها، لو لم تلق مثل هذا المصير، أن تزيد في راحة الجماهير، وبمرور الزمن تصبح هذه الجماهير أحدّ ذكاء وأكثر فهمًا لأمور العالم.

وحتى إذا لم تدمر أسلحة الحب، فإن صناعتها طريق مناسب لاستهلاك القوة العاملة بدون إنتاج شيء من السلع الصالحة للاستهلاك العادي. فإنشاء قلعة عائمة مثلًا يتطلب عملًا يكفي لبناء مئات من سفن الشحن، وهذه القلعة العائمة تصبح، مع مرور الزمن، غير صالحة للاستعمال فتحال إلى قطع صغيرة دون أن تفيد أحدًا من الناحية المادية، واستبدالها ببناء قلعة عائمة جديدة يتطلب عملًا أضخم وعددًا أكبر من الأيدي العاملة. ومن ناحية المبدأ، نستطيع أن نقول إن واضعي خطط الحرب يضعون دائمًا نصب أعينهم هدفًا محددًا هو أن تلتهم الحرب كل فائض أو احتياطي يتبقى بعد تحقيق الحد الأدنى لمطالب السكان، وما يجري فعلًا هو أن احتياجات السكان تقدر دائمًا بأقل مما يجب، وهذا يؤدي إلى نقص دائم في نصف ضرورات الحياة، ومن السياسة المقررة سياسة الإبقاء على الطوائف المحدودة المرضي عنها على مقربة من حافة العوز؛ لأن الحالة العامة لندرة السلع تزيد من أهمية الامتيازات الصغيرة التي ينعم بها هؤلاء المرضي عنهم، وبذلك تتضخم الفروق بين طائفة وأخرى. وإذا قسنا حياة عضو في الحزب الداخلي بمعايير الحياة في أوائل القرن العشرين لرأيناها قاسية صعبة مضنية، ومع ذلك فإن القليل من رغد العيش الذي يتمتع به عضو الحزب الداخلي كشقته الفسيحة الأنيقة، وثيابه المتينة الجميلة، وطعامه وشرابه وتبغه الذي يمتاز عما يناله الآخرون، وخدمه وسيارته الخاصة أو طائرة الهليكوبتر التي توضع تحت تصرفه... كل هذه تجعله وكأنه يعيش في عالم يختلف عن العالم الذي يعيش فيه عضو الحزب الخارجي، الذي يمكن أن يقال إنه يتمتع بامتيازات، إذا

قارنا حياته بحياة جمهرة الناس، ومن ثم فإن الجو الاجتماعي شبيه بجو مدينة محاصرة حيث تعتبر ملكية قطعة من لحم الخيل بمثابة الفرق بين الغنى والفقر، وفي الوقت نفسه فإن شعور الإنسان وإدراكه أنه يعيش في زمن الحرب محاطًا بالأخطار، يجعل تسليم زمام الأمور إلى فئة قليلة من الناس أمرًا طبيعيًا وشرطًا محتومًا للحياة.

وسنرى أن الحرب لا تحقق الدمار فحسب، وإنما تحققه أيضًا بطريقة سيكولوجية مقبولة، فمن ناحية المبدأ قد يكون من السهل جدًا استهلاك العمل الفائض في العالم ببناء الهياكل والأهرامات وحفر الخنادق ثم ملئها بالتراب، وإعادة حفرها، أو حتى بإنتاج كميات ضخمة من السلع ثم حرقها، ولكن هذا العمل يحقق الأساس الاقتصادي دون العاطفي لمجتمع تحكمه الأقلية المقدسة، والأمر الذي يهمنا هنا ليس هو الروح المعنوية للكتل البشرية التي لا أهمية لموقفها، ما دامت تعمل بلا انقطاع، وإنما الأمر الذي يهمنا هو معنويات الحزب نفسه؛ لأنه من المتوقع أن يكون أحقر وأدنى الأعضاء مرتبة في الحزب ذا كفاية دؤوبًا على العمل بل وذكيًا أيضًا في أضيق الحدود، ولكن ذلك ليس كل شيء، إذ ينبغي أن يكون أيضًا شخصًا متعصبًا لعقيدته، سريع التصديق، جاهلًا، يسيطر عليه الخوف والحقد، تقوده غريزة المراهقة والانتصار الذي لا عقل له، وبعبارة أخرى من الضروري أن تتوافر فيه الحالة العقلية المناسبة لحالة الحرب، وليس من المهم أن تكون الحرب واقعة فعلًا ما دام النصر الحاسم غير مستطاع إطلاقًا، كما أنه ليس من المهم أن يكون سير الحرب حسنًا أو سيئًا، فكل ما يتطلبه الأمر هو أن توجد حالة حرب... إن الإرهاق العقلي الذي يطالب الحزب أعضاءه به والذي يتحقق بسهولة ويسر أثناء الحرب أصبح الآن مسألة عالمية، وكلما ارتفعت مرتبة العضو في صفوف الحزب أصبحت هذه الصفة أكثر وضوحًا فيه، ولا ريب في أن حمى الحرب وكراهية العدو صفتان بارزتان قويتان في أعضاء الحزب الداخلي، ولما كان عضو الحزب الداخلي يعتبر رجلًا إداريًا فمن الضروري أن يعرف دائمًا إن كان هذا النبأ أو ذاك من أنباء الحرب كاذبًا من أساسه، كذلك فإنه كثيرًا ما يدرك أن الحرب مزيفة برمتها، أو أنها غير واقعة إطلاقًا، أو أنها أعلنت لأغراض تختلف تمامًا عن الأغراض التي أذيعت، ولكن هذه المعرفة تصبح معدومة التأثير بتطبيق فن التفكير المزدوج، وفي الوقت نفسه يجب ألا يتردد عضو الحزب الداخلي في اعتقاده الغامض بأن الحرب حقيقية وأنها ستنتهي بانتصار أوشانيا التي ستصبح حتمًا سيدة العالم برمته.

إن جميع أعضاء الحزب الداخلي يؤمنون بيوم النصر المقبل، وهم يقولون إن هذا اليوم سيأتي، إما عن طريق احتلال مساحات أوسع من الأرض تدريجيًا وبناء صرح قوة لا تقهر، أو باكتشاف سلاح جديد لا يستطيع العدو الصمود أمامه. ولذلك فإن البحث عن سلاح جديد قائم بدون توقف، كما أن هذا البحث واحد من أنواع النشاط العقلي القليلة التي بقيت والتي يجد فيها العقل المخترع المبتدع متنفسًا. لقد اختفى العلم بمعناه القديم تقريبًا من أوشانيا في الوقت الحاضر، فإن اللغة الحديثة لا تتضمن كلمة «العلم». وطريقة الفكر التجريبي التي تعتبر أساسًا لكل ما أحرزه العلم من تقدم في الماضي تتعارض مع المبادئ الأساسية للحزب الاشتراكي الإنجليزي، حتى التقدم التكنولوجي لا يحدث إلا إذا كان في الإمكان استخدام إنتاجه بطريقة أو أخرى للإقلال من حرية الإنسان، وفيما يتعلق بجميع الفنون النافعة، فإن العالم إما أن يكون قد توقف تمامًا عن كل تقدم، أو أنه يرجع القهقرى، فالحقول تزرع بمحاريث تجرها الخيل، بينما تؤلف الكتب بطريقة ميكانيكية وبواسطة الآلات، أما المسائل الحيوية المهمة- ونعني بذلك الحروب وجاسوسية الشرطة- فإن علاجها التجريبي يلقى تشجيعًا أو على الأقل تسامحًا.

والهدفان اللذان يضعهما الحزب نصب عينيه هما احتلال العالم كله واستئصال شأفة كل احتمال للتفكير المستقل، ولذلك يوجه الحزب جل اهتمامه لحل مشكلتين مهمتين: الأولى هي كيف يستطيع اكتشاف الأفكار التي تدور في ذهن الإنسان رغم إرادته، والثانية

كيف يمكن قتل عدة مئات الملايين من الناس في ثوان معدودات وبغير إنذار سابق، ولذلك اليوم لا (Scientist) كان نطاق البحث العلمي محصورًا في هاتين المشكلتين. ورجل العلم بد أن يكون مزيجًا من شخصين:

عالم سيكولوجي ومستطلع محقق يدرس بدقة خارقة معنى تعبيرات الوجه والإشارات والحركات ونبرات الصوت ويفحص نتائج العقاقير في الوصول إلى الحقيقة ونتائج العلاج الكهربائي بالهزات والتنويم المغناطيسي والتعذيب البدني، أو أنه كيميائي أو أو بيولوجي يهتم بفروع العلم التي تتعلق بمادة (Physicit) عالم من علماء الطبيعة دراسته فقط من حيث صلتها بقتل الإنسان. ففي المعامل الضخمة بوزارة السلم، وفي محطات التجارب السرية في مجاهل غابات البرازيل وفي صحراء أستراليا، وفي الجزر المجهولة في المنطقتين المتجمدتين الشمالية والجنوبية تعمل فرق من الخبراء ليل نهار بدون كلل أو ملل: بعضهم يضع خطوط الحرب القادمة وتحركات الجنود، والبعض الآخر يخترع قنابل صاروخية أكبر فأكبر وأشد انفجارًا، ودروعًا مانعة لا ينفذ منها الرصاص، أو الفولاذ، وثم فريق ثالث يبحث عن غازات جديدة سامة فتاكة أو عن سموم قابلة للذوبان يمكن إنتاجها بكميات هائلة تكفي لتدمير نباتات قارات برمتها، أو عن جراثيم أمراض لا تؤثر عليها العقاقير المبيدة للجراثيم، وبعضهم يسعى لإنتاج مركبة تشق طريقها تحت الثرى كما تسير الغواصة تحت الماء، أو يسعى لصنع طائرة تعمل مستقلة من قاعدتها كسفينة تشق عباب الماء، بينما يسبر غيرهم غور إمكانيات أبعد، كتركيز أشعة الشمس خلال عدسات مثبتة في الهواء على مسافة آلاف الكيلومترات من الأرض، أو كإثارة هزات أرضية صناعية وأمواج مدية (نسبة إلى المد والجزر) بكبح جماح حرارة مركز الأرض.

ولكن مشروعًا من هذه المشروعات لم يصل إلى نقطة قريبة من تحقيقه، ولم تتقدم إحدى الدول الكبرى الثلاث تقدمًا محسوسًا عن زميلتيها في هذا المضمار، وأدهى من ذلك وأمرّ أن كلًا من الدول الثلاث، باختراع القنبلة الذرية، قد توافر لديها سلاح أشد فتكًا من أي سلاح آخر يستطيع علماء الأبحاث أن يكتشفوه في المستقبل، ومع أن الحزب يدعي كعادته أن الفضل في اختراع القنبلة الذرية يعود إليه، إلا أن القنابل الذرية ظهرت في الواقع خلال السنوات الأربعينية من القرن العشرين، واستخدمت لأول مرة على نطاق واسع بعد عشر سنين تقريبًا. ففي ذلك الوقت ألقيت مئات من القنابل الذرية على المراكز الصناعية في روسيا الغربية وأوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وكانت النتيجة إقناع الهيئات الحاكمة في جميع هذه الدول بأن إلقاء عدد آخر قليل من القنابل الذرية معناه نهاية المجتمع المنظم، وبذلك تزول سيطرتها على الناس، وبعد ذلك لم يشهد الناس إلقاء قنبلة ذرية أخرى، رغم أن الدول لم تبرم أية اتفاقية رسمية في هذا الشأن، بل إنها لم تلمح إلى وجوب عقد اتفاق حول هذه المسألة، وكل ما فعلته الدول الثلاث هو الاستمرار في إنتاج القنابل الذرية وخزنها في انتظار اللحظة الحاسمة التي اعتقد الجميع أنها آتية لا ريب فيها. وفي الوقت ذاته ظل فن الحرب ثابتًا عند النقطة التي بلغها لمدة تتراوح بين ثلاثين وأربعين عامًا، وكل ما طرأ من تطور قليل على فن الحروب لا يخرج عن نطاق استخدام طائرات الهليكوبتر بشكل أوسع من ذي قبل، واستبدال قاذفات القنابل بطائرات نفاثة توجه نفسها بنفسها، واستبدال السفن الحربية المتحركة الضعيفة بقلاع عائمة تكاد تكون غير قابلة للغرق. أما الدبابة والغواصة والطوربيد والمدفع الرشاش بل والبندقية والقنبلة اليدوية فما زالت تستعمل جميعًا، ورغم ما كانت ترويه الصحافة والستار الناقل من أنباء مختلفة عن المعارك الطاحنة التي لا نهاية لها من الأرواح التي تزهق، فإن المعارك اليائسة التي كانت تدور خلال الحروب القديمة وتذهب بحياة الألوف، بل الملايين من الناس، لم تتكرر إطلاقًا في الواقع.

ولم تحاول إحدى الدول الثلاث الكبرى إجراء اية مناورة قد تنطوي على المجازفة

بالتعرض لهزيمة منكرة، وعندما كانت إحدى هذه الدول تقوم بعملية حربية واسعة النطاق، فإن هذه العملية كانت تتألف عادة من هجوم مفاجئ تشنه ضد حليفتها، إذ إن استراتيجية الحرب واحدة عند الدول الثلاث وخطة الحرب تقوم على أساس الحصول على إحدى حلقات القواعد التي تحيط بواحدة أو أخرى من الدولتين المنافستين إحاطة السوار بالمعصم عن طريق مزيج من القتال والمساومة وضربات غادرة مركزة وموجهة في الوقت المناسب، ثم توقيع ميثاق صداقة مع الدولة المنافسة وإقرار السلام بين الدولتين لسنوات عديدة بحيث ينتهي سوء الظن والشك بينهما، وخلال مرحلة السلام تحشد الدولة المنتصرة الصواريخ المشحونة بالقنابل الذرية في جميع النقط الاستراتيجية، وعندما تحين اللحظة الحاسمة تطلق جميع هذه الصواريخ في وقت واحد فتدمر الدولة الأخرى تدميرًا شاملًا بحيث تصبح عاجزة عن الأخذ بالثأر أو القيام بأعمال انتقامية، وعندئذ يحين موعد عقد ميثاق صداقة مع الدولة الكبرى الثالثة؛ استعدادًا لهجوم آخر، وليس هناك ما يعدو لأن نقول إن هذه الخطة إن هي إلا أضغاث أحلام ولا يمكن تحقيقها، أضف إلى ذلك أن القتال لم يكن ليشمل إلا المناطق المتنازع عليها حول خط الاستواء والقطب، وأن أية دولة من الدول الثلاث لم تغز أرض إحدى العدوتين إطلاقًا، وهذا يوضح لنا لماذا تكون الحدود بين الدول الثلاث تعسفية في بعض الأماكن، فأوراسيا مثلًا تستطيع بسهولة احتلال الجزر البريطانية التي تعتبر من الناحية الجغرافية جزءًا من أوروبا، ومن الناحية الأخرى تستطيع أوشانيا أن تدفع حدودها إلى نهر الرين أو حتى إلى نهر الفستولا، ولكن هذا العمل يعتبر خرقًا للمبدأ المتعارف عليه بين القوى الثلاث وهو مبدأ الوحدة الثقافية، وإذا قدر لأوشانيا أن تحتل المناطق التي كانت تعرف فيما مضى بفرنسا وألمانيا لتبين لها أنه من الضروري إما أن تستأصل شأفة السكان على بكرة أبيهم، وهي مهمة جد شاقة، أو أن تهضم وتستوعب ما يقرب من مائة مليون نسمة جميعهم في نفس مستوى سكان أوشانيا من ناحية التطور الفني، وهذه المشكلة التي تعاني أوشانيا منها هي نفس المشكلة التي تعاني منها الدولتان الأخريان، ومن الضروري جدًّا لكيان هذه الدول ألا يحدث أي اتصال بين سكانها وبين الأجانب إلا في نطاق محدود لا يشمل إلا أسرى الحرب والعبيد السود. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت الدولة تنظر إلى حليفتها الرسمية في اللحظة الراهنة نظرة ملئوها الشك والريبة القاتمة، وإذا صرفنا النظر عن أسرى الحرب فإن الفرد العادي من سكان أوشانيا لا تتاح له مطلقًا فرصة رؤية أي مواطن من أوراسيا أو استاسيا، كما أن الإلمام باللغات الأجنبية محرّم عليه، ولو سمح له بالاتصال بالأجانب لاكتشف أنهم مخلوقات بشرية مثله، وأن أكثر ما قيل له عنهم إن هو إلا كذب وبهتان، وعندئذ يتلاشى سحر العالم الضيق الذي يعيش فيه ويذهب الخوف والكراهية والشعور بأنه على حق دائمًا، وبأن غيره على باطل، ذلك الشعور الذي تتوقف عليه روحه المعنوية، ولذلك أدركت القوى الثلاث أنه مهما تبادلت الأيدي بلاد إيران أو مصر أو جاوه أو سيلان فإن الحدود الرئيسية يجب ألا يعبرها شيء غير القنابل.

وتحت هذا تكمن حقيقة لم يتحدث الناس عنها علانية وجهرًا مطلقًا، ولكنهم يفهمونها ضمنًا ويعملون بموجبها، ألا وهي أن ظروف الحياة في الدول الثلاث الكبرى متشابهة تمامًا، ففي أوشانيا يطلق على الفلسفة السائدة الاشتراكية الإنجليزية، وفي أوراسيا يطلق عليها البلشفية الجديدة، وفي استاسيا تسمى باسم صيني يترجم عادة «بعبادة الموت» وربما كان من الأفضل أن يترجم بعبارة «القضاء على النفس»، ولا يسمح لمواطن من أوشانيا بأن يعرف شيئًا عن عقائد الفلسفتين الأخريين، ولكنه يلقن أنهما انتهاك بربري للمبادئ الخلقية والإدراك البشري، والواقع أن الفلسفات الثلاث قلما يمكن التمييز بينها، وأما النظم الاجتماعية التي تدعمها فلا يمكن التفرقة بينها إطلاقًا، ففي كل من الدول الكبرى الثلاث تجد نفس البنيان الهرمي ونفس العبادة التي تقدم للزعيم الشبيه بالإله، ونفس الاقتصاد الذي يقوم على الحرب الدائمة ويبقى من أجلها، وتبعًا لذلك فإن الدول الكبرى الثلاث لا تستطيع احتلال إحداها الأخرى فحسب، ولكنها لا تفيد شيئًا إن فعلت ذلك أيضًا. بالعكس،

ما دامت هذه الدول متنازعة فإنها تشد إحداها أزر الأخرى كسنابل القمح الثلاث، وكما هي العادة فإن الهيئات الحاكمة في كل من الدول الثلاث تعي أو لا تعي في الوقت نفسه ماذا تفعل، فحياة أفراد هذه الهيئات مكرسة لاحتلال العالم، ولكنهم يعلمون أيضًا أن من الضروري أن يبقى لهيب الحرب مشتعلًا إلى الأبد بغير أن تنتصر دولة على الأخرى، وما دام أنه ليس هناك خطر من احتلال دولة لأخرى، فإن من الممكن إنكار وقائع الحياة، وهو إحدى الصفات الخاصة بالاشتراكية الإنجليزية ونظم الفكر المنافسة لها. وهنا يجدر بنا أن نكرر ما قلناه سابقًا من أن الحرب قد غيرت طبيعتها تغييرًا أساسيًا بعد أن أصبحت لها صفة الاستمرار.

ففي العصور الماضية، كانت الحرب عبارة عن حدث لا بد أن ينتهي إن عاجلًا أو آجلًا سواء بنصر أو اندحار حاسم. وكانت الحرب في الماضي أيضًا إحدى الأدوات الرئيسية التي تجعل المجتمعات الإنسانية على صلة بالوقائع المادية، وطالما حاول الحاكمون في جميع العهود أن يفرضوا وجهة نظر كاذبة عن العالم الخارجي على رعاياهم، ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يشجعوا أي إدراك خاطئ من شأنه أن يعرقل الكفاية العسكرية، وما دامت الهزيمة في الحرب تعني فقدان الاستقلال أو تؤدي إلى أية نتيجة أخرى غير مرغوب فيها عادة، فقد أصبح لزامًا على الهيئات الحاكمة أن تنظر إلى أسباب الوقاية من الاندحار في الحرب نظرة جديدة، وفي هذا المقام لا يمكن تجاهل الحقائق المادية، ففي الفلسفة والدين وعلم الأخلاق والسياسة من المحتمل أن تقول إن اثنين واثنين يساويان خمسة، ولكنك إذا كنت تصمم مدفعًا أو طائرة فإن اثنين واثنين يساويان أربعة لا غير.. ولقد كانت الدول التي لا تتصف بالكفاية تهزم دائمًا إن عاجلًا أو آجلًا، وكان النضال في سبيل الكفاية ضحية للأوهام، أضف إلى ذلك أنه إذا أرادت إحدى الدول أن تصل إلى درجة من الكفاية عظيمة فمن الضروري أن يكون في مقدورها أن تتعلم شيئًا من عِبَر الماضي، ومعنى ذلك أن تكون لديها فكرة دقيقة عما حدث في الماضي. بالطبع إن الصحف وكتب التاريخ كانت دائمًا مغرضة ملونة بلون أصحابها وواضعيها، ولكن التزوير من ذلك اللون الذي يمارس في الوقت الحاضر كان يعتبر ضربًا من المستحيل في الماضي، ومن ثم أصبحت الحرب وسيلة فعالة ضد التعقل، وهي بالنسبة للطبقات العاملة أهم ضمان، وطالما أن الحرب قد تكسب وقد تخسر فلن تستطيع أية هيئة حاكمة أن تظل بعيدة تمامًا عن المسئولية.

ولكن عندما تصبح الحرب مستمرة فإنها تصبح غير خطرة، فاستمرار الحرب معناه القضاء على الضرورة الحربية. ويمكن أن يتوقف التقدم الفني كما يمكن إنكار أو إهمال أكثر الحقائق وضوحًا، فالأبحاث التي يمكن أن يقال عنها إنها عملية كما رأينا لا تزال تجري لأغراض حربية، ولكنها بالضرورة نوع من أضغاث الأحلام.

كما أن إخفاقها في إظهار النتائج أمر لا أهمية له، فالكفاية، وحتى الكفاية العسكرية، غدت أمرًا لا ضرورة له. ففي أوشانيا تنحصر الكفاية والنشاط في شرطة الفكر، ولما كانت كل من الدول الكبرى الثلاث بمنأى عن الهزيمة، فقد أصبحت كل واحدة منها في الواقع عاملًا منفصلًا يمكن أن يمارس بداخله التفكير المضلل الملتوي بأمان واطمئنان. أما الحقائق فلا تمارس إلا عن طريق مطالب الحياة اليومية وحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب والمأوى والثياب وتجنبه ابتلاع السم أو القفز من النوافذ العالية وهلم جرّا... فبين الحياة والموت، وبين المتعة البدنية والألم البدني، ما زالت هناك فروق، ذلك هو كل شيء... إن انقطاع صلة مواطن أوشانيا بالعالم الخارجي وبالماضي جعله أشبه بذلك الرجل المعلق في الفضاء بين الكواكب، لا يعرف أي اتجاه إلى أعلى وأيها إلى أسفل، وحكام مثل هذه الدولة طغاة مستبدون بشكل لم يعرفه حتى فراعين مصر ولا قياصرة روسيا البيضاء، وهم مضطرون إلى الحيلولة دون موت العدد الأكبر من رعاياهم جوعًا، حتى لا يثير ذلك المتاعب، كما أنهم مضطرون إلى الاحتفاظ بنفس المستوى الفني العسكري المنخفض

كمنافسيهم، ولكن إذا قدر لهم أن يصلوا مرة إلى الحد الأدنى، فإن في وسعهم عندئذ تحريف الوقائع والحقائق وصوغها في القالب الذي يناسبهم.

إذن فالحرب، إذا قسناها بمعايير الحرب القديمة، ليست إلا مجرد دجل، وهي تشبه المعارك التي تنشب بين حيوانات مجترة تتجه قرونها في زوايا خاصة أو ميل معين، بحيث لا تستطيع أن تلحق الأذى إحداها بالأخرى، ولكن رغم أن الحرب غير جدية، فإنها ليست خالية من المعنى، وبالتالي ليست عديمة التأثير، فهي تلتهم فائض إنتاج سلع الاستهلاك، وتساعد على المحافظة على ذلك الجو العقلي الخاص الذي يحتاج إليه مجتمع تحكمه أقلية مقدسة، وسنرى أن الحرب قد أصبحت الآن مشكلة داخلية محضة، ففي الماضي كانت الهيئات الحاكمة في جميع الدول- رغم إدراكها لمصالحها المشتركة وشعورها بأن من واجبها تحديد نطاق تدمير الحرب- كانت هذه الهيئات تقاتل بعضها بعضًا، وكان الغالب ينهب المغلوب دائمًا، أما في الوقت الحاضر فإن الهيئات الحاكمة لا تقاتل بعضها بعضًا، وإنما تعلن هيئة حاكمة الحرب على رعاياها أنفسهم، وليس الغرض من الحرب احتلال الأراضي أو الحيلولة دون حدوث هذا العمل، وإنما الغرض منها هو الإبقاء على سلامة كيان المجتمع. فكلمة «الحرب» ذاتها أصبحت إذن مضللة، وإذا توخينا الدقة فقد يكون من الأصح أن نقول إن الحرب قد زالت من عالم الوجود بعد أن اتخذت صفة الدوام والاستمرار. أما الضغط الغريب الذي كانت تفرضه على بني الإنسان بين العصر الحجري الأخير وبين أوائل القرن العشرين فقد اختفى واستبدل بشيء مغاير تمامًا، ولو اتفقت الدول الكبرى الثلاث بدلًا من أن تقاتل إحداها الأخرى على أن تعيش في ظل سلام دائم بدلًا من خرق حدود كل منها، لكانت النتيجة هي نفس نتيجة الحرب الحالية؛ نظرًا لأن كل دولة من الدول الثلاث ستصبح في هذه الحالة عالمًا ذي اكتفاء ذاتي متحررًا إلى الأبد من تأثير الأخطار الخارجية. والسلم الدائم فعلًا له تأثير الحرب الدائمة، وهذا هو المعنى العميق للهتاف الحزبي «الحرب هي السلم». هذا رغم أن الأغلبية الساحقة من أعضاء الحزب لا يفهمون ذلك إلا فهمًا سطحيًا.

عند هذا الحد توقف ونستون عن القراءة، وفي مكان ما بعيد سقطت قنبلة صاروخية بصوت أشبه بدوي الرعد، وكان ونستون لا يزال يتمتع بذلك الشعور المبارك الذي سيطر عليه لأنه كان وحيدًا وبين يديه الكتاب المحرّم في غرفة لا يوجد بها ستار ناقل، وكانت إحساساته البدنية مزيجًا من الوحدة والأمن والتعب الجسماني الخفيف والراحة التي يشعر بها، وهو جالس فوق المقعد الوثير فضلًا عن هبات النسيم العليل التي كانت تداعب وجنتيه. أما الكتاب فقد خلب لبه، أو بعبارة أصح، أعاد الطمأنينة إلى نفسه، ومع أن الكتاب لم يأته بشيء جديد، وكان ذلك من محاسنه، فقد قال الكتاب ما كان ونستون يود أن يقوله لو استطاع أن يستجمع شتات فكره وينظم أفكاره.. كان الكتاب نتاج عقل شبيه بعقله، ولكنه أكثر منه قوة وتنظيمًا وأقل خوفًا.. وقال ونستون لنفسه إن أحسن الكتب هي التني تنبئك بما تعرفه من قبل.. ولم يكد يقلب صفحات الكتاب عائدًا إلى الفصل الأول حتى سمع وقع أقدام جوليا فوق الدرج، فانبعث واقفًا لاستقبالها. وأقبلت الفتاة وهي تحمل كعادتها كيسًا مملوءًا بالمواد الغذائية، وكان قد مضى عليها أسبوع أو أكثر بغير أن ترى ونستون.

وألقت الفتاة بالكيس فوق الأرض وألقت بنفسها بين ذراعي ونستون.. وبعد أن فرغا من العناق قال ونستون:

- لقد حصلت على الكتاب.

فقالت بغير أن تبدي اهتمامًا يذكر: آه! لقد حصلت عليه حقًا!

ومالت فوق الموقد لتعد القهوة.

ولم يعاودا الحديث عن الكتاب إلا بعد أن استلقيا نصف ساعة على الفراش، وكان هواء المساء عليلًا فحفزهما ذلك على فتح النافذة، فسمعا صوت غناء، وكانت جوليا على أهبة النوم، أما ونستون فمد يده والتقط الكتاب من فوق أرض الغرفة، ثم رفع ظهره واستند إلى ظهر السرير.

وقال: يجب أن يقرأ هذا الكتاب، وأنت أيضًا يجب أن تقرأينه لأن من واجب جميع أعضاء «الإخوة» أن يقرأوه..

فقالت وعيناها مغلقتان: اقرأه أنت.. اقرأه بصوت مرتفع، وبعدئذ يمكنك أن تشرح لي ما تقرأ.

ودقت الساعة السادسة، وهكذا كان لا يزال أمامهما ثلاث أو أربع ساعات، ومن ثم فقد وضع ونستون الكتاب فوق ركبتيه وبدأ يقرأ:

الفصل الثالث «الجهل هو القوة» منذ أول الأزمنة التاريخية المعروفة، ويحتمل منذ نهاية العصر الحجري الأخير، كان هناك ثلاثة أنواع من الناس، أو بعبارة أخرى ثلاث طبقات من الناس: العليا والمتوسطة والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات إلى طبقات فرعية جديدة خلال العصور، وحملت هذه الطبقات الجديدة أسماء مختلفة لا عد لها ولا حصر، وقد اختلف تعداد هذه الطبقات نسبيًا من عصر لآخر، كما اختلف موقفها إحداها من الأخريات، ولكن البنيان الأساسي للمجتمع لم يتغير، وحتى بعد حدوث انقلابات عنيفة وتغييرات كانت تبدو نهائية، فإن الطابع نفسه كان دائمًا يعود فيؤكد توازنه.

وعندما فرغ ونستون من قراءة هذه الفقرة سأل: هل أنت مستيقظة يا جوليا؟

فأجابت: نعم يا حبيبي.. إني مصغية إليك.. استمر.. إنه مدهش للغاية.

فمضى يقرأ:

أما أهداف هذه الطبقات الثلاث فلم يكن من المستطاع التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقة العليا هو البقاء حيث هي، وهدف الطبقة المتوسطة: استبدال مكانها بمكان الطبقة العليا، أما هدف الطبقة الدنيا، إن كان لها أي هدف، فهو إلغاء جميع الامتيازات وخلق مجتمع يكون الناس فيه سواء، وهكذا يتكرر خلال عصور التاريخ نضال تتشابه خطوطه العريضة الأساسية، وفي فترات طويلة بدا كأن أفراد الطبقة العليا يملكون زمام السلطة إلى الأبد، ولكنهم سرعان ما كانوا يفقدون إيمانهم بأنفسهم أو بقدرتهم على إدارة دفة الحكم بكفاية، وفي مثل هذه الأحوال تتغلب عليهم الطبقة الوسطى وتنتزع السلطة منهم وتستميل الطبقة الدنيا إلى جانبها بالتظاهر أمامها بأنها ستقاتل في سبيل الحرية والعدالة، وبعد أن تصل الطبقة الوسطى إلى هدفها وتبلغ مأربها فإنها تدفع الطبقة الدنيا إلى مركزها القديم، مركز الخدمة، وتصبح هي الطبقة العليا. وسرعان ما تنشق طبقة وسطى جديدة من إحدى الطبقات الأخرى أو منها معًا، فيبدأ النضال من جديد، ومن ثم فإن الطبقة الدنيا هي الوحيدة من الطبقات الثلاث التي لا تستطيع أن تنجح ولو مؤقتًا في الوصول إلى أهدافها، ومن المبالغة أن نقول إنه لم يحدث تقدم مادي من أي نوع خلال عصور التاريخ، وحتى في أيامنا هذه، وفي فترة التدهور، فإن الإنسان العادي يعتبر أحسن حالًا، من الناحية المادية، من حالته منذ قرون قليلة، بيد أن ازدياد ثروة الإنسان وتحسن سلوكه وأخلاقه وإصلاحات الثورات لم تجعل المساواة بين الناس تتقدم إلى الأمام ولو قيد أنملة، ومن وجهة نظر الطبقة الدنيا، فإن أي تغيير تاريخي لم يكن يعني أكثر من تغيير اسم سادتها.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبح تكرار هذا الطابع جليًا لكثير من المراقبين، وعندئذ ظهرت مدارس فكرية فسرت التاريخ على أنه عملية دائرية، وزعمت أن انعدام المساواة إن هو إلا قانون الحياة البشرية الذي لا يتغير، وكان لهذا المذهب دائمًا أنصار مغالون، بيد أن تغييرًا محسوسًا طرأ على طريقة عرض هذا المذهب، ففي الماضي كانت الحاجة إلى نوع من مجتمع تحكمه الأقلية المقدسة هي عقيدة الطبقة العليا على وجه التحديد، وكان يبشر بها الملوك والنبلاء والكهنة والمحامون ومن على شاكلتهم، فضلًا عمن يعيشون على حسابهم كالنبات الطفيلي، وكانوا يخففون من وطأة الدعوة لهذه العقيدة بما كانوا يبذلونه عادة من وعود بالتعويض والثواب في عالم خيالي بعد الموت، أما الطبقة الوسطى فكانت، إبان نضالها في سبيل الاستئثار بزمام الأمور، تستخدم تعبيرات كالحرية والعدالة والإخاء، أما الآن فإن فكرة الإخوة الإنسانية تتعرض لهجمات يشنها عليها قوم لم يقبضوا بعد على زمام القيادة، ولكنهم يأملون في بلوغه قبل مرور وقت طويل، وفي الماضي كانت الطبقة الوسطى تقوم بالثورات تحت علم المساواة، وبعد أن تنجح الثورات كانت هذه الطبقة تؤسس حكمًا استبداديًا جديدًا على أثر تمكنها من قلب الحكومة الاستبدادية السابقة، وتبعًا لذلك كانت الطبقات المتوسطة الجديدة تعلن عن طغيانها سلفًا، أما الاشتراكية، وهي نظرية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر وكانت آخر حلقة في سلسلة فكرية تعود في ماضيها إلى ثورات العبيد في الأزمان الغابرة- هذه الاشتراكية كانت لا تزال متأثرة تأثرًا عميقًا بالفردوس المفقود للعصور الماضية، بيد أن هدف توطيد دعائم الحرية والمساواة كان لا يلبث أن يهمل أكثر فأكثر في كل لون من ألوان الاشتراكية المتغيرة التي ظهرت لأول مرة حوالي عام 1900. أما الحركات الجديدة التي ظهرت في منتصف القرن العشرين، كالاشتراكية الإنجليزية في أوشانيا، والبلشفية الجديدة في أوراسيا، وعبادة الموت كما كانت تدعى في استاسيا، فكانت جميعها تتضمن مبادئ الإبقاء على عدم الحرية وعدم المساواة. وهذه الحركات الجديدة انبعثت طبعًا من حركات قديمة واحتفظت بأسمائها، وادعت، كاذبة مضللة، أنها متمسكة بعقائدها، وقد وضعت هذه الحركات الجديدة نصب أعينها وقف كل تقدم وتجميد التاريخ في لحظة تختارها، وهكذا قدر لحركة البندول الذبذبية المألوفة أن تتكرر مرة أخرى ثم تقف، وكما هي العادة كان على الطبقة الوسطى أن تتخلص من الطبقة العليا وتحل محلها على أن يتم هذا الانقلاب باستراتيجية محبوكة وعلى أن تحتفظ الطبقة العليا الجديدة بمركزها بصفة دائمة.

ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور العقائد الجديدة تراكم المعلومات التاريخية ونمو الوعي التاريخي وهما أمران ندر أن وجدا قبل القرن التاسع عشر، ومن ثم فقد أصبحت الحركة الدائرية للتاريخ مفهومة أنذاك أو بدت كذلك، وطالما أنها أصبحت قابلة للفهم، فلا شك في أنها كانت أيضًا قابلة للتغيير، بيد أن المبدأ الكامن وراء ظهور هذه العقائد هو أنه منذ بداية القرن العشرين أصبحت المساواة بين الناس ممكنة. صحيح أن الناس لم يكونوا متساويين بمواهبهم وأن أعمالهم يجب أن تنوّع وتخصص بحيث ترفع بعض الأفراد فوق بعضهم الآخر، بيد أنه لم تعد هناك حاجة فعلية للتمييز بين الطبقات أو لاختلاف الناس بعضهم عن بعض من ناحية الثروة. ولم تكن الفوارق الطبقية في القرون الوسطى أمرًا مرغوبًا فيه فحسب، بل كانت أيضًا أمرًا محتومًا، وكان عدم المساواة ثمنًا للمدنية. ومع تطور الإنتاج الآلي تغير الحال، فإنه على فرض وجود ضرورة تدعو البشر لأن يؤدوا أعمالًا اختلفت أنواعها، فإنه ليس ثمة ما يدعو لأن يعيشوا في مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة، ومن ثم فإن الطبقات الجديدة التي كانت توشك أن تمسك بزمام الأمور لم تعد تعتبر المساواة بين الناس مثلًا أعلى يستحق السعي وراءه، بل أصبحت ترى فيها خطرًا يجب تجنبه. أما في العصور الأكثر بدائية، أي عندما كان من المستحيل إيجاد مجتمع عادي مسالم، فقد كان من السهل جدًا أن يؤمن الإنسان بصحة هذه النظرية. ولقد ظلت فكرة إيجاد فردوس دنيوي، يعيش الناس فيه كإخوان دون حاجة إلى قوانين أو إلى أي عمل شاق، تداعب الخيال البشري آلاف السنين، وكان لهذا الحلم بعض التأثير على

الجماعات التي أفادت فعلًا من كل تغيير تاريخي، ولهذا فإن ورثة الثورات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية آمنوا إلى حد ما بتلك العبارات التي كانوا ينطقون أو يتشدقون بها عن حقوق الإنسان وحرية القول والمساواة أمام القانون وما شابه ذلك، بل قد سمحوا لهذه الألفاظ بالتأثير على سلوكهم إلى حد معين، ولكن لم يكد العقد الرابع من القرن العشرين يحل حتى كانت جميع التيارات الأساسية للفكر السياسي تخضع لسلطة عليا. وفي هذه اللحظة التي تحقق فيها حلم الفردوس الأرضي، أصبح فيها موضعًا للاستنكار وهدفًا للهجمات العنيفة وأصبحت كل نظرية سياسية جديدة- مهما أطلق عليها من أسماء- تعود بالناس القهقرى إلى حكم الأقلية المقدسة، وحوالي عام 1930، عندما بدأت وجهات نظر الناس تشتد وتقسو، عادت إلى عالم الوجود، أعمال كان الناس قد تخلوا عنها منذ مئات السنين كالسجن بدون محاكمة، واستخدام أسرى الحرب كأرقاء، وتنفيذ أحكام الإعدام علنًا، وتعذيب الناس لانتزاع الاعترافات منهم، واستخدام الرهائن ونفي شعوب بأكملها. ولم تصبح هذه الأعمال شائعة فحسب، بل أصبح الناس ينظرون إليها بتسامح، بل لقد كان بعض المثقفين والتقدميين يدافعون عنها.

ولم تصبح الاشتراكية الإنجليزية وما ينافسها من مبادئ وعقائد نظريات سياسية عملية معروفة إلا بعد عقد من الزمن تخللته حروب بين الدول وحروب أهلية وثورات مضادة في جميع أنحاء العالم. بيد أن هذه المبادئ سبقتها وأثرت فيها نظم مختلفة، أطلق عليها عادة اسم حكم الجماعة الاستبدادي، وكانت قد ظهرت في أوائل القرن العشرين. وكان من الجلي أن يدرك الناس المظاهر الأساسية والخطوط العريضة للعالم الذي سيبرز من الفوضى الضاربة أطنابها، وكان من الجلي أيضًا أن يعرف الناس أي نوع من الرجال سيتقلد زمام الأمور في مثل هذا العالم، فالأرستقراطية الجديدة كانت تتألف في معظمها من بيروقراطيين وعلماء وخبراء فنيين ومنظمي نقابات عمالية وخبراء للدعاية والإعلان والنشر وعلماء اجتماع وأساتذة وصحفيين وساسة محترفين، وهؤلاء الناس الذين يعودون في أصولهم إلى الطبقة الوسطى، والتي يعيش أفرادها على المرتبات، كما يرجع إلى الطبقة العليا من العمال، صيغوا في قالب واحد ونموا وعاشوا معًا في عالم مقفر يتميز بالاحتكار الصناعي، والحكومة المركزية، وإذا قارناهم بأسلافهم في العصور الغابرة لرأينا أنهم أقل طمعًا في المال وأقل ميلًا للرفاهية وأكثر تعطشًا للسيطرة المطلقة، وفوق ذلك كله أكثر وعيًا لما يعملونه وأشد تصميمًا على سحق المعارضة مما كان عليه أسلافهم، ولقد كان الفرق الأخير أساسيًا. وإذا قورن الحكم الاستبدادي في الوقت الحاضر بالنظم الاستبدادية الغاشمة في الماضي لتبين لنا أن طغيان الماضي لم يكن فعالًا، وأنه لم يكن يقدم على أعماله الاستبدادية بكل قلبه وأن الهيئات الحاكمة كانت دائمًا متأثرة بأفكار متحررة، كما كانت راضية عن ترك ثغرات وأطراف متراخية في كل مكان. واحترام العمل الظاهر مع عدم الاهتمام بما كان يدور في فكر الرعايا. وإذا نظرنا إلى الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى وقارناها بمعايير الوقت الحاضر، لتبين لنا أنها كانت متسامحة، ومن أسباب ذلك أنه لم تكن تتوافر لأية حكومة في الزمن الماضي السلطة التي تمكنها من أن تضع جميع رعاياها تحت المراقبة، ومع ذلك فإن اختراع الطباعة جعل من الأيسر التلاعب بالرأي العام، وقطعت الأفلام والراديو شوطًا بعيدًا في هذا المضمار، وبعد أن اخترع التليفزيون، وحدث ذلك التقدم الفني الكبير الذي جعل في الإمكان الاستقبال والإرسال من جهاز واحد في وقت واحد أصبحت الحياة الخاصة لا وجود لها، وخاصة بعد أن أصبح في وسع الحكومة أن تضع كل مواطن، أو بالأحرى كل مواطن له من الأهمية ما يجعله خليقًا بالملاحظة، تحت رقابة البوليس لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم، وأن تحوطه ليل نهار بالدعاية الرسمية مع إغلاق جميع سبل الاتصال بالعالم الخارجي، ولأول مرة في التاريخ تحقق إمكان فرض الطاعة العمياء الكاملة لإرادة الدولة. ليس ذلك فحسب، بل أصبح الناس جميعًا يفكرون تفكيرًا واحدًا ويعبرون عن وجهة نظر ورأي واحدين.

وبعد أن انتهت فترة الثورات التي امتدت خلال العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين، أعاد المجتمع تنظيم نفسه كما هي العادة في طبقات ثلاث العليا والمتوسطة والدنيا، ولكن الطبقة العليا الجديدة سلكت طريقًا يختلف عن طريق سابقاتها، ولم تتصرف تصرفًا غريزيًّا، بل عرفت ما يطلبه تأمين مركزها، وقد أدرك الناس منذ زمن طويل أن الأساس الوحيد المأمون لحكم الأقلية هو الجماعية، فالثروة والامتيازات يسهل الدفاع عنها إذا كانت ملكيتهما مشتركة، ولقد كان «إلغاء الملكية الخاصة» الذي حدث في منتصف القرن العشرين يعني، في الواقع، حصر الملكية في أيدي عدد أقل من الناس مع وجود فارق واحد بين الملكية في الماضي والحاضر، ألا وهو أن المالكين الجدد كانوا يؤلفون هيئة بدلًا من أن يكونوا جملة أفراد، فمن الناحية الفردية لا يملك أي عضو في الحزب شيئًا، اللهم إلا بعض الأشياء الخاصة التافهة، أما من الناحية الجماعية فإن الحزب يملك كل شيء في أوشانيا؛ لأنه يسيطر على كل شيء ويتصرف في الإنتاج حسبما يشاء، وقد تمكن الحزب بعد سنى الثورة من الوصول إلى هذا المركز المسيطر بغير أن يلقى مقاومة تقريبًا؛ لأن العملية برمتها قدمت للناس وكأنها نوع من الإجراءات الجماعية، وكان المفروض دائمًا أنه إذا صودرت أملاك الرأسماليين فإن الاشتراكية يجب أن تتلو هذه الخطوة، ولقد صودرت أملاك الرأسماليين فعلًا، فانتزعت منهم المصانع والمناجم والأراضي الزراعية والعقارات ووسائل النقل، ولما لم تعد هذه الأشياء من الممتلكات الخاصة فقد تحولت إلى ممتلكات عامة. أما الاشتراكية الإنجليزية التي انبثقت من الحركة الاشتراكية القديمة وورثت عنها جميع مصطلحاتها فقد نفذت المادة الرئيسية في البرنامج الاشتراكي، وكانت النتيجة التي تكهن بها الناس واستهدفها الحزب، أن أصبح انعدام المساواة الاقتصادية راسخ الجذور دائمًا.

ولكن مشكلة الإبقاء على مجتمع تحكمه الأقلية المقدسة وإعطائه صفة الدوام أعمق مما ذكرنا، فليست هناك غير أربع وسائل لإسقاط فئة حاكمة: أن تقهر بهجوم خارجي، أو أن يكون حكمها سيئًا إلى درجة تدفع الجماهير إلى الثورة عليها، أو أن تتيح المجال لظهور فئة متوسطة قوية غير راضية، أو أن تفقد ثقتها بنفسها وصلاحيتها للبقاء في الحكم، ولا تعمل هذه الأسباب منفصلة، فقد جرت العادة أن تتوافر جميعها بقدر معين. والطبقة الحاكمة التي تستطيع حماية نفسها من جميع هذه العوامل يمكنها أن تتربع على دست الحكم دائمًا، وأخيرًا، فإن العامل الحاسم هو الحالة الفعلية للطبقة الحاكمة نفسها.

ولقد تلاشى الخطر الأول بعد منتصف القرن الحالي وأصبحت الدول الثلاث التي تتقاسم العالم الآن، أمنع من عقاب الجو وأبعد من أن تقهر، فلكي تقهر أو تصبح قابلة للقهر يجب أن تتعرض لتغييرات ديمقراطية بطيئة جدًّا تستطيع أية حكومة تتمتع بسلطان واسع أن تتجنبها، أما الخطر الثاني فنظري لأن الجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها، ولم يسبق أن ثارت لمجرد أنها تعرضت للضغط والاضطهاد، إذ طالما لا تتاح لها فرصة للمقارنة بين أحوالها وأحوال غيرها، فإنها لا تشعر بأن هناك ضغطًا واضطهادًا، وليس من شك في أن الأزمات الاقتصادية التي كانت تتكرر في الماضي لم تكن لها ضرورة على الإطلاق. أما اليوم فلم يعد يوجد مجال لحدوثها، بيد أنه من الممكن أن تحدث اضطرابات أخرى أشد خطرًا من أزمات الماضي ولكن بغير أن تكون لها أية نتائج سياسية إذ لا سبيل أمام الناس لإظهار عدم رضائهم. فمشكلة فائض الإنتاج الكامنة في مجتمعنا منذ تطور استخدام الآلة أمكن التغلب عليها بالحرب الدائمة (انظر الفصل الثالث) وهي وسيلة نافعة أيضًا في الاحتفاظ بالروح المعنوية العامة عند الحد المطلوب.

إذا تسنى للإنسان أن يعرف جميع هذه المعلومات فإنه يستطيع أن يستخلص منها- إن لم يكن يعرف سلفًا- صورة صادقة لكيان مجتمع أوشانيا العام، فعند قمة الهرم يقف الأخ الأكبر وهو معصوم من الخطأ يتمتع بالقوة والمقدرة، وكل نجاح وكل عمل باهر وكل نصر

وكل اكتشاف علمي وكل معرفة وكل سعادة وكل فضيلة تصدر مباشرة من قيادته ووحيه، ولكن أحدًا لم ير الأخ الأكبر، فهو، بالنسبة للجميع، وجه مطبوع على لوحة وصوت يصدر عن الستار الناقل، ويمكننا أن نقول بشيء من الثقة إنه لن يموت، كما أن تاريخ ولادته غير محدد.. إن الأخ الأكبر هو الثوب الذي اختاره الحزب ليظهر به أمام العالم. أما عمله فهو أن يكون البؤرة التي يتركز فيها الحب والخوف والاحترام، وجميعها عواطف يسهل أن يشعر بها الإنسان نحو إنسان آخر ويصعب تصورها صادرة من إنسان نحو هيئة ما، ويأتي بعد الأخ الأكبر الحزب الداخلي ولا يزيد عدد أعضائه عن ستة ملايين أو أقل من 2٪ من مجموع سكان أوشانيا، وبعد الحزب الداخلي فإن الحزب الخارجي هو الأيدي العاملة فيها. ثم تأتي بعد ذلك جموع العامة الخرساء التي كثيرًا ما نشير إليها باسم الطبقة البروليتارية «الشعبية» والتي تبلغ نسبتها حوالي 85٪ من مجموع السكان، وطبقًا للتصنيف السابق فإن طبقة البروليتاريا هي الطبقة الدنيا، أما سكان المناطق الاستوائية، وكلهم من العبيد الذين ينتقلون من سيد إلى سيد، ومن فاتح إلى فاتح، فلا يعتبرون جزءًا من الكيان العام للدولة.

ومن ناحية المبدأ فإن عضوية هذه الجماعات الثلاث ليست وراثية، أما من الناحية النظرية فإن الطفل الذي يولد لأبوين من أعضاء الحزب الداخلي لا يكون عضوًا في هذا الحزب، لأن قبول انضمام أي شخص لأي فرع من فروع الحزب رهن بالاختبار الذي يجري له وهو في سن السادسة عشر، كما أنه ليست هناك تفرقة عضوية أو أية سيطرة واضحة تتمتع بها فئة على فئة أخرى. ومن ثم فإن اليهود والزنوج والأمريكيين الجنوبيين من الدم الهندي النقي يوجدون في المراتب العليا للحزب، كما أن حكام أية منطقة يختارون من بين سكانها، ولا يشعر سكان أية مقاطعة في أوشانيا بأنهم مستعمرون تدار أمورهم من عاصمة بعيدة، فأوشانيا لا عاصمة لها، أما رئيس حكومتها فلا يعرف أحد أين يوجد، ولا توجد في أوشانيا مركزية تذكر اللهم إلا أن لغتها الرئيسية هي الإنجليزية، وأما حكامها فلا تجمع بينهم صلة الدم، وإنما تربطهم ببعضهم العقيدة المشتركة. حقًا، إن مجتمعنا منظم طبقة فوق أخرى بشكل محكم راسخ بحيث يبدو وكأنه يقوم على أساس وراثي، بيد أن ما كان يحدث في ظل الحكم الرأسمالي أو حتى في العصر السابق للعصر الصناعي من تأجج بين مختلف الطبقات لم يعد له وجود في مجتمعنا الحالي.

ويجري تبادل الأعضاء بين فرعي الحزب في حدود ضيقة، بحيث يُطرد الضعفاء من الحزب الداخلي، ويتاح المجال أمام الطامحين من أعضاء الحزب الخارجي لكي يرتفعوا، وبذلك يؤمن جانبهم ويتقى شرهم، أما أفراد طبقة البروليتاريا فلا يتاح لهم الانضمام إلى عضوية الحزب، وإذا ظهر بينهم أشخاص من أصحاب المواهب الذين يمكن أن يصبحوا نواة للتذمر فإن بوليس الفكر يكتشف أمرهم ويستأصل شأفتهم. وليست هذه الأمور دائمة كما أنها ليست مسألة مبدأ، فالحزب ليس طبقة بالمعنى الذي كان يفهم في هذه الكلمة في الماضي؛ لأنه لا يهدف إلى نقل السلطة إلى أبناء أعضائه. وإذا تبين للحزب ألا سبيل للاحتفاظ بأقدر الرجال عند قمة الهرم، فإنه يكون عندئذ على أتم استعداد لتجنيد جيل جديد تمامًا من بين صفوف طبقة البروليتاريا.

وكان الفضل الأكبر في عدم ظهور معارضة للحزب أنه لم يكن هيئة وراثية، وذلك إبان السنوات الحرجة التي مرت به، فالاشتراكي القديم الذي درب على مناهضة كل ما يشتم منه أنه «امتياز طبقي» افترض أن الشيء الذي لا يكون وراثيًا لا يمكن أن يكون دائمًا، ولكنه لم يفطن إلى أن استمرار حكم الطبقة المختارة لا يستلزم أن يكون هذا الحكم ماديًا محسوسًا. كما أنه لم يمعن النظر ليدرك أن الأرستقراطيات الوزارية كانت دائمًا قصيرة الأمد، بينما عاشت منظمات كالكنيسة الكاثوليكية مثلًا مئات أو آلاف السنين.

إن خلاصة كلمة «الفئة المختارة» ليست وراثة الابن لأبيه، وإنما استمرار وبقاء فكرة

عالمية معينة وطريقة حياة معينة يفرضها الأموات على الأحياء، فالفئة الحاكمة تظل حاكمة ما دامت قادرة على ترشيح خلفائها.

ولم يكن الحزب يهتم بمن يتسلم زمام الأمور، وإنما كان يهتم ببقاء حكم الفئة المختارة على ما هو عليه دائمًا.

إن جميع المعتقدات والعادات والأذواق والعواطف والأحوال العقلية التي تميز عصرنا الحاضر صيغت في قوالب من شأنها الإبقاء على ما يحيط بالحزب من غموض والحيلولة دون وضوح الطبيعة الحقة لمجتمعنا الحالي وإمكان ملاحظتها بسهولة. ومن ثم فإن التمرد أو أية خطوات تمهيدية للتمرد لم تعد ممكنة في الوقت الحاضر، ولا خوف من ناحية الطبقة البروليتارية لأن أفراد هذه الطبقة، إذا تركوا وشأنهم، فإنهم يستمرون- من جيل إلى جيل، ومن قرن إلى قرن- في العمل والتناسل والموت، بغير أن يكون هناك حافز يدفعهم إلى التمرد، وبغير أن تتاح لهم قوة فكرية تجعلهم يدركون أن العالم يمكن أن يكون على غير ما هو عليه الآن. ولكنهم يصبحون مصدر خطر إذا تطلب تقدم الفن الصناعي تثقيفهم إلى مستوى أعلى. ولكن طالما لم تعد للمنافسة العسكرية والتجارية أية أهمية فإن مستوى التعليم الشعبي آخذ فعلًا في التدهور. أما آراء العامة ومعتقداتهم فأمر لم يكن بذي بال، ففي الإمكان منحهم حرية فكرية لأنهم مجردون من التفكير.

أما فيما يتعلق بأعضاء الحزب فإن أقل انحراف في الرأي حول أتفه الموضوعات يعتبر أمرًا لا يحتمل ولا يصح التساهل فيه.

إن عضو الحزب يعيش طوال حياته، من يوم مولده إلى يوم مماته، تحت رقابة بوليس الفكر، وحتى حينما يكون منفردًا بنفسه فإنه لا يستطيع التأكد من أنه منفرد فعلًا، وأينما يكون نائمًا أو مستيقظًا، عاملًا أو مستريحًا، مستحمًّا أو مضطجعًا، فإنه موضع مراقبة بغير إنذار وبغير أن يعلم أنه تحت الملاحظة، فكل شيء يعمله يعتبر مهمًا بالنسبة لشرطة الفكر الذين يراقبون حركاته وسكناته، ويفحصون صداقاته وتصرفاته إبان فراغه، وسلوكه تجاه زوجته وأولاده، وتعبيرات وجهه عندما يكون وحيدًا، والكلمات التي يتمتم بها وهو نائم، وحركات جسمه التي تميزه عن غيره، ومن المحقق أن في وسع بوليس الفكر أن يكتشف أي سوء تصرف يصدر عنه أو أية غرابة في تصرفاته سواء أكانت كبيرة أو صغيرة أو أي تغيير في عاداته، أو سلوك عصبي قد يكون من علامات النزاع الداخلي، ولا يترك له حرية الاختيار في أي شيء، ومن ناحية أخرى فإن أعماله لا تخضع لقانون أو أية قواعد واضحة للسلوك، إذ لا قانون في أوشانيا، فالأفكار والأعمال التي إذا اكتشفت تعني الموت المحقق غير ممنوعة رسميًا. كما أن الاعتقالات وألوان التعذيب وأحكام السجن وحركات التطهير كلها لا تطبق كعقاب على جرائم اقترفت فعلًا، وإنما هي مجرد القضاء على أشخاص، قد يكون عندهم نية اقتراف جرم في وقت ما في المستقبل، ويطالب الحزب أعضاءه ألا تكون آراؤهم سليمة فحسب، بل أيضًا أن تكون غرائزهم سليمة. وكثير من المعتقدات ووجهات النظر الذي يطالب الحزب أعضاءه بالإيمان بها لا يبينه الحزب بيانًا واضحًا، إذ ليس في الإمكان بيانها بوضوح بغير الكشف عن المتناقضات المتأصلة في الاشتراكية الإنجليزية، وإذا كان العضو أرثوذوكسيًّا، ويطلق عليه في اللغة الحديثة «المفكر الحسن»، فإنه يعرف في جميع الظروف وبغير تفكير ما هو الإيمان الصحيح أو العاطفة المرغوب فيها.

والمفروض في عضو الحزب ألا تكون له عواطف خاصة، وألا يفتر حماسه، والمفروض فيه أيضًا أن يعيش وهو مصاب بحمى كراهية الأعداء الأجانب والخونة الداخليين، وأن يشعر بخيلاء النصر، وأن ينكر ذاته أمام قوة الحزب وحكمته. أما ما يشعر به من عدم الرضاء الذي يتولد من حياته القاحلة غير المرضية، فيجب أن يحول عمدًا إلى الخارج

ويبدد عن طريق مبتكرات «دقيقتي الكراهية» وما أشبه، كما أن التأملات التي يحتمل أن تثير التشاؤم أو الاتجاه العدائي يقضى عليها سلفًا بالنظام الداخلي الذي درب عليه منذ نعومة أظفاره. ويطلق على أول وأسهل دور من النظام الذي يمكن تعليمه حتى لصغار الأطفال، يطلق عليه في اللغة الحديثة اسم «وقف الإجرام»، وتعني هذه العبارة القدرة على خنق فكرة خطرة وهي في المهد، وتتضمن أيضًا القدرة على عدم تفهم المتشابهات، وعلى القصور في ملاحظة الأخطاء المنطقية، وإساءة فهم أسهل أنواع الجدل إذا كانت ضارة بالاشتراكية الإنجليزية، والضيق بأي تسلل فكري قد يؤدي إلى الضلال. صفوة القول إن عبارة «وقف الجريمة» تعني غباءً وقائيًا، ولكن الغباء ليس كافيًا. بالعكس إن الإيمان بكل ما في الكلمة من معنى يتطلب من الإنسان سيطرة كاملة على عملياته العقلية. ويستقر المجتمع الأوشاني في النهاية على الإيمان بأن الأخ الأكبر قادر على كل شيء، وأن الحزب غير معرض للوقوع في الخطأ أو النسيان، ولكن لما كان الواقع أن الأخ الأكبر ليس قادرًا على كل شيء، وأن الحزب غير معصوم من الخطأ، فإن الضرورة تدعو إلى مرونة دائبة في معالجة الحقائق من لحظة لأخرى، والكلمة التي تدل على هذه العملية باللغة الحديثة هي «الأسود- الأبيض»، وهي- ككثير غيرها من كلمات اللغة الحديثة- لها معنيان متناقضان مشتركان، فإذا طبقت على الغريم فإنها تعني عادة رغبة مخلصة في القول بأن الأسود أبيض عندما يتطلب النظام الحزبي ذلك، وتعني أيضًا القدرة على الاعتقاد بأن الأبيض أسود، وأكثر من ذلك أن يعرف الإنسان أن الأسود أبيض وأن ينسى أنه اعتقد عكس ذلك في المرحلة السابقة من حياته، وهذا يتطلب تغييرًا مستمرًا للماضي بوساطة نظام فكري يطلق عليه باللغة الحديثة «التفكير المزدوج».

أما تغيير الماضي فضروري لسببين أولهما، وهو ثانوي وربما كان وقائيًا، أن عضو الحزب مثل أي فرد من طبقة البروليتاريا يتحمل ظروف الحياة الراهنة لأنه لا يملك مستويات للمقارنة، ولذلك يجب أن ينفصل انفصالًا كليًا عن الماضي، كما يجب أن ينفصل انفصالًا تامًا عن البلاد الأجنبية؛ لأن الضرورة تدعوه إلى الاعتقاد بأنه أفضل حالًا من أسلافه، وأن معدل المستوى المادي لراحته ورفاهيته في ارتفاع دائم، وأما السبب الأكثر أهمية لتنقيح الماضي وتعديله فهو الحاجة إلى تأمين المبدأ القائل بأن الحزب لا يخطئ، ولا يستدعي ذلك مجرد تنقيح وتعديل الخطب والإحصاءات والسجلات من كل نوع بصفة دائمة مستمرة لتتلاءم مع الزمن الحاضر، ولتظهر أن تنبؤات الحزب كانت في جميع الأحوال صائبة فحسب، وإنما يتطلب أيضًا عدم قبول فكرة حدوث أي تغيير على العقيدة أو التنظيم الحزبي، لأن تغيير عقل الإنسان أو حتى سياسته إن هو إلا ضرب من ضروب الاعتراف بالضعف، وإذا كانت أوراسيا أو استاسيا مثلًا «كيفما كان الحال» هي عدو اليوم، فإن تلك الدولة يجب أن تبقى دائمًا هي العدو، أما إذا نادت الحقائق بغير ذلك فيجب أن تغير الحقائق، وهكذا تعاد كتابة التاريخ بصورة مستمرة وتزور وقائع الماضي يومًا بعد يوم، وما تنفذه وزارة الصدق ليس إلا ضرورة من ضرورات استقرار الحكم لا تقل في أهميتها عن الضغط والكبت والجاسوسية التي تمارسها وزارة الحب.

إن إخراس الماضي هو العقيدة الرئيسية للاشتراكية الإنجليزية، ويقول الحزب في ذلك إن حوادث الماضي ليس لها وجود موضوعي سوى أنها تعيش في السجلات المكتوبة وفي الذكريات الإنسانية، والماضي هو أي شيء تتفق عليه السجلات والذكريات.

ولما كان الحزب يسيطر سيطرة تامة على جميع السجلات ويملك نفس السيطرة على عقول أعضائه، فإن الماضي، تبعًا لذلك، هو أي شيء يرى الحزب أن يكون.

وتبعًا لذلك أيضًا فإنه برغم قابلية الماضي للتغيير فإنه لم يطرأ عليه أي تغيير في مناسبة معينة لأنه عندما يعاد خلق الماضي في القالب الذي يتطلبه الوقت الحالي، فإن هذا

الشكل الجديد يكون هو الماضي ولا يمكن أن يكون هناك ماض آخر مختلفًا، وينطبق ذلك أيضًا، وهو أمر كثير الحدوث، عندما يضطر الحزب إلى تغيير حادث بذاته مرات عديدة خلال سنة واحدة، وفي جميع هذه الأحوال يكون الحزب على صواب دائمًا، ومن الواضح أن السيطرة على الماضي تعتمد إلى حد كبير على تدريب الذاكرة. أما التأكد من أن جميع السجلات المكتوبة تتفق مع صحة الاعتقاد في الوقت الحاضر فمجرد عمل آلي، بيد أنه من الضروري أيضًا أن يذكر الإنسان أن الأحداث وقعت بالطريقة المرغوبة. ولئن كانت الضرورة تدعو إلى إعادة تنظيم ذكريات الإنسان أو العبث بالسجلات المدونة، فإنها تدعو أيضًا إلى نسيان ما فعله الإنسان في هذا السبيل، أما التحايل على تحقيق ذلك فيمكن تعلمه مثلما يتعلم الإنسان أي أسلوب فكري آخر، وهذا التحايل أو الحيلة تتعلمها الأغلبية الساحقة من أعضاء الحزب ويتعلمها جميع الأذكياء وأصحاب الأفكار الصحيحة وكان يطلق عليها باللغة القديمة «السيطرة على الحقيقة»، أما في اللغة الحديثة فيطلق عليها «التفكير المزدوج».

والتفكير المزدوج معناه القدرة على التمسك باعتقادين متناقضين في وقت واحد وقبولهما معًا. ويعرف أعضاء الحزب الأذكياء الاتجاه الذي يجب أن تسلكه ذكرياتهم عند تغييرها، ويعرفون تبعًا لذلك أنهم إنما يحتالون على الواقع ويعبثون بالحقيقة، ولكنهم- إذ يتدربون على التفكير المزدوج- يعتقدون أيضًا بأن الواقع لم يدنس. وينبغي أن تجري هذه العملية عن إدراك ووعي، وإلا فإنها لا تنفذ بدقة كافية، كما يجب أن تتم بدون وعي أيضًا، وإلا ولّدت شعورًا بالتزوير، ومن ثم بالإثم.. فالتفكير المزدوج يكمن في صميم الاشتراكية الإنجليزية لأن العمل الأساسي للحزب هو استخدام الخداع الواعي مع الاحتفاظ برسوخ الغرض الذي يتمشى مع الأمانة المطلقة، ولذلك كان من الضرورات التي لا غنى عنها بالنسبة لأعضاء الحزب أن يكذبوا مع سبق الإصرار والتعمد وهم يؤمنون في قرارة أنفسهم بكذبهم، وأن ينسوا أية حقيقة أصبحت غير ملائمة، وعندما تدعو الضرورة إليها مرة أخرى يعودوا فيسحبوها من زوايا النسيان لتبقى ما دامت مطلوبة، وأن ينكروا وجود الواقع الموضوعي، وأن يحسبوا دائمًا حساب الواقع الذي ينكروه، وحتى عند استعمال كلمة التفكير المزدوج، من الضروري أن يتدرب الإنسان على التفكير المزدوج؛ لأنه إذا استخدم هذه الكلمة فإن ذلك يكون بمثابة اعتراف منه بأنه إنما يعبث بالوقائع والحقائق، ولكنه يستطيع، بعمل جديد من التفكير المزدوج، أن يمحو هذه المعرفة وهكذا إلا ما لا نهاية، وفي جميع الأحوال يكون الكذب دائمًا مقدمًا على الصدق.. وأخيرًا استطاع الحزب، ولعله يستطيع أيضًا لآلاف السنين- أن يسيطر على سير التاريخ بواسطة «التفكير المزدوج».

لقد سقطت جميع الأقليات الحاكمة في الماضي وأفلت منها زمام الحكم، إما لأنها تحولت إلى عظام قاسية صلبة، وإما لأنها أصبحت ناعمة هشة، فهي إما أن تكون قد أصيبت بالغباء والطغيان وعجزت عن تكييف نفسها حسبما تقتضيه الظروف المتغيرة مما أدى إلى سقوطها، أو أنها أصبحت متحررة سهلة فتنازلت عن حقوقها في وقت كان ينبغي عليها أن تلجأ فيه إلى الشدة، ومن ثم سقطت. وبعبارة أخرى إن هذه الأقليات الحاكمة سقطت إما بوعي أو بدون وعي. ولقد استطاع الحزب أن يخلق نظامًا للتفكير أتاح لهاتين الحالتين البقاء معًا، ولن يمكن للحزب أن يحتفظ بسيطرته دائمًا على أي أساس فكري آخر غير هذا الأساس، فإذا أراد الإنسان أن يحكم وأن يستمر في الحكم، وجب عليه أن يكون قادرًا على التخلص من الإحساس بالواقع؛ لأن سر الحكم هو الجمع بين الإيمان بالنفس وبأنك لا تخطئ وبين القدرة على التعلم من أخطاء الماضي.

وليست هناك ضرورة تدعو إلى القول بأن أكثر ممارسي الفكر المزدوج دهاء، هم أولئك الذين ابتدعوا التفكير المزدوج، وأدركوا أنه نظام واسع للخداع العقلي. وفي مجتمعنا هذا نرى أن أولئك الذين يملكون أحسن معرفة لما حدث هم أيضًا أولئك الذين يقفون أبعد ما يكون عن رؤية العالم كما هو، وخلاصة القول إنه كلما زاد فهم الإنسان زاد خداعه، وكلما

كان أشد ذكاء كان أقل تعقلًا، ومن الأمثلة الواضحة لذلك، الحقيقة التي مؤداها أن هيستيريا الحرب تزداد شدة كلما ارتفعت درجة الإنسان الاجتماعية. أما أولئك الذين ينظرون إلى الحرب نظرة أقرب إلى العقل والمنطق فهم رعايا المناطق المتنازع عليها، فالحرب بالنسبة لهؤلاء الناس مجرد كارثة مستمرة تجتاح أجسامهم جيئة وذهابًا كالمد والجزر، ولا يهمهم في كثير أو قليل الجانب الذي سينتصر في الحرب؛ لأن تغيير السيد لا يعني أكثر من أنهم سيقومون بالعمل نفسه الذي كانوا يؤدونه في الماضي ولكن لمصلحة سادتهم الجدد الذين سوف يعاملونهم بنفس المعاملة التي كان أسيادهم القدامى يعاملونهم بها من قبل، أما العمال الأكثر حظًّا من هؤلاء بقدر ضئيل والذين نطلق عليهم اسم العامة فيشعرون بالحرب خلال فترات متقطعة، وعندما تدعو الضرورة يصبح هؤلاء شعلة من الخوف والكراهية، بيد أنهم إذا تركوا وشأنهم فإنهم يستطيعون نسيان وقوع الحرب لفترات طويلة. أما الحماس الفعلي للحرب فلا يوجد إلا بين صفوف الحزب، وعلى الأخص بين صفوف الحزب الداخلي، وأشد الناس إيمانًا باحتلال العالم وقهره هم أولئك الذين يعرفون أن ذلك ليس مستطاعًا.. إن هذا الربط الغريب بين المتناقضات- المعرفة مع الجهل، والتهكم مع التعصب- هو أهم خصائص المجتمع الأوشاني. والمثالية الرسمية مليئة بالمتناقضات، حتى ولو لم يكن هناك سبب فعلي لها، وهكذا نرى الحزب يرفض كل مبدأ أيدته الحركة الاشتراكية في بادئ الأمر بل ويفتري عليه، وهو يفعل ذلك باسم الاشتراكية، وينادي الحزب باحتقار الطبقة العاملة إلى حد لم يسبق له مثيل في الماضي، وهو يلبس أعضاءه زيًّا كان في الماضي يميز العمال اليدويين، وقد اختاره لهذه الغاية، وفضلًا عن ذلك فإنه يعمل دائمًا، وطبقًا لنظام معين، على الحط من قدر الأسس التي تقوم عليها الروابط العائلية، على حين أنه يدعو زعيمه الأخ الأكبر ويعتبره رمزًا للشعور بالإخلاص العائلي. ليس ذلك فحسب، بل إن أسماء الوزارات الأربع التي تتحكم في أمورنا تبدي لونًا من القحة بقلبها المتعهد للحقائق، فوزارة السلم تعني بشئون الحرب، ووزارة الصدق تخترع الأكاذيب، ووزارة الحب تمارس التعذيب، ووزارة الخير الوفير تولّد الموت جوعًا، وهذه المتناقضات ليست عرضية، كما أنها ليست نتيجة نفاق عادي، وإنما هي تدريبات متعمدة مقررة في التفكير المزدوج، لأن الاحتفاظ بالسلطة إلى الأبد لا يأتي إلا عن طريق التوفيق بين المتناقضات ولن يمكن تحطيم الدائرة القديمة إلا بهذا الأسلوب وإذا أردنا تجنب المساواة بين الناس إلى الأبد، وإذا أراد «الأعلون» كما دعوناهم أن يحتفظوا بمراكزهم بصفة دائمة، فمن الضروري السيطرة على الحالة الفكرية السائدة.

بقيت هناك مشكلة كدنا نتجاهلها حتى الآن وتلك هي: لماذا يجب تجنب المساواة الإنسانية؟ لنفرض أن العمليات الآلية التي تيسر العمل قد وصفت وصفًا صحيحًا، فما هو الدافع لهذا المجهود الضخم الذي وضعت خطته بدقة وعناية والذي يهدف إلى تجميد التاريخ عند لحظة معينة من الزمن؟

وهنا نصل إلى السر الأساسي، فقد رأينا أن غموض الحزب وفلسفته وخاصة الحزب الداخلي يعتمدان على التفكير المزدوج، والأعمق من ذلك هو الدافع الأصلي والغريزة التي أدت أولًا إلى القبض على مقاليد الأمور وولدت التفكير المزدوج، والتي أدت أيضًا- فيما بعد- إلى ظهور بوليس الفكر والحرب المستمرة وما تدعو إليه الضرورة من أجهزة وملحقات... إن هذا الدافع يشتمل فعلًا على....

وإذ وصل ونستون إلى هذه المرحلة من الكتاب بدأ يشعر بالصمت وهو نفس الشعور الذي ينتاب الإنسان عند سماعه صوتًا جديدًا، وخيل إليه أن جوليا ظلت جامدة تمامًا فترة طويلة.. كانت نائمة على جانبها وقد انكشف جسدها من الخصر إلى أعلى وقد توسدت خدها براحة يدها بينما كان صدرها يعلو ويهبط ببطء وانتظام.

ناداها: جوليا!

فلم تجب..

فعاد يناديها: هل أنت مستيقظة يا جوليا؟

فلم تجب أيضًا لأنها كانت مستغرقة في النوم، فأغلق الكتاب ووضعه بعناية على الأرض، ثم اضطجع وسحب الغطاء فوقه وفوق جوليا.

وبدأ يفكر.. قال لنفسه إنه لم يعرف بعد السر النهائي.. لقد فهم كيف ولكنه لم يفهم لماذا، فالفصل الأول كالفصل الثالث، لم يأته فعلًا بجديد لم يكن يعلمه من قبل، وإنما كل ما فعله هو أنه رتب المعرفة التي كانت ملك يديه في الماضي حسب نظام خاص، بيد أنه أدرك، بعد قراءة الفصلين، أنه لم يكن مجنونًا، فإن مجرد وجودك بين أقلية ولو كانت هذه الأقلية تتكون من فرد واحد فقط هو أنت، لا يجعلك مجنونًا. فهناك حقيقة وبهتانًا، فإذا تمسكت بالحقيقة مخالفًا العالم برمته فأنت لست مجنونًا.. وهنا نفذ شعاع أصفر من الشمس الغاربة مخترقًا النافذة وسقط على الوسادة، فأغلق ونستون عينيه بعد أن لفحت أشعة الشمس الغاربة وجهه وجسد الفتاة الناعم الملاصق لجسده وأضفت عليه شعورًا قويًّا يدعو إلى الثقة والنوم بطمأنينة، كان يعلم أنه في أمان وهو في هذه الغرفة، ومن ثم فقد أغلق عينيه واستسلم للنوم وهو يتمتم: العقل ليس إحصاء..

قال ذلك وهو يشعر بأن هذه الملاحظة تتضمن حكمة عميقة.

الفصل الرابع وعندما استيقظ أحس بأنه نام وقتًا طويلًا، ولكن نظرة واحدة ألقاها على ساعة الحائط أنبأته بأن الوقت لم يتعد الساعة الحادية عشرة، فاستسلم للنوم فترة طويلة أخرى، ثم أفاق على صوت الغناء المألوف الصادر من الساحة الكائنة أسفل الغرفة.. كان الصوت يردد الأنشودة التالية:

لم يكن إلا خيالًا لا أمل فيه مر كما يمر يوم من أيام أبريل ولكن نظرة وكلمة وأحلامًا أثارتها قد سرقت قلبي ومضت به بعيدًا!

كانت الأغنية مألوفة وشائعة يسمعها الإنسان في كل مكان، وقد عاشت حتى بعد أن ولدت «أنشودة الكراهية»... واستيقظت جوليا على الصوت وتمطت في تراخ.

ثم نهضت وتركت الفراش.

وقالت: إنني جائعة.. دعنا نعد بعض القهوة.. يا للعنة! لقد انطفأ الموقد وبرد الماء.

ورفعت الموقد وهزته، وقالت: ليس به غاز، أكبر ظني أننا نستطيع أن نحصل على بعض الغاز من شارنجتون العجوز.

واستطردت بعد لحظات: من العجيب أنني تأكدت من أنه كان ملآنًا!! سأرتدي ثيابي، إذ يبدو أن الطقس قد ازداد برودة.

ونهض ونستون بدوره وارتدى ثيابه، وكان الصوت الذي لا يكل ولا يمل يتابع الغناء فيقول:

يقولون إن الزمن يشفي جميع الجروح ويقولون إن الإنسان يستطيع أن ينسى دائمًا ولكن الابتسامات والدموع عبر السنين ما تزال تعصر خيوط قلبي!

كانت المرأة صاحبة الصوت تذرع أرض الساحة جيئة وذهابًا.. وأدرك ونستون أن الشمس لا بد أن تكون قد اختفت خلف المنازل، لأن أشعتها لم تعد تلمع في الساحة. أما البلاط فكان مبتلًّا كما لو كان قد غسل لتوه، وكان يساور ونستون إحساس بأن السماء قد غسلت أيضًا، فقد كانت زرقتها نضرة شاحبة بين المداخن..

وراحت المرأة تروح وتغدو بغير كلل أو ملل وهي تغني وتصمت وتنشر الغسيل. وتساءل ونستون عما إذا كانت تمارس مهنة الغسيل من أجل العيش، أو أنها كانت مجرد رقيق لعشرين أو ثلاثين حفيدًا. وكانت جوليا قد انضمت إليه قرب النافذة، وراحا يحملقان إلى أسفل وقد تولاهما لون من الافتتان بقوام المرأة القوي.

ولأول مرة رأى ونستون عليها مسحة من الجمال، فلم يكن يخطر بباله من قبل أن امرأة في الخمسين من عمرها أنهكها الحمل والوضع أشد إنهاك، وقسا العمل عليها أشد قسوة، يمكن أن تكون جميلة. ولكن هذه المرأة كانت جميلة. ولم لا؟ إن جسدها الراسخ الصلب الشبيه بصخرة من الجرانيت، وجلدها الأحمر الخشن، يمثلان العلاقة بالنسبة لجسم أية فتاة بالعلاقة القائمة بين تاج الوردة وكأسها.. لماذا ينبغي أن تكون الثمرة أقل أهمية من الزهرة؟

تمتم ونستون: إنها جميلة.

فقالت جوليا: إن عرض كفلها يبلغ مترًا بسهولة.

فقال ونستون: هذا سر جمالها.

وأحاط خصر جوليا الرفيع بذراعه، فالتصق به جسمها من عجزها لركبتيها.. إنهما ملتصقان جسمانيًا إلا أنه كان يعلم أنهما لن يستطيعا أن ينجبا طفلًا؛ لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيعان فعله.

أما الذي يستطيعان فعله فهو تبادل الكلمات التي تصل إلى عقليهما، أما المرأة التي تكد في الساحة فلا عقل لها، ولكنها تملك ذراعين قويين، وقلبًا دافئًا ورحمًا خصبًا. وتساءل ونستون عن عدد الأطفال الذين أنجبتهم، لعلها أنجبت خمسة عشر طفلًا، ولا ريب أنها كانت يومًا ما كالزهرة البرية جميلة يانعة دانية ثم انتفخت فجأة كالفاكهة النامية فأصبحت صلبة حمراء خشنة، وغدت حياتها عبارة عن كدح دائم في الطهو والغسل والكنس والصقل والرتق والكي لأطفالها أولًا، ثم لأحفادها فيما بعد. ومع ذلك كله فإنها لا تزال تغني، ولقد امتزج شعور ونستون نحوها بالاحترام الغامض.. امتزج بجانب من جوانب السماء الباهتة الخالية من الغيوم والتي تمتد إلى ما وراء المدخنة إلى مسافة لا نهاية لها. ولقد كان عجيبًا أن يفكر في أن السماء واحدة بالنسبة لكل إنسان سواء أكان يعيش في أوراسيا أو استاسيا أو هنا في أوشانيا.. فهنا تحت السماء يتشابه الناس إلى حد كبير أينما كانوا، ففي جميع أنحاء العالم يعيش مئات الألوف من الناس على هذا النحو، وهم يجهلون وجود بعضهم بعضًا، بينما تفصل بينهم جدران من الكراهية والأكاذيب.. ومع هذا كله فإنهم متشابهون، أناس لم يتعلموا إطلاقًا كيف يفكرون، ولكنهم يختزنون في قلوبهم وصدورهم وعضلاتهم القوة التي يمكن أن تقلب العالم في يوم من الأيام. فإذا كان هناك أمل، فإنه يكمن في العامة! وبغير أن يقرأ الكتاب إلى نهايته أدرك ونستون أن هذه هي رسالة جولد شتاين النهائية، فالمستقبل ملك العامة.. وقال ونستون لنفسه: أنى لي أن أستوثق من أنه عندما يصبح العالم ملك أيديهم، أن هذا العالم الذي سوف ينشئونه لن يكون غريبًا عليّ كهذا العالم الذي يسيطر الحزب عليه؟ نعم سيكون كذلك؛ لأنه سيكون عالم التعقل على أقل تقدير. فحيثما توجد المساواة يوجد التعقل، ولسوف يحدث ذلك إن عاجلًا أو آجلًا، سوف

تنقلب القوة إلى شعور.. إن العامة هم الخالدون، وإنك لن تستطيع أن تشك في هذه الحقيقة حينما تتطلع إلى قوام المرأة القوي الراسخ التي تعمل جاهدة في الساحة. لا بد أن يستيقظ العامة في النهاية، وإلى أن يحدث ذلك، وقد لا يحدث إلا بعد انقضاء آلاف السنين، سيظل العامة أحياء رغم كل الظروف المعاكسة كالطيور تنقل الحيوية من جسم إلى جسم، بغير أن يجد الحزب سبيلًا لتقاسم هذه الحيوية أو قتلها.

قال ونستون: هل تذكرين ذلك العصفور الذي غرد لنا يوم أن التقينا لأول مرة عند حافة الغابة؟

فأجابت: إنه لم يكن يغرد لنا وإنما كان يغرد لنفسه، ليس ذلك فحسب، وإنما كان يغرد لمجرد التغريد.

لقد غردت الطيور، وغنى العامة، ولكن الحزب لم يغن، وشبيهات هذه المرأة ذوات القوام الصلب الذي لا يقهر واللائي يعملن ويكدحن من يوم ميلادهن إلى يوم موتهن ومع ذلك فإنهن يغنين، موجودات في جميع أنحاء العالم، في لندن ونيويورك، وفي أفريقيا والبرازيل، وفي الأراضي ذات الأسرار المحرّمة والواقعة وراء الحدود، وفي شوارع باريس وبرلين، وفي قرى السهول الروسية التي لا نهاية لها، وفي أسواق الصين واليابان..

من أصلابهن القوية سيأتي حتمًا جيل من المخلوقات الواعية يومًا ما، فإذا كنت أنت من الأموات، فإن المستقبل لهؤلاء. ولكنك تستطيع أن تقاسمهم المستقبل إذا احتفظت بالعقل نشطًا واحتفظوا هم بنشاط الجسد، ونقلت إليهم العقيدة السرية من أن اثنين واثنين يساويان أربعة.

قال ونستون: إننا نحن الأموات.

ورددت جوليا عبارته قائلة: إننا نحن الأموات.

وقال صوت حديدي من الخلف: إنكما الهالكان!

فقفزا منفصلين عن بعضهما.. وخيل لونستون أن أطرافه تجمدت. واستطاع أن يرى وجه جوليا وقد امتقع حتى حاكى لون الأموات. وبدا كأن بقعتي «الأحمر» فوق خديها قد برزتا بشكل ظاهر وكأنهما لا صلة تربطهما بالبشرة التي تحتهما.

وكرر الصوت الحديدي قوله: إنكما الهالكان.

وهمست جوليا: إن الصوت صادر من وراء الصورة.

وقال الصوت: إنه لكذلك، الزما مكانكما، ولا تأتيا بأية حركة حتى يصدر لكما أمر بذلك.

لقد بدأت النهاية. بدأت أخيرًا! لم يستطيعا حراكًا، وراحا يحدقان أحدهما في الآخر.. ولم يخطر ببالهما أن يهربا طلبًا للنجاة أو يغادرا الغرفة قبل فوات الأوان، فليس من المعقول عصيان أمر الصوت الساخر الصادر من وراء الجدار. ثم سمعا قرقعة وتحطيم زجاج.. وسقطت الصورة فوق أرض الغرفة وكشفت عن الستار الناقل الموجود خلفها.

قالت جوليا: إن في استطاعتهم أن يرونا الآن.

فقال الصوت: في استطاعتنا أن نراكما الآن.. قفا في منتصف الغرفة ظهرًا لظهر،

وضعا أيديكما خلف رأسيكما ولا يلمس أحدكما الآخر.

ولم يتلامسا، ولكن خيل لونستون أنه يستطيع أن يشعر بجسد جوليا وهي ترتعش، أم لعل جسده هو الذي كان يرتعش.. وبالكاد استطاع أن يمنع أسنانه من الاصطكاك ولكنه لم يستطع السيطرة على ركبتيه. ثم سمعا وقع أقدام تسير في الساحة بخطى عسكرية، كما سمعاها بداخل المنزل، وبدا لهما أن الساحة قد امتلأت بالرجال، وكفت المرأة عن الغناء بغتة، وأعقب ذلك صراخ وعويل، فقال ونستون:

- إن المنزل محاصر.

فقال الصوت المجهول: إن المنزل محاصر.

وسمع ونستون صوت أسنان جوليا وهي تصطك، وقالت الفتاة بصعوبة:

- أكبر ظني أنه يحسن بنا أن يودع أحدنا الآخر.

فعاد الصوت المجهول يقول: يحسن بكما أن يودع أحدكما الآخر.

ثم سمعا صوتًا يختلف عن الصوت الأول، كان صوتًا ناعمًا مهذبًا خيل لونستون أنه سمعه من قبل.. وقال صاحب الصوت الجديد:

- وبهذه المناسبة، وما دمنا بصدد الوداع، فها قد جئناكما بمصباح يضيء لكما الفراش، وبمقصلة تطيح برأسيكما!

وسمع ونستون شيء يرتطم بالفراش خلفه، ثم برزت رأس سلم من النافذة، وأعقب ذلك صوت أقدام شخص يتسلقه، وإن هي إلا لحظة حتى غصت الغرفة برجال أقوياء يرتدون ملابس سوداء رسمية ويحملون الهراوات في أيديهم.

ولم يعد ونستون ينتفض كما كان يفعل من قبل، حتى عيناه لم تتحركا إلا نادرًا.. كان شيء واحد يهمه: أن يحتفظ بهدوئه حتى لا يهيئ لهم عذرًا لضربه! ووقف أمامه رجل فظ أشبه بالمصارعين وراح يزن هراوته مفكرًا. ونظر ونستون إلى عيني الرجل وقد انتابه شعور من الضيق الشديد.. وفي تلك اللحظة سمع الجميع صوت قرقعة عالية، فقد التقط أحد الرجال «الثقالة» الزجاجية من فوق المكتب وألقى بها فوق حجر المدفأة فتحطمت.

وتدحرجت قطع الزجاج على الأرض.. كانت ضئيلة للغاية، وما كادت قطع الزجاج تستقر في مختلف أرجاء الغرفة، حتى شعر ونستون بضربة تأتيه من الخلف وتفقده توازنه، بينما كان رجل آخر يمسك بتلابيب جوليا، ولكن ونستون لم يجرؤ على إدارة رأسه، وأمسك بالفتاة رجلان، وحملاها خارج الغرفة كجوال، واستطاع ونستون أن يلقي عليها نظرة واحدة خاطفة. كانت صفراء اللون ممتقعة الوجه مغلقة العينين، وكانت تلك آخر نظرة ألقاها عليها. أما هو فبقي جامدًا بلا حراك كالتمثال. وبدأت الأفكار تمر سراعًا بخاطره، فتساءل عما إذا كانوا قد ألقوا القبض على شارنجتون وعما فعلوه بالمرأة التي كانت تغني في الساحة.

وشعر بأنه بحاجة عاجلة إلى التبول، وأدهشه ذلك لأنه كان قد تبول منذ ساعتين أو ثلاث ساعات، ولاحظ أن ساعة الحائط تشير إلى التاسعة وأن الضوء كان ساطعًا مع أنه يكون عادة ضعيفًا في مثل هذا الوقت من شهر أغسطس، وتساءل عما إذا كان هو وجوليا قد أخطآ الوقت وناما حتى التاسعة من صباح اليوم التالي، ولكنه لم يشأ متابعة هذه الفكرة لعدم أهميتها.

وسمع وقع خطوات خفيفة في الممر، ودخل مستر شارنجتون إلى الغرفة، وفي التو بدأ أصحاب الزي الأسود يغيرون سلوكهم، ولاحظ ونستون أن شيئًا ما قد تغير في مظهر شارنجتون نفسه. وسقطت عينا شارنجتون على «ثقالة» الورق المحطمة.. فقال بحدة:

- اجمعوا هذه القطع.

وانحنى أحد الرجال مطيعًا للأمر. وأدرك ونستون فجأة كنه الصوت الذي كان قد سمعه من الستار الناقل منذ فترة قصيرة.. كان شارنجتون لا يزال يرتدي سترته المخملية العتيقة ولكن شعره استحال أسود، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يرتدي عويناته.. وألقى الرجل نظرة حادة عليه، وكأنه يريد أن يتحقق من شخصيته ثم انصرف عنه. كان ونستون لا يزال يستطيع التعرف على شارنجتون رغم أنه لم يعد الشخص الذي عرفه في الماضي، فقد استقام جسمه وبدا كأنه ازداد طولًا وفخامة، أما وجهه فقد طرأت عليه تغييرات طفيفة ولكنها غيرته تغييرًا شاملًا، وزالت التجاعيد من وجهه، وأصبح حاجباه أقل كثافة، حتى أنفه بدا أقصر مما كان عليه. ووقف الرجل منتصبًا أمام ونستون وقد بدا عليه برود ويقظة الرجل الذي لا يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين. ولأول مرة جالت بمخيلة ونستون فكرة.

أدرك في التو أنه يتطلع إلى أحد رجال بوليس الفكر.

الجزء الثالث

الفصل الأول

لم يدر ونستون أين هو. كان المفروض أنه موجود في وزارة الحب، لكن كيف السبيل للتأكد من ذلك؟

كان قابعًا في «زنزانة» عالية السقف، معدومة النوافذ، غطيت جدرانها بطبقة من القيشاني الأبيض اللامع، بينما كانت مصابيح مخفاة تغمر المكان بضوء باهر، كما كان هناك صوت همهمة خافتة افترض ونستون أن له علاقة بتهوية «الزنزانة». وكان أثاث الزنزانة مكونًا من «دكة» أو رف لا يكاد يتسع للجلوس إلا بصعوبة ولكنه يمتد حول جدران الزنزانة الأربعة فيما عدا فتحة الباب، وفي الجانب المواجه للباب كان هناك وعاء لقضاء الحاجة. وقد ثبت فوق كل جدار من جدران الزنزانة الأربعة ستار ناقل.

وشعر ونستون بألم شديد في بطنه، وكان قد بدأ يحس به منذ حشروه حشرًا في المركبة المقفلة التي أقلته. ولكنه كان يشعر أيضًا بالجوع، وكان جوعًا شديدًا مؤلمًا، ولعله قضى أربعًا وعشرين ساعة أو ستًّا وثلاثين لم يذق خلالها طعامًا، ولم يستطع أن يعرف إن كانوا قد ألقوا القبض عليه في الصباح أو في المساء، ولكنه كان يعلم أنه لم يذق طعامًا منذ أعتقل.

وجلس منطويًا على نفسه صامتًا هادئًا فوق المقعد وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه، وكان قد تعلم كيف يجلس بلا حراك، وأدرك أنه إذا أتى بأية حركة غير متوقعة فإن الستار الناقل ينهاه عن الإتيان بها في شدة وصرامة.. وعاد الجوع يفري أحشاءه، وتذكر أنه كان قد ترك كسرة من الخبز في جيب سرواله، وتردد لحظة، ولكنه لم يستطع احتمال وطأة الجوع فطرح الخوف عنه ومد يده إلى جيبه.

وفي التو سمع صوتًا يصرخ من الستار الناقل: سميث! ونستون سميث رقم 6079، أخرج يدك من جيبك!

فجمدت يده. ثم عقد ذراعيه حول ركبتيه مرة أخرى، وتذكر أنهم ذهبوا به إلى مكان أشبه بالسجن العادي أو السجن المؤقت تستعمله الداوريات قبل أن يجيئوا به إلى هذه «الزنزانة»، ولكنه لم يستطع أن يعرف كم من الساعات قضاها في السجن المؤقت. كان مكانًا صاخبًا تتصاعد منه الروائح الكريهة، وكانوا قد وضعوه في زنزانة شبيهة بتلك التي يقيم فيها حاليًا، إلا أنها أشد قذارة، وكان بهذه «الزنزانة» عدد يتراوح بين عشر رجال إلى خمسة عشر رجلًا أغلبهم من المجرمين العاديين وبينهم أقلية من المجرمين السياسيين، وإنه ليذكر فيما يذكر أنه جلس صامتًا وقد أسند ظهره إلى الجدار، بينما أحاطت به أجسام قذرة كانت تدفعه ذات اليمين وذات اليسار. ولكن الخوف والألم سيطرا عليه بشكل جعله ينصرف عن مراقبة ما يجري حوله، بيد أنه لاحظ أن هناك فارقًا كبيرًا بين تصرف أعضاء الحزب وغيرهم من المجرمين، فالمسجونون من أعضاء الحزب كانوا يلزمون الصمت دائمًا، وقد تبدى الخوف والرعب في عيونهم، أما المجرمون العاديون فكانوا لا يعيرون أحدًا اهتمامًا أو التفاتًا فكانوا يوجهون الإهانات للحراس، ويقاتلون بضراوة عندما يهم الحراس بجمع أمتعتهم ويكتبون الكلمات البذيئة فوق الجدران ويأكلون الطعام المهرب ويصرخون في وجه الستار الناقل.

وقد خيل لونستون أن بعض هؤلاء المجرمين كانوا متفاهمين مع الحراس، إذ كانوا ينادونهم بأسمائهم الأولى بلا كلفة ويأخذون منهم لفافات التبغ. وكان الحراس بدورهم

يعاملون المجرمين العاديين بشيء من الصبر حتى في الظروف التي تقضي باستعمال القسوة. وكان المسجونون يكثرون من الحديث عن معسكرات العمل الإجباري وهي المكان الذي كان يتوقع السواد الأعظم منهم أن يساقوا إليه. وفهم ونستون من حديثهم أن الحياة لا بأس بها في هذه المعسكرات طالما يستطيع السجين أن يجد وسيلة للاتصال بالحراس ومعرفة مداخل المعسكر ومخارجه، ففي هذه المعسكرات تتفشى الرشوة والتفرقة في المعاملة والعربدة والبلطجة بكافة أنواعها والشذوذ الجنسي والدعارة، بل إن هناك تهريبًا عن طريق تقطير للمشروبات الروحية من البطاطس. ولم يكن المشرفون على معسكرات العمل الإجباري يثقون إلا بالمجرمين العاديين، وعلى الأخص أفراد العصابات والقتلة الذين كانوا يؤلفون نوعان من الأرستقراطية، أما جميع الأعمال القذرة فكانت من نصيب المجرمين السياسيين.

وكان يصل إلى السجن ويخرج منه سيل متدفق من المجرمين ومنهم اللصوص، ومهربو المخدرات، وقطاع الطرق، وتجار السوق السوداء، والسكارى، والبغايا، وكان بعض السكارى على درجة كبيرة من العنف مما كان يضطر باقي المسجونين إلى التكتل لوقف أذاهم.. وجيء بامرأة ضخمة الجسم في حوالي الستين من عمرها ذات شعر أشيب، وكان الحراس يدفعونها إلى الزنزانة تارة ويحملونها قسرًا تارة أخرى، وهي تقاومهم بعنف وتصرخ في وجوههم. وفي النهاية استجمع أربعة من الحراس قواهم ودفعوها بعنف فسقطت فوق ونستون. وبادرت المرأة بالوقوف واندفعت نحو الباب وهي تلعن الحراس. ولكنهم كانوا قد أغلقوا باب الزنزانة فعادت أدراجها إلى ونستون وقالت له:

- أرجو المعذرة يا عزيزي.. كان يجب ألا أجلس فوق ركبتيك ولكن هؤلاء الأنذال هم الذين أجلسوني فوقهما.. إنهم لا يعرفون كيف ينبغي أن يعاملوا السيدات!

وتوقفت عن الكلام وضربت صدرها بيدها وهي تقول: معذرة فإنني لست في حالة طبيعية.

وانحنت ثم أفرغت ما في جوفها على الأرض، وبعدئذ استندت بظهرها إلى الجدار وأغلقت عينيها.

ثم قالت: هذا أحسن، حذار أن تحتفظ بما لا تستسيغه معدتك.

وعاودها نشاطها، فالتفتت حولها، وخيل كأنها أعجبت بونستون، إذ أسرعت فوضعت ذراعها حول كتفيه وجذبته نحوها، بينما راحت أنفاسها المشبعة برائحة الجعة والقيء تلفح وجهه.

وسألته: ما اسمك يا عزيزي؟

فأجاب: سميث.

فقالت: سميث؟ هذا عجيب فإن اسمي سميث أيضًا.. فلعلي أكون أمك.

وطاف بذهن سميث أنه من المحتمل أن تكون أمه، فقد كانت في مثل سنها وقوامها، وإن كان من المحتمل أن بعض التغيير قد طرأ عليها بعد أن قضت عشرين عامًا في معسكر العمل الإجباري.

ولم يتحدث أي شخص آخر مع ونستون، وشد ما كانت دهشته حينما لاحظ أن المجرمين العاديين يتجاهلون المسجونين السياسيين وينظرون إليهم بغضب وازدراء، أما المسجونون السياسيون فكانوا يخشون الكلام مع المجرمين، بل كانوا يتجنبون الكلام

أحدهم مع الآخر. وقد استطاع ونستون أن يسمع امرأتين سجينتين من أعضاء الحزب تتهامسان مع بعضهما، وفهم من حديثهما أنه يدور حول شيء ما بالغرفة «101» ولكنه لم يدرك كنه هذا الشيء.

لعلهم كانوا قد جاءوا به إلى هذا المكان منذ ساعتين أو ثلاث ساعات، ولكن الألم كان يشتد عليه بين الحين والحين، كما كان الجوع يعضه بنابه، بينما سيطر الخوف عليه، ولقد مرت به لحظات كان يتصور خلالها ما سيحدث له مما كان يجعل قلبه يطرق بعنف بالغ بين جنبيه بينما تكاد أنفاسه تتوقف. كان يشعر بالهراوات تحطم ضلوعه وأحذية الجنود تهشم جسمه، ورأى نفسه يتدحرج فوق الأرض وهو يصرخ من بين أسنانه المهشمة في طلب الرحمة. وقلما كان يفكر في جوليا لأنه كان عاجزًا عن تركيز أفكاره فيها. صحيح أنه أحبها وأنه لن يخونها، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد حقيقة معروفة له كقواعد الحساب، أما وقد تغيرت الظروف وساءت إلى هذا الحد الخطير، فإنه أصبح لا يشعر بأي حب نحوها. وندر أن كان يفكر فيما كانت تتعرض له بدورها من أذى. وكثيرًا ما كانت تشرد أفكاره لتلتقي بأوبرين فيعاوده نوع من الأمل المتقطع. لا جدال في أن أوبرين قد علم بأمر اعتقاله.. وتذكر أن أوبرين كان قد قال له إن «الإخوة» لم يحاولوا مطلقًا إنقاذ أحد أعضاء جماعتهم وأن كل ما تفعله الجماعة هو أن تحاول تهريب «شفرة حلاقة» له ليضع بها حدًّا لحياته.

وكان ينصرف في بعض الأحايين إلى عد قطع القيشاني الملصقة بأحد جدران «الزنزانة» ولكنه لم يفلح. وكثيرًا ما كان يتساءل أين هو؟ وما هو الوقت؟ وكان يشعر في إحدى اللحظات بأنه من المحقق أن ضوء النهار يسطع في الخارج، ولكنه لا يلبث أن يغير رأيه بعد قليل ويجزم بأن الظلام الحالك يخيم على العالم الخارجي.

وكان يعلم بالغريزة أن الأضواء ستظل باهرة متألقة بداخل «الزنزانة» ليل نهار. فإن هذا هو المكان الذي لا يخيم عليه الظلام. وقد فطن في تلك اللحظة إلى السبب الذي جعله يظن أن أوبرين أدرك ما أشار إليه عندما حدثه عن المكان الذي لا ظلام فيه. لقد كانت وزارة الحب خالية من النوافذ، وقد تكون زنزاناتها في أقبية تحت الأرض أو في الطابق الثلاثين فوق الأرض!

وسمع وقع أقدام تقترب من «الزنزانة»، ثم فتح الباب الفولاذي على مصراعيه ودخل ضابط شاب متأنق في ملبسه، وأشار إلى الحراس مطالبًا إياهم بإدخال السجين الجديد، وكان المسكين هو الشاعر أمبلفورث. ثم غادر الضابط «الزنزانة» وأغلق الباب خلفه.

وسار الشاعر فوق أرض الزنزانة على غير هدى، ولم يلاحظ وجود ونستون، وكان أمبلفورث حافي القدمين مرسلًا لحيته، عصبي المزاج، سريع الحركة.

وتحرك ونستون قليلًا من مكانه، وكان قد وطد عزمه على التحدث مع القادم الجديد، بصرف النظر عن الستار الناقل، فقد خطر له أنه كان ربما الشاعر يحمل له شفرة الحلاقة.

ناداه: أمبلفورث.

وبقي الستار الناقل صامتًا، بينما كف أمبلفورث عن الحركة وقد استولى عليه فرح خفيف، ثم وجه نظره إلى ونستون قائلًا:

- آه، سميث! أنت أيضًا!

- لماذا قبضوا عليك؟

فأجاب أمبلفورث وهو يجلس أمامه: الواقع أن هناك جريمة واحدة لا غير، أليس كذلك؟

- وهل ارتكبتها؟

- في الواقع إنني فعلت ذلك.

وجرى أمبلفورث بيده فوق جبهته، وضغط بها فوق جانبيها كأنما يحاول جمع شتات فكره.

ثم قال: كثيرًا ما تحدث هذه الأشياء، ولقد استطعت أن أتذكر حادثًا لعله هو الذي جاء بي إلى هذا المكان.. لا ريب أنه كان سوء تصرف مني. فقد كنا نصدر بعض قصائد كبلنج وقد تركت كلمة «الله» في آخر سطر من السطور لأنها تنسجم مع الوزن.. الواقع أني قضيت أيامًا طويلة محاولًا أن أجد وزنًا آخر يمكنني من حذف هذه الكلمة ولكن جميع أوزان الشعر الإنجليزي لم تسعفني فاضطررت إلى إبقاء الكلمة كما هي.

واختفى الغضب الذي كان يكسو وجهه، وبدا عليه الانشراح، ثم أردف:

- ألم يخطر ببالك مطلقًا أن الشعر الإنجليزي في جميع العصور كان خاضعًا لنقص الأوزان في اللغة الإنجليزية؟

ولم يكن ذلك قد خطر ببال ونستون طبعًا، ثم إن ذلك لم يبد له بالأمر المهم في مثل ظروفه الحالية.

سأل ونستون: هل تعرف كم الساعة الآن؟

فبدت الدهشة على وجه أمبلفورث وأجاب: قلما فكرت في ذلك. لقد ألقوا القبض عليّ منذ يومين وربما ثلاثة أيام، ويبدو لي ألا فرق بين الليل والنهار في هذا المكان، ولست أدري كيف يستطيع من يقيم فيه أن يحصي الزمن!

وتابعا حديثهما المفعم باليأس لعدة دقائق إلى أن صرخ الستار الناقل يأمرهما بالصمت لغير سبب ظاهر. فجلس ونستون هادئًا وقد تشابكت يداه فوق ركبتيه، أما أمبلفورث فراح يتململ في مجلسه إلى أن أمره الستار الناقل بالامتناع عن الحركة.. ومر الوقت ببطء شديد، ولعلهما بقيا في وضعهما هذا عشرين دقيقة أو ساعة، ولكنهما ما لبثا أن سمعا وقع أقداس الحراس الثقيلة خارج الزنزانة، ثم فتح الباب مرة أخرى، وأطل الضابط الشاب بوجهه الجامد البارد، وأشار بيده إلى أمبلفورث.

وقال للحراس: الغرفة «101».

وهرول الشاعر المسكين بين الحراس وقد بدا الاضطراب على وجهه، وإن لم يفهم معنى عبارة الضابط.

ومضى وقت خيل لونستون أنه كان طويلًا، وعاد الألم فاشتد على ونستون. وشردت أفكاره في دائرة مفرغة، ولكنها لم تلبث أن تركزت في ستة أشياء: الألم الذي كان يفري معدته، وكسرة الخبز- والدم والصراخ- وأوبرين- وجوليا- وشفرة الحلاقة.. وأحس مرة أخرى بانقباض شديد بعد أن سمع وقع أقدام الحراس وهم يقتربون من الباب، ثم لم يلبث الباب أن فتح، وحمل الهواء الداخل رائحة العرق، وكان القادم الجديد هو بارسونز، وكان يرتدي سروالًا قصيرًا من الكاكي وقميصًا مفتوحًا عند العنق.

وعقدت الدهشة لسان ونستون ونسي نفسه، فلما عاودته رباطة جأشه هتف:

- وأنت أيضًا هنا؟

وألقى بارسونز نظرة على ونستون.. كانت نظرة خالية من كل دهشة واهتمام، وراح يذرع الزنزانة جيئة وذهابًا في خطى مضطربة، وكانت ركبتاه ترتعشان، وقد بدا الفزع في عينيه وكأنهما تحملقان في الأفق البعيد.

سأله ونستون: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأجاب التعس بصوت تخنقه العبرات: جريمة الفكر.

كانت لهجته تدل على اعتراف كامل باقتراف الجريمة، وكأنما دهمته موجة من الفزع وهو يفكر في أن مثل هذا الاتهام ينطبق عليه. ثم قبع قبالة ونستون وبدأ يحدثه بلهجة المتوسل.

قال: أتظن أنهم سيعدمونني رميًا بالرصاص؟ أحسبك لا تظن ذلك! إنهم لا يطلقون النار عليك إذا لم ترتكب إثمًا- إنه مجرد تفكير، تفكير لا سلطان لك عليه..

إنني أعلم أنهم يحاكمون المتهم محاكمة عادلة. أليس كذلك؟ وأنت تعلم أي شاب كنت. إنني لم أكن شريرًا، صحيح إنني لست من أصحاب العقول الجبارة، ولكنني بذلك قصارى جهدي لخدمة الحزب. ألم أفعل ذلك؟ لعلهم يكتفون بالحكم عليّ بالسجن خمس سنوات أو عشر؟ إن من كان مثلي يستطيع أن يعمل في معسكر العمل الإجباري. لا أظنهم سيطلقون النار عليّ لمجرد أنني سلكت الطريق القويم مرة واحدة؟

وسأله ونستون: هل أنت مذنب؟

فأجابه بعد أن ألقى نظرة ملئوها الخضوع على الستار الناقل:

- بالطبع، إنني مذنب.. هل تظن أن الحزب يلقي القبض على رجل بريء؟ لا أحسبك تظن ذلك!

وبدا وجهه الشبيه بوجه الضفدعة أكثر هدوءًا في تلك اللحظة.. ثم أردف:

- إن جريمة الفكر جريمة بشعة يا رجل.. إنها جريمة باطنية، وهي ماكرة غادرة تسيطر عليك دون أن تفطن إلى ذلك.. هل تعرف كيف سيطرت عليَّ؟ أثناء نومي!

نعم.. هذا صحيح.. لقد كنت أؤدي عملي الصغير بغير أن أعلم أن هذه الأفكار السوداء تدور بمخيلتي، ثم بدأت أتكلم وأنا نائم.. فهل تدري ماذا سمعوني أقول؟

وخفض صوته شأن الإنسان حين يهم بالإفضاء بسر خطير.. وأردف:

- سمعوني أقول «يسقط الأخ الأكبر!». لقد قلت ذلك! قلته المرة بعد المرة.. وأصدقك القول إنني مسرور لأنهم ألقوا القبض عليّ قبل أن أتمادى في هذا الإثم.. هل تعلم ماذا سأقول للقضاة حينما أقدم للمحاكمة؟ سأقول لهم: «شكرًا لكم.. شكرًا لكم لأنكم أنقذتموني قبل فوات الأوان».

فسأله ونستون: ومن الذي وشى بك؟

فأجاب بارسونز بلهجة الفخور الحزين: ابنتي الصغرى.. لقد كانت تسترق السمع عليّ من ثقب المفتاح وسمعت ما قلته. وفي صباح اليوم التالي نقلت النبأ إلى الداورية.. يا لها من طفلة ذكية بارعة رغم أنها لم تتجاوز السابعة من عمرها! إنني لا أحمل لها ضغينة، بل إنني فخور بها لأن سلوكها هذا يدل على أنني أنشأتها نشأة حزبية ممتازة.

وتململ بارسونز في مجلسه، ثم انبعث واقفًا، وتطلع إلى «المرحاض»، ثم أرخى سرواله وهو يقول:

- عفوًا يا صديقي فإنني لم أعد أستطيع صبرًا!

وجلس فوق المرحاض، فغطى ونستون وجهه بيديه، إلا أن الستار الناقل صرخ:

- سميث.. ونستون سميث رقم 6079، ارفع يديك عن وجهك، لأن ذلك غير مسموح به في الزنزانة.

وأخيرًا حل دور بارسونز، فأخرجوه من الزنزانة ولا يعرف مصيره غير الله وحده.

ودخل الزنزانة كثيرون بعد ذلك وغادروها إلى أماكن مجهولة فيما عدا امرأة أمر الضابط الحراس بأن يذهبوا بها إلى الغرفة رقم «101»، ولاحظ ونستون أن المرأة انتفضت بشدة، واصفر لونها حتى حاكى لون الأموات، عندما سمعت الضابط يأمر الحراس بأن يذهبوا بها إلى هذه الغرفة.. وكان في الزنزانة ستة مسجونين من الرجال والنساء وكانوا يجلسون صامتين وكأن على رؤوسهم الطير. وكان يجلس قبالة ونستون رجل «أجرد» الذقن وقد انتفخت أوداجه الحمراء بشكل يلفت النظر ويبعث على الاعتقاد بأنه يختزن بعض الطعام في فمه. وراح الرجل ينقل عينيه بين المسجونين، ولكنهما ما تكادا تلتقيان بعين أحد منهم حتى يسرع بالتطلع في اتجاه آخر.

وفتح الباب في تلك اللحظة، وأدخل سجين جديد إلى الزنزانة، ولم تكد عينا ونستون تقعان عليه حتى اقشعر بدنه، كان رجلًا عاديًا، ولعله كان مهندسًا أو فنانًا، ولكن الشيء الذي أفزع ونستون هو وجهه.. كان مشوهًا إلى درجة مخيفة حتى بدا أشبه بالجمجمة، وقد ارتسمت في عينيه نظرة تنطوي على الغدر والحقد.

وجلس الرجل فوق المقعد على مقربة من ونستون، فلم يتطلع ونستون إليه ثانية، ولكن وجهه المخيف ظل مرتسمًا أمام مخيلته وكأنه يجلس أمامه. وفجأة أدرك ونستون مصيبة الرجل.. كان يموت من فرط الجوع، ويبدو أن جميع نزلاء الزنزانة أدركوا ذلك أيضًا، فقد تململوا جميعًا في أماكنهم.. وظل صاحب الذقن «الأجرد» يحدق في القادم الجديد فترة من الزمن، ثم انبعث واقفًا وتقدم منه ودس يده في جيبه وأخرج منه كسرة من الخبز قدمها للسجين الذي يشبه وجهه الجمجمة.

وفي التو صرخ الستار الناقل: باستيد.. جيمس باستيد رقم 2713.. دع كسرة الخبز تسقط على الأرض.

ووثب الرجل من مكانه.. ولكنه انصاع للأمر وترك كسرة الخبز تسقط على الأرض.

وصاح الصوت الصادر عن الستار الناقل يقول: الزم مكانك.. واجه الباب وإياك أن تتحرك.

وانصاع الرجل للأمر مرة أخرى وهو يرتجف من فرط الفزع.. وفتح الباب، ثم دخل الضابط الشاب، وأفسح الطريق لحارس عملاق لم يلبث أن وقف أمام السجين، وما كاد

الضابط يأتي بإشارة من يده حتى سدد الحارس العملاق لكمة ساحقة لفم السجين، فترنح التعس إلى الوراء وسقط عند قاعدة المرحاض، وظل ممددًا فوق الأرض بضع لحظات والدم ينزف بغزارة من أنفه وفمه، بينما كانت أنات خافتة تصدر عنه، ثم تدحرج، ورفع نفسه فوق يديه وركبتيه بصعوبة، وكأنما أحس بشيء يضايقه في فمه، فبصق، وعندئذ سقط «طاقم أسنانه» من فمه وقد اختلط بالدم واللعاب.

وجمد المسجونون في أماكنهم بلا حراك وقد عقدوا أيديهم فوق ركبهم، وعاد الرجل «الأجرد» إلى مكانه وقد ازرق أحد صدغيه وتورم فمه. وكان الدم لا يفتأ ينسال منه فوق سترته، وراح الرجل التعس ينقل عينيه بين الحاضرين وكأنما كان يحاول أن يستشف مدى احتقارهم له بعد ما ناله من إذلال.

وفتح الباب من جديد، وأشار الضابط إلى السجين الذي يشبه وجهه الجمجمة وقال:

- إلى الغرفة رقم «101».

وسمع ونستون شهقة قوية صادرة من جانبه، وما لبث السجين أن ركع فوق الأرض وضم يديه فوق صدره وصاح بضراعة:

- أيها الرفيق! أيها الضابط! لا تذهب بي إلى هذا المكان! لقد اعترفت لكم بكل شيء، فماذا تريدون مني غير ذلك؟ لم يعد لديّ ما أقوله! مهما يكن، قل لي ماذا تريد مني أن أقوله وأنا مستعد للاعتراف به بلا إبطاء.. اكتبه وسأوقعه..! كلا لا تذهب بي إلى الغرفة «101»».

فعاد الضابط يأمر الحراس قائلًا: إلى الغرفة رقم «101».

ولاحظ ونستون أن وجه الرجل الممتقع قد اصطبغ بلون أقرب إلى الاخضرار.

ومضى السجين يصيح: افعلوا ما تشاءون بي.. لقد منعتم الطعام عني أسابيع طويلة، فاقتلوني.. أعدموني رميًا بالرصاص.. اشنقوني، احكموا عليّ بالسجن خمسة وعشرين عامًا.. هل هناك من تريدون أن أشي به؟ اذكروا لي اسمه وأنا مستعد لأن أقول كل ما تريدون، فأنا لا يهمني من يكون هذا الشخص، ولا ماذا ستفعلون به.. إن لي زوجة وثلاثة أطفال أكبرهم في السادسة من عمره فخذوهم واذبحوهم أمام ناظري.. ولكن لا تذهبوا بي إلى الغرفة «101».

وتلفت السجين حوله في جنون ويأس، واستقرت عيناه فوق وجه باستيد، ومد ذراعه النحيل ثم صاح:

- يجدر بكم أن تذهبوا بهذا الرجل وتدعوني! إنكم لم تسمعوا ما قاله بعد أن تهشمت أسنانه.. امنحوني فرصة لأذكر لكم كلمة نطق بها.. إنه هو عدو الحزب ولست أنا..

وتقدم الحارسان من السجين فارتفع صوته حتى صار أشبه بالصراخ.. وعاد يقول:

- إنكم لم تسمعوا ما قال، لقد أصيب الستار الناقل بالصمم.. إنه الرجل الذي تنشدون! خذوه، خذوه هو!!

وانحنى الحارسان فوقه ليحملاه، ولكنه لف ذراعيه حول القوائم الحديدية التي تثبت «الدكة» في مكانها، وجذبه الحارسان بقوة، ولكنه تشبث بالقائمة، وعندئذ ضربه أحدهما بحذائه الضخم فحطم أصابع إحدى يديه، ثم سحباه إلى الخارج والضابط يقول:

- إلى الغرفة رقم «101».

ومر وقت طويل، فلو أن الحراس ذهبوا بالسجين إلى الغرفة رقم «101» في الصباح، فلا ريب أن الوقت أصبح ظهرًا، وإن كانوا فعلوا ذلك ظهرًا، فلا ريب أنه أصبح مساء.. وكان ونستون قد أصبح وحيدًا في الزنزانة منذ ساعات، وكان كلما ضاق بالجلوس فوق «الدكة» الخشبية نهض وأخذ يروح ويغدو في الزنزانة بغير أن ينهاه الستار الناقل عن ذلك. وكانت كسرة الخبز لا تزال ملقاة على الأرض، ولكم راودته نفسه بالتقاطها، ولكنه خشي أن يفعل ذلك فينهره الستار الناقل. وبدأ يشعر بعطش أليم، ثم لم يلبث أن أحس بأن رأسه قد أصبح فارغًا، وانتابه صداع أليم، أعقبه دوار أشد إيلامًا. ولم يستطع احتمال ألم عظامه الشديد فنهض، ولكنه لم يلبث أن جلس في الحال لأن الدوار كان شديدًا بحيث جعله غير واثق مما إذا كان واقفًا على قدميه. وكلما أمسك بزمام إحساساته البدنية عاوده الفزع، وكان يفكر أحيانًا في أوبرين وشفرة الحلاقة فيراوده بعض الأمل. كان يرجو أن تصل الشفرة إليه مخبأة في طعامه إن كانوا سيقدمون له طعامًا. وكان يفكر في جوليا لمامًا، لا ريب أنها كانت تتعذب في مكان ما، ولعل عذابها يفوق عذابه، ولعلها تصرخ من فرط الألم في هذه اللحظة بالذات. وقال لنفسه: «لو استطعت أن أنقذ جوليا بقبول مضاعفة ألمي، فهل أفعل؟ نعم.. سأفعل».. ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد خاطر أو قرار ذهني اتخذه لأنه يعلم أنه يجب عليه أن يتخذه، ولكنه لم يكن يشعر بالرغبة في اتخاذه، ففي هذا المكان لا يستطيع الإنسان أن يشعر بأي شيء اللهم إلا الألم وتوقع الألم، ثم، هل من الممكن وأنت تتعذب فعلًا أن ترغب، لأي سبب من الأسباب، في أن يزداد ألمك؟ لم يكن في استطاعته أن يجيب عن هذا السؤال في تلك اللحظة.

وأخيرًا سمع وقع أقدام خارج الزنزانة، ثم فتح الباب، وشد ما كانت دهشته حينما رأى أوبرين يدخل الزنزانة.

وانبعث ونستون واقفًا، وأنسته المفاجأة كل حذر من الستار الناقل، وصاح:

- وأنت أيضًا وقعت في قبضتهم؟

فأجاب أوبرين بتهكم: لقد وقعت في قبضتهم منذ أمد طويل.

وخطا جانبًا فكشف عن عملاق يرتدي ثوبًا أسود ويحمل هراوة في يده كان واقفًا وراءه..

وقال أوبرين: إنك كنت تعرف مصيرك يا ونستون، فلا تخدع نفسك.

وأدرك ونستون كل شيء في تلك اللحظة، ولكن بعد أن سبق السيف العذل، وتركز كل اهتمامه في الهراوة التي يحملها الجندي، قد تهوي على أي جزء من جسمه، على رأسه، أو على أذنه، أو على ذراعه، أو على مرفقه.

مرفقه! وفجأة، عاجله الحارس بضربة من هراوته فوق مرفقه، فتهاوى على الأرض وقد أمسك مرفقه بيده الأخرى وهو يشعر بألم لا يطاق! وخيل إليه أنه لا يستطيع أن يصدق أن لطمة واحدة يمكن أن تُحدث هذا الألم القاتل! وصفا رأسه قليلًا فلاحظ أن الرجلين يتطلعان إليه. ولم يلبث الجندي أن انفجر ضاحكًا، ولكن ذلك لم يثر اهتمام ونستون فقد كانت فكرة واحدة تدور في رأسه في هذه اللحظة، وتلك أن الإنسان لا يمكن أن يرغب في زيادة ألمه مهما كان السبب. فكل ما يتمناه الإنسان إزاء الألم هو أن يوقف هذا الألم. فليس في الدنيا ما هو أسوأ من الألم الجسماني. وليست هناك بطولة في وجه الألم. وراحت هذه الفكرة تدور في رأسه وهو يسقط فوق الأرض وقد قبض بعنف على

ذراعه الأيسر الذي أصابه العجز.

الفصل الثاني

أفاق ونستون ليجد نفسه ممددًا فوق سرير صغير كالذي يشاهد في المعسكرات، ولاحظ أنه مقيد الأطراف بحيث لا يستطيع حراكًا، وكان قد سقط على وجهه ضوء قوي ساطع، بينما كان أوبرين يقف بجوار الفراش وهو يتأمله بإمعان، وعلى الجانب الآخر من الفراش وقف رجل يرتدي معطفًا أبيض اللون ويحمل «محقنًا» في يده.

وحتى بعد أن فتح عينيه لم يستطع أن يلم بما حوله إلا تدريجيًّا. كان يخيل إليه أنه يسبح في الغرفة، أما كم مضى عليه من الوقت وهو بها، فأمر كان يجهله كما كان يجهل كيف جيء به إليها، فمنذ أن ألقوا القبض عليه وهو يعيش في الضوء المتألق دون أن تتاح له أية فرصة ليرى ظلام الطبيعة أو نورها. ومما زاد الطين بلة أن ذكرياته لم تكن مستمرة ولا متماسكة.

وبعد أن تلقى أول لطمة فوق مرفقه بدأ يعيش في كابوس من الأحلام المفزعة. ولقد أدرك فيما بعد أن كل ما حل به في البداية لم يكن إلا مجرد استجواب تمهيدي يخضع له جميع المسجونين تقريبًا قبل أن يعترفوا بسلسلة طويلة من الجرائم، كالتجسس والتخريب وما شابهها، ولم يكن أحد ليعفى من هذا الاعتراف، فقد كان إجراء رسميًّا لا مناص منه، أما التعذيب فكان أمرًا حقيقيًّا.. ولم يستطع ونستون أن يتذكر كم مرة ضُرب، وكم استغرق الضرب في كل مرة.

وكل ما يذكره هو أن خمسة أو ستة من الرجال يرتدون الزي الرسمي الأسود كانوا يلطمونه ويضربونه في وقت واحد، وكانوا يستعملون قبضاتهم في بعض الأحايين، ويستعملون الهراوات أو العصي الفولاذية أو الأحذية في أحايين أخرى. وإنه ليذكر أنه كان يتدحرج على أرض الغرفة كحيوان جريح يحاول الإفلات من طعنات أخرى ولكن دون جدوى، ولم يكن الضرب الذي يتلقاه على يدي الحراس العمالقة غلاظ القلوب هو أشد ما كان يؤلمه في بعض الأحايين، وإنما الذي كان يؤلمه هو عدم قدرته على فقد الوعي.. كان يبادر بالاعتراف بجرائم حقيقية وأخرى وهمية. وكثيرًا ما كانت أعصابه تنهار فيصرخ في طلب الرحمة قبل أن يبدأ الضرب، وعندما كان يرى أحد الحراس يضم قبضته ليوجه إليه لكمة، كان يرجو أن تكون هذه اللكمة هي القاضية، وفي مناسبات أخرى كان يوطد عزمه على ألا يعترف بكلمة واحدة إلا إذا انتزعت منه قسرًا. ولكنه لا يلبث أن يلتزم موقف الاعتدال ويقول:

- سأعترف ولكن ليس الآن.

ويحاول أن يصمد إلى أن يصبح الألم غير محتمل.. ولكنهم كانوا يضربونه في مثل هذه الأحوال حتى يسقط فاقد الوعي، فيتركونه حتى يسترد وعيه بعد ساعات قلائل ثم يستأنفون ضربه. وإنه ليذكر أن حلاقًا دخل عليه ذات يوم وقص له شعره، وأن أطباء كانوا يعودونه بين آونة وأخرى بغلظة وخشونة وقد جمدت وجوههم حتى أصبحت كالصخر، فيغرسون إبرة في جلده ويتركونه لينام.

وبعد فترة قلت مرات الضرب الذي كان يتعرض له، واستعاض المحققون بالتهديد والوعيد عن الضرب، كما استبدل المحققون بغيرهم، فلم يعد يرى وجوه الضباط القساة في زيهم الرسمي الأبيض وإنما أصبح يستجوبه رجال من مفكري الحزب يضعون عوينات فوق عيونهم ويتناوبون العمل، فيستجوبونه فترات تستغرق الواحدة منها اثنتي عشرة ساعة، وكانوا يسببون له ألمًا خفيفًا مستمرًا، ولكنهم لم يعتمدوا على الألم باعتباره وسيلة أساسية لانتزاع الاعترافات منه.

صحيح إنهم كانوا يصفعونه على وجهه ويفركون أذنيه ويجذبون شعره بشدة ويجعلونه يقف على ساق واحدة ويرفضون السماح له بالتبول ويسلطون الأضواء الكهربائية القوية على عينيه حتى تدمعان، بيد أن هدفهم الوحيد من ذلك كان مجرد إذلاله وتحطيم قدرته على المناقشة، أما سلاحهم الفعلي فكان الاستجواب المستمر الذي لا رحمة فيه ولا هوادة والذي كان يستمر ساعات طوالًا يعصرونه خلالها عصرًا عنيفًا. وكانوا يحورون أقواله، وينصبون له شراكًا جهنمية فلا يلبث أن يقع فريسة للخجل والإجهاد العصبي فينخرط في البكاء. وكان يبكي عشرات المرات في الجلسة الواحدة. وكثيرًا ما كانوا يوجهون إليه قارس الكلام ويؤنبونه تأنيبًا عنيفًا ويهددونه عند كل تردد ويقولون له إنهم سيسلمونه للحراس مرة أخرى. بيد أنهم كانوا يغيرون لهجتهم فجأة في بعض الأحيان ويدعونه «الرفيق» ويهيبون به باسم الاشتراكية الإنجليزية والأخ الأكبر أن يتكلم، ويسألونه والحزن مرتسم على محياهم إن كان لا يملك حتى الآن قدرًا من الإخلاص من الحزب يكفي لأن يجعله يطلب الغفران عما بدر منه وعما اقترف من وزر وإثم. وبعد أن تصبح أعصابه في حالة يرثى لها إثر ساعات طويلة من التحقيق كان يركن إلى البكاء، وتخور قواه.. فأصبح لا يعدو أن يكون فمًا يهرف ويدًا توقع.. وواقع الأمر أن همه الوحيد أثناء تلك الاستجوابات المضنية كان اكتشاف ما يريدون منه أن يعترف به فيبادر إلى الاعتراف قبل أن يستأنف المحققون استجوابه. لقد اعترف بقتل عدد من كبار رجال الحزب، وتوزيع نشرات معادية للحزب، كما اعترف بأنه ارتشى ونهب الأموال العامة وباع الأسرار العسكرية واشترك في حوادث التخريب بجميع أنواعها. واعترف أيضًا بأنه كان جاسوسًا مأجورًا لحكومة استاسيا منذ عام 1968، وبأنه متدين مؤمن بالله ومعجب بالرأسمالية وبأنه مصاب بشذوذ جنسي. واعترف كذلك بأنه قتل زوجته غيلة مع أنه يعرف، كما يعرف المحققون أيضًا، أن زوجته لا تزال على قيد الحياة. واعترف بأنه يتصل بجولد شتاين شخصيًا منذ عدة سنوات، وبأنه عضو في منظمة سرية تضم جميع المخلوقات الحية التي عرفها في حياته..

فقد كان من الأسهل عليه أن يعترف بكل شيء وأن يورط نفسه في كل شيء. ولا عجب فقد كان ما قاله صحيحًا إلى حد ما فهو عدو الحزب، وبحسب شريعة الحزب فإنه لا فرق بين الفكر والعمل.

وكانت هناك ذكريات من لون آخر، وكانت هذه الذكريات بارزة في مخيلته كالصور المجللة بالسواد، ومن هذه الذكريات أنه كان يقف في زنزانة قد تكون مظلمة كما قد تكون مضيئة، لأنه لم يستطع أن يرى شيئًا فيها غير زوج من العيون وعلى مقربة منه كانت هناك آلة تدق دقات منتظمة بطيئة، وكانت العينان تتسعان وتزدادان تألقًا. وفجأة أحس بأنه طار من مقعده وغطس في العينين فابتلعتاه.

ومن ذكرياته أيضًا أنه شُد إلى مقعد تحيط به ساعات، وقد سلطت عليه أضواء باهرة تخطف البصر، ووقف بجواره رجل كان يرتدي سترة بيضاء ويقرأ ما تسجله الساعات، ثم سمع وقع أقدام خارج الغرفة، وفتح الباب ودخل ضابط جامد الوجه وخلفه حارسان.

وقال الضابط: إلى الغرفة «101».

ولم يلتفت الرجل ذو السترة البيضاء إلى الوراء، كما لم يعر ونستون اهتمامًا إذ كان يتطلع إلى الساعة فقط.

ومن ذكرياته أيضًا أنه كان يتدحرج في ممر فسيح عرضه كيلومتر تحف به الأنوار من كل جانب وتتعالى منه الضحكات، وكان هو يصيح بأعلى صوته معترفًا بكل شيء بما في ذلك الأشياء التي نجح في إخفاءها وهم يعذبونه. وكان يروي لجمهور من السامعين قصة

حياته التي يعرفونها جيدًا من أولها إلى آخرها، وكان معه الحراس، والمحققون، والرجال الذين يرتدون المعاطف البيضاء، وأوبرين، وجوليا، ومستر شارنجتون، وهم جميعًا يتدحرجون في الممر ويضجون بالضحك. ولقد أمكن التجاوز بطريقة ما عن شيء مخيف كان مطمورًا في المستقبل فلم يحدث، وبذلك أصبح كل شيء على ما يرام، فلم يعد هناك أي ألم، وهكذا فهم على حقيقته وصفح عنه.

وكان يهم بالنهوض من الفراش وهو نصف واثق من أنه سمع صوت أوبرين، ومع أنه لم ير أوبرين على الإطلاق خلال فترات استجوابه إلا أنه كان يحس بأن أوبرين قريب جدًّا منه وإن لم يره، لقد كان أوبرين هو الذي يوجه كل شيء، كان هو الذي يأمر الحراس بتعذيب ونستون وهو الذي يمنعهم من قتله. وكان هو الذي قرر متى يجب أن يصرخ ونستون من فرط الألم، ومتى يمنح مهلة، ومتى يجب أن يطعم، ومتى يجب أن يحقن بالمخدرات.. كان هو الذي يوجه الأسئلة ويوحي بالإجابات. كان معذبه وحاميه ومستجوبه وصديقه. وسمع ونستون ذات مرة- وإن لم يستطع أن يتذكر أكان ذلك وهو مخدر أو نائم نومًا طبيعيًّا أو حتى في لحظات اليقظة- صوتًا يهمس في أذنه قائلًا لا تخف يا ونستون فأنت في رعايتي. فمنذ سبع سنوات وأنا أرعاك. ولقد بلغت القصة ذروتها الآن. سأنقذك وسأجعلك رجلًا كاملًا» ولم يكن ونستون واثقًا من أن الصوت هو صوت أوبرين، ولكن هذا الصوت نفسه هو الذي قال له في ذلك الحلم الذي رآه منذ سبع سنوات: «سوف نلتقي في ذلك المكان الذي لا يوجد به ظلام».

ولم يستطع ونستون أن يذكر نهاية أية جلسة من جلسات استجوابه، وكل ما يذكره أنه مرت به أوقات سوداء انتهت بنقله إلى الزنزانة وهو فاقد الوعي، فإذا استرد وعيه ألفى نفسه ممددًا فوق ظهره وهو مثبت إلى الفراش، حتى رأسه كان مربوطًا بطريقة ما. أما أوبرين فكان يتطلع إليه بنظرة كلها حزن وأسى، وكلما نظر إليه وهو في وضعه هذا بدا له أن وجهه صارم ترتسم عليه علامات الإعياء، بينما كانت حول عينيه هالتان سوداوان وفيما بين أنفه وذقنه خطوط تدل على الإجهاد.. كان أوبرين أكبر سنًّا مما حسب ونستون، ولعله كان في الثامنة والأربعين أو الخمسين من عمره.. ورأى ونستون تحت يد أوبرين ميناء لها مفتاح من أعلى وفوقها أرقام وعقرب يجري حولها.

قال أوبرين: لقد قلت لك إننا إذا التقينا ثانية فسيكون لقاؤنا هنا.

فأجاب ونستون: نعم.

وبغير أي تحذير، وبحركة خفيفة من يد أوبرين، تدفقت موجة من الألم في جسم ونستون. كان ألمًا فظيعًا لأن ونستون لم يكن يعلم ماذا يحدث، إلا أنه شعر بأن ضررًا قاتلًا قد لحق به. لم يدر إن كان ذلك الشيء الذي يحس به وقع فعلًا أو أنه أثر من آثار الكهرباء، فقد شعر بأن جسمه كله قد تجرد من شكله العادي، وأن مفاصله تفككت ببطء، ومع أن الحلم جعل العرق يتصبب فوق جبهته، إلا أن أسوأ شيء كان يكابده هو الخوف من أن يتحطم عاموده الفقري، ومن ثم فقد زم أسنانه وراح يتنفس من أنفه بشدة محاولًا التزام الصمت ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وقال له أوبرين وهو يراقب وجهه:

- لعلك تخشى أن يتحطم جزء من جسمك بعد لحظة، وقد يكون هذا الجزء هو العامود الفقري.. إنك تتصور الآن أن هذا العامود سيتفكك وينسكب النخاع منه.. هذا ما تظنه.. أليس كذلك يا ونستون؟

ولم يجب ونستون.. أما أوبرين فسحب المفتاح مرة أخرى، فزال الألم سريعًا مثلما

دهمه.

وقال أوبرين:

- لقد أشار العقرب إلى الدرجة الأربعين.. وفي استطاعتك أن ترى أن أرقام هذا العداد تصل إلى 100، فأرجو أن تتذكر أنني أستطيع في أية لحظة خلال حديثنا أن أسبب لك ألمًا بالدرجة التي أختارها، فإذا كذبت عليّ، أو حاولت المراوغة بأية طريقة، أو حتى هبطت إلى مستوى ذكاء أقل من المستوى العادي، فستصرخ من فرط الألم بغير إبطاء.. فهل فهمت ذلك؟

فأجاب ونستون: نعم.

وفي التو تغيرت لهجة أوبرين وأصبحت أقل قسوة، وأعاد الرجل تثبيت عويناته في مكانها، ثم خطا خطوة أو خطوتين، وعندما استأنف الكلام كان صوته لطيفًا هادئًا، وكانت هيئته تجمع بين هيئة الطبيب والمعلم بل والكاهن. كان متلهفًا على الشرح والإقناع بدلًا من الالتجاء إلى العقاب والتأديب.

قال: إنني أكد وأتعب من أجلك يا ونستون لأنك تستحق هذا العناء. إنك تعرف تمامًا ما هي علتك، ولقد فطنت إليها منذ أعوام رغم أنك ناضلت هذه المعرفة. إنك مبلبل الفكر ضعيف الذاكرة لا تستطيع أن تتذكر الحوادث الحقيقية، ولكنك تقنع نفسك بأنك تتذكر حوادث لم تقع إطلاقًا. ومن حسن الحظ أن حالتك قابلة للشفاء. إنك لم تبرئ نفسك منها لأنك لم تختر هذا السبيل ولم تبد أي استعداد لبذل أي جهد إرادي. إنني موقن بأنك تتمسك بعلتك حتى الآن اعتقادًا منك بأنها الفضيلة، ولنضرب لذلك مثلًا: أية دولة تحاربها أوشانيا الآن؟

فأجاب ونستون: عندما ألقي القبض عليّ كانت أوشانيا مشتبكة مع استاسيا في حرب.

- مع استاسيا.. حسنًا. إن أوشانيا كانت دائمًا في حرب مع استاسيا.. أليس كذلك؟

وشهق ونستون.. وفتح فمه ليتكلم ولكنه لم يفعل.. كما لم يستطع أن يحول عينيه عن العداد.

وقال أوبرين: أريد أن أعرف الحقيقة يا ونستون.. الحقيقة كما تراها.. فقل لي ماذا تذكر؟

فأجاب ونستون: أذكر أننا لم نكن في حرب مع استاسيا قبل إلقاء القبض عليّ بأسبوع، بل كنا حلفاء، وكانت الحرب تدور بيننا وبين أوراسيا، وقد استمرت أربع سنوات، وقبل ذلك....

وهنا أشار إليه أوبرين ليكف عن متابعة الكلام، ثم قال:

- وهناك مثل آخر.. لقد كنت ضحية وهم وخداع منذ بضعة أعوام.. كنت تعتقد أن رجالًا ثلاثة كانوا فيما مضى أعضاء في الحزب ثم أُعدموا لخيانتهم وارتكابهم أعمالًا من أعمال التخريب بعد أن اعترفوا اعترافًا كاملًا بجرائمهم، وهم جونز وأرنسون وراذر فورد. أقول كنت تعتقد أن هؤلاء الرجال أبرياء لم يرتكبوا الجرائم التي اتهموا بها، وكنت تؤمن بأنك وقعت على دليل واضح لا مراء فيه يثبت أن اعترافاتهم كانت كاذبة، وكنت تهذي متحدثًا عن صورة فوتوغرافية معينة، اعتقدت أنها وقعت في يدك، وكانت هذه الصورة

شبيهة بهذه.

وظهرت بين أصابع أوبرين قصاصة جريدة، وظل ونستون يرى هذه القصاصة مدة خمس ثوان.. كانت صورة، ولم يساوره شك في حقيقتها، لقد كانت صورة جونز وأرنسون ورازر فورد وهم يؤدون المهمة التي عهد الحزب إليهم بها في نيويورك، والتي وقعت في يده مصادفة منذ أحد عشر عامًا وأعدمها مباشرة. لقد بقيت أمام ناظريه لحظة واحدة، ثم أخفيت ولكنه رآها بغير شك! وبذل جهدًا يائسًا لعله يستطيع أن يتحرك من مكانه، ولقد نسي «العداد» في تلك اللحظة، فقد كان كل همه أن يمسك بالصورة بيديه أو أن يراها على الأقل.

صاح: إنها موجودة!

فقال أوبرين: كلا.

ثم خطا بضع خطوات، وكان في الجدار المقابل «حفرة ذكريات» فرمى قصاصة الجريدة فيها.

والتفت أوبرين إلى ونستون وقال: لقد أصبحت رمادًا، بل غبارًا، إنها لم تعد موجودة الآن، ولم يكن لها وجود إطلاقًا في الماضي.

فقال ونستون: ولكنها كانت موجودة! إنها موجودة وأنا أذكرها وأنت تذكرها.

فقال أوبرين: إنني لا أذكرها.

وغاص قلب ونستون بين جنبيه.. لقد كان ذلك ضربًا من ضروب التفكير المزدوج، وشعر بيأس قاتل، فلو أنه استطاع أن يتأكد من أن أوبرين يكذب لهان الأمر. بيد أنه من المحتمل جدًا أن يكون أوبرين قد نسي كل شيء عن الصورة، فإذا كان الأمر كذلك فإنه يكون قد نسي أيضًا إنكاره أنه يتذكرها ثم نسي أنه نسي، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يتأكد من أن الأمر لا يعدو مجرد حيلة؟

وكان أوبرين ينظر إليه فاحصًا، وقد اتخذ سمت المعلم وهو يبذل قصارى الجهد لتعليم طفل ذكي ولكنه ضل سواء السبيل.

قال أوبرين: هناك قول حزبي يتعلق بالسيطرة على الماضي، فاذكره لي..

فانصاع ونستون وكرر هذا القول: «إن من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل.. ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي».

فأومأ أوبرين برأسه مؤَمِنًا وقال: إن من يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي.. هل تعتقد يا ونستون أن للماضي وجودًا فعليًا؟

ومرة أخرى شعر ونستون باليأس يجتاحه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ووقعت نظرته على «العداد»، ولم يدر هل ينبغي أن تكون الإجابة عن هذا السؤال بنعم أم لا، حتى يستطيع أن يتجنب الألم، بل إنه لم يدر ما هي الإجابة التي يعتقد أنها صحيحة.

ابتسم أوبرين وقال: إنك لست عالمًا من علماء ما وراء الطبيعة يا ونستون، وأنت لم تدقق النظر حتى الآن فيما تعنيه كلمة الوجود، وبعبارة أدق، هل يوجد الماضي كشيء محسوس في الفراغ؟ هل في مكان ما عالم يتألف من أجسام صلبة ما زال الماضي يحدث

فيه؟

- كلا.

- إذن أين يوجد الماضي إذا كان له وجود على الإطلاق؟

- في السجلات.. إنه مدون.

- في السجلات و.....؟

- في العقل، في ذكريات بني البشر.

- في الذاكرة.. حسنًا.. إننا- أي الحزب- نسيطر على جميع السجلات ونسيطر على جميع الذكريات، وإذن فنحن نسيطر على الماضي.. أليس كذلك؟

- ولكن كيف تستطيعون منع الناس من تذكر الأشياء؟

نطق ونستون بهذا السؤال بصوت عال وقد نسي «العداد» والعذاب الذي ينطوي عليه.

ومضى يقول: إن تذكر الأشياء عمل لا إرادي، ولا سيطرة للإنسان على ذاكرته، فكيف تستطيعون أنتم السيطرة على الذاكرة؟ إنكم لم تستطيعوا السيطرة على ذاكرتي؟

فبدت علامات الصرامة على وجه أوبرين مرة أخرى، ووضع يده على «العداد» ثم قال:

- بالعكس. إنك أنت الذي فشلت في السيطرة على ذاكرتك، وهذا هو السبب الذي جاء بك إلى هنا.. إنك موجود هنا؛ لأنك قصرت في إطاعة الأوامر وفرض النظام على ذاتك. إنك لم تشأ أن تقدم الخضوع الذي هو ثمن التعقل، وإنما فضلت أن تظل مجنونًا وأقلية مكونة من فرد واحد هو أنت. إن الواقع لا يراه إلا العقل الخاضع للنظام يا ونستون. إنك تعتقد أن الواقع شيء موضوعي سطحي يوجد بداخل حدوده، وتؤمن بأن طبيعة الواقع تكشف عن نفسها بنفسها. وعندما تخدع نفسك وتظن أنك ترى شيئًا ما فاتك تفترض أن كل شخص آخر يرى هذا الشيء، ولكنني أود أن أقول لك يا ونستون إن الواقع ليس خارجيًا، إن الواقع يعيش في العقل البشري لا في مكان آخر. إنه لا يعيش في عقل الإنسان الفرد لأن العقل معرض للوقوع في الخطأ، كما أنه سرعان ما يفنى بموت صاحبه. إن الواقع، بل الحقيقة تعيش في عقل الحزب الذي هو جماعي وخالد إلى الأبد. فما يعتقد الحزب أنه الحقيقة فهو الحقيقة التي لا مراء فيها. ومن المستحيل أن ترى الواقع إلا إذا نظرت إليه بعين الحزب. تلك هي الحقيقة التي يجب أن تتعلمها يا ونستون، وهذا يتطلب منك أن تحطم ذاتك وهو عمل يستلزم قوة الإرادة.. يجب أن تذل نفسك قبل أن تصبح عاقلًا.

وتوقف عن الكلام لحظات كأنما ليتيح لكلماته وقتًا كافيًا لترسخ في ذهن ونستون.

ثم أردف: هل تذكر يا ونستون أنك كتبت في مذاكراتك تقول: «إن الحرية هي أن تكون حرًا في أن تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة»؟

فأجاب ونستون: نعم.

وبسط أوبرين يده اليسرى وقد أخفى إبهامها تحت بقية أصابعها، وسأل:

- كم عدد الأصابع التي تراها يا ونستون؟

- أربعة.

- وإذا قال الحزب إنها ليست أربعة بل خمسة، فكم يكون عددها عندئذ؟

- أربعة.

لم يكد ونستون ينطق بهذه الكلمة حتى شعر بألم قاتل يسري في جسده. وأشارت إبرة «العداد» إلى خمسة وخمسين، وبدأ العرق ينسال من جسمه، والهواء يتدفق بداخل رئتيه واصطكت أسنانه.. فراح يئن ويتأوه، بينما كان أوبرين يراقبه، وكانت أصابعه الأربعة لا تزال مبسوطة. وبعدئذ سحب أوبرين رافعة العداد فتوقف الألم.

وسأل: كم أصبعًا ترى يا ونستون؟

- أربعة!

- وأشارت إبرة «العداد» إلى ستين.

- كم أصبعًا ترى يا ونستون؟

- أربعة! أربعة! ماذا أستطيع أن أقول غير ذلك؟ أربعة.

ولا ريب أن الإبرة تحركت مرة أخرى، ولكن ونستون لم يتطلع إليها، فقد كان الوجه الصارم والأصابع الأربعة تستأثر بكل اهتمامه.. كانت الأصابع مائلة أمام عينيه كأعمدة ضخمة تبدو وكأنها تترنح ولكنها كانت أربعة لا محالة!

- كم أصبعًا يا ونستون؟

- أربعة! كفى ألمًا! لماذا تستمر في تعذيبي؟ أربعة! أربعة!

- كم أصبعًا ترى يا ونستون؟

- خمسة! خمسة! خمسة!

- لا يا ونستون لا فائدة من ذلك. إنك تكذب لأنك لا تزال تظن أنها أربعة.. كم أصبعًا ترى؟

- أربعة، خمسة أي شيء تريد.. كل ما أرجوه أن توقف الألم، أوقفه!

وفجأة ألفى ونستون نفسه جالسًا فوق الفراش وذراع أوبرين حول كتفيه. ولعله كان قد فقد وعيه لثوان معدودات، أما الأربطة التي كانت تشد جسمه إلى الفراش فقد حلت، وشعر بقشعريرة تسري في بدنه، وكانت أوصاله تهتز وترتجف وأسنانه تصطك والدموع تنهال من عينيه، فتشبث بأوبرين لحظة، كما يفعل الطفل، وقد أحس بالراحة وهو يشعر بالذراع الغليظ حول كتفيه.. كان يشعر بأن أوبرين حارسه وحاميه. وأن الألم كان يأتي من الخارج ومن مصدر غير أوبرين، وأن أوبرين هو الذي سينقذه من الألم.

قال أوبرين بلطف: إنك تلميذ بطيء الفهم يا ونستون.

فقال ونستون: وما ذنبي؟ كيف أستطيع أن أتجنب رؤية ما أمام عيني؟ إن اثنين

واثنين يساويان أربعة.

فقال أوبرين: إنهما يساويان أربعة أحيانًا يا ونستون، ويساويان خمسة أحيانًا أخرى، وقد يساويان ثلاثة أيضًا. وفي أحيان أخرى قد يساويان أربعة وثلاثة معًا..

حاول أن تفهم أكثر، فليس من السهل أن يصبح الإنسان عاقلًا.

ومدد أوبرين ونستون فوق الفراش مرة أخرى، وأشار للرجل ذي المعطف الأبيض لكي يتقدم نحوه ففعل، وفحص عيني ونستون بدقة وتحسس نبضه، ثم فحص صدره وطرق عظامه هنا وهناك، ثم أومأ برأسه لأوبرين.

فقال هذا: لنبدأ العملية مرة أخرى.

وشعر ونستون بالألم يتدفق في جسمه وكانت الإبرة قد أشارت إلى الدرجة الخامسة والسبعين. وأغلق عينيه.. كان يعرف أن الأصابع لا تزال هناك وأنها أربعة. ثم بدأ الألم يقل تدريجيًّا ففتح ونستون عينيه.

وسأله أوبرين: كم أصبعًا ترى يا ونستون؟

- أربعة.. أعتقد أنها أربعة.. سأحاول أن أرى خمسة إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

- ما الذي ترغب فيه، أن تقنعني بأنك ترى خمسة. أو أنك تراها فعلًا خمسة؟

- أن أراها فعلًا خمسة.

فقال أوبرين: لنكرر العملية.

وفي هذه المرة أشارت الإبرة إلى ثمانين ثم تسعين درجة، وخيل لونستون أنه يرى غابة من الأصابع وهي تتراقص أمام عينيه ذات اليمين وذات اليسار، ثم يختفي أحدها بعد الآخر.. وتعود فتظهر، وكان يحاول أن يعدها ولكنه لم يلبث أن تبين أنه من المستحيل عليه أن يفعل ذلك، ثم سكن الألم، وعندما فتح عينيه تبين له أنه لا يزال يرى الشيء نفسه.. أصابع لا عد لها كالأشجار المتحركة تسير في اتجاهين متضادين، فأغلق عينيه مرة ثانية.

- كم أصبعًا ترى يا ونستون الآن؟

- لا أعلم.. لا أعلم.. إنك ستقتلني إن فعلت ذلك مرة أخرى.. أربعة، خمسة، ستة.. أصدقك القول إنني لا أعلم.

- هذا أفضل.

وغرست إبرة في ذراع ونستون فشعر بالدف يسري في جسمه ونسي الألم، ففتح عينيه وألقى نظرة شكر على أوبرين، ولو كان في استطاعته أن يتحرك لمد ذراعه ووضعه فوق ذراع أوبرين. فإنه لم يشعر بأنه يحبه في يوم من الأيام مثلما شعر بذلك في تلك اللحظة، ولم يكن ذلك لأنه أوقف الألم فحسب، وإنما لأن إحساسه القديم بحب أوبرين سواء أكان صديقًا أو عدوًّا قد عاوده في تلك اللحظة. لقد كان أوبرين شخصًا يستطيع أن يتحدث إليه.. ولعل الإنسان يهتم بأن يفهمه الآخرون أكثر من أن يحبوه. حقًّا لقد عذبه أوبرين إلى درجة الجنون، ومنذ لحظات كان واثقًا من أنه سيلقي حتفه على يديه، ولكن لا بأس فإن ما بينه وبين أوبرين أعمق من الصداقة. ولسوف يأتي يوم يجتمعان فيه معًا في

مكان ما بحيث يمكنهما أن يتحدثا حسبما يشاءان... ولاحظ ونستون أن أوبرين يتأمله، وقد بدت على وجهه علامات تشير إلى أن نفس الفكرة كانت تدور بخاطره.. وعندما تكلم كانت لهجته رقيقة لطيفة..

سأل: هل تعرف أين أنت يا ونستون؟

- لست أدري.. لكن لعلنا في وزارة الحب.

- هل تعلم كم مضى عليك من الوقت هنا؟

- لست أدري.. أيام، أسابيع، شهور.. أكبر ظني أنني قضيت شهورًا هنا.

- ولماذا، في ظنَّك، نأتي بالناس إلى هذا المكان؟

- لتجعلوهم يعترفون.

- كلا.. ليس هذا هو السبب.. حاول مرة أخرى.

- لتعاقبوهم.

فصاح أوبرين: كلا!

وتغيرت لهجته فجأة، وارتسمت على وجهه علامات القسوة والعنف، ثم قال:

- كلا، إننا لا نأتي بهم إلى هنا لانتزاع الاعتراف أو توقيع العقاب.. هل تريد أن أقول لك لماذا أتينا بك إلى هنا؟ لنبرئك من علتك! لنجعلك عاقلًا! هل لك أن تفهم يا ونستون أن كل شخص يؤتى به إلى هذا المكان لا يخرج منه قبل أن يبرأ تمامًا من علته؟ إننا لا نهتم بالجرائم السخيفة التي اقترفتها؛ لأن الحزب لا يعني أو يهتم بالعمل العلني المكشوف، وإنما يعني أشد العناية بالفكر.. إننا لا نحطم أعداءنا فحسب، وإنما نغيرهم أيضًا.. فهل فهمت ماذا أعني بذلك؟

كان أوبرين منحنيًا فوق ونستون، وقد بدا وجهه ضخمًا لشدة قربه ولبشاعته، ولأن ونستون كان يتطلع إليه من أسفل إلى أعلى.. ومرة أخرى غاص قلب ونستون بين جنبيه، وتمنى لو اخترمه الموت في تلك اللحظة، إذ كان يشعر بأن أوبرين يوشك على تحريك «جهاز الألم»، إلا أن أوبرين ابتعد عنه فجأة، وذرع الغرفة مرة أو اثنين، ثم تابع حديثه قائلًا:

- أول ما يجدر بك أن تفهمه أنه لا يوجد في هذا المكان شهداء.. لا شك أنك قرأت شيئًا عن الاضطهاد الديني في الماضي، فقد شهدت العصور الوسطى محاكم التفتيش ولكنها فشلت.. لقد أنشئت لاستئصال شأفة الضلال إلا أنها على العكس جعلته دائم الوجود، إذ إنها كانت كلما حرقت ضالًّا ظهر عوضًا عنه آلاف من الضالين. فلماذا حدث ذلك؟ لأن محاكم التفتيش كانت تقتل أعداءها علنًا وتقضي عليهم قبل أن يتوبوا ويثوبوا. والواقع أنها كانت تقتلهم لأنهم لم يظهروا أية بادرة تدل على ميلهم إلى التوبة. ومن ثم كان الناس يلاقون حتفهم لأنهم رفضوا التخلي عن معتقداتهم الصحيحة. ومن الطبيعي أن يصبح المجد كله من نصيب الضحية، وأن تنصب اللعنات كلها على قاضي التحقيق الذي أمر بالإعدام.. وفيما بعد. في القرن العشرين، ظهر حكم الجماعة الاستبدادي، فكانت هناك حكومات النازيين الألمان، والشيوعيين الروس. أما الروس فقد اضطهدوا الضالين بقسوة تفوق ما ارتكبته محاكم التفتيش، وكانوا يظنون أنهم تعلموا من أخطاء الماضي، وعلى كل

حال، لقد عرفوا أنه يجب على المرء ألا يجعل هناك شهداء. ومن ثم كانوا لا يقدمون ضحاياهم للمحاكمات العلنية قبل أن يحطموا كرامتهم عن عمد، فكانوا يستنزفون قواهم بالتعذيب والعزل عن العالم حتى تتحطم أعصابهم ويشعرون بالذل والهوان، ويصابون بالجبن فيعترفون بكل ما قيل لهم، ويلصقون كل النقائص بأنفسهم، كما يتهمون بعضهم بعضًا ويركعون في طلب الرحمة، ومع ذلك فإن الشيء نفسه حدث بعد سنوات قلائل، فأصبح الموتى شهداء ونسي الناس الإهانات التي لحقتهم وما رسفوا فيه من ذل وخنوع واستكانة. فلماذا حدث ذلك؟ أولًا: لأن الاعترافات التي أدلوا بها كانت كاذبة وقد انتزعت منهم انتزاعًا. ولكننا لا نرتكب مثل هذه الأخطاء، فكل الاعترافات التي تقال هنا صحيحة، إننا نجعلها صحيحة، وفوق كل شيء، إننا لا نسمح للموتى بأن يبعثوا ليناهضونا، فيجب أن تكف عن التوهم بأن الأجيال القادمة ستجد لك عذرًا وتجعل منك شهيدًا يا ونستون لأنهم لن يسمعوا عنك أبدًا، إذ إنك ستزال تمامًا من التاريخ. سنحولك إلى غاز ونجعلك تتبخر في الجو ولن يبقى منك شيء، لا اسم في سجل، ولا ذكرى في رأس حي، بل ستفنى في الماضي كما ستفنى في المستقبل، ويكون شأنك شأن شيء لم يوجد على ظهر هذه الأرض.

وتساءل ونستون في قرارة نفسه: «إذن لماذا يهتمون بتعذيبي؟».

وتوقف أوبرين عن السير كأنما نطق ونستون بالخاطر الذي جال في ذهنه، ثم دنا منه وقد أغلق عينيه قليلًا، وقال:

- إنك تتساءل لماذا نزعج أنفسنا باستجوابك أولًا ما دمنا ننوي القضاء عليك نهائيًا، بحيث يصبح كل ما تقوله أو تفعله لا يعني شيئًا ولا يضيرنا في كثير أو في قليل!

أليس هذا ما كان يطوف بذهنك؟

فأجاب ونستون: نعم.

فابتسم أوبرين وقال: إنك عيب في التكوين العام يا ونستون.. إنك لوثة يجب أن نمحوها.. ألم أقل لك منذ لحظات إننا نختلف عن طغاة الماضي؟ إننا لا نقبل أو نقنع بمجرد الطاعة السلبية أو حتى بمجرد الخضوع المطلق، فعندما تخضع لنا في النهاية سيكون ذلك بمحض إرادتك.. إننا لا نحطم الضال لأنه يقاومنا، فطالما يحمل راية العصيان، فإننا لا نقضي عليه بل نغيره ونقهر عقله الباطن ونصوغه في قالب جديد، إننا نحرق كل شر وكل أفكار مضللة تكمن في رأسه، ونعيده إلى طريقنا ونجتذبه إلى صفوفنا، ولن يكون ذلك ظاهريًا بل فعليًا بالعقل والروح.. إننا نجعله عبدًا لنا مطيعًا قبل أن نقتله.. إننا لا نستطيع احتمال وجود فكرة خاطئة في أي مكان في العالم مهما كانت سرية ومهما كانت ضعيفة معدومة القوة.. حتى في لحظة الموت لا نسمح بأي انحراف.. لقد كان هراطقة الأيام الغابرة، يتقدمون نحو النار التي ستلتهم أجسامهم وهم هراطقة، يعلنون أفكارهم المنحرفة على رؤوس الأشهاد ويفاخرون بها.

بل إن ضحية حملات التطهير الروسية كان يستطيع أن يحمل التمرد والعصيان بداخل جمجمته وهو يسير عبر الممر في انتظار الرصاصة التي ستصرعه.. لقد كان طغاة الماضي يأمرون قائلين: «يجب ألا تفعل هذا الأمر أو ذاك»، وكان سادة الديكتاتوريات يقولون: «يجب أن تفعل هذا الشيء أو ذاك»، أما نحن فنقول: «إنك هكذا ولتكن ما أمرناك بأن تكونه». إن أحدًا ممن يدخلون هذا المكان لا يستطيع أن يثور ضدنا فيما بعد، لأن كل شخص يؤتى به يطهر وينظف، حتى أولئك الخونة التعساء الذين اعتقدت يومًا أنهم كانوا أبرياء- جونز وأرنسون ورازر فورد- هؤلاء أيضًا حطمناهم. لقد اشتركت في استجوابهم ورأيتهم يخرون على الأرض تدريجيًا، وقد انهارت قواهم وتحطمت أعصابهم وراحوا

يتضرعون ويبكون- وفي النهاية كانوا يبكون ندمًا وأسفًا. وحينما انتهينا من تطهيرهم كانوا قد تحولوا إلى أشباح رجال.. إلى أجسام لا روح فيها.. أصبحوا هياكل بشرية طافحة بالحزن على ما بدر منهم وعامرة بحب الأخ الأكبر. ولقد كان من المؤثر حقًّا أن ترى مبلغ حبهم له. ولكم تضرعوا إلينا لنطلق النار عليهم سريعًا؛ حتى يموتوا وعقولهم مطهرة من أدران الماضي.

وتحول صوت أوبرين إلى صوت الشخص الحالم، وكان الحماس الجنوني والاعتزاز بالنفس يبدوان على وجهه بأجل معانيهما، فقال ونستون لنفسه إن الرجل لا يتظاهر بما يقول، كما أنه ليس مرائيًا، ولكنه يؤمن بكل كلمة ينطق بها. وإنما أزعج ونستون وضايقه شعوره بنقصه الذهني أمام ذكاء أوبرين المتوقد. ومضى أوبرين يروح ويغدو في الغرفة بخطوات بطيئة رشيقة وقد شد قامته المديدة المهيبة. وعاد ونستون يناجي نفسه قائلًا: «إن هذا الرجل عرف منذ أمد طويل كل فكرة ساورتني أو قد تخطر على بالي، وقد فحصها بإمعان، ثم نبذها بناء على أدلة وحجج. لقد احتوى عقله عقلي».. وتساءل ونستون: ما دام الحال كذلك فكيف يمكن أن يكن أوبرين مجنونًا؟ لا ريب في أنني المجنون.

وتوقف أوبرين عن السير وتطلع إلى ونستون وقال له بصوت صارم:

- لا تتصور أنك ستنقذ نفسك يا ونستون مهما كان استسلامك لنا مطلقًا.. إننا لم نبق على حياة أي شخص ضل الطريق.. وحتى لو اخترنا أن ندعك وشأنك لتعيش السنوات التي قدر لك أن تحياها، فإنك لن تفلت من قبضتنا وما يحدث لك هنا سيعيش معك إلى الأبد، فعليك أن تدرك ذلك سلفًا. إننا سنسحقك إلى درجة لا تتيح لك أن تعود بحياتك إلى سيرتها الأولى، ستحدث لك أشياء لن تتمكن من التخلص من آثارها ولو عشت ألف عام... لن تستطيع أن تشعر مرة أخرى بذلك الشعور العادي الذي يتمتع به الأحياء.. إن كل شيء في باطنك سيموت ولن تعود قادرًا على الحب أو الصداقة أو التمتع بالحياة أو الضحك أو التعجب أو الشجاعة أو الاستقامة. ستصبح أجوف؛ لأننا سنعصرك عصرًا حتى تصبح كالجيفة الفارغة من كل شيء ثم نملأك بأنفسنا.

وتوقف أوبرين وأشار إلى الرجل ذي المعطف الأبيض. وشعر ونستون بقطعة من جهاز ثقيل تدفع إلى نقطة ما خلف رأسه. وجلس أوبرين على مقربة من الفراش بحيث أصبح وجهه محاذيًا لوجه ونستون. وقال محدثًا الرجل ذي المعطف الأبيض:

- ثلاثة آلاف.

وسرعان ما أحسن ونستون بوسادتين ناعمتين مبللتين تضغطان فوق صدغيه، فخارت قواه وشعر بألم يتدفق في جسمه.. كان لونًا جديدًا من الألم.. ووضع أوبرين يده فوق كتفه مطمئنًا وقال له:

- لن يؤذيك الألم هذه المرة.. ابق عينيك مركزتين في عيني.

وفي تلك اللحظة شعر ونستون بانفجار مروع، أو بما بدأ له كانفجار، رغم أنه لم يكن واثقًا من أنه سمع صوتًا، بيد أنه رأى وميضًا من الضوء يعمي العينين، ولكنه لم يصبه بأذى وإن كان قد أنهك قواه وخيل إليه أنه هبط إلى هوة سحيقة لا قرار لها إثر لطمة مخيفة سحقته سحقًا، وأن شيئًا ما لا بد أن يكون قد حدث بداخل رأسه، وعندما استعادت عيناه قدرتهما على التركيز تذكر من هو وأين هو وعرف الوجه الذي كان يحدق في وجهه. بيد أنه كان هناك فراغ كبير في رأسه كأنما انتزعت قطعة من مخه.

قال أوبرين: «لن تبقى طويلًا على هذه الحال.. انظر إلى عيني.. أي دولة تحاربها أوشانيا الآن؟».

وفكر ونستون.. أدرك ما يعنيه أوبرين بكلمة أوشانيا.. وعرف أيضًا أنه مواطن في هذه البلاد. وتذكر أيضًا أوراسيا واستاسيا، ولكنه لم يدر مع أي من الدولتين كانت أوشانيا مشتبكة في حرب، وواقع الأمر أن هناك حربًا قائمة.. ومن ثم قال: لا أذكر.

فقال أوبرين: إن أوشانيا تحارب استاسيا.. هل تذكر ذلك الآن؟

- نعم.

- لقد كانت أوشانيا في حرب دائمة مع استاسيا، فمنذ بداية حياتك، ومنذ بداية عهد الحزب، بل منذ بداية التاريخ كانت الحرب ولا تزال مندلعة بدون أي توقف..

إنها نفس الحرب.

- فهل تذكر ذلك؟

- نعم.

- منذ إحدى عشرة سنة ابتدعت يا ونستون خرافة عن ثلاثة رجال كان قد حكم عليهم بالإعدام لخيانتهم، وادعيت أنك رأيت قصاصة من الورق تثبت براءتهم.. إن مثل هذه القصاصة لم يكن لها وجود على الإطلاق. لقد كانت من اختراعك وبدأت تؤمن بها فيما بعد.. هل تذكر الآن اللحظة التي اخترعت فيها هذه القصاصة؟

- نعم.

- منذ فترة قصيرة رفعت يدي إليك فرأيت خمسة أصابع.. هل تذكر ذلك؟

- نعم.

ورفع أوبرين أصابع يده اليسرى وقد أخفى الإبهام وقال:

- إنها خمسة أصابع.. هل ترى خمسة أصابع؟

- نعم.

ولقد رآها ونستون خمسة فعلًا ولكن للحظة عابرة، كانت خمسة أصابع كاملة لا عيب أو نقص فيها.. ثم لم يلبث كل شيء أن عاد طبيعيًا، وعادت أفكاره تزدحم بالخوف والكراهية والحيرة! بيد أنه مرت به فترة لم يدرك مداها، ولعلها كانت ثلاثين ثانية كان يشعر خلالها بأنه واثق من كل شيء حوله. وكان كل إيحاء جديد من أوبرين يملأ فراغًا موجودًا في رأسه ويصبح حقيقة مطلقة، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، وإنما أيضًا يمكن أن تكون اثنان واثنان يساويان ثلاثة أو خمسة حسبما يتطلب الأمر. وما أن رفع أوبرين يده من فوق رأسه حتى زال عنه ذلك الكابوس واختفى ذلك الشعور الحاد.

وقال له أوبرين: ها أنت ترى أن ما حدثتك به ممكن.

فأجاب ونستون: نعم.

ونهض أوبرين واقفًا وقد ارتسمت على وجهه علامات الرضا، وعن يساره رأى ونستون

الرجل ذا المعطف الأبيض وهو يكسر أنبوبة ويسحب محتوياتها بمحقن، وتحول أوبرين إلى ونستون وعلى شفتيه ابتسامة، ثم ثبت عويناته جريًا على عادته القديمة وقال:

- هل تذكر ما سجلته في مذكراتك من أنه لا يهمك أن أكون صديقًا أو عدوًّا، طالما أنني على الأقل شخص يفهمك وتستطيع التحدث إليه؟ لقد كنت على حق، فإني أشعر بمتعة شديدة حين أتحدث إليك.. إن عقلك يستهويني لأنه شبيه بعقلي اللهم إلا أنك مجنون. وإذا أردت فإنك تستطيع أن تلقي عليّ ما تشاء من الأسئلة قبل أن ننهي الجلسة.

- أي سؤال أريد؟

- نعم.. أي سؤال تريد.

ولاحظ أوبرين أن عيني ونستون تحدقان في «العداد» فقال له: لا تخشاه فقد قطعت التيار عنه.. ما هو أول سؤال ترغب في توجيهه إليّ؟

فقال ونستون: ماذا فعلتم بجوليا؟

فابتسم أوبرين، ثم أجاب: لقد خانتك يا ونستون بلا إبطاء أو تحفظ.. إنني لم أر في حياتي شخصًا عاد إلى حظيرتنا بمثل هذه السرعة، ولو أنك رأيتها لما عرفتها لأن روحها الثائرة، وغرورها، وجهالتها، وأفكارها القذرة.. كل هذه قد استؤصلت شأفتها.. لقد تغيرت الفتاة تغييرًا شاملًا وأصبحت مثلًا للأجيال القادمة.

- هل عذبتموها؟

ولم يجب أوبرين عن هذا السؤال، وإنما قال: ما هو سؤالك الثاني؟

- هل للأخ الأكبر وجود؟

- طبعًا له وجود، والحزب موجود أيضًا، وبمعنى آخر إن الحزب يتجسد في الأخ الأكبر.

- هل يعيش كما أعيش أنا؟

فأجاب أوبرين: إنك غير موجود!

ومرة ثانية أحس ونستون بنوبة من العجز تجتاحه فهو يعرف، أو يمكنه أن يتخيل الحجج التي يمكن أن تساق للتدليل على عدم وجوده، ولكنها كانت جميعًا ضربًا من السخف بل إنها تلاعب بالألفاظ.. ألا تحتوي عبارة «إنك لست موجودًا» على سخف منطقي؟ ولكن ما جدوى هذا القول؟ وارتجف ونستون فزعًا عندما فكر في الحجج الجنونية التي سيقدمها أوبرين والتي لا يستطيع أن يفهمها..

وقال بإعياء: أظن أنني موجود، فإنني أدرك كنه نفسي. لقد ولدت وسوف أموت ولي ذراعان وساقان وأشغل حيزًا في الفضاء، ولا يستطيع جسم آخر أن يحتل نفس الفراغ الذي أشغله في وقت واحد. فهل يوجد الأخ الأكبر بهذا المعنى؟

- ليس لما تقول أية أهمية.. إن الأخ الأكبر موجود.

- وهل سيموت الأخ الأكبر في أحد الأيام؟

- بالطبع لا.. كيف يمكن أن يموت؟ ما هو سؤالك التالي؟

- هل توجد الإخوة؟

- هذا ما لن تعرفه يا ونستون. ولئن رأينا أن نطلق سراحك بعد أن نبت في أمرك، ولئن قدر لك أن تعيش حتى تبلغ التسعين من عمرك، فلن تعلم ما إذا كان جواب سؤالك هذا بنعم أم لا. فطالما بقيت على قيد الحياة فسيبقى هذا السؤال لغزًا يحير عقلك.

ولزم ونستون الصمت.. كان صدره يعلو ويهبط بسرعة أكثر قليلًا.. ولم يكن قد سأل بعد السؤال الذي خطر بباله أولًا، وكان يشعر بحافز قوي يدفعه إلى توجيه هذا السؤال، ولكن لسانه رفض أن يتكلم. أما أوبرين فكان ينظر إليه فاحصًا، وقد ارتسمت على وجهه علامات التهكم. وفجأة خطر لونستون أن أوبرين أدرك ما يجول بخاطره وعرف السؤال الذي يتردد على شفتيه! وما كادت هذه الفكرة تطوف بذهنه حتى تدفقت الكلمات من فمه..

سأل: ماذا يوجد في الغرفة رقم «101»

ولم يتغير التعبير المرتسم على وجه أوبرين، وأجاب بجفاء:

- إنك تعرف ماذا يوجد في الغرفة رقم «101» يا ونستون، بل إن كل شخص يعرف محتوياتها.

ورفع أوبرين أصبعه مشيرًا إلى الرجل ذي المعطف الأبيض، فأدرك ونستون أن الجلسة قد انتهت، وأحس بإبرة تغرس في ذراعه، وفي التو راح في سبات عميق.

الفصل الثالث

قال أوبرين: ستتم إعادتك إلى الطريق القويم وخلقك من جديد على ثلاث مراحل: مرحلة التعلم ومرحلة التفهم ثم مرحلة القبول. وقد آن أوان المرحلة الثانية.

وكما هي العادة كان ونستون مضطجعًا فوق الفراش، وكانت الأربطة التي تشده إليه أكثر استرخاء من ذي قبل، ومع أنها كانت لا تزال تشده إلى الفراش إلا أنها كانت تتيح له تحريك ركبتيه قليلًا، وتحويل رأسه من جانب إلى آخر، ورفع ذراعيه من عند المرفقين، حتى «جهاز الألم» أصبح أقل مدعاة للفزع، فقد كان في استطاعته تجنب الألم الذي يصدر عنه طالما كان حاضر البديهة. ولم يكن أوبرين ليسحب رافعته إلا إذا أبدى ونستون غباء وبلادة. وفي بعض الأحايين كانت الجلسة تمر بطولها بغير أن يضطر أوبرين إلى استخدام «جهاز الألم». ولم يستطع ونستون أن يذكر عدد الجلسات التي مرت به، بل إن العملية برمتها تبدو وكأنها استغرقت وقتًا طويلًا لا حدود له، ولعلها استغرت أسابيع.. أما فترات الراحة بين كل جلسة وأخرى، فكانت أيامًا في بعض الأحايين، وساعة أو ساعتين في أحايين أخرى.

قال أوبرين: قد يخطر ببالك يا ونستون وأنت مضطجع فوق هذا الفراش أن تلقي عليّ هذا السؤال.. بل إنك سبق أن وجهته إليّ، وهو: لماذا تظهر وزارة الحب مثل هذا الاهتمام بك، وتضيع هذا الوقت الطويل في علاجك؟ ولا شك في أن نفس السؤال كان يحيرك عندما كنت حرًّا طليقًا.. لقد استطعت أن تفهم آليات المجتمع الذي كنت تعيش فيه، ولكنك عجزت عن فهم الدوافع الكامنة تحته. هل تذكر أنك سجلت في مذكراتك «إنني أفهم كيف، ولكني لا أفهم لماذا؟» لقد بدأت تشك بعقلك الراجح عندما بدأت تفكر في «لماذا».. لقد قرأت كتاب جولد شتاين، أو أجزاء منه على الأقل، فهل عرفت منه شيئًا لم تكن تعرفه في الماضي؟

فسأله ونستون: هل قرأته أنت؟

فأجاب أوبرين: لقد كتبته، أعني أنني اشتركت في وضعه، فإن أحدًا لا يضع كتابًا بمفرده كما تعلم.

- وهل ما يقوله الكتاب صحيح؟

فأجاب أوبرين: أما الوصف فصحيح، وأما البرنامج الذي يحدده فسخف.. يقول الكتاب: تجمع المعلومات بطريقة سرية وتنشر المعرفة تدريجيًّا، وفي النهاية تشعل البروليتاريا ثورة وتقلب نظام حكم الحزب. كل هذا سخف ما بعده سخف؛ لأن البروليتاريا لن تثور حتى بعد ألف أو مليون سنة؛ لأنها لا تستطيع ذلك، ولا أحسبني بحاجة لأن أقول لك السبب لأنك تعرفه من قبل، فإذا كنت قد احتفظت ببعض أحلام العصيان العنيف، فيجدر بك أن تودعها إلى الأبد، إذ لا توجد طريقة لقلب الحزب، وسيظل حكم الحزب قائمًا إلى الأبد، فاجعل من ذلك نقطة بداية أفكارك.

واقترب أوبرين من الفراش، وعاد يقول: إلى الأبد.. والآن لنعد إلى موضوع «كيف» و«لماذا». إنك تفهم جيدًا كيف يحتفظ الحزب بالحكم، فما هي دوافعنا على التمسك به؟ لماذا نريد الاحتفاظ بالحكم؟ هيا.. تكلم.

ولكن ونستون بقي ملازمًا الصمت.

ومرت لحظة أو لحظتان بغير أن ينبس ونستون ببنت شفة، واجتاحه شعور بالإعياء،

ولاحظ أن الحماس المجنون بدأ يسيطر على أوبرين من جديد. كان يعرف سلفًا ماذا سيقول أوبرين، إن الحزب لم يسع وراء مقاليد الأمور حبًّا في السلطان وإنما لمصلحة الأغلبية. لقد سعى الحزب إلى السلطان؛ لأن العامة ضعفاء جبناء لا يستطيعون احتمال الحرية أو مواجهة الحقيقة، ويجب أن يتولى إدارة شئونهم آخرون أقوى منهم، على أن يكون ذلك بنظام شامل لا يخلو من الخداع.. إن أمام البشرية طريقين لا ثالث لهما، فإما أن تختار الحرية، وإما أن تختار السعادة، ولكن معظم بني الإنسان يفضلون السعادة على الحرية. إلا أن ونستون لم يكن على استعداد لتصديق هذه الحجج إذا ما ساقها أوبرين له، وكان يعلم أن وجهه ينم عن ذلك، وأن أوبرين لا ريب يدرك ما يعتمل في قرارة نفسه؛ لأن أوبرين يعرف كل شيء ويعرف أكثر منه، أي من ونستون، مدى ما يلجأ إليه الحزب من خداع وكذب ووسائل بربرية للإبقاء على سلطانه، ومدى ما تعانيه الكتل الإنسانية من تعاسة وعذاب. وتساءل ونستون فيما بينه وبين نفسه: ماذا عساك تفعل لمجنون أحدّ ذكاء منك، يستمع بصبر إلى حججك وبراهينك ولكنه يتمسك بجنونه؟

وقال ونستون بصوت خافت: إنكم تحكمونا لمصلحتنا، فأنتم تعتقدون أن المخلوقات البشرية لا تصلح لحكم نفسها ومن ثم....

وتوقف ونستون عن الكلام عندما شعر بالألم يتدفق في جسمه بعد أن سحب أوبرين رافعة «جهاز الألم» حتى أشارت الإبرة إلى درجة 35.

وقال أوبرين: إنك لا تقول إلا سخفًا يا ونستون، كنت أظن أنك لن تنطق بشيء كهذا.

وأعاد رافعة «جهاز الألم» إلى مكانها، ومضى يقول:

سأفضي إليك الآن بالإجابة عن سؤالي: إن الحزب يسعى وراء السلطة لذاتها، إن مصالح الآخرين لا تعنينا إطلاقًا، وكل همنا محصور في السلطة. نحن لا نسعى وراء الثروة ولا الرفاهية ولا الحياة الطويلة ولا السعادة، وإنما نسعى وراء القوة والقوة المطلقة. وستفهم الآن ما هو المقصود بالقوة المطلقة. إننا نختلف عن الهيئات الحاكمة في الماضي من حيث إننا نعلم علم اليقين ما نحن فاعلوه. أما الآخرون بما فيهم أولئك الذين كانوا يشبهوننا، فكانوا جبناء مرائين، لقد بلغ النازيون الألمان والشيوعيون الروس حدًّا قريبًا منا في وسائلهم، ولكنهم لم يملكوا من الشجاعة ما يجعلهم يعترفون بدوافعهم. فقد تظاهروا- وربما كانوا يؤمنون أيضًا- بأنهم تقلدوا زمام الأمور وهم كارهون في السلطان مصممون على أن يكون بقاؤهم في الحكم لفترة محدودة. وأنه يوجد- عند منعطف الطريق القريب- فردوس يعيش الناس فيه أحرارًا متساوين.. ولكننا لا نشبههم، فنحن نعلم أنه لا يوجد إنسان يقبض على زمام السلطة وهو يعتزم التخلص منها. إن السلطة ليست وسيلة ولكنها غاية، والإنسان لا يمكن أن ينشئ ديكتاتورية لحماية ثورة، وإنما يثير الإنسان ثورة لإنشاء ديكتاتورية. إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد، والهدف من التعذيب هو التعذيب. ومن ثم فإن الهدف من السلطة هو السلطة. فهل بدأت تفهم ما أقول؟

ودهش ونستون، مثلما دهش من قبل، لما بدا على وجه أوبرين من علامات التعب والإجهاد.. لقد كان وجهًا قويًّا ممتلئًا، قاسيًا، وحشيًّا، تبدو عليه أمارات الذكاء ويشف عن لون من العاطفة المكبوتة التي يشعر الإنسان بالعجز أمامها، ومع كل ذلك كان وجه أوبرين يكشف عن التعب، فقد كانت هناك هالتان زرقاوان حول العينين، وتهدل الجلد حول الصدغين.. ومال أوبرين فوق ونستون وقال له:

- إنك تفكر في علامات الشيخوخة والإجهاد التي تبدو على وجهي، وفي إنني أتحدث عن السلطة، بينما أنا لا أستطيع أن أمنع انحلال جسمي. ألا تستطيع أن تفهم يا ونستون أن

الفرد ليس إلا خلية واحدة؟ وأن إنهاك الخلية يعني قوة للجسم. هل تموت وأنت تقلم أظفارك؟

وانثنى أوبرين مبتعدًا عن الفراش، وعاد يذرع الغرفة جيئة وذهابًا وقد دس إحدى يديه في جيبه.. ثم قال:

- إننا كهنة السلطة، والله هو السلطة، ولكن السلطة لا تعني إلا مجرد كلمة بالنسبة إليك في الوقت الحاضر. لقد آن الأوان لأن تستجمع شتات فكرك وتكون فكرة عن السلطة، وأول شيء يجب عليك أن تدركه هو أن السلطة جماعية وأن الفرد لا يمكن أن يملك سلطة إلا إذا كف عن أن يكون فردًا، إنك تعرف قول الحزب المأثور: إن الحرية هي العبودية.. فهل خطر ببالك أن عكسها صحيح أيضًا؟ العبودية هي الحرية. فإن الإنسان إذا كان وحيدًا- وحرًّا، لا يلبث أن يقهر ويغلب على أمره. إن الأمر يجب أن يكون كذلك، لأن الموت مفروض على كل إنسان، والموت هو أعظم فشل يمنى به البشر، إلا أنه إذا استطاع هذا الإنسان أن يخضع خضوعًا تامًّا ويهرب من شخصيته، وإذا استطاع أن يندمج اندماجًا تامًّا في الحزب بحيث يصبح هو الحزب، فإنه يصبح عندئذ القوي الأقوى والخالد المخلد. والأمر الثاني الذي يجدر بك أن تدركه أن السلطة هي ممارسة السلطة فوق بني الإنسان، فوق أجسامهم بل وفوق عقولهم قبل كل شيء. والسلطة فوق المادة- وهي حقيقة خارجية كما ندعوها- ليست بذات أهمية. وسيطرتنا على المادة أصبحت مطلقة منذ أمد بعيد.

وتجاهل ونستون «جهاز الألم» لحظة، وبذل جهدًا عنيفًا ليستوي جالسًا فوق الفراش، رغم الألم الذي لا يطاق والذي سببه له هذا المجهود الشاق.

وقال: لكن كيف تستطيعون السيطرة على المادة؟ إنكم لا تسيطرون على الطقس أو على قانون الجاذبية.. وهناك المرض والألم والموت..

وأسكته أوبرين بإشارة من يده وقال:

- إننا نسيطر على المادة لأننا نسيطر على العقل، فالحقيقة تكمن بداخل الجمجمة، وسوف تتعلم ذلك تدريجيًّا يا ونستون.. إننا لا نعجز عن إتيان أي عمل، إننا نجعل المادة غير مرئية ونبخرها في الهواء.. إن في وسعي أن أجعل أرض هذه الغرفة تطفو كفقاعة صابون لو أردت ذلك، ولكني لا أرغب فيه لأن الحزب لا يريده..

يجب عليك أن تتخلص من أفكار القرن التاسع عشر عن قوانين الطبيعة، فإننا نحن الذين نضع قوانين الطبيعة.

واعترض ونستون على ذلك قائلًا: إنكم لا تضعون قوانين الطبيعة! ليس ذلك فحسب وإنما أنتم لستم سادة هذا الكوكب الذي نعيش فوقه، ألا توجد أوراسيا واستاسيا؟ إنكم لم تحتلوا هاتين الدولتين بعد!

فأجاب أوبرين: ليس لذلك أية أهمية لأننا سنحتل هاتين الدولتين في الوقت المناسب، ولنفرض أننا لم نحتلهما، فما أهمية ذلك؟ إننا نستطيع أن نضرب الحصار عليهما ونغلقهما، بحيث لا يشعر أحد بوجودهما.. إن أوشانيا هي العالم.

فقال ونستون: ولكن العالم نفسه ليس إلا ذرة من غبار، والإنسان جسم لا حول له ولا قوة.. منذ كم عام وجد الإنسان؟ ألم يكن العالم غير مأهول ملايين السنين؟

فقال أوبرين: هذا سخف.. إن عمر العالم كعمرنا، وهو ليس أقدم منَّا، بل كيف يمكن أن يكون كذلك؟ إن شيئًا لا يمكن أن يعيش إلا عن طريق الشعور الإنساني.

لكن الصخور مليئة بعظام الحيوانات المنقرضة- الفيلة البائدة والنمور المنقرضة - والأفاعي الضخمة- التي عاشت قبل أن يعرف شيء عن الإنسان.

فسأل أوبرين: وهل رأيت هذه العظام يا ونستون؟ بالطبع لا. لقد اخترعها علماء البيولوجيا في القرن التاسع عشر.. إن كائنًا حيًّا لم يعش قبل الإنسان، وبعد أن يفنى الإنسان- إذا كان ذلك مستطاعًا- فلن يبقى شيء على هذه البسيطة. فخارج كيان الإنسان لا يوجد شيء.

ولكن الكون كله خارج كياننا، انظر إلى النجوم، إن ضوء بعضها لا يصل إلينا إلا بعد - ملايين الأعوام، ولن يمكننا أن نصل إليها إلى الأبد.

فسأل أوبرين بغير اكتراث: وما هي النجوم؟ إنها قطع من النار تبعد عنا بضعة كيلومترات، ويمكننا أن نصل إليها إذا أردنا ذلك. وفي استطاعتنا أن نسمرها في مكانها، لأن الأرض هي مركز الكون والشمس والنجوم تدور حولها.

وأتى ونستون بحركة تدل على التمرد، ولكنه لم يقل شيئًا هذه المرة، فاستأنف أوبرين الحديث كما لو كان يجيب على اعتراض غير منطوق:

مما لا ريب فيه أن ما قلته ليس صحيحًا بالنسبة لأغراض معينة، فإذا كنا نمخر - عباب المحيطات، وإذا تنبأنا بحدوث خسوف للقمر، فإننا كثيرًا ما نجد أنه من المناسب أن نفترض أن الأرض تدور حول الشمس وأن النجوم تبعد عنها ملايين فوق ملايين من الكيلومترات. لكن ما أهمية ذلك؟ أتظن أننا لا نستطيع أن نضع نظامًا مزدوجًا للفلك؟ أتظن أن علماء الفلك في بلادنا أعجز من أن يفعلوا ذلك؟ هل نسيت التفكير المزدوج؟

وانكمش ونستون في فراشه، فمهما قال، فإن أوبرين كان يجيب على قوله بسرعة، وكانت إجاباته أشبه باللطمات الساحقة التي تكاد تهشم جمجمته، ولكنه- رغم ذلك كله- كان يعرف، بل يوقن بأنه على حق وأن محدثه على باطل. من المؤكد أنه يمكن التدليل على كذب الاعتقاد الذي يقول بألا شيء يوجد خارج نطاق عقل الإنسان. ألم يبرهن القدماء على أن هذا القول ضرب من ضروب المنطق المعكوس؟ بل لقد كان له اسمًا ولكنه نسيه؟ وارتسمت على شفتي أوبرين ابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى ونستون، ثم قال:

لقد قلت لك يا ونستون بأن علم ما وراء الطبيعة ليس نقطتك القوية. إن الكلمة التي - تحاول أن تذكرها هي مناجاة النفس، ولكنك مخطئ إذ لا مناجاة هناك، وإنما هناك، مناجاة جماعية إذا أردت. بيد أن ذلك شيء مختلف. إنه عكس ما تتصور..

ثم أضاف بلهجة مختلفة: إن هذا انحراف عقلي، فإن القوة، القوة التي يتعين علينا أن نكافحها ليل نهار ليست السلطة على الأشياء، بل على الإنسان.

وتريث قليلًا، ومن جديد اتخذ مظهر المعلم حينما يسأل تلميذًا نجيبًا: كيف يستطيع رجل واحد أن يؤكد سيطرته على رجل آخر يا ونستون؟

وفكر ونستون، ثم أجاب: يمكنه أن يبلغ هذه النتيجة بتعريضه للألم.

وقال أوبرين: أصبت. بتعريضه للألم، فالطاعة ليست كافية، وما لم يعان الإنسان من وطأة الألم، فكيف يمكنك أن تستوثق من أنه مطيع لإرادتك وليس لإرادته؟ إن السيطرة تتمثل في إثارة الألم والذل.. السيطرة هي تمزيق العقول البشرية إلى أجزاء ثم جمعها ثانية وصياغتها في قالب جديد يختاره صاحب السلطة..

فهل بدأت تفهم أي نوع من العالم يخلق الآن؟ إنه عكس الفردوس المفقود السخيف الذي تصوره المصلحون القدامى، إنه عالم الخوف والغدر والخيانة والتعذيب، بل إنه عالم يطأ الناس فيه بعضهم بعضًا، عالم كلما ازداد نقاء وصفاء، ازداد قسوة وعنفًا، فالتقدم في عالمنا عبارة عن خطوات تخطوها نحو مزيد من الألم، لقد ادعت الحضارات القديمة أنها قامت على أساس المحبة والعدالة، أما عالمنا فيقوم على أسس من الكراهية والحقد، وفي عالمنا هذا لا مكان للعواطف، اللهم إلا الخوف والغضب والشعور بالنصر وإذلال الذات. إننا سندمر كل شيء آخر- كل شيء. لقد فصمنا العرى التي تربط بين الطفل وأبويه، وبين الإنسان والإنسان وبين الرجل والمرأة، ولن يجرؤ أحد بعد الآن على الثقة بزوجته أو ابنه أو صديقه، بيد أنه لن يكون هناك زوجات ولا أصدقاء في المستقبل، فالأطفال سيؤخذون من أمهاتهم عند ولادتهم فسيصبح حدثًا سنويًا ذا صبغة رسمية كتجديد بطاقة التموين. وسنلغي لذة الجماع، فعلماء النيورولوجيا يعملون الآن لبلوغ هذه الغاية، ولن يكون هناك إخلاص، اللهم إلا الإخلاص للحزب. ولن يكون هناك حب اللهم إلا حب الأخ الأكبر، ولن يكون هناك فن أو أدب، ولا فرق بين الجمال والقبح، ولن يكون هناك ضحك إلا الضحك فوق جماجم العدو المدحور، ولن يكون هناك تعجب أو حب استطلاع ولا تمتع بالحياة أو لذة فيها.. إننا سنحطم جميع المباهج، ولكن يجب ألا تنسى مطلقًا يا ونستون أنه ستكون هناك دائمًا سلطة مطلقة متزايدة واسعة الحيلة.. وسيكون هناك دائمًا، وفي كل لحظة نشوة النصر، والشعور باللذة حينما نطأ بأقدامنا عدوًا هُزم وأصيب بالعجز الكامل.. إذا أردت أن تتخيل صورة للمستقبل فتصور حذاء يطأ وجهًا آدميًا إلى الأبد.

وتوقف أوبرين عن الكلام وكأنه توقع من ونستون أن يتكلم، ولكن هذا انكمش في نفسه، ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، وقد خيل إليه أن قلبه تجمد.

ومضى أوبرين في حديثه فقال: تذكر أن الحذاء الذي سيطأ الوجه سيطأه إلى الأبد. إنه وجه الهرطيق، عدو المجتمع، وسيبقى هذا الوجه دائمًا أسفل القدم ليقهر ويغلب ويذل المرة بعد الأخرى.. إن كل ما كابدته منذ وقعت في قبضتنا سيبقى وسيزداد سوءًا، فالجاسوسية والخيانة والقبض على الناس وتعذيبهم وإعدامهم واختفاؤهم، كل هذه الأشياء لن ينقطع حبلها، وسيكون العالم مملوءًا بالرعب والفزع مثلما هو مملوء بالنصر. وكلما ازدادت قوة الحزب واشتد ساعده، قل تسامحه واعتداله، وكلما ضعفت المقاومة، شدّد الطغيان قبضته.. سيحيا جولد شتاين وأتباعه الضالون إلى الأبد، ولكنهم سيهزمون في كل يوم، بل وفي كل لحظة.. سيهزمون، ويدمغون بالخزي ويسخر منهم ويبصق على وجوههم، ومع ذلك فإنهم سيبقون باستمرار، إن هذه المأساة التي لعبتها معك خلال سبع سنوات ستمثل المرة تلو المرة، جيلًا بعد جيل، وفي أشكال أشد قسوة وعنفًا. لسوف نجد دائمًا ضالًّا تحت رحمتنا، يصرخ من الألم، محطمًا، ذليلًا، ولكنه سيكون في النهاية نادمًا مستغفرًا زاحفًا على ركبتيه في طلب الغفران. ذلك هو العالم الذي نعده يا ونستون. عالم يشهد نصرًا بعد نصر وغلبة بعد غلبة وسعيًا حثيثًا مستمرًا نحو السيطرة وضغطًا لعصب السيطرة. إنني أرى أنك بدأت تدرك ما سيكون عليه العالم، ولكنك سوف تفعل أكثر من مجرد الفهم في النهاية. سوف تقبل هذا العالم وتصبح جزءًا منه.

وكان ونستون قد استعاد طرفًا من رباطة جأشه بحيث أصبح قادرًا على الكلام فقال بصوت خافت!

- إنكم لن تستطيعوا ذلك.

- ماذا تعني بهذا القول يا ونستون؟

- إنكم لن تستطيعوا خلق عالم كهذا الذي وصفته؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل.

- ولماذا؟

- لأنه من المستحيل تأسيس حضارة على الخوف والكراهية والقسوة، وإذا وجدت فإنها لن تعيش طويلًا.

- ولم لا؟

- لأنها ستكون خالية من الحيوية، ومن ثم تنهار وتنتحر.

- هذا سخف.. إنك تعتقد أن الكراهية لا تعيش طويلًا كالحب.. فلماذا؟ ولنفرض أن اعتقادك صحيح، فما أهمية ذلك؟ لنفرض أننا اخترنا أن تفنى بسرعة، ولنفرض أننا زدنا سرعة حياة الإنسان، بحيث يهرم ويشيخ وهو في الثلاثين من عمره، فما أهمية ذلك أيضًا؟ هل تستطيع أن تفهم أن موت الفرد ليس بموت؟ وأن الحزب خالد!

وكما هي العادة شعر ونستون بعجز قاتل، وفوق ذلك فقد خشي إن هو ثابر على مخالفة آراء أوبرين أن يستأنف تعذيبه «بالجهاز»، ومع ذلك فإنه لم يستطع التزام الصمت، ومن ثم عاد يقول بضعف ظاهر ويأس ملحوظ:

- لست أدري، ولست أبالي.. سوف تفشلون على كل حال.. سيقهركم شيء ما.. إن الحياة ستهزمكم.

- إننا نسيطر على الحياة في جميع مستوياتها يا ونستون. إنك تتوهم أن هناك شيئًا اسمه الطبيعة الإنسانية يغضبها ما نفعل، ومن ثم فإنها سوف تنقلب علينا.

ولكننا نخلق الطبيعة الإنسانية. إن الإنسان قابل للتغيير الذي حدد له، أم لعلك عدت إلى فكرتك القديمة التي تقول إن العامة أو الأرقاء سيثورون علينا وينتزعون السلطة من أيدينا. إن الإنسانية هي الحزب وأما الآخرون فخارج نطاقها ولا أهمية لهم إطلاقًا.

- أنا لا يهمني ذلك.. سوف تقهرون في النهاية، إن الناس سوف يعرفون حقيقة أمركم إن عاجلًا أو آجلًا فيمزقونكم إربًا.

- هل ترى دليلًا على أن ذلك سيحدث؟ أو هل لديك سبب لهذا الاعتقاد؟

- كلا، ولكنني أومن به. إنني واثق من أنكم ستفشلون، ففي هذا الكون شيء لا أدري كنهه. وقد يكون روحًا أو مبدأ، لن تكتب لكم الغلبة عليه.

- هل تؤمن بالله يا ونستون؟

- كلا.

- إذن ما هو المبدأ الذي سيهزمنا؟

- لست أدري. إنه روح الإنسان.

- هل تعتبر نفسك رجلًا يا ونستون؟

- نعم.

- إذا كنت رجلًا يا ونستون فأنت آخر رجل. لقد انقرض طرازك، ونحن الذين ورثنا العالم.. هل تدرك أنك وحيد في هذا العالم، إنك خارج نطاق التاريخ.. إنك لا وجود لك!

وتغيرت لهجته، وقال بقسوة وخشونة أشد: إنك تعتبر نفسك أسمى منا من الناحية الأدبية لما نتصف به من كذب وقسوة.

- نعم. إنني أعتبر نفسي أسمى.

وسكت أوبرين، وسمع ونستون صوتان يتكلمان، وبعد لحظة عرف ونستون أن أحد الصوتين صوته سجل على شريط. وكان هذا الشريط يتضمن الحديث الذي دار بينه وبين أوبرين ليلة أن انضم هو إلى جماعة الإخوة. وسمع ونستون نفسه يعد بأن يكذب ويسرق ويزور ويقتل ويشجع تناول الأفيون والحشيش والدعارة وينشر الأمراض التناسلية ويقذف وجوه الأطفال بالحوامض المحرقة.. وأشار ونستون بيده متأففًا وكأنما يقول إن كل هذه المظاهرة لا جدوى منها فأوقف أوبرين الشريط.

وقال أوبرين: انهض من الفراش.

وتراخت الأربطة التي كانت تشده إلى الفراش، فهبط ونستون من الفراش ووقف مترنحًا.

فقال أوبرين: إنك آخر رجل. أنت حارس الروح الإنسانية. سوف ترى نفسك على علاتها.. انزع ثيابك.

وخلع ونستون ثيابه المهلهلة، وعندما وقف عاريًا، رأى مرآة ذات ثلاثة جوانب في أقصى الغرفة فاقترب منها، ولكنه لم يلبث أن جمد في مكانه بلا حراك وانفجر باكيًا.

فقال أوبرين: تابع سيرك وقف بين أجنحة المرآة لترى نفسك من جميع الجوانب.

وانصاع ونستون للأمر..

يا لهول ما رأى! حطام أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان. لقد رأى نفسه وكأنه ابن الستين، حطمته العلل والأمراض حتى أصبح على حافة القبر.

وقال له أوبرين: لقد كنت تفكر أحيانًا في أن وجهي- أي وجه عضو الحزب الداخلي- يبدو متعبًا منهوكًا وقد جعدته السنون، فما رأيك في وجهك؟

ووضع يده فوق كتف ونستون وأداره نحوه ثم أردف:

- انظر إلى ما آل إليه حالك.. انظر إلى القاذورات تكسو جسمك، انظر إلى الصديد ينسال من الجروح التي في قدميك، هل لاحظت خورك وضعفك؟ هل تعلم أنك عفن كالعنزة؟ وهل تعلم إنك فقدت خمسة وعشرين كيلوجرامًا من وزنك منذ أن وقعت في قبضتنا؟ حتى شعرك أصبح يتساقط لمجرد اللمس، ولم يبق في فمك إلا حوالي عشرة أسنان.. كم كان عددها عندما جئت إلينا؟ ثم إن الأسنان القليلة الباقية تتساقط من فمك.. انظر!

ومد أوبرين يده وأمسك بإحدى أسنان ونستون وجذبها فخلعها وألقى بها فوق أرض الغرفة.. بينما أحس ونستون بألم ممض في فكه.

ومضى أوبرين يقول: إنك تذوب وتضعف وتذوي.. فمن أنت؟ إنك كيس من القاذورات! استدر وانظر إلى المرآة مرة أخرى.. هل ترى ذلك الشيء الذي يواجهك في المرآة؟ إنه آخر رجل.. وإذا كنت إنسانًا فهذه هي الإنسانية.. ارتد ثيابك الآن.

وبدأ ونستون يرتدي ثيابه بحركات بطيئة جامدة.. لم يكن حتى في هذه اللحظة قد لاحظ مبلغ ضعفه وهزاله. وكانت فكرة واحدة تدور بخلده وتلك أنه بقي في هذا المكان أكثر مما كان يتصور. وفجأة، وبعد أن تدثر بالأسمال البالية، تولاه شعور من الحزن على شبابه الذي ذهب وجسمه الذي بلي. فبدأ يذرف الدمع. ووضع أوبرين يده فوق كتفه مواسيًا وقال له:

- لن تظل على هذه الحال إلى الأبد، ستتخلص من هذه الحياة عندما تريد. إن كل شيء رهن بمشيئتك.

فتنهد ونستون وقال:

- لقد قضيت عليّ.. إنك أنت الذي أوصلتني إلى هذه الحالة المؤلمة.

فقال أوبرين: لا يا ونستون، بل أنت الذي أوصلت نفسك إلى هذه الحالة.. هذا هو ما قبلته عندما وقفت معارضًا للحزب، ولم يحدث لك شيء لم تتنبأ به سلفًا.

وتوقف عن الكلام لحظة، ثم مضى يقول:

- لقد ضربناك يا ونستون، وحطمناك.. وها أنت قد رأيت ما آل إليه جسمك، وأما عقلك فعلى نفس الحال، أكبر ظني أنك لم تعد تحتفظ بشيء من كبريائك..

لقد ضربت على قدميك، وركلت بالأقدام، وأهنت.. ولقد صرخت من فرط الألم وتدحرجت على الأرض ودمك ينزف، والقيء يقفز من فمك. لقد طلبت الرحمة وأنت تركع على ركبتيك. وخنت كل شخص عرفته. إننا لم نترك لونًا من ألوان الإهانة والتحقير إلا وأنزلناه بك.

وكف ونستون عن البكاء، رغم أن الدموع ظلت تنهمر من عينيه وتطلع إلى أوبرين وقال:

- إنني لم أخن جوليا.

فتأمله أوبرين مليًا، ثم قال: كلا.. إن ما تقوله صحيح.. إنك لم تخن جوليا.

وعاد الاحترام العجيب الذي يكنه ونستون لأوبرين والذي لم يحطمه أي شيء، يغمر قلب ونستون.

وقال لنفسه: «ما أذكاه، بل ما أشد ذكاءه! إنه لم يعجز مرة عن فهم ما يقال له، ولو كان شخص آخر في مركزه لأجاب عن سؤالي بأنني خنت جوليا. إذ أي شيء هناك عجز أوبرين عن انتزاعه مني، بعد أن أذاقني مختلف ألوان العذاب؟

لا شك في أنني رويت له كل ما أعرفه عن جوليا، وعن عاداتها وأخلاقها وحياتها الماضية.. ولا شك أيضًا في أنني اعترفت له بطريقة روائية بكل شيء، حتى بالتفصيلات السخيفة لكل ما حدث في اجتماعاتنا، وجميع ما قالته لي وما قلته لها.. ولا نزاع في أنني حدثته عن حبنا وغرامنا وتآمرنا الغامض ضد الحزب.. ولعلي لم أترك شيئًا إلا ذكرته له، ومع ذلك فإنه يقول لي إنني لم أ خن الفتاة؛ لأنه أدرك أنني لا أزال مقيمًا على حبها.

سأل ونستون: أخبرني، متى سيطلقون النار عليّ؟

فأجاب أوبرين: لا تزال أمامك مرحلة طويلة لأن حالتك صعبة، ولكن لا ضرورة لليأس؛

لأننا نشفي كل شخص إن عاجلًا أو آجلًا.. ولسوف نطلق النار عليك في النهاية.

الفصل الرابع

تحسنت حالة ونستون الصحية كثيرًا، كان جسمه يزداد قوة وامتلاء كل يوم، هذا إذا كان من الملائم أن نتحدث عن الأيام.

ولقد كان الضوء الأبيض، والصوت ذو الهمهمة مستمرين في سجنه، كما كانا من قبل، ولكن الزنزانة كانت أكثر استكمالًا لأسباب الراحة من تلك التي نزل بها أول الأمر، فكانت فيها حشية ووسادة ومقعد، ولقد سمحوا له بالاستحمام وأجازوا له أن يستحم بكثرة في حوض من الصفيح كما زودوه بالماء الساخن، وقدموا له ثيابًا جديدة داخلية وخارجية، وعالجوا جراحه وقدموا له أسنانًا صناعية، بعد أن خلعوا ما تبقى من أسنانه الطبيعية.

ولا ريب أن أسابيع وربما شهورًا قد مرت عليه وهو على هذه الحال.. ولقد أصبح في مقدوره الآن أن يعد الأيام والليالي ويحسب مرور الوقت لو أراد؛ لأن وجبات الطعام كانت تقدم له في أوقات منتظمة. وكان الطعام جيدًا للغاية، وكانوا يقدمون له اللحم كل ثالث وجبة، ولقد أعطوه صندوقًا مملوءًا بلفافات التبغ ذات مرة، ولم يكن لديه ثقاب ولكن الحارس الصامت كأبي الهول، والذي كان يحضر له طعامه، قدم له عود ثقاب.

وأعطوه كمية من الورق، وقطعة من قلم رصاص، ولكنه لم يستخدمها في بادئ الأمر. وكان ينام ساعات طوالًا بين كل وجبة وأخرى بغير أن يتحرك، وكان يستغرق في نوم عميق في بعض الأحايين، بينما يظل شبه مستيقظ في البعض الآخر، فيستعرض الماضي بذكرياته الأليمة. وكان قد اعتاد أن ينام والضوء القوي مسلط على وجهه، وقد تراءت له أحلام كثيرة. وكانت هذه الأحلام سارة ممتعة في بعض الأحايين. فقد حلم ذات مرة أنه في البلاد الذهبية، وفي مرة أخرى حلم أنه جالس بين قصور شامخة أثرية ومعه أمه وجوليا وأوبرين. ولم يكن يفعل شيئًا سوى الجلوس تحت أشعة الشمس والحديث عن الأشياء الجميلة، وكانت مشاهدة هذه الأحلام تتراءى له حتى في اليقظة، ويبدو أنه فقد كل قدرة على بذل أي جهد فكري، ومع ذلك فإنه لم يكن يشعر بملل ولا برغبة في الحديث، وكل ما كان يتمناه هو أن يبقى وحيدًا لا يُضرب ولا يُستجوب، وأن ينال من الطعام كفايته وأن يكون نظيف الجسم.

وبمرور الزمن بدأ يقضي وقتًا أقل في النوم، إلا أنه لم يكن يشعر بأي دافع للنهوض من الفراش. كان كل همه أن يبقى مضطجعًا بهدوء ليشعر بأن القوة بدأت تتجمع في جسمه والصحة تتدفق في عروقه. وبعد فترة من الوقت بدأ يمارس بعض الألعاب الرياضية والسير في الزنزانة وازداد نشاطه العقلي. وكان يجلس فوق فراشه، ويستجمع قواه العقلية، ويسترجع ما كان أوبرين قد لقنه إياه من دروس.

لقد أعلن استسلامه، هذا أمر لا ريب فيه. والواقع أنه كان مستعدًا للاستسلام قبل اتخاذ هذا القرار بفترة طويلة، فمنذ اللحظة التي دخل فيها وزارة الحب، بل منذ الدقيقة التي وقف فيها هو وجوليا يصغيان إلى إنذار الستار الناقل يأمرهما بما كان يجب عليهما أن يفعلاه، أدرك مدى حماقته وخمول تفكيره عندما كان يقاوم سلطة الحزب.

أدرك الآن أن بوليس الفكر كان يراقبه خلال سبع سنوات كخنفساء تحت عدسة مكبرة، إنهم لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من أعماله أو حركاته أو أقواله إلا ولاحظوها. كما استطاعوا أن يسبروا غور أفكاره ويتابعوا سلسلة تفكيره. ولقد أسمعوه أشرطة مسجلة وأطلعوه على صور فوتوغرافية بعضها يسجل اجتماعاته مع جوليا حتى عندما كان يضاجعها.. لقد استسلم وأصابه اليأس، ورأى نفسه أعجز من أن يناهض الحزب. أضف إلى ذلك، أن الحزب كان على حق، إذ كيف يمكن للعقل الجماعي الخالد أن يكون على خطأ؟

وهل من وسيلة تستطيع أن تقيس أحكام الحزب بموازين خارجية؟ إن التعقل أمر أخصائي بحت ولا يقتضي أكثر من مجرد أن تتعلم التفكير كما يفكرون.. وأمسك بالقلم وبدأ يسجل الأفكار التي كانت تدور برأسه فكتب العبارة التالية بأحرف فكبيرة:

الحرية هي العبودية ثم كتب العبارة التالية تحتها بدون توقف أو تمهل:

اثنان واثنان يساويان خمسة وهنا أحس بنوع من الجمود، وخيل إليه أن عقله عاجز عن التركيز لخجله من شيء ما. كان يعلم أنه يعرف ما الذي يجب أن يأتي بعد ذلك بحسب تسلسل الأفكار. ولكنه لم يستطع أن يتذكره في التو، بيد أنه ما لبث أن تذكره.. فبادر وسجل العبارة التالية:

الله هو القوة لقد تقبل كل شيء.. فالماضي قابل للتغيير. والماضي لم يتغير أبدًا. أوشانيا كانت في حرب مع استاسيا وأوشانيا كانت دائمًا في حرب مع استاسيا، وجونز وأرنسون ورازر فورد اقترفوا الجرائم التي اتهموا بها. وهو لم ير مطلقًا الصورة التي تنفي الاتهام عنهم، فإن هذه الصورة لم توجد أبدًا، وإنما هو الذي اخترعها.. وشعر بارتياح شديد ورأى الاستسلام أسلم عاقبة وآمن ملاذًا. وتصور نفسه وهو يسبح ضد تيار يدفعه إلى الوراء مهما ناضل للتقدم إلى الأمام.. وفجأة قرر السير مع التيار بدلًا من مقاومته، إن شيئًا لم يتغير اللهم إلا موقفه. ومهما يكن من أمر، إن شيئًا لم يحل به غير ما قدر عليه.. ولقد كان من العسير عليه أن يعرف لماذا تمرد، فقد كان كل شيء يسير سهلًا يسيرًا اللهم إلا...!

إن أي شيء يمكن أن يكون صحيحًا، أما قوانين الطبيعة فسخف، وقانون الجاذبية وهم وخيال. ألم يقل له أوبرين: «لو أردت لجعلت أرض هذه الغرفة تطفو كفقاعة صابون؟». ولقد حل ونستون اللغز وقال لنفسه: «إذا ظن أنه يستطيع أن يجعل أرض هذه الغرفة تطفو، وإذا ظننت أنا في الوقت نفسه أنه يستطيع أن يفعل ذلك، فإن في الإمكان إذن أن يحدث ذلك»، ولكنه لم يلبث أن انتفض حينما طاف بذهنه الخاطر التالي «إن ذلك لا يمكن أن يحدث في الواقع، وإنما نحن نتوهمه.. إنه ضرب من الهذيان»، ونفض عنه هذا الظن الخاطئ، فقد كانت استحالته واضحة. إنه يعني أنه يوجد في مكان ما خارج نطاق الإنسان عالم فعلي تقع فيه حوادث فعلية، ولكن كيف يمكن أن يوجد مثل هذا العالم؟ وأية معلومات لدينا عن أي شيء اللهم إلا تلك التي تصل إلينا عن طريق عقولنا؟ إن جميع الأحداث مسجلة في العقل، وما تسجله العقول من معلومات إنما يكون عن حوادث تقع فعلًا.

ولم يجد صعوبة في التخلص من هذه المغالطة، كما أنه لم يكن معرضًا لخطر الاستسلام لها، بيد أنه ما كان ينبغي أن تخطر هذه الأفكار بباله، وإن من واجبه أن يوجد بقعة عمياء في رأسه يطرح فيها الأفكار الخطرة إذا ما عرضت له، على أن تتم هذه العملية بطريقة آلية غريزية، وهذا هو ما يدعوه الحزب بلغته الحديثة «وقف الجريمة».

وبدأ يدرب نفسه على وقف الجريمة، وأخذ يقدم لنفسه الافتراضات التالية- «يقول الحزب إن الأرض مسطحة»، يقول الحزب: «إن الثلج أثقل من الماء»- وراح يتدرب، كيلا يرى أو يفهم الحجج التي تتعارض مع هذه الأقوال، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأنه يستلزم قدرة عظيمة على التحكم في العقل واستنباط الأسباب والعلل. فقد كانت المشاكل الحسابية التي تثيرها مثلًا عبارة مثل «اثنان واثنان يساويان خمسة» أبعد من أن يتفهمها عقله، لأنها تتطلب من الإنسان أن يكون قادرًا، في لحظة، على أن يستخدم المنطق إلى أقصى الحدود، وأن يكون، في اللحظة التالية، غير قادر على إدراك أكثر الأخطاء المنطقية جسامة. ومن ثم فإن الغباء ضروري في هذا المجال كالذكاء كما أنه صعب المنال مثله.

وكان يتساءل دائمًا متى ستطلق النار عليه. لقد قال له أوبرين: «إن كل شيء يتوقف عليك»، ولكنه كان يدرك أنه لا يستطيع أن يقرب هذا الموعد بعمل واع. فقد يحدث ذلك بعد عشر دقائق أو بعد عشر سنوات، فربما أبقوه سجينًا منفردًا سنوات طوالًا، وربما نفوه إلى معسكر عمل إجباري، وربما أطلقوا سراحه فترة من الزمن، كما كانوا يفعلون في بعض الأحايين. وفي خضم هذه الشكوك والظنون كان واثقًا من شيء واحد، وهو أن الموت لن يأتيه في لحظة مرتقبة، فقد جرت العادة أن يطلقوا النار على الضحية من الخلف، فيلهبون مؤخرة رأسه برصاصهم بغير إنذار سابق، أثناء سيره في الممر الواقع بين الزنزانات.

وذات يوم، ولكن عبارة «ذات يوم» ليست التعبير الصحيح، والأفضل أن نقول: وفي منتصف ليلة شعر ونستون بارتياح غريب سعيد، كان قد شرد فكره وتصور أنه يسير عبر الممر ويتوقع انطلاق الرصاص عليه. كان يدرك أن الرصاصة ستطلق عليه بعد لحظة وأن نهايته قادمة لا ريب فيها، فارتاحت نفسه، وتخلص من وساوسه وشكوكه وآلامه ومخاوفه.. كان قد استرد قواه وصحته، وكان يسير بسهولة وقد دب النشاط في خطواته، وكان يحس وكأنه يسير تحت ضوء الشمس..

ونسي أنه يسير عبر ممرات وزارة الحب، وإنما تصور أنه يسير في ممر فسيح مشرق عرضه كيلومترًا. خيل إليه أنه في البلاد الذهبية يسير فوق الحشائش الخضراء النضرة وأشعة الشمس الرقيقة تسقط على وجهه، وعند حافة الحقل كانت أغصان أشجار الخروب تتمايل في تيه ودلال ومن خلفها انساب جدول ماء رقراق.

وفجأة، استولى عليه الفزع، وتصبب العرق من جسمه إذ نادى بأعلى صوته:

- جوليا! جوليا! جوليا! حبيبتي جوليا!

وانتابه شعور قوي من الهذيان جعله يعتقد بوجود جوليا أمامه. ولم تكن معه فحسب، وإنما كانت بداخله أيضًا.. خيل إليه أنها ذابت في كيانه. ولقد أحبها في تلك اللحظة أكثر مما أحبها في أي وقت آخر عندما كانا معًا حرين طليقين. كذلك عرف أنها لا تزال على قيد الحياة في مكان ما وأنها بحاجة إلى مساعدته.

واسترخى في فراشه، وبدأ يستجمع شتات أفكاره. وتساءل: ماذا فعل؟ كم عدد سنوات العبودية التي أضافها إلى ما حكم عليه به منها بسبب لحظة من لحظات الضعف؟

وتصور أنه سوف يسمع وقع أقدام الحراس وهم قادمون إليه بعد لحظات.. إنهم لن يتجاوزوا عن مثل هذا العمل الذي أتاه بغير قصاص، وسيعرفون الآن- إن لم يكونوا قد عرفوا سلفًا- أنه خرق الاتفاقية التي عقدها معهم. لقد أطاع الحزب ولكنه لا يزال يكره الحزب. ففي الماضي كان يخفي عقلًا ضالًا وراء مظهر من مظاهر الانسجام مع الحزب والموافقة على أعماله، أما الآن فقد تراجع خطوة إلى الوراء، لقد استسلم بعقله، ولكنه كان يأمل أن يحتفظ بحصانة قلبه الداخلي. وعرف أنه أخطأ، ولكنه فضل أن يتمسك بخطأه.. إنهم سوف يفهمون موقفه.. على الأقل سيفهمه أوبرين، فقد اعترف بتلك الصرخة الوحيدة الرعناء التي أطلقها عندما صاح مناديًا حبيبته جوليا.

إن عليه أن يبدأ الآن من جديد، وربما استغرق عمله عدة سنوات.. وجرى بيده فوق وجهه محاولًا أن يتعرف على شكل وجهه الجديد، كانت هناك تجاعيد عميقة في وجنتيه أما عظمتاهما فكانتا ناتئتين. وكان أنفه شبه مسطح. ثم إنهم زودوه بطاقم من الأسنان الصناعية بعد أن رأى سحنته الكئيبة في المرآة. ولأول مرة أدرك أنه ليس من السهل على الإنسان أن يحتفظ بغموضه وإبهامه إذا لم يكن يعرف شكل وجهه. ومع ذلك فإن مجرد السيطرة على الملامح لا تكفي وحدها لتأمين سلامة أي سر. إذ ينبغي أيضًا أن يخفي

الإنسان السر حتى عن نفسه، وعليه كذلك أن يعرف أن السر كامن في قلبه طوال الوقت، بشرط ألا يدعه يطفو إلى مستوى الشعور بأي شكل من الأشكال إلا في اللحظة التي تدعو الحاجة فيها لذلك، وأدرك ونستون أنه يجدر به منذ هذه اللحظة ألا يكون تفكيره صحيحًا فحسب، بل وشعوره وأحلامه أيضًا. وعليه في جميع الأوقات أن يحتفظ بكراهيته سرًّا دفينًا في أعماق نفسه ككرة من المادة هي جزء من كيانه، ولكنها لا تتصل في كثير أو قليل ببقية أعضاء جسمه كخلية معزولة.

لا ريب أنهم سيقررون إعدامه رميًا بالرصاص في يوم من الأيام. ولكنه لا يستطيع أن يعرف متى سيحدث ذلك، وإن كان من الجائز أن يتمكن من التكهن به قبل حدوثه بثوان معدودات، فإن ذلك يحدث دائمًا من الخلف أثناء سير الضحية في ممر، وهكذا فإن عشر ثوان فقط هي التي تفصل بين الموت ومعرفته أن وقت موته قد حان. في هذه الفترة القصيرة سوف ينقلب كل ما بداخله رأسًا على عقب ثم، فجأة، وبدون أن تقال كلمة واحدة، وبدون أي توقف في السير، وبدون أن يطرأ أي تغيير على قسمة من قسمات وجهه، فجأة، يسقط القناع عن وجهه ويتمزق إربًا إربًا، وتمتلئ نفسه بحقد أشبه بلهيب مستعر، وفي نفس اللحظة تقريبًا تنطلق الرصاصة! قد تنطلق الرصاصة قبل فوات الأوان أو بعده. وبهذا يكونون قتلوه قبل أن يصلحوا أمره، وينطلق الفكر الضال حرًّا بغير أن يناله عقاب، وبذلك أيضًا يكونوا قد تركوا ثلمة في نسيجهم الكامل.. إن الحرية هي أن يموت الإنسان وهو يكرههم.

وأغمض عينيه.. لقد كان قبول أي نظام ذهني مهمة أكثر عسرًا؛ لأنه كان يتطلب منه إذلال نفسه والحط من كرامته وبتر أعضائه بنفسه. كان عليه أن يغطس من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في الأوحال والقاذورات، ولعل أسوأ ما عانته نفسه هو التفكير في الأخ الأكبر بوجهه الضخم وشاربه الأسود الكث وعينيه اللتين تلاحقانك أينما سرت.. وتساءل ونستون عن حقيقة شعوره نحو الأخ الأكبر. وقبل أن يتمكن من الإجابة عن هذا السؤال سمع وقع أقدام تسير في الممر، ثم فتح الباب الفولاذي محدثًا ضجيجًا عاليًا، ودخل أوبرين وخلفه الضابط الشاب ذو الوجه الجامد يحيط به الحراس من كل جانب.

قال أوبرين: قف، وتعال هنا!

ووقف ونستون أمامه، وضع أوبرين يديه القويتين فوق كتفي ونستون وتأمله مليًّا.

ثم قال: لقد طافت برأسك أفكار تدعوك لخداعي. وكان ذلك سخفًا منك.. شد قامتك وانظر إلى عيني.

وتريث قليلًا ثم مضى يقول بلهجة أرق:

- إن حالتك آخذة في التحسن، فلا مأخذ عليك يذكر من الناحية الفكرية، ولكنك فشلت في التقدم من الناحية العاطفية. أخبرني يا ونستون، وتذكر لآخر مرة أنني لا أحتمل الكذب، وأن لدي عدة وسائل تمكنني من تمييز الكذب من الصدق.. أخبرني ما هو شعورك الحقيقي تجاه الأخ الأكبر؟

فأجاب ونستون: إنني أكرهه.

- تكرهه؟ حسنًا.. لقد حان الوقت لنتخذ الخطوة الأخيرة.. يجب عليك أن تحب الأخ الأكبر، إذ لا يكفي أن تطيعه، وإنما يجب أن تحبه أيضًا.

ودفع ونستون نحو الحراس وقال:

- «خذوه إلى الغرفة رقم 101».

الفصل الخامس

في كل مرحلة من مراحل سجنه كان ونستون يعرف، أو يبدو وكأنه يعرف المكان الذي يوجد فيه في هذا البنيان الضخم الخالي من النوافذ. ولعل معرفته هذه كانت ناتجة عن حدوث تغيير طفيف في ضغط الهواء. لقد كانت الزنزانة التي ضربه الحرس فيها تحت الأرض. وكانت الغرفة التي استجوبه أوبرين فيها عالية قريبة من سطح الأرض. أما المكان الذي يقيم فيه حاليًا فكان بعيدًا جدًّا عن سطح الأرض.

كانت الغرفة أرحب من أية زنزانة حل بها، وأثاثها مكون من منضدتين صغيرتين موضوعتين أمامه، تبعد إحداهما عنه مترًا أو مترين، أما الأخرى فأبعد منها وأقرب إلى الباب. وكان ونستون مشدودًا إلى مقعد بطريقة تجعله عاجزًا عن تحريك أي عضو من أعضائه أو رأسه.

ومضت لحظة وهو وحيد، ثم فتح الباب، ودخل أوبرين.

قال له: لقد سألتني يومًا ماذا يوجد بالغرفة رقم «101» وأجبتك بأنك تعرف الإجابة سلفًا عن سؤالك، وأضفت إن كل إنسان يعرفها، فإن الغرفة رقم «101» تحتوي على أسوأ شيء في العالم.

وفتح الباب ثانية.. ودخل حارس يحمل شيئًا مصنوعًا من أسلاك، لعله كان صندوقًا أو سلة من نوع ما، ووضع الحارس الصندوق فوق المنضدة البعيدة، ولكن نظرًا لأن أوبرين كان يقف أمام ونستون فإن هذا لم يستطع أن يرى شيئًا.

وقال أوبرين: إن أسوأ شيء في العالم يختلف من شخص لآخر. فقد يكون الدفن حيًّا أو الموت حرقًا أو فوق خازوق أو غير ذلك من مختلف أنواع الموت. بيد أنه يحدث في بعض الحالات أن يكون أسوأ شيء في الدنيا، بالنسبة لبعض الأفراد، شيئًا تافهًا غير مميت.

وتحرك أوبرين قليلًا، وعندئذ استطاع ونستون أن يرى الصندوق الموضوع فوق المنضدة. كان قفصًا مصنوعًا من الأسلاك وله مقبض من أعلى، وبمقدمته حاجز، وهو مقسم إلى قسمين بداخل كل منهما جرذ كبير. وكان مثبت أيضًا بمقدمه شيء يشبه قناع المبارزة.

وقال أوبرين: إن أسوأ شيء في الدنيا بالنسبة إليك هو الجرذان.

واقشعر جسد ونستون وسرى الخوف في قلبه، وأدرك في التو معنى القناع، فازداد فزعًا وصاح بصوت أجش: إنك لن تستطيع.. هذا مستحيل.

فقال أوبرين: هل تذكر لحظة الألم التي كانت تتخلل أحلامك؟ كنت ترى جدارًا من السواد أمامك وتسمع صوتًا يزأر في أذنيك. وعلى الجانب الآخر من الجدار كان هناك شيء فظيع، ولقد كنت تعلم ما هو هذا الشيء، ولكنك لم تكن تجرؤ على إخراجه إلى العراء. كان ذلك الشيء هو الجرذان.

وبذل ونستون جهدًا شاقًّا محاولًا السيطرة على صوته وهتف:

- أوبرين، إنك تعلم أن ذلك ليس ضروريًّا.. ماذا تريد مني أن أفعل؟

ولم يجب أوبرين عن سؤال ونستون مباشرة.. وعندما تكلم كانت لهجته كلهجة المعلم التي اعتاد أن يلجأ إليها أحيانًا، فتطلع إلى الأفق البعيد، واستغرق في التفكير. وبدأ يتكلم وكأنه يخاطب جمهورًا يقف خلف ونستون.

قال: إن الألم لا يكفي وحده دائمًا فهناك مناسبات يستطيع الإنسان احتمال الألم فيها ولو بلغ حد الموت. بيد أن هناك شيئًا لا يستطيع كل شخص أن يحتمله، شيئًا لا يمكن تصوره. وفي مثل هذه الحالات تستوي الشجاعة والجبن. فإذا كنت تسقط من ارتفاع شاهق فليس من الجبن أن تتعلق بحبل، وإذا صعدت من بطن مياه عميقة فليس من الجبن أن تملأ رئتيك بالهواء؛ لأن هذه الأعمال غريزية لا يمكن مقاومتها، وهذا القول ينطبق أيضًا على الجرذان، فهي تؤلف بالنسبة لك لونًا من الضغط لا تستطيع احتماله، حتى ولو رغبت في ذلك، وعندئذ تفعل ما تؤمر به.

فقال ونستون: لكن ماذا تريد مني أن أفعل؟ قل لي ما هو وكيف أفعله، فإنني لا أعلمه؟

فحمل أوبرين القفص إلى المنضدة القريبة، وسمع ونستون صوت الدم وهو يندفع من أذنيه وأحس كأنه يجلس وحيدًا.. خيل إليه أنه يجلس في صحراء جرداء شاسعة يغمرها ضوء الشمس وتتجاوب أصداء الأصوات في جنباتها. ومع ذلك فإن القفص والجرذان لم تكن تبعد عنه أكثر من مترين.. كانا جرذين ضخمين تبدو عليهما الشراسة والفهم.

وقال أوبرين وكأنه لا يزال يخاطب الجمهور الوهمي: رغم أن الجرذ من الحيوانات القارضة إلا أنه محب لسفك الدماء.. ولا شك في أنك تعرف ذلك. ولقد سمعت عما يفعله الجرذ في الأحياء الفقيرة من هذه المدينة. ففي بعض الشوارع تخشى المرأة أن تترك طفلها وحيدًا في المنزل ولو لخمس دقائق؛ لأن الجرذان تهاجمه وبعد دقائق تتركه كتلة من العظام. كذلك تهاجم الجرذان أيضًا المرضى ومن على فراش الموت، وهي تتمتع بذكاء خارق يمكنها من معرفة الوقت الذي يصبح الإنسان فيه عاجزًا لا يستطيع دفاعًا عن نفسه.

وسمع ونستون صراخًا حادًا صادرًا من القفص.. كان الجرذان يتقاتلان ويحاولان الاشتباك مع بعضهما من خلال السياج الفاصل بينهما. وسمع أيضًا تأوهة عميقة تدل على الألم، وبدا له أن هذه التأوهة صادرة من خارجه.

ورفع أوبرين القفص وضغط على شيء فيه، فسمع ونستون قرقعة حادة، وحاول مستميتًا أن يتحرر من القيود التي تشده إلى المقعد ولكنه فشل. وقرّب أوبرين القفص من ونستون أكثر فأكثر حتى أصبح على مبعدة متر منه.

وقال أوبرين: سأشرح لك عمل هذا القفص. لقد سحبت الآن الرافعة الأولى، إن هذا القناع سيحيط برأسك إحاطة السوار بالمعصم، وعندما أسحب الرافعة الثانية سيرتفع باب القفص إلى أعلى وعندئذ تنطلق الوحوش الضارية كالقذيفة.. هل رأيت من قبل جرذًا يقفز في الهواء؟ إنها ستقفز فوق وجهك وتنهشه نهشًا. وفي بعض الأحيان تهاجم الجرذان العينين أولًا، وفي البعض الآخر تنشب أنيابها في الوجنتين أو تلتهم اللسان.

واقترب القفص من ونستون أكثر فأكثر. وسمع ونستون صراخًا حادًا متتابعًا، ولكنه ناضل بقوة محاولًا التغلب على موجة الفزع التي كانت تجتاحه. وفجأة أحس برائحة الجذران تنفذ إلى خياشيمه فارتعدت فرائضه وشعر باشمئزاز ما بعده اشمئزاز، وكاد يفقد وعيه واسودت الدنيا في عينيه، وخيل كأنه أصيب فجأة بالجنون وراح يصرخ كالحيوان الجريح، ولكنه عاد فخرج من الظلمة وهو يتمسك بفكره. لقد كان أمامه سبيل واحد للنجاة، يجب عليه أن يجعل جسم شخص آخر يقف حائلًا بينه وبين الجرذين.

واقترب القناع من وجهه بحيث حجب رؤية أي شيء عن عينيه وأصبح باب القفص قريبًا جدًا من وجهه، وأدرك الجرذان ما هما مقدمان عليه، وبدأ يشمان الهواء ويثبان وقد كشرا عن أنيابهما، فعاد الرعب يهز أوصال ونستون وغامت الدنيا أمام عينيه وانتابه يأس

قاتل.

وقال أوبرين بهدوء عجيب: لقد كان هذا القصاص شائعًا في الصين الإمبراطورية.

وبدأ القناع يحيط بوجه ونستون ولمست الأسلاك وجنتيه، وعندئذ تبدى له شعاع من أمل، ولعله جاء بعد فوات الأوان.. لقد أدرك فجأة أن في العالم كله شخصًا واحدًا يستطيع أن ينقل إليه هذا العقاب.. جسم واحد يستطيع أن يضعه حائلًا بين الجرذين وبينه. وفي التو انفجر يصيح كالمجنون:

- دونكم جوليا! افعلوا ذلك بجوليا! لا تفعلوا ذلك بي! جوليا! أنا لا أبالي بما تفعلونه معها، مزقوا وجهها إربًا، واقطعوا لحمها لتتركوها كومة من العظام، ولكن لا تفعلوا ذلك بي! جوليا! لا أنا!

وشعر كأنه يبتعد عن الجرذين، ويتردى في أعماق بعيدة في قاع المحيط، أو يرتفع في الأجواء العليا، أو يندفع في الفضاء. وربما في الفجوات الموجودة بين النجوم بعيدًا، ودائمًا بعيدًا عن الجرذين.. لقد أصبح بعيدًا عنهما عدة سنوات ضوئية، ولكن أوبرين لا يزال واقفًا بجانبه، وما زالت الأسلاك الباردة تلمس وجنتيه، ومن خلال الظلام المحيط به سمع قرقعة معدنية فعرف أن باب القفص قد أغلق ولم يفتح.

الفصل السادس

كان مقهى الكستناء خاليًا تقريبًا من رواده، وكانت أشعة الشمس تخترق نوافذه وتسقط على المنضدة المغطاة بالتراب، بينما كان الستار الناقل يذيع مقطوعات موسيقية خفيفة.

كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر، وكان ونستون يجلس في ركنه المعتاد يحملق في كأسه الفارغة. وكان لا يفتأ يلقي، بين كل آونة وأخرى، نظرة على الوجه الهائل الذي كان ينظر إليه شذرًا من الجدار المقابل، وكانت الصورة تحمل العبارة التالية: «الأخ الأكبر يراقبك». وتقدم خادم «ساقي» لم يستدعه أحد، فملأ كأس ونستون بشراب «جن النصر»، وأضاف إليه بضع قطرات من «السكارين» من زجاجة أخرى.

وكان ونستون يصغي إلى الستار الناقل الذي كان لا يزال يذيع الموسيقى الخفيفة، رغم أنه كان من المرتقب أن يذيع في أية لحظة نشرة خاصة صادرة عن وزارة السلم، لأن أنباء الجبهة الأفريقية كانت مزعجة للغاية، وكانت تشغل بال ونستون ليل نهار، فالجيش الأوراسي (وكانت أوشانيا مشتبكة في ذلك الوقت في حرب مع أوراسيا بل إنها كانت دائمًا في حرب معها) يتحرك جنوبًا بسرعة مخيفة. وإذا كانت نشرة الظهر لم تحدد منطقة معينة، فقد كان الأرجح أن الكونغو الأفريقية هي المسرح الذي تدور فوقه رحى الحرب. وكان برازافيل وليوبولدفيل في خطر، ولم تكن هناك ضرورة تدعو الإنسان للنظر إلى الخريطة لمعرفة معنى ذلك، إن المسألة ليست مجرد فقدان أفريقيا الوسطى. فلأول مرة في جميع مراحل الحرب أصبحت حدود أوشانيا نفسها مهددة بالخطر!

واجتاحته موجة عاتية من عاطفة قوية، ولكنها لم تكن عاطفة الخوف، بل كانت نوعًا من الاهتياج ولكنه لم يلبث أن تبدد. ورفع الكأس وشرب ما فيها حتى الثمالة، ورأى الساقي يتقدم منه وهو يحمل رقعة الشطرنج وصحيفة التايمز، وقد فتحت الصحيفة عند باب الألعاب الرياضية. ولما كانت كأس ونستون فارغة فقد أعاد الساقي ملئها بالجن. ولم يكن الساقي ينتظر أوامر ونستون لأنه ألمّ بعاداته تمام الإلمام، فرقعة الشطرنج في انتظاره دائمًا، والمائدة القائمة في ركن المشرب محجوزة له دائمًا، فحتى لو امتلأ المشرب برواده فإن أحدًا لم يكن يجرؤ على مشاطرته منضدته. ولم يكن ونستون يهتم بعدد الكؤوس التي يحتسيها، فقد كان الميهمنون على المشرب يقدمون له فاتورة الحساب بين الحين والحين فيدفعها لهم؛ نظرًا لأن المال كان وفيرًا لديه، إذ إنه كان يشغل عملًا يدر عليه دخلًا كبيرًا.

وكف الستار الناقل عن إذاعة الموسيقى، وانبعث منه صوت، فرفع ونستون رأسه ليصغي. ولكن الستار لم يذع نشرة عن الجبهة وإنما أذاع إعلانًا قصيرًا من وزارة الخير الوفير جاء به أن الوزارة حققت مشروعاتها بنجاح منقطع النظير.

وبدأ ونستون يحرك أحجار الشطرنج وهو يفكر في أن قوى الخير تلعب مع قوى الشر، وتوقف الستار الناقل عن الإذاعة لحظة ثم قال بصوت أكثر جدية: نلفت نظركم إلى أننا سنذيع نبأ مهمًا للغاية.. انتبهوا ولا تفلتوا الفرصة من أيديكم.. الساعة الثالثة والنصف!

واستأنف الستار إذاعة الموسيقى..

وتحرك قلب ونستون. لقد اقترب موعد إذاعة نشرة الأخبار. وأنبأته غريزته، بأن أنباء الجبهة سيئة، ولم تغب فكرة اندحار جيوش أوشانيا في أفريقيا عن ذهنه لحظة واحدة، وتصور جيش أوراسيا وهو يجتاح الحدود التي لم تقتحم حتى الآن، ويتدفق من أفريقيا إلى أوروبا كصفوف متراصة من النمل، وتمنى لو استطاع جيش أوراسيا أن يسيطر على

أفريقيا برمتها، وأن يقطع أوصال أوشانيا باستخدام مطاراته وقواعد غواصاته في رأس الرجاء الصالح، فإن ذلك يعني اندحار أوشانيا وإعادة تقسيم العالم وتحطيم الحزب.

وتذكر جوليا وأوبرين بغتة. ثم لم يلبث أن ألفى نفسه يكتب بأصبعه فوق المنضدة:

وانتفض، فقد أعادت هذه العملية الحسابية الخاطئة ذكرى العذاب 2 + 2 = 5 والهوان.

وتذكر جوليا.. لقد رآها بعد أن أطلقوا سراحه، وتحدث معها، فلم يكن هناك خطر يتهدده إن فعل ذلك، فقد أدرك بغريزته أنهم لا يعيرون أعماله التفاتًا في الوقت الحاضر، وكان بوسعه أن يحدد موعدًا ليلتقيا ثانية لو أراد ذلك. ولقد كان لقاؤهما بمحض الصدفة، إذ تم في الحديقة في يوم من أيام شهر مارس قارسة البرد. وكانت الأرض صلبة كالحديد، وأما الحشائش فكانت شبه ميتة، وكان ونستون يسرع خطاه وقد تجمدت يداه ودمعت عيناه عندما رآها على مسافة عشرة أمتار منه، وسرعان ما اكتشف أنها تغيرت.. ومرت به، فظل صامتًا، وظلت هي ساكتة، ثم تبعها لأنه كان يعرف ألا خطر في ذلك. وتابعت سيرها بغير أن تعيره التفاتًا، بل لقد حاولت أن تتخلص منه، ولما تبينت ألا جدوى في ذلك استسلمت للواقع. وأخيرًا توقفت عن السير فاقترب منها وأحاط خصرها بذراعه.

لم يكن في الحديقة ستار ناقل، بيد أنه كان من المحقق أن فيها مكبرات للصوت مخفاة هنا وهناك، أضف إلى ذلك أنه كان من السهل أن يراهما أحد المارة، ولكن ذلك كله لم تكن له أية أهمية، فقد كان في استطاعتهما أن يتخذا من الأرض فراشًا إذا رغبا في استئناف اتصالهما الجنسي.. ولكن جوليا لم تستجب له حين أحاط خصرها بذراعه، كما أنها لم تحاول إبعاده عنها.. لقد تغيرت.. ويا له من تغيير! لقد خيل لونستون أن جلدها طرأ عليه تغيير كبير.

لم يحاول تقبيلها، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة. وعندما كانا يسيران فوق العشب نظرت إليه لأول مرة، وكانت نظرتها طافحة بالاحتقار والكراهية، ولم يدر ونستون هل كانت هذه الكراهية نتيجة لما مر بالفتاة من عذاب أو أوحى بها وجهه المهشم وعيناه الدامعتان. ولاحظ أنها كانت تهم بالكلام، وأخيرًا وطئت غصنًا بقدمها وقالت وعلامات الحزن بادية على وجهها:

- لقد خنتك.

- وأنا أيضًا خنتك.

وألقت عليه نظرة أخرى طافحة بالازدراء، ثم قالت:

- إنهم يهددونك في بعض الأحايين بشيء لا تستطيع احتماله ولا تستطيع تصوره، وعندئذ تقول: لا تفعلوا ذلك بي بل افعلوه بأي شخص آخر. وقد تتظاهر فيما بعد بأن ما فعلته كان مجرد حيلة، وإن ما قلته إنما كان لإيقافهم عن تعذيبك وإنك لا تعنيه أبدًا. إنك كنت تظن وقتذاك ألا طريق آخر غير هذا ينجيك، وأنك على استعداد لسلوك هذا الطريق، ولا يهمك في قليل أو كثير الأذى الذي يلحق بغيرك. إن شيئًا لا يعنيك غير الإفلات بجلدك في مثل هذه المناسبة.

فردد قولها: الإفلات بجلدك.

ومضت جوليا تقول: وبعد ذلك فإنك لا تشعر بنفس الشعور الذي كنت تكنه من قبل للشخص الآخر الذي ذهب ضحيتك.

فقال ونستون: إن ما تقولينه حق.. إن الشعور يتغير.

وبدا لهما أنهما قالا كل ما كانا يريدان قوله، وعادت الريح تعصف بشدة، وشعرا بالبرد القارس يكاد يجمد أطرافهما، فاستأذنت جوليا لتلحق بالقطار ونهضت لتنصرف، فقال ونستون:

- يجب أن نلتقي مرة ثانية!

فقالت: نعم، يجب أن نلتقي مرة ثانية.

وتبعها مترددًا وهو يقدم رجلًا ويؤخر أخرى. وظل يسير في أثرها فترة من الوقت. ولكنهما لم يتبادلا الحديث مرة أخرى. أما هي فلم تحاول أن تتخلص منه، ولكنها أسرعت الخطى حتى لا تمكنه من السير بجانبها. وكان قد عول على مرافقتها إلى محطة القطار، ولكن بدا له أن مثل هذا العمل سخيف غير محتمل في هذا البرد القارس، كما طغت عليه رغبة شديدة في التخلي عن متابعة الفتاة والعودة إلى مقهى شجرة الكستناء. ولاحظ أنه لم يسبق له أن أحس بالحنين إلى المقهى مثلما حنّ إليه في تلك اللحظة. وتراءت له في الخيال منضدته الموضوعة في ركن المقهى وفوقها الصحيفة ولوحة الشطرنج وكأس الجن الذي لا يفرغ. وفي اللحظة التالية سمح ونستون لمجموعة صغيرة من السابلة بأن تفصله عن جوليا، وبذل محاولة نصف صادقة للحاق بها، ولكنه عدل عنها واستدار على عقبيه وانطلق في الاتجاه المضاد، وبعد أن قطع خمسين مترًا تطلع خلفه، ومع أن الشارع لم يكن مزدحمًا، إلا أنه لم يستطع تمييز الفتاة، فقد كان من المحتمل أن تكون واحدة من عشرات الأشخاص الذين كانوا يسرعون الخطى، إذ كان من المتعذر معرفتها بعد أن فقدت امتلاء جسمها.

وتذكر قولها: عندما يعذبونك فإنك تعني ما تقول...

والواقع أنها أصابت القول، فإنه لم يقل ما قال لمجرد القول، وإنما كان يرجو أن يتحقق، لقد تمنى لو أنها هي وليس هو التي قدمت إلى....

وكان قد بلغ المقهى في تلك اللحظة فاحتل مقعده التقليدي. وبدأ يصغي إلى الستار الناقل الذي سرعان ما توقف عن إذاعة الموسيقى بينما راح صوت يغني:

تحت شجرة الكستناء ذات الأغصان المنتشرة بعتك وبعتني.................................

وانهمرت الدموع من عينيه، ولاحظ الساقي أن كأسه فارغة، فأحضر له زجاجة جن، فبدأ يملأ الكأس تلو الأخرى ويفرغها في جوفه. ومع أن مذاق الجن كان سيئًا للغاية إلا أن الخمر أصبحت مصدر حياته ومماته، بل إنها رفيقه في ساعات الليل والنهار. فكلما استيقظ في الصباح، ولم يكن ذلك قبل الساعة الحادية عشر إلا في القليل النادر، كان يجد جفونه مشتبكة ببعضها، بينما يحس بالتهاب شديد في حلقه، وألم ممض في ظهره، ومن ثم كان من المستحيل أن يرفع جسمه من هذا الوضع الأفقي لولا الزجاجة وفنجان الشاي الموضوعين بجانب المنضدة منذ الليلة الماضية. وفي خلال ساعات النهار كان يجلس وهو جامد الوجه والزجاجة في متناول يده مصيخًا السمع لما يقوله الستار الناقل. كان «لازمة» من لوازم مقهى شجرة الكستناء فيما بين الساعة الخامسة وموعد إغلاق المقهى. ولم يعد أحد يأبه بما يفعل. فلم يكن الصفير يوقظه من شروده، كما أن الستار الناقل لم يكن يزعجه. وكان يذهب أحيانًا مرتين إلى مكتب مملوء بالغبار يكاد يكون مهجورًا في وزارة الصدق حيث يؤدي عملًا قليلًا أو ما كان يطلق عليه عمل، فقد عُين في لجنة فرعية للجنة فرعية أخرى من تلك اللجان التي دعت الحاجة إلى تأليفها لمواجهة الصعاب البسيطة التي

نشأت عن إعداد الطبعة الحادية عشر من معجم اللغة الحديثة. كان أعضاء هذه اللجان يضعون تقريرًا أطلق عليه اسم «تقرير مؤقت»، أمَّا ما هي الموضوعات التي كان يعالجها هذا التقرير، فأمر لم يكن محددًا أو معروفًا. كان شيئًا يتعلق بما إذا كان يجب وضع علامات الوقف بداخل الأقواس أو خارجها. وكان بهذه اللجنة أربعة أعضاء آخرين جميعهم مثله.. وفي كثير من المناسبات كانوا يجتمعون ثم ينفضون بعد أن يعترف كل منهم للآخر بأنه ليس هناك شيء يمكن عمله. بيد أنهم كانوا ينكبون على العمل بغيرة وحمية في مناسبات أخرى، ولكنهم لا يلبثون أن يختلفوا فيتشاجرون ويتشاتمون ويهدد أحدهم الآخر بالالتجاء إلى السلطات العليا، ثم لا يلبث غضبهم أن ينحسر، فيعودون إلى الجلوس حول المنضدة، وهم يتطلعون إلى بعضهم بنظرات لا حياة فيها.

وصمت الستار الناقل لحظة، فرفع ونستون رأسه مرة أخرى متوقعًا أن يسمع نشرة الأخبار ولكن خاب ظنه؛ لأن الستار الناقل استأنف إذاعة الموسيقى. وكانت خريطة أفريقيا تتراءى أمام ناظريه، وكانت حركة الجيوش أشبه بشكل هندسي، سهم أسود ينطلق عموديًا إلى الجنوب، وآخر أبيض ينطلق أفقيًا نحو الشرق عبر ذيل السهم الأول. وكأنما أراد أن يستوثق من صحة هذا التصور، فتطلع إلى صورة الوجه الجامد وراح يتساءل: ترى هل يمكن أن نتصور أنه ليس للسهم الثاني وجود على الإطلاق؟

وضعف اهتمامه بهذه الصورة، فارتشف جرعة من الجن، والتقط حجرًا أبيض من أحجار الشطرنج وحركه، ثم أدرك أن الحركة خاطئة لأن....

وفجأة، وبغير أي مبرر عاودته الذكرى مرة أ خرى.. فرأى بعين خياله غرفة مضاءة بالشموع بها سرير ضخم. وكان هو وقتذاك في التاسعة أو العاشرة من عمره.

ورأى نفسه جالسًا فوق الأرض وهو يلعب بصندوق نرد ويضحك بانفعال، بينما جلست أمه قبالته، وهي تضحك بدورها.

لا ريب أن ذلك كان قد حدث قبل أن تختفي أمه بشهر، في لحظة من لحظات الوئام التي كان ينسى أثناءها عضات الجوع ويعاوده حبه لأمه بصفة مؤقتة.. وهو يذكر هذا اليوم جيدًا. كان يومًا من الأيام المطيرة، حيث أخذ الماء ينهمر فوق زجاج النافذة، بينما كان الضوء ضعيفًا بداخل الغرفة حيث تتعذر القراءة. وكان الصغيران يشعران بسأم لا مزيد عليه، فراح ونستون يتأوه، ويطالب بالطعام دون جدوى، ثم أخذ يدور في الغرفة وهو يجذب كل شيء من موضعه ويضرب أسفل الحائط بقدميه حتى ضج الجيران وطرقوا الجدار بعنف احتجاجًا على هذا الصخب، بينما كانت الطفلة الصغرى تبكي بكاء متقطعًا، وأخيرًا قالت أمه: «كن لطيفًا حتى ابتاع لك لعبة، لعبة لطيفة ستحبها!» ثم غادرت المنزل غير عابئة بالمطر، ومضت إلى حانوت كان لا يزال قائمًا على مقربة وعندما عادت كانت تحمل معها علبة بداخلها لعبة الثعابين والسلالم. وإنه ليذكر حتى الآن رائحة العلبة المصنوعة من الكرتون، كانت لعبة حقيرة شبه محطمة فتطلع ونستون إليها غاضبًا، وبغير أن يبدي أي اهتمام، وفي تلك اللحظة أشعلت أمه شمعة صغيرة وجلسا معًا ليلعبا فوق الأرض، وسرعان ما ثار وراح يصيح ويضحك صاخبًا كلما حاولت الثعابين أن تتسلق السلالم وتسقط، وقد لعبا ثمانية أشواط، بينما راحت أخته الصغيرة تضحك على سبيل المحاكاة، بغير أن تعلم لماذا كانت أمها وأخوها يضحكان. وهكذا قضى ثلاثتهم تلك الأمسية وهم سعداء.

ولكنه سرعان ما أقصى عنه هذه الذكريات لأنها كانت ذكريات جوفاء.. كانت هذه الذكريات تزعجه بين الحين والحين، فبعضها يتعلق بأشياء وقعت والبعض الآخر بأشياء لم تقع إطلاقًا.. وعاد يولي لوحة الشطرنج اهتمامه، والتقط الفارس الأبيض، ولكنه ما لبث أن

سقط من يده في اللحظة ذاتها محدثًا ضوضاء عالية، أما هو فقد انتفض كما لو كان دبوس قد «غرس» في لحمه.

ارتفع صوت بوق في الفضاء.. لقد جاءت النشرة أخيرًا!! إنه النصر؛ لأن البوق لم يكن ينفخ فيه إلا كلما كانت هناك أنباء ستذاع عن نصر تحقق.. وأصيب كل من في المقهى بانفعال شديد.. حتى الخدم جمدوا في أماكنهم كالتماثيل وأصاخوا السمع.

وأعقب صوت البوق ضجيج هائل وهتاف يشق عنان السماء ويحول دون الاستماع إلى عبارات يصيح بها خطيب.. لقد انتقلت الأنباء كالنار من شارع إلى آخر، ومن الكلمات التي استطاعت أذناه التقاطها، عرف ونستون أن أسطولًا ضخمًا حشد بصورة سرية وأصاب مؤخرة العدو بضربة قاتلة... وخلال الضجيج والعجيج سمع العبارات التالية:

كانت مناورة استراتيجية امتازت بالانسجام التام بين القوات الثلاثة البرية والبحرية - والجوية.. أصيب العدو بهزيمة ساحقة... نصف مليون من الأسرى... لقد تحطمت روح العدو المعنوية، وبسطت أوشانيا سيطرتها على أفريقيا كلها وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى من نهايتها.. إن هذا النصر أعظم نصر عرفه التاريخ... النصر.. النصر.. النصر.

وبدأت قدما ونستون تتحركان بسرعة تحت المنضدة، ومع أنه لم يتحرك من مقعده، إلا أنه كان يركض بعقله، ويركض بسرعة. وكانت الجماهير تصرخ وتصيح وتهتف بالخارج، وألقى ونستون نظرة أخرى على صورة الأخ الأكبر الذي كان يجثم كالجبل الشامخ وقد انبسط العالم تحت قدميه.. إنه الصخرة التي اندفعت جحافل آسيا لتحطيمها دون جدوى.

وكان الصوت الصادر عن الستار الناقل لا يزال يزأر وهو يروي قصة الأسرى والغنائم والمذابح. أما الهتاف الذي كان يتصاعد من الجماهير خارج المشرب فبدأ يتضاءل. وعاد الخدم إلى أعمالهم، واقترب أحدهم من كأس ونستون وملأها مرة أخرى، ولكن ونستون لم يعره التفاتًا، فقد كان سابحًا في حلم سعيد لذيذ لم يكن يركض فيه مع الجماهير ويهتف ويحيي، بل كان في وزارة الحب وقد عفي عنه، وكانت روحه بيضاء نقية ناصعة كالثلج. ثم تخيل نفسه يقف أمام الجماهير ويعترف بكل شيء ويشي بكل شخص يعرفه. وسرعان ما رأى نفسه يسير عبر ممر يكسوه البلاط الأبيض، وكان يشعر وكأنه يسير في ضوء الشمس، بينما كان حرس مسلح يسير خلفه، وأخيرًا شعر بأن الرصاصة التي طالما هفا إليها تمزق مخه.

حملق في الوجه الضخم، ولقد انقضت أربعون سنة قبل أن يعرف لون الابتسامة التي كان الأخ الأكبر يخفيها تحت شاربه الأسود، وقال لنفسه: ولماذا كان سوء الفهم القاسي هذا الذي لا ضرورة له! لماذا ارتضيت أن أنأى بنفسي، بعناد وتصلب، عن صور الأخ الأكبر المحب العطوف؟

وانسالت دمعتان من عينيه فوق وجنتيه وقال لنفسه: لا بأس في ذلك ولا ضير عليّ.. لقد انتهى نضالي، وهاأنذا قد انتصرت على نفسي بنفسي وقهرت روحي وغدوت أحب الأخ الأكبر.

كانت اللغة الجديدة (نيوسبيك N EW SPEAK انتهت ملحق مبادئ اللغة الجديدة هي اللغة الرسمية لأوشانيا، وقد ابتدعت لمواجهة احتياجات المثل العليا (NewSpeak لأنجسوك أو الاشتراكية الإنجليزية. وفي عام 1984 لم يكن هناك بعد من يستخدم اللغة الجديدة كوسيلته الوحيدة في الحديث أو في الكتابة. وكانت المقالات الافتتاحية بجريدة التايمز تكتب بها، إلا أن ذلك كان يستلزم بذل جهد شاق لم يكن يحتمله غير الأخصائي. وكان المتوقع أن تتمكن اللغة الجديدة من التفوق نهائيًا على اللغة القديمة «اللغة

الإنجليزية العادية» حوالي عام 2050. ففي تلك الأثناء يتقدم استعمال اللغة الجديدة تقدمًا كبيرًا. وقد أصبح جميع أعضاء الحزب يميلون إلى استخدام كلمات اللغة الجديدة وتراكيبها اللغوية في أحاديثهم اليومية. وكانت الكلمات المستعملة في عام 1984 والتي ظهرت في الطبعتين التاسعة والعاشرة من معجم اللغة الجديدة موقوتة اشتملت على كثير من الكلمات الزائدة عن الحاجة والتراكيب المعقدة التي كان مصيرها الحذف فيما بعد. أما الكلمات النهائية الدقيقة التي ظهرت في الطبعة الحادية عشر من المعجم فهي التي تهمنا هنا..

لم يكن الغرض من اللغة الجديدة أن تكون أداة للتعبير للرأي العام والعادات العقلية التي تلائم المتحمسين للاشتراكية الإنجليزية فحسب، وإنما كان الغرض منها جعل جميع أنواع التفكير الأخرى ضربًا من المستحيل. ولقد استهدف واضعو اللغة الجديدة غاية محددة، وتلك أنه حينما يكتب التفوق لهذه اللغة بصفة نهائية، ينسى الناس اللغة القديمة، فإن أي تفكير منحرف عن مبادئ الاشتراكية الإنجليزية، يجب أن يصبح أمرًا مستحيلًا، طالما كان التفكير متوقفًا على الكلمات.

ولقد كونت كلمات اللغة الجديدة بحيث تعبر دائمًا وبدقة عن كل معنى، وبحيث يستطيع كل عضو من أعضاء الحزب أن يعبر به عما يريد مباشرة. ولقد حقق هذا الغرض جزئيًا بابتداع كلمات جديدة، لكنه حقق أساسًا بحذف الكلمات غير المرغوب فيها، كذا بتجريد الكلمات الباقية من المعاني التي لا تعبر عن معنى واحد محدود وذلك، وبقدر الإمكان، بتجريدها من المعاني الثانوية أيًا كانت. ولنضرب لذلك مثلًا بكلمة «free» أو حر، فهذه الكلمة ما زالت موجودة في اللغة الجديدة، ولكنها لا يمكن أن تستعمل إلا في جمل مثل «هذا الكلب خال من القمل» أو «هذا الحقل خال من الأعشاب»، كذلك لا يمكن استعمالها بالمعنى القديم وهو «التحرر السياسي» أو «التحرر الفكري» ما دامت الحرية السياسية والحرية الفكرية لم يعد لهما وجود حتى كمبادئ عامة، ومن ثم فقد أصبحتا بالضرورة غير موجودتين ولا اسم لهما، وإلى جانب إلغاء الكلمات المنحرفة بصفة عامة، فقد اعتبر خفض عدد الكلمات غاية في حد ذاته، ومن ثم لم يسمح بالإبقاء على أية كلمة يمكن الاستغناء عنها. ولقد روعي في وضع اللغة الجديدة أن تؤدي إلى تضييق نطاق التفكير لا إلى توسيعه، وقد ساعد على الوصول إلى هذه الغاية بطريقة غير مباشرة، تضييق مجال اختيار الكلمات إلى أدنى حد.

لقد قامت اللغة الجديدة على اللغة الإنجليزية التي نعرفها الآن. أما عبارات اللغة الجديدة فلم يكن في الإمكان فهمها لأي متحدث باللغة الإنجليزية في وقتنا هذا، حتى ولو لم تشتمل على كلمات من تلك التي ابتدعت حديثًا. ولقد قسمت كلمات اللغة الجديدة إلى ثلاثة أقسام منفصلة تعرف باسم كلمات «أ» وكلمات «ب» (وتعرف أيضًا باسم الكلمات المركبة) وكلمات «ج». وقد يكون من الأسهل أن نناقش كل قسم على حدة، أما الخصائص اللغوية للغة نفسها، فيمكن معالجتها في القسم الخاص بكلمات القسم «أ»، ما دامت القواعد نفسها صالحة للتطبيق على الأقسام الثلاثة جميعًا..

كلمات القسم «أ»: يتكون قسم كلمات «أ» من الكلمات التي يحتاج إليها الناس في أعمالهم التي يؤدونها كل يوم، مثل: تناول الطعام، والشرب، والعمل، وارتداء الثياب، وصعود الدرج وهبوطه، وركوب السيارات، والعمل في الحديقة، والطهي وما شابهها. ولقد تكوّن هذا القسم من كلمات نعرفها حاليًا، كلمات مثل: hit, run, dog, tree, sugar, house, field ولكننا إذا قارناها بكلمات اللغة الإنجليزية الحالية، فسيتبين لنا أن عددها تضاءل كثيرًا، على حين أن معانيها أصبحت محددة بدقة شديدة. فقد طُهرت هذه الكلمات من كل لبس أو ازدواج في المعنى. فأية كلمة من هذا القسم من اللغة الجديدة لا تعدو أن

تكون صوتًا يعبر عن رأي واحد واضح مفهوم. ومن ثم كان من المستحيل استعمال كلمات القسم «أ» في الأغراض الأدبية أو المناقشات السياسية أو الفلسفية، إذ إن الغرض الوحيد المقصود منها هو التعبير عن أفكار بسيطة ذات غرض محدد تتصل عادة بأشياء مادية أو أعمال جسمانية.

ولقواعد اللغة الجديدة صفتان بارزتان، أولهما قابلية مختلف أنواع الكلام للمبادلة، فأية كلمة في اللغة (وهذا المبدأ قابل للتطبيق حتى على الكلمات مثل If أو when) يمكن استعمالها إما كفعل أو كاسم أو كصفة أو كظرف. ولم يكن هناك أي خلاف بين شكل الفعل وشكل الاسم طالما كانا من نفس الأصل، وقد أدت هذه القاعدة إلى تحطيم كثير من الاستعلامات القديمة. فكلمة Thought مثلًا لم يعد لها وجود في اللغة الجديدة. وقد احتلت كلمة think محلها فأدت معنى الاسم والفعل معًا. ولم يتبع هنا أي مبدأ من مبادئ فقه اللغة أو الاشتقاق، وقد رؤي في بعض الحالات الاحتفاظ بالاسم. وفي حالات أخرى احتفظ بالفعل وحذف الاسم. وحتى حينما يكون المعنى المقصود من الاسم والمقصود من الفعل متقاربًا، فإنهما لم يربطا ببعضهما عن طريق الاشتقاق، وإنما حذف أحدهما.

مثال ذلك لم تكن هناك كلمة knife إذ اعتبرت كلمة cut كافية لتغطية معنى الاسم- الفعل. وكونت الصفات بإضافة ful إلى الاسم- الفعل، والظروف بإضافة wise. وهكذا أصبحت كلمة speedful تعني سريع وكلمة speedwise تعني على عجل (بسرعة). ولقد احتفظ ببعض صفات معينة من الصفات المستعملة في لغتنا الحالية مثل: good, strong, big, black, soft. ولكن مجموعها الكلي كان ضئيلًا، إذ إن الحاجة إليها كانت قليلة، ما دام كان في الإمكان الوصول إلى أي معنى وصفي بإضافة ful إلى الاسم- الفعل. أما الظروف المستعملة حاليًا فقد حذفت نهائيًا اللهم إلا عدد قليل ينتهي بمقطع wise وهو مقطع لا يتغير. وفوق ذلك فإن في الإمكان استبدلت بكلمة well مثلًا goodwise. فكلمة نفي أية كلمة بإضافة un في أول الكلمة، أو يمكن تقويتها بإضافة plus إلى أولها وعند زيادة التأكيد تضاف كلمة doubleplus وهذه القاعدة تنطبق من ناحية المبدأ على كل كلمة في اللغة.. مثال ذلك تعني كلمة uncold «دافئًا»، بينما تعني كلمتا pluscold, doublepluscold «بارد جدًّا» و«بارد إلى أقصى حد» على التعاقب. كذلك كان من الممكن- كما هو الحال في اللغة الإنجليزية الحالية- تعديل معنى أية كلمة تقريبًا بإضافة المقاطع مثل ante, post, up, down إلخ في أول الكلمة. وبهذه الوسائل اتضح أنه من الممكن الإقلال من عدد كلمات اللغة إلى درجة كبيرة. مثال ذلك، إن وجود كلمة good «جيد» أدى إلى حذف كلمة bad «رديء» ما دام المعنى المطلوب يمكن التعبير عنه بشكل أفضل بكلمة ungood. وكل ما كان ضروريًّا- في حالة ما إذا كانت هناك كلمتان تعبران عن معنيين متعارضين- هو البت في أيهما هي التي تحذف. مثال ذلك كان في الإمكان استبدال كلمة dark «ظلام» بكلمة unlight أو كلمة «نور» بكلمة undark.

أما الصفة الثانية المميزة لقواعد اللغة الجديدة فكانت جعلها «قياسية». ففيما بعد كانت جميع التصاريف تتبع القاعدة نفسها. وهكذا كان الأمر بالنسبة لجميع أفعال الماضي واسم المفعول التي كانت تنتهي جميعًا بحرفي ed. فكان الفعل الماضي من كلمة steal (يسرق) هو stealed ومن think (يفكر) thinked وهلم جرّا بالنسبة لجميع أفعال اللغة، أما الكلمات أمثال swam, gave, brought, spoke, taken, etc فقد ألغيت جميعًا. وأما الجمع فكان بإضافة s أو es في نهاية المفرد حسبما تدعو الحالة. ومن ثم فقد أصبح جمع كلمات man, ox, life هو mans, oxes, lifes. وأما تفضيل الصفات فكان يكوّن بإضافة er, est مثل (good, gooder, goodest) على حين ألغيت الصيغ الشاذة كما ألغيت كلمتا more, most.

ولقد سمح لكلمات معينة بالاحتفاظ بتصريفها الشاذ مثل الضمائر، وأسماء الموصول، وصفات الإشارة والأفعال المساعدة. فقد ظلت هذه جميعًا تستعمل مثلما كانت تستعمل في اللغة القديمة فيما عدا كلمة whom فقد حذفت، كما حذفت كلمتي shall, should اكتفاء باستعمال كلمتي will, would في مكانهما.

ولقد لجأ واضعو اللغة الجديدة إلى التخلي عن النظم القديمة في تركيب الكلمات سعيًا وراء سرعة النطق وسهولته. ومن ثم فإن الكلمة التي كان يصعب نطقها أو يمكن أن تسمع خطأ، كانت تعتبر كلمة بحكم الواقع رديئة. ولذلك كان يحدث أحيانًا إدخال حروف إضافية في بعض الكلمات أو الاحتفاظ بالكلمات القديمة بغية سهولة النطق، ولكن هذه الضرورة برزت بوضوح أكثر في كلمات القسم «ب». أما لماذا كان تسهيل النطق من الأهمية بمكان فأمر سيتضح فيما بعد.

كلمات القسم «ب»: تتكون كلمات القسم «ب» من الكلمات التي وضعت أساسًا لأغراض سياسية. وهذه الكلمات لا تشتمل على معانٍ سياسية فحسب، ولكن كان المفروض أنها تفرض حالة عقلية معينة على الشخص الذي يستعملها. فبغير الإلمام الكامل بمبادئ الاشتراكية الإنجليزية (أنجسوك) كان من الصعب استعمال هذه الكلمات استعمالًا صحيحًا. وفي بعض الحالات كان من المستطاع ترجمتها باللغة القديمة أو حتى بكلمات مأخوذة من كلمات القسم «أ» ولكن ذلك كان يستلزم عادة استخدام عبارات مطولة، كما كان ينطوي على ضياع نغمات الصوت. كانت كلمات القسم «ب» نوعًا من الاختزال الشفوي، فكانت تحمل غالبًا مجموعة كاملة من الأفكار في مقاطع قليلة. كما كانت، في الوقت نفسه، أكثر دقة وقوة في التعبير عن اللغة العادية.

كانت كلمات القسم «ب» كلمات مركبة في جميع الأحوال. وكانت هذه الكلمات تتكون من كلمتين أو أكثر، أو من أجزاء من كلمات اتصلت ببعضها بطريقة تجعلها سهلة النطق. وكانت نتيجة هذا الإدماج اسم- فعل دائمًا يمكن تصريفه تبعًا للقواعد العادية. ولنضرب لذلك مثلًا واحدًا هو كلمة «goodthink» ومعناها التفكير الحسن أو «استقامة الرأي» فإذا أراد الإنسان أن يعتبرها فعلًا «يفكر بطريقة مستقيمة» فإن ذلك يعني استخدام: اسم- فعل «goodthink» وماضيه واسم مفعوله «goodthinked». أما اسم فاعله فهو «goodthinking» والصفة «goodthinkful» والظرف «goodthinkwise» واسم الفعل «goodthinker».

ولم تركب كلمات القسم «ب» تبعًا لأي نظام اشتقاق. ولقد كان في الإمكان أن تصبح الكلمات التي يكون منها هذا القسم أي نوع من أنواع الكلام، كما كان يمكن وضعها بأي نظام، أو تجزئتها بأية طريقة تجعلها سهلة النطق، مع الإشارة إلى المصدر الذي استمدت منه. ففي كلمة crimethink مثلًا، أتت كلمة think ومعناها «جريمة فكرية» في المرتبة الثانية، على حين أنها أتت في المرتبة الأولى في كلمة «thinkpol» (بوليس الفكر)، وفقدت كلمة «police» المقطع الأخير منها في الكلمة الثانية. ونظرًا للصعوبة الكبرى في الاحتفاظ بالترخيم الصوتي، كانت التراكيب الشاذة أكثر شيوعًا في كلمات القسم «ب» منها في كلمات القسم «أ»، مثال ذلك أن صفات كلمات «Minitrue, Minipax, Miniluv» كانت على التعاقب «Minitruthful, minipeaceful, minilovely» لأن مقاطع «trueful, paxful, loveful» كانت صعبة النطق قليلًا، إلا أنه كان في الإمكان- من ناحية المبدأ- التصرف في جميع كلمات القسم «ب». وكان يتصرف فيها جميعًا بطريقة واحدة.

ولقد كانت بعض كلمات القسم «ب» تحمل معانٍ عميقة بحيث لا يستطيع أي شخص لم يسيطر على اللغة تمامًا أن يدركها. خذ مثلًا هذه الجملة المأخوذة من مقال افتتاحي بجريدة التايمز «oldthinkers unbellyfeel Ingsoc.» فإن أقصر شرح لهذه العبارة

باللغة القديمة هو: «those whose ideas were formed before the Revolution cannot have a full emotional understanding of the principles of English Socialism.» أما معناه باللغة العربية فهو «إن أولئك الذين تكونت أفكارهم قبل الثورة لا يمكن أن يتوافر لهم الإدراك العاطفي الكامل لمبادئ الاشتراكية الإنجليزية». بيد أن هذه الترجمة ليست كافية، فلكي نفهم المعنى الكامل للعبارة المذكورة أعلاه باللغة الجديدة، يجب أن تكون لدى المرء فكرة واضحة عن المقصود من كلمة «أنجسوك» وفوق ذلك، فإن الشخص الملم إلمامًا تامًّا بالاشتراكية الإنجليزية هو الذي يستطيع أن يقدر القوة الكاملة التي تعني القبول الحماسي الأعمى الذي يصعب تصوره اليوم، أو كلمة «bellyfeel» لكلمة التي تختلط اختلاطًا معقدًا بفكرة الخبث والانحلال. بيد أن بعض كلمات «oldthink» أو التفكير القديم لم يكن الغرض منه «oldthink» خاصة من كلمات اللغة الجديدة مثل التعبير عن معان بقدر القضاء على هذه المعاني. ولم تكن الصعوبة الكبرى التي واجهت واضعي معجم اللغة الجديدة ابتداع كلمات جديدة، وإنما كانت التأكد من معانيها بعد ابتداعها، أو بعبارة أخرى، التأكد من مجموعة الكلمات التي أدى إيجاد الكلمات الجديدة إلى إلغائها.

وكما سبق أن رأينا فيما يتعلق بكلمة «free» فقد احتفظ أحيانًا ببعض الكلمات التي تنطوي على معانٍ منحرفة، وذلك لسهولة الاستعمال، ومن ثم جرى تطهيرها من المعاني غير المرغوب فيها. وهناك كلمات لا عد لها ولا حصر لم يعد لها وجود مثل كلمات: «honour, justice, morality, internationalism, democracy, science, religion» إذ أصبحت هناك كلمات أخرى قليلة (غير عاطفية) تعبر عن معناها. وبهذا ألغت وجودها. فجميع الكلمات التي كانت تجتمع حول آراء تتعلق بالحرية والمساواة مثلًا، كانت تنطوي بينما كانت جميع الكلمات التي تجتمع حول آراء «crimethink» تحت كلمة واحدة هي أما التزام .«oldthink» ذات غايات أو حول أشياء معقولة تنطوي تحت كلمة واحدة هي الدقة الشديدة فكان أمرًا خطرًا، فقد كان كل ما هو مطلوب من عضو الحزب أن تكون وجهة نظره شبيهة بوجهة نظر ذلك اليهودي القديم الذي لم يكن يعرف أكثر من أن جميع الشعوب، فيما عدا شعبه، كانت تعبد «آلهة مزيفة». فهو لم يكن بحاجة إلى أن يعرف أن هذه الآلهة كان يطلق عليها أسماء بآل، وأوزوريس، ومولاخ، وأشتاروت وما شابهها، من المحتمل أنه كلما قلت معرفته، كان ذلك دليلًا على عمق إيمانه. كان يعرف الرب ووصاياه، ومن ثم فقد كان يعرف أن جميع الآلهة الأخرى التي تحمل أسماء أخرى كانت آلهة مزيفة. وبنفس الطريقة كان عضو الحزب يعلم مما يتركب السلوك الصحيح، وكان يعرف بكلمات غامضة شديدة التعميم ما هي أنواع الانحراف عنه، فحياته الجنسية مثلًا كانت تنظمها «goodsex»أي الفجور الجنسي) و) «sexcrime» تمامًا كلمتان من اللغة الجديدة هما تشمل جميع الانحرافات الجنسية، كالزنا، واللواط، «sexcrime» أي العفة). وكانت كلمة) وغيرهما، بالإضافة إلى العلاقة الجنسية الطبيعية التي تمارس من أجل ذاتها. ولم تكن هناك حاجة لتعداد هذه الانحرافات على حدة، طالما كانت جميعًا ذنوبًا عقوبتها الإعدام بلا استثناء. أما كلمات القسم (ج) التي كانت تتألف من الكلمات العلمية والفنية، فكان من الضروري أن تعطي أسماء خاصة لبعض الانحرافات الجنسية المعينة، ولكن المواطن العادي وبعبارة «goodsex» لم يكن بحاجة إلى هذه الكلمات. كان يعرف ما هو المقصود بكلمة أخرى كان يعلم أن هذه الكلمة تعني العلاقة الجنسية العادية بين الرجل وزوجته، وأن الغرض الوحيد من قيام هذه العلاقة هو إنجاب الأطفال، بشرط ألا تشعر المرأة بأية لذة جريمة جنسية). ولقد كان من النادر) «sexcrime» نفسية جسمانية، وما عدا ذلك كانت إمكان تتبع فكرة منحرفة في اللغة الجديدة إلى ما هو أبعد من أنها ضالة؛ ذلك لأن الكلمات التي كانت تعبر عما يتجاوز هذا المعنى لم يكن لها وجود.

ولم تكن هناك كلمة بين كلمات القسم «ب» يمكن أن تؤدي معنى صريحًا مثال كلمة

وزارة) «minipax» المعسكر المرح.. معسكر العمل الإجباري) أو كلمة) «joycamp» السلام أي وزارة الحرب) كانت تؤدي المعنى المضاد لها. ومن الناحية الأخرى كانت بعض كلمات هذا القسم توضح فهمًا صريحًا غاضبًا للطبيعة الحقيقية لمؤتمر أوشانيا. ومن الأمثلة على ذلك كلمة «prolefeed» ومعناها: التسلية المنحطة والأنباء الكاذبة التي كان الحزب يقدمها للجماهير. وكانت هناك كلمات أخرى تحمل إحساسات مختلفة أو متعارضة، فهي إذا طبقت على الحزب و «good» تحمل معنى «bad»إذا طبقت على أعدائه. ولكن كان هناك- بالإضافة إلى ذلك- عدد كبير من الكلمات التي كانت تبدو من أول نظرة، كمجرد كلمات مختزلة ولكنها لم تكن تستمد معناها من لونها العام وإنما من تكوينها.

وهكذا كان كل شيء له أهمية سياسية أو يمكن أن تكون له هذه الأهمية ينطوي تحت كلمات القسم «ب». وبناء على ذلك اختزل اسم كل منظمة أو مجموعة من الناس أو مذهب سياسي أو دولة أو مؤسسة أو مكان عام إلى الشكل المألوف، أي إلى كلمة واحدة بسيطة سهلة النطق مكونة من أقل عدد من المقاطع التي تؤدي إلى الاحتفاظ بأصل الاشتقاق. ففي وزارة الصدق مثلًا، كان يطلق على قسم السجلات، وهو القسم الذي كان ونستون يعمل به، اسم «Recdep» وعلى قسم القصص اسم «Ficdep» وعلى قسم برامج التليفزيون اسم «Teledep» وهلم جرّا. ولم يتبع هذا الاختصار بغية اقتصاد الوقت فقط، فحتى في العقود الأولى من القرن العشرين، كانت الكلمات والعبارات المتداخلة هي الصفات المميزة للغة السياسية. وقد لوحظ أن الميل إلى استعمال الكلمات المختزلة التي من هذا القبيل ظاهر بشكل واضح في الدول التي تحكم حكمًا مطلقًا والمنظمات الديكتاتورية، وكانت الأمثلة على ذلك هي النازي والجستابو والكومنترن وأمبريكور واجيتبروب.

وفي أول الأمر كان التطبيق يجري كما لو كان أمرًا غريزيًا، ولكن هذا التطبيق كان يجري- في اللغة الجديدة- طبقًا لهدف واحد معين. وقد لوحظ أنه عند اختصار اسم من الأسماء، كان هذا الاختصار يحرص على تضييق نطاق معنى هذا الاسم وتعديل هذا المعنى وذلك بحذف أغلب الارتباطات والذكريات التي كانت تتصل بالكلمة وإلا لأصبحت ملازمة لها. فكلمة الشيوعية الدولية «Communist International» مثلًا كانت ترسم صورة كاملة للإخاء الإنساني، والأعلام الحمراء، والحواجز، وكارل ماركس، والحزب الشيوعي بباريس. ومن الناحية الأخرى فإن كلمة كومنترن توحي بمنظمة شديدة التماسك، وهيئة لها أهدافها المحددة، إنها تشير إلى شيء يمكن معرفته بسهولة، ومحدد من ناحية الغرض كتحديد كلمة مقعد أو منضدة.. كما أنه يمكن النطق بكلمة «كومنترن» بغير أن يكوّن الإنسان فكرة ما، على حين أن (الشيوعية الدولية) عبارة يضطر الإنسان إلى التفكير فيها ولو للحظات قبل أن يتذكرها ويتمكن من النطق بها. وبنفس الطريقة فإن المعاني المرتبطة التي تثيرها كلمة مثل «Minitrue» أقل عددًا وأكثر قابلية للسيطرة عليها من تلك المعاني التي تثيرها كلمات «Ministry of Truth» ولم يكن ذلك هو المبرر الوحيد لما لجأت إليه اللغة الجديدة من اختزال الكلمات واختصارها، كلما كان ذلك مستطاعًا، بل كان الهدف أيضًا هو بذل كل جهد لأن تكون الكلمات سهلة النطق.

كانت العناية التي وجهت إلى سهولة النطق عناية كبيرة فاقت كل عناية أخرى، عدا العناية بدقة المعنى. وكانت قواعد اللغة القياسية تتعرض للإهمال كلما دعت الضرورة لذلك، وليس من شك في أن ذلك كان صوابًا طالما أن الهدف، وبصفة خاصة في النواحي السياسية، كان الوصول إلى كلمات قصيرة ذات معنى محدد يمكن النطق بها سريعًا، ولا تثير إلا أقل قدر من الأصداء في عقل المتكلم. ولقد ازدادت كلمات القسم «ب» قوة نظرًا لأنها كانت متشابهة تقريبًا. فالكلمات التالية جميعًا وهي «goodthink, Minipax, prolefeed, sexcriem, joycamp, Ingosoc, bellyfeel, thinkpol» وكثيرات

أخريات لا حصر لها كانت كلمات مكونة من مقطعين أو ثلاثة مقاطع وزع ضغط النطق فيها بين المقطعين الأول والأخير بالتساوي. وقد أدى استعمالها إلى تشجيع ظهور أسلوب من الحديث أشبه بالثرثرة المتقطعة البغيضة. وهذا هو بالضبط ما توخاه واضعو اللغة. فقد كان هدفهم أن يجعلوا الحديث، وبخاصة الحديث الذي يتناول موضوعًا يتطلب تبادل الرأي وإعمال الفكر، بعيدًا عن العاطفة على قدر الإمكان. أما فيما يتعلق بأغراض الحياة اليومية، فقد كان من الضروري أحيانًا، أن يفكر الإنسان قبل النطق، بيد أنه كان ينبغي على عضو الحزب الذي يطلب إليه أن يصدر حكمًا سياسيًّا أو أخلاقيًّا أن يكون قادرًا على بعث وتقديم الأفكار الصحيحة بطريقة أوتوماتيكية، أشبه بتلك التي يتبعها المدفع سريع الطلقات عندما يقذف بطلقاته السريعة. ولقد كان تدريب عضو الحزب يؤهله لذلك، كما أن .اللغة كانت له أداة فعالة سليمة

كذلك تركيب الكلمات- بما يصحبها من صوت أجش، وقدر من الكآبة يتفق مع روح .الاشتراكية الإنجليزية- كل ذلك كان عوامل مساعدة على القيام بهذه العملية خير قيام

ولا تنسى أن ضيق مجال الاختيار بين الكلمات كان عاملًا مساعدًا أيضًا للمتحدث، فبالنسبة للغة الإنجليزية «القديمة» كانت كلمات اللغة الجديدة محدودة جدًّا، وكان القائمون على أمرها لا يفتأون يبتدعون وسائل جديدة للإقلال من الكلمات. حقًّا، لقد كانت اللغة الجديدة تختلف عن جميع اللغات الأخرى من حيث إن كلماتها كانت لا تفتأ تتناقص كل عام بدلًا من أن تتزايد، إذ كان الرأي أنه كلما ضاق مجال الاختيار ضاق مجال الإغراء باستعمال الفكر. وكان المأمول أن تتمكن اللغة الحديثة في النهاية من جعل الكلام يصدر من الحنجرة بغير تدخل مراكز المخ العليا على الإطلاق. وقد اعترف بهذه الغاية صراحة ومعناها «إصدار أصوات كصوت البطة في duckspeak في اللغة الجديدة بكلمة مثل غيرها من كلمات القسم «ب» تشتمل على duckspeak الحديث». ولقد كانت كلمة معانٍ مختلفة أو متعارضة. وكان يشترط أن تكون الأفكار التي (يبطبط) بها من ذلك النوع الذي يثبت الإخلاص للحزب، ولا تشتمل على أي شيء غير المديح للحزب. ومن ثم فعندما oubleplusgood أشارت جريدة التايمز إلى أحد خطاب الحزب وقالت عنه إنه duckspeaker فلقد كانت تمتدحه بحرارة وتقدير.

.كلمات القسم «ج»: كانت كلمات القسم «ج» مكملة لكلمات القسمين الآخرين

وكانت تتكون كلية من الألفاظ العلمية والفنية البحتة التي كانت تشبه المصطلحات العلمية المستعملة الآن، واستمدت تركيبها من نفس الجذور، وإن بذلت العناية المعتادة لتحديدها بشدة وتجريدها من المعاني غير المرغوب فيها. وكانت تتبع نفس القواعد النحوية التي كانت متبعة في كلمات القسمين الآخرين، وكانت كلمات قليلة جدًّا تتداول في الأحاديث اليومية العادية أو الأحاديث السياسية. وكان كل عالم أو خبير فني يستطيع أن يعثر على جميع الكلمات التي يحتاج إليها في القائمة المخصصة لفنه أو مهنته. ولكنه ندر أن يعرف غير كلمات متفرقة من تلك المسجلة في القوائم الأخرى، وذلك لأن الكلمات المشتركة في جميع القوائم كانت شديدة الندرة، ولم تكن هناك كلمات يعبر بها عن وظيفة العلم باعتبارها عادة عقلية أو طريقة للتفكير، بغض النظر عن فروعه الخاصة. وفي الواقع العلم»، وذلك لأن أي معنى يمكن أن تؤدي» Science لم تكن هناك كلمة تعبر عن كلمة .(إليه هذه الكلمة كان ينطوي تحت كلمة أنجسوك (الاشتراكية الإنجليزية

مما تقدم، يتبين أن التعبير عن الأفكار غير المخلصة للحزب كان مستحيلًا باللغة الجديدة اللهم إلا في النادر القليل. بالطبع، كان من المستطاع النطق بكلمات تنطوي على الضلال الشديد، فكان من المستطاع مثلًا أن يقول الإنسان إن الأخ الأكبر ليس طيبًا، بيد أن هذا القول، الذي كان ينطوي على السخف إذا سمعه أحد الرجال شديدي الإخلاص لمبادئ

الحزب، لا يمكن تأييده بالحجة المعقولة؛ لأن الكلمات اللازمة لذلك لم تكن متاحة. أما الأفكار المعادية «لأنجسوك» فلم يكن من المستطاع التعبير عنها إلا بشكل غامض غير واضح، وكان في الإمكان شرحها بطريقة واحدة فقط هي الالتجاء إلى الكلمات والعبارات الطويلة التي كانت تتجمع معًا لتشهد ضد جماعات من الضالين بغير تحديد. وواقع الأمر أن الإنسان كان يستطيع استخدام اللغة الجديدة لأغراض غير مستقيمة بالالتجاء سرًّا إلى ترجمة بعض الكلمات إلى اللغة القديمة. مثال ذلك: كانت عبارة «All Mans are equal» من العبارات الممكنة في اللغة القديمة. إنها لا تحتوي على أي خطأ نحوي ولكنها تعبر عن بهتان واضح- كقولك إن جميع الرجال متساوون في الحجم أو الوزن أو القوة. أما فكرة المساواة السياسية فلم يعد لها وجود، وفي عام 1984 عندما كانت اللغة القديمة لا تزال وسيلة الاتصال الوحيدة، كان الخطر نظريًّا كامنًا في أن الإنسان قد يتذكر معاني الكلمات في اللغة القديمة، عندما يستعملها في اللغة الجديدة، ولم يكن البعد عن ذلك بالأمر العسير على أي شخص قوي في التفكير المزدوج، ولكنه كان من المتوقع عدم احتمال حدوث أمر كهذا بعد جيلين.

فالشخص الذي ينشأ وهو لا يعرف غير اللغة الجديدة فقط لن يعلم إن كلمة «مساواة» كان لها في أحد الأيام معنى ثانويًا هو «المساواة السياسية»، أو أن الحرية كانت تعني «الحرية الفكرية»، مثل ذلك مثل الشخص الذي لم يسمع كلمة الشطرنج إطلاقًا، فهو لا يعرف بداهة المعنى المقصود بكلمتي الملك والرخ.. ولسوف تكون هناك جرائم وأخطاء كثيرة يستحيل على الإنسان ارتكابها؛ لأنها لا اسم لها، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يتصورها. ولقد كان من المتنبأ به أن الصفات المميزة للغة الجديدة تصبح أكثر ظهورًا بمرور الزمن- حيث تقل كلماتها أكثر فأكثر- وتصبح معاني الكلمات أشد تحديدًا، وتتضاءل احتمالات إساءة استعمال هذه الكلمات.

وعندما يكتب التفوق للغة الجديدة على اللغة القديمة بصفة نهائية، تكون آخر حلقة تصل الناس بالماضي قد استؤصلت. فالتاريخ أعيدت كتابته فعلًا، بيد أن شذرات من أدب الماضي ما زالت موجودة هنا وهناك بغير أن تتمكن الرقابة من الإشراف عليها إشرافًا تامًّا، وطالما كان في استطاعة أي شخص أن يحتفظ بمعرفته للغة القديمة، فإنه كان يستطيع أن يقرأ هذه الشذرات. أما في المستقبل، فإذا فرضنا أن هذه الشذرات ظلت موجودة، فإن أحدًا لن يستطيع فهمها أو ترجمتها..

فقد أصبح من المستحيل ترجمة أية فقرة مكتوبة باللغة القديمة ما لم تشر إلى عملية فنية معينة أو إلى عمل من الأعمال اليومية العادية، أو كانت من الأشياء الدالة على استقامة الرأي والعقيدة (وفي هذه الحالة تستخدم كلمة goodthinkful باللغة الجديدة). ومن الناحية العملية كان ذلك معناه أن أي كتاب وضع قبل حوالي عام 1960 يمكن أن يترجم ككل. أما الأدب السابق للثورة فكان يمكن أن تجري عليه الترجمة المعنوية- وبعبارة أخرى يتعرض لتعديل المعنى وتعديل اللغة- خذ مثلًا الفقرة المشهورة من إعلان الاستقلال:

«إننا نعتبر هذه الحقائق معبرة عن نفسها بنفسها، وتلك أن جميع الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقًا معينة لا يمكن حرمانهم منها، ومن بينها الحياة والحرية والبحث عن السعادة. ولتأمين هذه الحقوق وجدت الحكومات بين الناس، حكومات تستمد سلطانها من تأييد المحكومين لها.

وكلما أصبح أي شكل من أشكال الحكومة هادمًا لهذه الغايات، فإن من حق الشعب أن يعدله أو يلغيه ويقيم حكومة أخرى....».

لقد كان من المستحيل ترجمة هذه الفقرة باللغة الجديدة مع الاحتفاظ بالمعنى والروح

اللذين كانا مجسمين فيها باللغة القديمة. ومن ثم فإن أقرب عبارة للتعبير عن هذه الفقرة المطولة باللغة الجديدة هي الكلمة الوحيدة «crimethink».

حقًّا لقد كان من المستحيل ترجمة مثل هذه الفقرة باللغة الجديدة مع الاحتفاظ بالمعنى الموجود في الأصل. بيد أن اعتبارات الكرامة والهيبة جعلت من المرغوب فيه الاحتفاظ بذكرى أشخاص معينين من القدامى، مع الحرص على جعل أعمالهم متلائمة مع فلسفة الاشتراكية الإنجليزية، ومن ثم فإن إنتاج كتاب كشكسبير وميلتون وسويفت وبايرون وديكنز وغيرهم كان في طور الترجمة، وعندما تنتهي هذه العملية فسوف تباد كتبهم الأصلية، كما أبيد كل شيء آخر من أدب الماضي.

ولقد كانت هذه الترجمة عملية بطيئة شاقة، ولم يكن من المتوقع أن تنتهي قبل العقد الأول أو الثاني من القرن الواحد والعشرين. وكانت هناك أيضًا كتب «أدب المنفعة» - الكتب الفنية الموجزة التي لا يمكن الاستغناء عنها وما أشبهها- وقد عوملت بنفس الطريقة. وكانت إتاحة الوقت الكافي للقيامة بالترجمة الكاملة هي التي أدت إلى تحديد عام 2050 كموعد لاستعمال اللغة الجديدة وحدها دون سواها.

الفهرس